يوليوس ليبس

أصل الأشياء

بدايات الثقافة الإنسانيّة

ترجمة : كامل اسماعيل

اسم المؤلف : يوليوس ليبس
عنوان الكتاب : أصل الأشياء
بدايات الثقافة الإنسانية
المترجم : كامل اسماعيل
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة١٩٨٨
الطبعة الثانية : سنة ٢٠٠٦
الحقوق العربية محفوظة

Author: Julius Lips
Title : Eine Kulturgeschichte Des Menschen
"Vom Ursprung Der Dinge"
Translator:Kamel Ismail
Al- Mada P.C
First Edition : 1988
Second Edition : 2006
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٢٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

يوليوس ليبس

أصل الأشياء

بدايات الثقافة الإنسانيّة

ترجمة : كامل اسماعيل

الكتاب والمؤلف

الكتاب الذي بين أيدينا عبارة عن مجموعة من الدراسات في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تلقي أضواء على التاريخ الثقافي للإنسان، مسترشدة بنتائج الدراسات الميدانية التي قام بها مختصون في علم الأجناس في مختلف قارات العالم بين شعوبها الأصلية. وتختص كل من هذه الدراسات الخمس عشرة التي يضمها الكتاب بمعالجة ظاهرة اجتماعية معينة، أو جانب هام من حياة الإنسان منذ وجوده، وتتبع تطور هذه الظاهرة أو هذا الجانب عبر التاريخ، وإلقاء أضواء على عوامل هذا التطور بالأسلوب الوصفي والتحليلي المقارن.

ولئن بدا أن كل فصل من هذه الفصول يعالج مسألة معينة أفرد لها المؤلفون دراسات وأبحاثاً متنوعة، ومن منطلقات ووجهات نظر مختلفة، الا انها بمجموعها تشكل وحدة متكاملة تتناول التراث المادي والفكري للشعوب التي نطلق عليها اسم «بدائية»، كمحاولة للتوصل عن طريق دراستها إلى رسم خط تاريخ المجتمعات الحديثة منذ البدايات الأولى لتشكل المجتمعات، وكذلك لإبراز العناصر الثقافية المشتركة بين مختلف شعوب الأرض.

فالكتاب بهذا المعنى يعتبر مرجعاً أساسياً للمهتمين بعلوم الانثروبولوجيا (الاتنولوجيا) والفولكلور، التي احتلت مواقع متقدمة في العلوم الإنسانية المعاصرة، لأنه يلقي الأضواء على جوانب عديدة نعيشها في حياتنا اليومية، أو تظهر لا شعورياً في سلوكنا الفردي والاجتماعي، فهو دليل عمل لمن أراد دراسة ظاهرة اجتماعية أو فولكلورية، وفي الوقت نفسه مصدر متعة وفائدة للقارئ العادي غير المختص.

وفي الكتاب أيضاً محاولة لإنصاف بعض الشعوب - التي لم ينصفها الباحثون والمؤرخون - عن طريق ابراز فنونها وآدابها وقيمها الاجتماعية وغيرها من مساهمات

في بناء صرح الحضارة الإنسانية. وقد حرص المؤلف على ابراز هذه الجوانب كرد علمي وإنساني منه على طروحات العهد النازي في ألمانيا حول العروق والأجناس التي قسمت الشعوب إلى راقية ومنحطة، أو أنكرت على البعض حتى حقها في الاخوّة الإنسانية.

مؤلف الكتاب هو الباحث الانتروبولوجي الألماني البروفسور «يوليوس ليبس» أستاذ علم الأجناس وعلم الاجتماع في جامعة «كولن» ومدير متحف علم الشعوب في المدينة نفسها، حتى صعود النازية إلى الحكم في ألمانيا.

رغم أن المؤلف ألماني الجنسية والنّشأة الا ان الكتاب صدر أصلاً عام ١٩٤٦ باللغة الانجليزية. ولكن لماذا بالانكليزية أولاً؟ لعل في الأسطر التالية جواباً على هذا السؤال.

في عام ١٩٣٣ طلب من كل عالم في ألمانيا إما أن يفسر نظرياته ونتائج أبحاثه العلمية لتُناسب مع ما يمليه نظام الحكم النازي، أو أن يتبرأ منها ويتحمل هو نتيجة ذلك. لم يختر «يوليوس ليبس» أياً من هذين السبيلين، فاستقال من عمله وغادر ألمانيا قبل أن تبطش به السلطة النازية. فقد شعر آنذاه بما عبر عنه بعد ستة عشر عاماً عندما تسلم رئاسة جامعة لايبزغ قائلاً:

«لم يتعرض علم من العلوم - باستثناء علم القانون وروح القوانين - للتشويه والذل وسوء الاستخدام من قبل التيارات السياسية التي جاء بها الحكم النازي للعالم، كعلم الإنسان وإبداعه. فقد جعل من العلم الذي قام أصلاً للمساهمة الفعالة في تفاهم الثقافات والشعوب، واحداً من أمضى أسلحة الحرب العدوانية. جعل من هذا العلم أداة مسمومة لارتكاب الجرائم السياسية والإنسانية من خلال قسر النظرية وإقحامها في الزعم أن بعض الشعوب ليست إخوة للبشر، بل كائنات من أنواع منحطة».

لم يرض «يوليوس ليبس» أن يشارك في هذه الجريمة. ولم يؤلمه آنذاك ملاحقته وتجريده من جنسيته بقدر ما آلمته حقيقة أنه كان الأستاذ الألماني الوحيد في مجال اختصاصه الذي رفض تدريس النظرية العرقية الهتلرية.

حطّ أول الأمر في باريس وعمل بمساعدة بعد أصدقائه في جامعة السوربون وفي متحف الإنسان، ثم استدعاه كبير علماء الاتنولوجيا في الولايات المتحدة «فرانس بواز»، وهو من أصل ألماني، للعمل في جامعة كولومبيا. بدأ عمله هناك عام ١٩٣٤ واضعاً نصب عينيه هدفين: زيادة معارفه العلمية والنضال ضد النازية. فوضع كل امكاناته تحت تصرف المهاجرين الألمان في نيويورك وواشنطن وباريس.

قبل أن يغادر ألمانيا قام برحلات دراسية إلى شمال افريقيا وعاش فترة بين «الطوارق» وغيرهم من الشعوب الافريقية، يدرس حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وألف عدة كتب تتناول هذه المواضيع. منها كتاب عن المصائد والفخاخ عند الشعوب البدائية. وآخر عن العلاقات القانونية لدى سكان الكاميرون. واشتهر على النطاق العالمي من خلال نظريته عن «شعوب الجني» أي الشعوب التي تجني المحاصيل البرية بشكل دوري ولكن دون أن تزرعها، واعتبر هذا الأسلوب نمطاً اقتصادياً خاصاً.

وفي أميركا بدأ عام ١٩٣٥ رحلاته العلمية بين الهنود الحمر في المناطق شبه القطبية ومنطقة لابرادور. فكتب العديد من الدراسات العلمية عن حياة الهنود الحمر وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية وعاداتهم وتقاليدهم. وكذلك فعلت زوجته ورفيقة دربه السيدة البروفسورة «ايڤا ليبس» التي أغنت المكتبة الألمانية بكتبها وأبحاثها عن الهنود الحمر.

وبعد أن ذاعت شهرته كعالم اتنولوجي ورائد من رواد النضال من أجل المساواة العرقية استدعي للعمل في أكبر جامعة للزنوج في العالم وهي جامعة «هوارد» في واشنطن. لكن سرعان ما اتضح أن هذه المؤسسة العلمية ليست أكثر من أداة بيد الساسة البيض لخلق بورجوازية زنجية تسترشد بروح الامبريالية الأميركية. استطاع «يوليوس ليبس» أن يؤسس فيها قسماً للانتروبولوجيا وضعه بين أيدي تلامذة مجدين، وعاد إلى جامعة كولومبيا وإلى رحلات علمية أخرى بين الهنود الحمر.

بعد انهيار نظام الحكم النازي عرضت عليه عدة جامعات أوربية العمل فيها لكنه ترك عمله في أميركا وتخلى عن الجنسية الأميركية وعاد ليضع نفسه تحت تصرف وطنه الذي دمرته الحرب. لم يُطِل المكوثَ في «كولن» التي خرج منها إلى المهجر بل انتقل إلى لايبزغ وتسلم كرسي الاستاذية لمادة علم الشعوب والاجتماع المقارن، وسرعان ما أوصلته ثقة زملائه إلى سدة رئاسة جامعة لايبزغ. وبعد معاناة طويلة مع المرض توفي في /٢١/ كانون الثاني ١٩٥٠.

بعد وفاته قامت رفيقة دربه البروفسورة «ايفا ليبس» بنشر مؤلفاته التي لم تنشر، وترجمة ما نشر منها بالانكليزية إلى الألمانية، ومنها هذا الكتاب.

في مقدمته للطبعة الأولى من هذا الكتاب كتب «يوليوس ليبس»:

«إنني على ثقة أن مهمة عالم الأجناس في واقعنا المعقد هذا هي أن يضع علمه في خدمة هدف التفاهم الأفضل بين الثقافات والشعوب. ان الارث الذي انتقل إلينا من الشعوب البدائية هو تراث مشترك لجميع الشعوب والأمم. يجب أن تساهم القاعدة الثقافية التي تبنيها حقائق علم الشعوب في الاقتراب من الهدف النهائي، الذي هو خلق عالم متفاهم وموحد. فلا يمكن أن نفرق بين المخترعين والمكتشفين الأوائل الذين أبدعوا أقدم الممتلكات الثقافية للإنسانية، حسب لون بشرتهم أو انتمائهم القومي أو الديني، الذين طواهم النسيان. ومع ذلك فقد ساهموا في سعادة البشرية أكثر من رجالات عصرنا الراهن».

وأمام النعش الذي سجي عليه جثمان «يوليوس ليبس» تحدث عميد كلية الفلسفة في جامعة لايبزغ البروفسور «أنطون أرنولد» قائلاً:

«كل إنسان فانٍ، ولكن الأمانة التي أثبتها في أعماله، تظل خالدة».

المترجم

الفصل الأول

المسكن والموقد

أ - هل كانت الكهوف والمغاير المسكن الأول للإنسان؟

كلمة «بيت» أو «مسكن» مقدسة في جميع اللغات. وصراع الحياة «خارجه» يعني صراعاً أبدياً مع العالم الخارجي. فالبرد والحر والمطر وتأثيرات الأشياء والناس تهدد هناك على الدوام خطط وآمال وواجبات الإنسان. أما مَنْ يكن في بيته فيشعر بالسكينة والاطمئنان بين أحبائه، يمكنه أن يرتاح قرب الموقد الدافئ. وليس هناك من شعب على وجه الأرض لا ينعم ببركة المسكن، مهما كان هذا المسكن متواضعاً. وعندما يهبط الظلام يغمض البشر في جميع البلدان ومن مختلف العروق عيونهم لينعموا بالراحة. ومهما كان نوع رؤياهم الفلسفية التأملية للكون فان الجميع يبحثون عن الراحة من متاعب العالم بروح الشعر القديم القائل:

يا رب، ابعد بمكنسة جيدة

أرواح الأشباح والكائنات المسحورة

ولا تظهر لنا أبداً

حيوانات كريهة بقوائم طويلة

أو أشياء تسقط مدوية

يا رب! أنقذنا من كل ذلك!

إن الرغبة في الوقاية من القوى المجهولة متأصلة في أعماق الشعوب البدائية، التي تعيش في عالم الأشباح الحاضرة دائماً والأشياء المسكونة، إلى أبعد ما يمكن لإنسان متحضر أن يتصوره.

وكلما كان شعب من الشعوب مغرقاً في القدم والبدائية، كانت المنطقة التي يعتبرها مسكناً له أكثر امتداداً. ولذلك فان بيت الشعوب الأكثر بدائية لا يعني تلك المناطق التي يأوي إليها مؤقتاً، والتي تقي أسرته من الرياح والأمطار، ويقضي فيها الليل، وإنما أكثر ما تعنيه هي مجمل أرض القبيلة مترامية الأطراف. ويعاقب بالموت كل دخيل يجرؤ على أن يطأ هذه الأرض المقدسة دون السماح له بذلك. فالموطن ليس هو المنطقة التي تنصب فيها الأسرة مخيمها من قبيل الصدفة، وانما كل الأراضي التابعة للقبيلة. فالأرض للجميع، والجميع لأرض القبلية.

والآن نتساءل: كيف كانت تبدو أقدم المساكن التي شيدها الإنسان؟ وهل كان إنسان الكهوف - كما تظهره غالباً الرسوم الكاريكاتورية الحديثة - بالفعل أول مالكي البيوت؟ وجوابنا على ذلك هو النفي القطعي. فحقيقة ان كميات من اقدم الأدوات التي استخدمها الإنسان قد وجدت في الكهوف، والتي استطاعت أن تقاوم فيها فعل آلاف السنين، قادت بعض الساذجين إلى الاعتقاد - خطأ - ان الكهوف كانت الحل الأول لأزمة السكن المستفحلة ربما منذ عصور ما قبل التاريخ. ويقوم هذا الزعم على التقليل من شأن موهبة الاختراع عند الإنسان، وعلى عدم مراعاة أثر العوامل المناخية والجغرافية على اختيار المسكن.

فوجود كهوف ومغاور في منطقة ما لا يعتبر شرطاً أساسياً لقيام أول المساكن في تاريخ الإنسان. بل على العكس فقد وجدت في مناطق لاكهوف فيها شواهد على وجود مساكن تعود لعصور ما قبل التاريخ أكثر من تلك التي في المناطق الغنية بمثل هذه الكهوف.

وحيث ورد أن الكهوف والمغاور كانت تستخدم كمساكن، كان هناك دائماً سبب وجيه لمثل هذا القول، سواء أكان ذلك بسبب قسوة المناخ ابان عصر الجليد (خلال عصر ما يسمى بـ «موستريان» مثلاً) أو متطلبات قنص الحيوانات البرية التي توجد في مناطق جبلية معينة بكميات وافية. فإنسان ما يسمى بـ «ثقافة العظام» الأوربية، الذي أكثر ما كان يصطاد دب الكهوف، كان يطارد هذا الحيوان فوق جبال الألب العالية، قام ببناء مسكنه هناك.

ويوجد في «فاتيس» - في سويسرا حالياً - أعلى مسكن من هذا النوع معروف باسم «ثقب التنين»، يبلغ ارتفاعه عن مستوى سطح البحر /٢٤٤٥/ متراً. ولم يسكن

معاصرو صيادي الألب هؤلاء، الذين تعيش طرائدهم في المناطق السهلية، في الكهوف. فعلى سبيل المثال ليس هناك أية اشارة على أن قبائل ثقافة «بري - شيلين» Prä-Cheléen، التي قامت ابان العصر الجليدي، قد سكنت في الكهوف. فالحياة في الكهوف كانت إذن اما ضرورة عابرة أو على الأغلب ظاهرة ثانوية للسكن في بيوت شيدتها يد الإنسان. وتكشف أشهر كهوف ما قبل التاريخ التي اكتشفها ووصفها علماء حديثون، وخاصة الكهوف الموجودة في فرنسا وايطاليا واسبانيا، عن حقيقة لها أهميتها، وهي انها لم تكن مكرسة للسكن العائلي بالدرجة الأولى، وانما كبيوت جماعية أو - ان صحت التسمية - ككنائس.

وبينما استخدمت الفراغات الموجودة قرب مدخل الكهف في بعض الأحيان كمأوى للسكن، تُظهر الممرات والنتوءات الداخلية رسوماً جدارية دينية وسحرية. كما تؤكد بقايا المذابح وجماجم الحيوانات المعروضة فيها، بوضوح، أن الأمر يتعلق بأماكن لاقامة الطقوس.

فالأقسام الأمامية فقط من الكهوف كانت تستخدم في بعض الأحيان لغرض السكن، وحتى أن الغرفة تحت الصخرة التي تغطي مدخل الكهوف هي التي كانت مفضلة للسكن. ومن الشعوب العديدة التي ما تزال في عصرنا هذا تعيش المستوى الحضاري لعصر الجليد تفضل بعض قبائل جزيرة «سيلان» أو «سيليبس» عيشة الكهوف، ذلك لأن مناطق سكناها غنية بالكهوف. وهناك قبائل أخرى من المستوى الحضاري نفسه تعيش خلف «واقيات الريح» التي تعتبر أقدم «البيوت» في المناطق الدافئة والتي استخدمها معاصرو إنسان الكهوف في العصر الحجري القديم، إلى أبعد الحدود، للسكن. وبالطبع لم تستطع مادة البناء المصنوعة منه أن تصمد على مدى آلاف السنين، رغم أن واحدة منها قد اكتشفت في منطقة الألزاس.

تتألف «واقية الريح» من جذوع وأغصان وقشور الشجر التي تغرز اما بشكل مستقيم أو دائري في الأرض. وبإضافة العشب والشوك والطحالب وغيرها تغطى باحكام لتصبح كتيمة وبالتالي واقية من الرياح والمطر.

وتشكل «واقية الريح» مسكناً لشعوب الالتقاط والقنص، التي تضطر بسبب نمط حياتها الاقتصادية، إلى التنقل والترحال فوق مناطق مترامية الأطراف، كالشعوب الاسترالية، والتسمانية المنقرضة، والبوشمن في افريقيا وبعض الهنود الحمر في

الأميريكيتين. فهذه القبائل التي تطارد الحيوانات وتقضي حياتها بحثاً عن غذائها الرئيسي مثل الأعشاب والجذور والثمار البرية، تحتاج إلى مساكن سهلة التشييد وبالتالي سهلة الهدم.

فعندما تبدأ عدة عائلات حملة قنص مشتركة، فغالباً ما تبني عدة «واقيات رياح» إلى جانب بعضها البعض. وكثيراً ما يبني قناصو قبيلة «بوشمن» واقيات مؤقتة أثناء حملة القنص، بينما مساكنهم في صحراء كالاهاري مبنية من مادة صلبة باعتبارها مساكن دائمة. وتقوم بقية الشعوب ذات النمط الاقتصادي المشابه ببناء مساكنها، سواء الدائمة أو المؤقتة، من المادة التي توفرها البيئة، وتتناسب مع الظروف المناخية.

ولكن أقدم المساكن التي شيدتها يد الإنسان قد حددت الشكلين الرئيسيين اللذين تطورت عنهما المساكن فيما بعد، ألا وهما: الكوخ الدائري أو على شكل خلية النحل، ثم البيت المستطيل. وغالباً ما تفضل الشعوب البدائية المساكن من النوع الأول، أي الكوخ الدائري، وهذا ما نراه لدى الاستراليين القدماء ولدى العديد من الشعوب الافريقية والأميركية.

ويتميز هذا النوع من المساكن بتقنية بناء بسيطة تقوم على ربط واقيتي رياح معاً على شكل نصف دائرة. بينما يقوم المبدأ التقني في النوع الثاني على توازي قوائم منصوبة في الأرض يربط بينها سقف.

ولكن «واقية الريح» وبقية أشكال البيوت التي تطورت عنها، لا تجدي إلا في المناطق الدافئة. أما في المناطق الباردة فيجب أن يكون مسكن قبائل الصيد أيضاً سهل التركيب، وفي الوقت نفسه يجب أن يكون مصنوعاً من مادة توفر وقاية كافية من الريح والبرد. ولذلك فان مساكن الاسكيمو ليست سوى أكواخ دائرية من حيث الشكل، لكنها مبنية من قطع الجليد والثلج. ومن خلال ممر طويل مفتوح في نهايته يؤدي من كوخ السكن إلى الخارج يمر الهواء النقي دون أن يسمح بتدفق الرياح القطبية إلى داخل الكوخ.

إن نعمة الدفء التي توفرها مساكن الاسكيمو معروفة جيداً. وقد ذكر الباحث «ستيفانسون» أن «المعسكر الجديد أكثر دفئاً من القديم لأن البيت الثلجي المبني حديثاً هو بيت ثلجي بينما القديم ظل بيتاً جليدياً».

ورغم أن بناء هذه الأكواخ يستغرق وقتاً أطول مما يستغرقه بناء أكواخ المناطق الاستوائية، إلا أنه ليس مع ذلك سوى مقر اقامة مؤقت للصيادين الذين يهجرونه في الربيع، عندما يبدأ ثلج السطح بالذوبان، وتتحول أرض الكوخ صيفاً إلى بحيرة ماء. هذا المسكن نفسه يمكن أن يُستخدم ثانية في الخريف عندما يتجلد الثلج إذا ما شاءت الصدف أن يعود ساكنوه السابقون إلى المنطقة نفسها.

وقد حاول جشع الامبرياليين البيض أن يجذب الاسكيمو وشعوباً بدائية أخرى للعمل في المناجم والمشاريع الأخرى، حيث عرف هؤلاء «نِعَم» الحضارة، وسكنوا في بيوت خشبية أو براكات من الصفيح. ولكن هذا التحول أضر بصحة هؤلاء العمال إلى درجة أن طُلب إليهم أن يعودوا ثانية إلى بيوتهم الثلجية. وكل المحاولات من هذا النوع، سواء في القطب الشمالي أو جنوب افريقيا وغيرها، جاءت بنتائج سيئة على صحة السكان الأصليين.

لقد رأينا أن «واقية الريح»، هذا المسكن الذي كان أول ما شيدته يد الإنسان، هو البداية البسيطة لأنماط السكن الرئيسية: الكوخ الدائري أو الكروي ثم البيت المستطيل ذا الزوايا. وقد تطور عن «واقية الريح» مسكن آخر سهل التشييد والهدم: ألا وهو: الخيمة. ومن أشكال الخيام المختلفة التي شيدتها الشعوب البدائية ومقلدوها من الشعوب المتحضرة تأتي بالدرجة الأولى خيمة البدو، الذين يمارسون اما القنص أو تربية الحيوانات، ولذلك فان مساكنهم يجب أن تكون متحركة، تماماً كأسلوب حياتهم. وتعتبر الخيام عنصراً ثقافياً هاماً لدى الكثير من الشعوب وفي جميع قارات العالم. ولكل من هذه الشعوب طريقته في نصب الخيمة ومادته أو مواده الأولية التي يصنعها منها.

ورغم جميع الامكانات المتاحة لنا الآن لم نستطع أن نخترع مساكن أفضل من الخيمة لايواء القوات العسكرية أو الصيادين، الذين تتطلب طبيعة عملهم سرعة الحركة والتنقل. فما يزال الجنود والكشافة يستخدمونها حتى الآن. كما ان الجوالة يفضلون نصب الخيمة خلال رحلاتهم أو نزهاتهم، وايقاد النار فيها أو قربها دون أن يتبادر إلى أذهانهم قِدَم هذا التقليد. ويعرف الصياد القطبي المتمرس، سواء أكان من الهنود الحمر أو من البيض، كيف يجد له ملاذاً تحت سقف مجدول من جذوع وأغصان الشجر ومغطى بطبقة سميكة من الثلج أو الجليد، يصد عنه رياح الشمال.

تشترك جميع هذه المساكن المؤقتة بميزات خاصة، هي: سهولة بنائها من المادة المتوفرة في الطبيعة، وبالتالي سهولة هدمها عندما لا تعود هناك حاجة إليها. ولكن كيف كان شكل أول الأبنية الثابتة القوية؟ وكيف نشأ البيت الذي نعرفه الآن؟

هناك حقيقة غريبة، لكنها ذات دلالة كبيرة، وهي: أن أول منشآت الأبنية الثابتة لم تُبن كمساكن للناس، بل كان الغرض منها وقاية وحفظ المنتجات النباتية البرية التي تتعلق بحياة القبيلة. فقبائل عديدة وبخاصة في استراليا وأميركا تحصل على غذائها كلياً أو جزئياً من نوع أو من عدة أنواع من النباتات البرية، تشكل بذورها أو جذورها أو درناتها أو ثمارها غذاءهم الرئيسي طيلة العام. هذه الشعوب يمكن أن نطلق عليها اسماً خاصاً هو: «شعوب الجني»، لأنها تجني المحصول البري دون أن تغرس أو تزرع، فلم تتطور لتدخل في عداد الشعوب التي تمارس الزراعة، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن نضعها في عداد شعوب القنص والالتقاط.

تحصل هذه الشعوب على قوتها من النباتات والثمار التي تنمو فوق حقول مترامية الأطراف، وفرتها لها الطبيعة في منطقة سكناها، فهناك تنمو آلاف الأنواع من الجذور البرية الصالحة للأكل. أو قد توجد حقول كبيرة ينمو فيها الأرز البري أو غابات ينمو فيها شجر البلوط. على أية حال فان الشعوب التي تجني هذه المنتجات تهتم بالحفاظ عليها، باعتبارها حيوية لاستمرار بقائها. مثل هذه الشعوب لم تعد تعيش حياة «من اليد إلى الفم» بل تهتم بمستقبل أمنها الاقتصادي، بحيث تجمع محصول النباتات البرية وتصنّعه وتخزنه، لذلك تقيم مخابئ وبيوت تخزين قرب الحقول لحفظ الثمار الثمينة، بينما تقيم هي في مساكن شيدت بطريقة غاية في البدائية. فمخازن الغلال التي شيدتها قبائل جمع البلوط في كاليفورنيا مثلاً مبنية بشكل قوي؛ لها شكل كروي وذات سقوف مغطاة بالحشائش. بينما يعتبر بيت السكن العائلي شُيِّد بهذه الطريقة، نوعاً من الرفاهية.

ومن المنطقي أن لا تفكر الشعوب ببناء المساكن الدائمة إلا إذا استقرت في مكان معين، كي تمارس الزراعة. لذلك استطاعت الشعوب الزراعية دون غيرها بناء مساكن مستقرة بمفهومها المعاصر.

ومع الزمن تطورت عن البيت المستطيل البسيط أشكال أخرى من البيوت بحجوم هائلة، شُيّدت كمساكن قوية ودائمة. وقد ظهر هذا النوع من المساكن، أو «أول»

مسكن ثابت، منذ العصر الحجري الحديث. وما يزال حتى الآن يشكل مسكن الشعوب البدائية المعاصرة، وخاصة بالنسبة لتلك الشعوب المجبرة على انتظار موسم جني المحصول، فاضطرت للانتقال إلى حياة الاستقرار. وتبني الشعوب الزراعية مساكنها بأشكال شتى وبخاصة في المناطق الخاضعة لتأثير ثقافي مختلط. فاما أن تكون هذه المساكن مربعة أو مستطيلة في قاعدتها أو بيضوية الشكل، مع ملاحظة أن هذه المساكن غالباً ذات سقوف على شكل هرم. وفي بعض الحالات الأخرى تُشيّد هذه المساكن فوق الأشجار أو الأعمدة. ولأول مرة يمكن أن نلحظ السعي نحو تشذيب هذا المسكن من الداخل والخارج باستخدام كميات كبيرة ومتنوعة من المواد لتقوية هيكل البناء. فلم تعد الأغصان أو الأخشاب تزيد عن الطول المطلوب لبناء البيت. كما تمزج التربة والغضار أو روث الحيوانات بكل أناة ودقة بالتبن والعشب وغيرها من مواد لتشييد الجدران القادرة على مقاومة عوامل الجو المتغيرة حسب فصول السنة. وغدا هذا البيت المخصص للاقامة الدائمة مليئاً بكميات متزايدة باستمرار من الأدوات البيتية لشتى الاستعمالات. كما أدى استقرار ساكنيه إلى تطوير نوع من الحياة الجماعية. ولأول مرة تعيش مجموعات بشرية أكبر مع وقرب بعضها البعض. كما أدت المصلحة المشتركة والحاجة المتنامية والناتجة عن ذلك للتسلية ومجالس الانس، إلى اقامة أماكن للتجمع، وبالتالي إلى بناء بيوت للمجموعة يعقد فيها الرجال مشاوراتهم، حيث يقدم الموسيقيون ورواة القصص والحكايا عروضهم لإمتاع أفراد القبيلة المجتمعين وتسليتهم.

وكلما أقدم رجل من قبيلة «بانقه» الافريقية على الزواج يبني لنفسه مباشرة بيتين: أحدهما لزوجته وأطفاله الذين سيولدون فيما بعد، والآخر، وهو الأكبر، يصبح مضافة أو بيتاً جماعياً، يقضي فيه الرجل معظم أوقات النهار، ولا يزور بيت زوجته إلا في أوقات الطعام وأثناء الليل، ومع زيادة عدد أفراد العائلة يزيد أيضاً عدد البيوت التي يقطن فيها هؤلاء الأفراد، التي تبدو نظيفة دائماً حتى قارنها الباحث «تيسمان» بـ «بيوت اللعب التي خرجت لتوها من علبتها».

يفضل سكان منطقة نهر النيجر البيوت المستطيلة ذات السطح المستوي التي اقتبسوا بناءها، دون أية تعديلات تقريباً، من شعوب الحضارات الراقية في الأناضول وبلاد فارس والمناطق الوسطى والشمالية الغربية من الهند. وحتى الحجارة المصنوعة من

الطين المجفف بالشمس كانت مستخدمة منذ أقدم العصور، رغم ان الفلاحين البدائيين، الذين عرفوا فن شوي الادوات الفخارية، لم يكونوا قد عرفوا حرق الطوب بعد. كما يلعب الطين - كمادة للبناء - دوراً هاماً في تشييد مساكن بعض قبائل الهنود الحمر مثل الـ «بويبلو» و«نافاهو».

وقد أبدعت موهبة الاختراع لدى هذه الشعوب تنوعاً لا ينضب لأشكال البيوت من خلال المراقبة الذكية للظروف المناخية والامكانات الجغرافية. فقد شيدت المساكن الواقعة قرب البحيرات أو المستنقعات دائماً فوق أعمدة منصوبة. ومثل هذه البيوت موجود حتى في المناطق الجافة، إذ بنيت على هذا الشكل للوقاية من الاعداء والحيوانات البرية بالدرجة الأولى. ويبلغ ارتفاع مثل هذه المساكن في غينيا الجديدة ثلاثة أمتار أو أكثر عن الأرض. وقد عرفت الإنسانية منذ أقدم مراحل تاريخها مثل هذه المساكن التي عثر على بقايا لها تعود لعصور ما قبل التاريخ. فقد وجدت في أوربا في عصر كانت فيه الكهوف ما تزال أمكنة للاقامة المؤقتة، وبخاصة في مناطق تابعة حالياً لسويسرا وألمانيا وايطاليا. وغالباً ما كانت الكلاب تقوم على حراستها. وقد دلت هذه البقايا على حرص الإنسان منذ ذلك الوقت على تأمين حياة مريحة. أما في شرق آسيا والهند الصينية فقد شيدت مثل هذه المساكن على شكل مجموعات منتظمة في صفوف بجانب بعضها البعض. وفي جزيرة «بورنيو» كانت القرية بمجموعها تقطن في بيت واحد من هذه البيوت قد يصل طوله إلى مائة متر. وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن بيوت ضخمة من هذا النوع كانت موجودة في عصور ما قبل التاريخ في أوربا أيضاً وبخاصة في أوكرانيا.

وتشكل البيوت الطويلة المقسمة إلى عدة قاعات نمطاً تقليدياً من أنماط المساكن عند العديد من القبائل الاندونيسية والاميركية الجنوبية، حيث تقطن العشيرة بكاملها، والتي قد يصل عدد أفرادها إلى مائة شخص أو أكثر، في مثل هذا البناء. وقد تسكن القرية كلها في بيتين أو ثلاثة من هذا النوع، مشيدة حول ساحة القرية. تصل أبعاد البيت من هذا النوع إلى ستين متراً طولاً واثني عشر متراً عرضاً. ويتألف من: صالة رئيسية من تحت بطول البناء، تستخدم من قبل الرجال فقط - وفوقها أقيمت مساكن ذات ثلاث طوابق: يستخدم الطابق السفلي منها للطبخ والأوسط لسكن النساء والأطفال والثالث لسكن الرجال.

أما قبائل الهنود الحمر في الاسكا فقد سكنت في بيوت يستوعب الواحد منها جيلين حتى ثلاثة أو طبقتين اجتماعيتين أو أكثر. وكل بيت من هذا الشكل مؤلف من عدة مصاطب متلاصقة بحيث يرتفع كل منها بمقدار نصف متر عما يجاوره. ولكل من هذه المصاطب جدران مشيدة من خشب الأرز المحفور. وقد كان لهذه البيوت أسماء غريبة مثل «المكان الذي يبدو مريحاً» أو «المكان الذي يمكن للمرء فيه أن يسبح» أو «بيت رجال الدببة» وغيرها من غرائب الأسماء. وهذا ما يعيد إلى الأذهان تسميات البيوت الفرنسية في العصور الوسطى مثل: «بيت المهرج الضاحك» أو «بيت السمكة الوثابة» ولا ننسى هنا «بيت الهرة التي تلعب بالكرة» الذي خلده بلزاك.

وتعتبر البيوت الصخرية لدى قبائل «بويبلو» شكلاً من أشكال البيوت الصخرية متعددة الطوابق، التي يشبه بعضها الأبنية الملحقة فوق ناطحات السحاب في نيويورك، كتعبير عن أقصى درجات الرفاه وملكة الابداع الحديث. أما في افريقيا فنجد مثل هذا النوع من المساكن في منطقة «مدينين» التونسية، حيث توجد مساكن محفورة في كتل الصخر المتراصة، ويتضح من طريقة بناء مثل هذه المساكن، سواء أكانت لدى قبائل «بويبلو» أو غيرها من القبائل انها شيدت بالدرجة الأولى لأغراض دفاعية. ففي المناطق التي لا توجد فيها كتل صخرية متراصة، عمد الإنسان إلى بناء جدران تقوية من التراب وغيره من المواد. ويتضح ذلك بشكل خاص في القرى الافريقية التي تحيط بها غالباً أسوار ضخمة، إذ عمد الأفارقة، وبخاصة في عصر البحث عن العبيد واختطافهم، إلى تشييد أسوار قوية جداً لحماية قراهم، ووصل الأمر بقبائل منطقة السودان إلى بناء بيوتهم تحت الأرض، بينما تبني بعض الشعوب الافريقية الأخرى مساكنها فوق مناطق استراتيجية مشرفة على كل ما يحيط بها. وقد كانت مداخل هذه البيوت صغيرة جداً بحيث يضطر الزائر للزحف على يديه وركبتيه حتى يستطيع الدخول إلى «غرفة الجلوس». وكان لأسيجة هذه التحصينات بوابات سميكة جداً يبلغ ارتفاع أسوارها الطينية ستة أمتار مجهزة بمتاريس بحيث يمكن للمدافعين اطلاق سهامهم ورماحهم على المهاجمين دون تعريض أنفسهم للخطر. وبالنسبة للمساكن الخشبية في غينيا الجديدة فلم يكن من الممكن بلوغها إلا باستخدام سلالم طويلة ترفع أثناء الليل كنوع من الاجراءات الأمنية. أما حيث توجد أبواب أو ما

يشبهها فقد كانت تقفل باتقان بحيث لا يستطيع إلا الخبير والمتمرس أن يفتحها. وكان لهذه الأبواب مفاتيح خشبية بحجوم كبيرة بحيث لا يستطيع الزوج الذي يخرج ليلاً بمفرده، لغاية أو لأخرى، أن يخفيه في حقيبته. وإذا ما أردنا أن نقوّم بيوت الشعوب البدائية من وجهة نظر جمالية، فان الجائزة هي حتماً من حق عمالقة البناء في جزر بولينيزيا، فقد جعل سكان نيوزيلاندا من بيوتهم - بحق - تحفاً فنية غاية في الروعة والاتقان. ويبدو من تنوع أشكال هذه المساكن مدى المستوى الثقافي والفني الذي بلغته تلك القبائل. فمن الأكواخ البسيطة المغطاة بالحصر التي يسكنها عامة الشعب حتى بيوت الأغنياء بزينتها وزخرفتها ندرك مدى غنى وتنوع أشكال البناء وأنماطه عند هذه الشعوب.

وقد بلغ ارتفاع بيوت الغلال، ذات الشكل الهرمي، لدى قبيلة «ماوري» في نيوزيلاندا، سبعة وعشرين متراً. وبها كانت تحفظ الأطعمة والغلال لتقدم للضيوف الذين يحضرون للمشاركة في أعياد «هاكاري».

وعندما بدأ الإنسان بكتابة تاريخه، بدأ عصر الثقافات الراقية. مجموعات كبيرة من القبائل اتحدت معاً لتشكل مجتمعات تتجاوز مفهوم القرية. وساعدت أدوات العمل، التي اخترعها الإنسان وطورها على استخدام الحجارة المطروقة كمادة لبناء المساكن والمنشآت العامة.

وأكدت قصور الأغنياء على الفروق بين الطبقات والفئات، فنشأت المدينة. ولم تكن الأبنية والنصب الضخمة مجرد شواهد على السلطة والغنى، بل أيضاً على متانة البناء الذي استطاع الصمود عبر القرون. فالبيوت التي بناها «الازتيك» في المكسيك القديمة بدءاً من الأكواخ المصنوعة من الأغصان المجدولة في المناطق الحارة، حتى البيوت الحجرية في المرتفعات والتي بلغت أوج الروعة والكمال في المعابد والقصور، تشهد على تنوع طرق وأساليب فن البناء. وكانت المباني التي أقامتها حضارة «المايا» في غواتيمالا تكريماً للالهة، أكثر بهاء وفخامة من تلك.

وحتى الآن لم يتجاوز فن البناء تلك المباني التي أقامتها الشعوب القديمة من أجل «الخلود»، فما زالت الاهرامات المصرية في عداد عجائب العالم السبع.

وحتى الآن لم نتعلم فن نحت الحجارة بتلك الدقة، التي يمكن بها استخدامها في اقامة صروح بناء خالدة على مرور الزمن دون استخدام أية مادة أخرى مساعدة. وتعتبر

معابد الهند والصين وآثار «أور» مبانيَ تفصح عن معرفة تقنية غاية في الروعة والتنوع.

ومن «واقية الريح» حتى البيوت الطابقية المنحوتة في الصخر، ومن الكوخ البسيط حتى المسكن المحصن، يتضح أن تطور الأبنية التي شيدتها يد الإنسان، هو في الوقت نفسه تاريخ لملكة الاختراع عنده ولقوته وذكائه. وحتى الآن تتعلق امكانية السكن في بيت - ولو كان حديثاً - بعنصر هام من عناصر الطاقة الأساسية، هذا العنصر الذي كانت معرفة الإنسان الأول به منحة من الآلهة، الا وهو النار.

ب - قصة الإنسان مع النار:
اكتشافها والطقوس السحرية الخاصة بها:

لولا وجود النار، لما قام بيت ولا وجدت قبيلة ولا حياة إنسانية على وجه الأرض. فما قصة «أخت الشمس» هذه، المليئة بالأسرار؟ بلغت النار من الأهمية بمكان بحيث لا يوجد شعب على وجه الأرض تخلو أقواله وتراثه من محاولات لتفسير أصلها. ونظراً لما لها من منزلة رفيعة عند مختلف الشعوب فقد أجمعت معظم الأساطير على أن الإنسان سرقها من الآلهة التي حفظتها بكل عناية، ولم تكن تريد أن تتقاسمها مع بني البشر. فحسب الاسطورة اليونانية قام بروميثيوس بسرقتها من زيوس فنال عقاباً رهيباً على فعلته الجريئة تلك. وتعتقد بعض الشعوب البدائية في استراليا أن عصفوراً صغيراً حمل الشرر الالهي من السماء تحت ذيله ونزل به إلى أهل الأرض. بينما يعتقد بعضها الآخر أن اثنين من أنصاف الآلهة قاما بسرقة النار وحاولا أن لا تصل إلى البشر، أو أن غراباً سرقها من رأس عصا للحفر كانت مع إحدى العذارى اللواتي ارتقين فيما بعد إلى السماء وتحولن إلى كواكب نراها في السماء حتى الآن نطلق عليها اسم الثريا.

وكثير من الشعوب، سواء تلك التي لها تاريخ مكتوب أم بدونه، تعتبر النار مقدسة. فإله النار الهندي «أغني» يقوم بدور المراسل الوسيط بين البشر وآلهتم. فهو الذي يحمل أرواح الأضاحي من مذبح النار وينقلها إلى الآلهة. ويؤدي الزرادشتيون صلواتهم لخالق العالم باسم النار: «ففي نقائها وضوئها وحيويتها وخصوبتها وعدم القدرة على تدميرها يكمن الرمز الأكثر كمالاً للالوهية». كما تقدس القبائل الجرمانية النار أثناء الاحتفالات بالانقلاب الشمسي. وكما جاء في الكتاب المقدس بدا الرب

لموسى بهيئة جذوة ملتهبة، إذ اتخذت هنا الروح المقدسة هيئة اللهب. وقد زينت مخيلة الشعوب البدائية التي لا تنضب، ظاهرة النار في أساطير لا حصر لها. وكل هذه الأساطير مفعمة بروح التقديس والتعظيم للنار. وتعتبر قبيلة «ماوري» ان الله بولينيزيا البطل «ماوي» الذي أخرج جزيرتهم من البحر، هو الذي جلب النار أيضاً. وتربط قبائل «هيريرو» الافريقية بين طقوسها في تقديس الأسلاف وبين عبادة النار التي تتقد في موقد الكاهن، وتغذى بنوع خاص من الحطب، يُعتقد أن أرواح المتوفَينْ تسكنه. وعلى الفتاة التي تقوم على ايقاد النار المقدسة أن لا تتزوج طيلة حياتها، مثلها مثل عذراوات روما. وغالباً ما ترتبط حياة النار بحياة القبيلة نفسها. وإذا ما استولى زعيم غاز على نار قبيلة «هيريرو» يصبح بذلك زعيماً عليهم وحامياً لهم، كما حدث عام ١٨٥٠ عندما استولى جماعة منهم على النار وبالتالي أصبحوا سادة القبيلة.

وكما ذكر الباحث «ساند ستيف» فان «روح النار» تسكن في موقد كل خيمة من خيم قبائل «البوريات». ولهذه الروح هيئة بشرية، لكنها صغيرة طالما هي في الموقد. ولا تلقى في النار أية نفايات أو أوساخ لأن في مثل ذلك اهانة كبيرة «لروح النار». ولا يسمح بتحريك النار بالسكين أو بقطعة حديد مدببة، لأن ذلك قد يؤدي إلى جرح روح من المنزل. وتقدم الأضاحي لروح النار قبل تقديمها لجميع الآلهة النار، فإذا ما ألم بها مكروه تصبح غير قادرة على طرد الأرواح الشريرة الأخرى، وتعتبر النار ملكاً للعشيرة أو بالأحرى حياتها. فلا يسمح لغريب بأخذ النار من الموقد. وإذا ما أقدم زائر على اشعال غليونه منها فعليه أن يفرغه كلياً قبل أن يذهب.

وقد اخترع الإنسان طرقاً لا حصر لها لإيقاد هذا العنصر الثمين، الذي هو النار. فقد ولدت أقدم الشعوب حضارة - كالاستراليين مثلاً - الشرر بثقب قطعة من الخشب فوق قاعدة خشبية أيضاً، أو بفركها أو حكها أو «بنشر» قطعة من الخشب اللين بمقذاف (بوميرانغ) من الخشب القاسي إلى أن تلتهب نتف الخشب المتطايرة. فعندما تلتهب نتف الخشب يوضع فوقها الحشيش الجاف حتى تتشكل شعلة قوية.

ويتألف ما يسمى بـ «مثقب النار» من عصا مدورة تدار داخل حزوز عصا أخرى. وتستمر عملية الاحتكاك إلى أن يتصاعد الدخان من غبار الخشب المتولد عن الاحتكاك. وعن طريق النفخ البطيء والحذر، يتطور هذا الدخان إلى شعلة ملتهبة. أما

منشار النار فيتألف غالباً من قطعتين من الخشب، الأولى ثابتة على الأرض والأخرى تحرك بحركة المنشار في شقها. وهناك طريقة أخرى للحصول على النار مستخدمة غالباً في بولينيزيا وذلك بجهاز عبارة عن قطعة مدببة من الخشب القاسي تحتك بقوة بقطعة أخرى من الخشب اللين إلى أن تبدأ ذرات الخشب الناتجة عن هذه العملية بالاشتعال..

وتنتشر طرق الحصول على النار بواسطة الثقب والاحتكاك في جميع أنحاء العالم، من قبائل «بوشمن» في افريقيا حتى الهنود الحمر في أميركا الشمالية والجنوبية. ولدى الهنود الحمر في أميركا الشمالية طرق غاية في الأهمية للحصول على النار، فهناك ما يسمى بـ «المثقب ذي الحبل» والمثقب ذي القوس والمثقب ذي المضخة، حيث تسهل الحبال والأقواس وغيرها من أعمال الثقب المضنية. وهناك طريقة توليد الشرر بواسطة ما يسمى بـ «محراث النار» أي حك قطعة خشب مستطيلة ذات شقوق بقطعة أخرى تحرك داخل الشقوق بقوة فيتولد الشرر عن هذه العملية. وقد ذكرت هذه الطريقة في اسطورة الخلق الفينيقية.

كما وجدت أيضاً أنواع بدائية لأدوات توليد النار (قداحات) تعتمد على مبدأ ضرب الحجر بالحجر أو المعدن بالمعدن. استخدمت هذه الطريقة بشكل خاص من قبل الهنود الحمر في أميركا الجنوبية. كما صنع الاسكيمو أيضاً القداحات، نظراً لعدم وجود الخشب القاسي في مناطق الجليد، مما أجبر السكان على البحث عن مادة أخرى لتوليد النار.

استطاعت عدة طرق بدائية للحصول على النار أن تستمر آلاف السنين. وقد ارتبطت حياة إنسان ما قبل التاريخ - كما هو الأمر عليه حالياً بالنسبة للشعوب البدائية المعاصرة - بمعرفة الحصول على النار. فقد عثر في مدافن تعود للعصر الجليدي في شمال أوربا على حصى كبريتية وحجارة صوان جنباً إلى جنب.

كما عرف الرومان أيضاً مواصفات الكبريت المنتج الذي يولّد النار واستخدموه مع حجارة الصوان لايقاد النار. لكن مئات السنين مرت حتى ظهرت لأول مرة مولدات النار (القداحات) الكيميائية التي تستخدم الفوسفور والكبريت، وكان ذلك عام ١٦٥٠. ثم انقضت أيضاً حوالي مئتي سنة حتى بيعت في لندن أول زجاجات الفوسفور، أعقبتها فيما بعد عيدان الثقاب وغيرها من تحسينات في هذا المجال.

وكما لا يمكن أن نتصور المسكن بدون سقف، كذلك لا يمكن أن نتصوره دون النار. فهي التي تضفي على المأوى - مهما كان بسيطاً - طابع المسكن، وهي واحدة من الدلالات على وجود البشر، مهما كانت الأدوات الأخرى التي يستخدمها بدائية، لأن الحيوان لا يعرف كيف يولد النار - هذا الشيء الثمين الذي جادت به الآلهة - ولا كيف يبقي عليها مشتعلة.

وإذا ما اتقدت لواعج الشوق والحنين للوطن عند أي مغترب، فإن الموقد والمدخنة أول ما يخطر في الذهن كرمز للبيت، أو لمسقط رأس الإنسان. وكان وجود أو عدم وجود النار يعني بالنسبة للإنسان البدائي الفرق بين الحياة والموت. ولذلك فقد حرص أن يبقي عليها متقدة باستمرار وتحت جميع الشروط. فعندما تكاد النار تخمد يعمد الهنود الحمر إلى النفخ فيها لبعث حياتها من جديد. وحتى في الرحلات والأسفار، يجب أن تكون النار رفيقة درب البدائيين، يحملونها معهم أينما حلوا وحيثما رحلوا. وكثير من شعوب أميركا الجنوبية توقد النار على مفارق الطرق والمسالك التي يعبرونها ويبنون فوقها سقفاً خوفاً عليها من المطر. وهناك يحصل عليها المسافر، حيث الرطوبة العالية في الغابات العذراء، وحيث يكون الحصول عليها في منتهى الصعوبة. وعندما حدث الباحث «البرت شفايتسر» زنوج غرب افريقيا عن حرائق للغابات في أوربا، سخروا منه. إذ كيف يمكن أن تحترق الغابات الرطبة دائماً كالاسفنج؟

ويشكل موقد النار، سواء وسط الخيمة أو الكوخ أو البيت، محور الحياة العائلية. فهو مصدر الدفء والمكان الذي يحضّر فيه الطعام. وهو الذي يقي من الحشرات الاستوائية وهو أيضاً مصدر النور ليلاً، حيث تروى القصص والحكايات لتبعث الحيوية في المجتمعين.

جـ - كيف بدأ اقتناء الأثاث؟

السقف والنار هما التعبيران الأساسيان اللذان يشكلان معاً مفهوم البيت. ولكن الإنسان مع ذلك لم يكتفِ بهما، بل سعى أيضاً لاشباع رغباته الأساسية والأخرى

باقتناء أدوات ووسائل أخرى من أجل رفاهيته. فالحياة الوديعة في البيت تتطلب أيضاً أثاثاً معيناً تجعل الحياة مريحة، مما جعل الإنسان يسعى لتأمين نوم مريح، فكانت الأسرّة البدائية. وقد أعدت الشعوب البدائية أمكنة نومها بما يتناسب مع الظروف المناخية السائدة. كان الفراش الأول الذي استخدمه الإنسان عبارة عن مفرش من الأغصان الطرية، وبخاصة أغصان الأشجار الابرية التي توفر طبقة سميكة فوق الأرض. كما استخدمت الشعوب البدائية أغطيةً للنوم من جلود الحيوانات، وبخاصة في المناطق الباردة. أما شعوب استراليا وافريقيا فقد استخدمت أغطية خفيفة، أو استغنت عنها نهائياً في المناطق الاستوائية. وكثير من الأفارقة ينامون عراة في رماد الخشب لوقاية أجسادهم من الحشرات ومن التيارات الهوائية، بينما تنام معظم شعوب المحيط الهادي وجنوب شرق آسيا على حصر متقنة الصنع. وكثيراً ما يعبر عدد الحصر الموجودة في المسكن عن مدى غنى أو فقر ساكنيه.

أما أقدم الوسائد على الاطلاق فقد كانت بأشكال متنوعة جداً، بدءاً من قطعة الخشب البسيطة حتى المسند المحفور بطريقة فنية ليحافظ على طريقة تصفيف الشعر المعقدة لدى البدائيين. وعن مسند الرأس المستخدم في افريقيا وأميركا الجنوبية تطور الفن المنزلي فيما بعد.

تطور الفراش الحقيقي، بمفهومنا المعاصر عنه، أي القطعة التي تمد على أرض البيت وتستخدم للنوم فوقها، عن مصاطب خاصة للنوم مصنوعة من الطين أو الآجر، تنصب وسط المنزل. وتوجد الأسرّة الخشبية التي لها شكل المنصة، وفوقها حصر مجدولة بغاية الاتقان في الكثير من بيوت سكان الغابات الاستوائية في أميركا الجنوبية وأفريقيا. ويعتبر هذا النوع من الأسرّة أقدم تجهيزات النوم البدائية.

وللوقاية من الحشرات اخترع الإنسان عدداً كبيراً من الناموسيات البدائية.

لم تكن الطاولات والكراسي عادة من قطع الاثاث المنزلية الضرورية في المساكن البدائية. فغالباً ما يجلس أفراد الأسرة على الحصر، أو على جلود الحيوانات، أو الحجارة، أو جذوع الأشجار، أو حتى أيضاً على الأرض مباشرة.

ولم يكن اقتناء الكراسي بشكل عام وسيلة لزيادة راحة الإنسان، ولكن ذلك

سرعان ما تغير عندما أصبحت الكراسي رمزاً للتأكيد على المنزلة الاجتماعية والنفوذ. إذ أصبحت صورة حسية تحدد منزلة الزعيم وصاحب النفوذ، يمارس مهامه على كرسي خاص للزعامة أو لممارسة أعمال السحر، مصنوع بغاية الاتقان الفني. ويتجلى ذلك بشكل خاص في افريقيا حيث تعتبر كراسي الزعماء المصنوعة من الخشب المحفور من أجمل وأدق منتجات الفنون الافريقية. وغالباً ما تستخدم أيضاً الصدف الجميلة والخرز البلورية في زخرفة عروش الزعماء، وقد تستخدم آلاف البللورات في زخرفة كرسي واحد، بحيث لا يظهر منه سوى هذه البللورات.

ولكن مساكن الشعوب البدائية تعطي الزائر - حتى بدون وجود قطع أثاث كبيرة - انطباعاً بالراحة، فهي مجهزة بجميع الأشياء التي تعتبر ضمن اطار المستوى الثقافي العام جميلة وضرورية لأصحابها. ولكن ذلك لا يعني أن النواحي العملية فقط هي التي تعطي البيت البدائي طابعه الخاص، فحتى أثاث الأكواخ المتواضعة، يصنع ويرتب بحس فني ولوني بديع، بدءاً من الأطباق الخشبية والسلال الجميلة الملونة عند سكان استراليا، حتى الفخار والملاعق المصنوعة بمنتهى الروعة من الخشب المحفور في افريقيا. كما تُعد مساند الرأس والأواني المصنوعة من الخشب المحفور في جزر المحيط الهادي من أنفس المعروضات المحفوظة في المتاحف.

وكلما كانت حياة الشعوب أكثر استقراراً، استطاعت أن تكرس وقتاً أطول لتزيين مساكنها من الداخل والخارج بزخارف مرسومة أو منقوشة. وتعتبر أعمال النحت والنقش الفنية التي أبدعتها شعوب بدائية، كالهنود الحمر في الاسكا، أو الشعوب الافريقية أو سكان جزر المحيط الهادي، أمثلة رائعة على كمال فن حفر الخشب البدائي، بحيث حاول النحّاتون في عصرنا هذا - ولكن عبثاً - تقليد مهارتهم الفنية، كدقة الصنع ورفاهة التلوين وغرابة التشكيل.

لم تكن بيوت إنسان ما قبل التاريخ تخلو من الأدوات البيتية الكمالية، بعضها مصنوع بغاية الاتقان والغنى الفني: مثل الملاعق والابر والامواس الحجرية والأدوات المصنوعة من الخشب المحفور والمثاقب والمغازل والمساحج وغيرها. كما كان لمصابيح العصر الحجري الشكل الذي تطورت عنه مصابيح الزيت الرومانية. وانطلاقاً من مجرد

حب الانسجام الجمالي، فقد رسمت، بالإضافة إلى الرسوم الدينية التي تخدم قضايا السحر، أيضاً أشكال بشرية وحيوانية على الجدران. كما ساهمت التماثيل المصنوعة من العاج في تزيين الجدران الداخلية للبيوت. وبالإضافة إلى أقدم أشكال التعبير الفني ذات الطابع الديني، كما هي الحال بشكل خاص في كهوف العصر الحجري القديم في اسبانيا وجنوب فرنسا، فقد عثر في الوقت نفسه على أعمال فنية «دنيوية» كالأواني وأدوات العمل والأمشاط المزخرفة، التي مضى على صنعها آلاف السنين.

فهناك فترات ثقافية برمتها من العصر الحجري الجديد، اتخذت اسماءها من أنماط الزخارف الفخارية التي أبدعها هؤلاء الفنانون.

ورغم أنْ ليس جميع الشعوب البدائية قد ارتقت إلى معرفة فن الفخار، إلا أنها جميعاً استخدمت أواني الطبخ والجمع وحفظ الماء بطريقة أو بأخرى.

وبالطبع تعتبر أواني الماء أهمها على الإطلاق، لأن وجودها يسمح للقبيلة بحرية التحرك في مناطق لا توجد فيها ينابيع مياه أو أنهار بصورة مباشرة. ولكن لم يكن بوسع الشعوب البدائية دائماً أن تخزن الماء بأسلوب عملي وناجع، وذلك لعدم وجود أوانٍ كتيمة لهذا الغرض. فكثيراً ما استخدمت الحجارة المجوفة أو الصدف، سواء كأوانٍ لنقل الماء أو كأوعية للشرب. كما استخدمت بعض الشعوب اليقطين المجوف أو قشور جوز الهند وغيرها من منتجات نباتية لنقل الماء وحفظه، أو حتى جلودَ الحيوانات التي تخاط بشكل أكياس، كما هو الحال مثلاً في الهند أو الصحراء الغربية.

وقد ظهرت لدى الشعوب البدائية ملكة ابداع غنية في صنع المحافظ والأطباق والصحون من مختلف الأنواع وبمختلف أشكال الزخرفة. فقد صنعت هذه الشعوب صحوناً وأطباقاً من الخشب والصدف وأوراق الشجر، كما ظهرت العبقرية الفنية في مجال حفر الخشب على أواني الطعام وبخاصة على «مغارف» الطعام، التي سبق ظهورها ظهور ملاعق الحساء المنبسطة التي نعرفها الآن.

اقتبست بيوت الثقافات الدنيوية الراقية، سواء القديمة منها أو الحديثة، اختراعات العصور القديمة ثم طورتها، وأدخلت طرق الصنع المتطورة والتخصص المهني، اللذان

تتميز بهما هذه الثقافات، تحسينات لم يستطع الصانع الحرفي البدائي أو البناء أن يبلغها. ففي البيوت التي تعود لعصور ما قبل بدايات التاريخ الإنساني توجد أدوات كمالية مدهشة إلى أبعد الحدود. فقد عثر في «أبو شهرين» في «أريدو» القديمة، على أرض غرف ملساء ومصقولة كالمرآة، وعلى أبواب مصنوعة من حجارة جيء بها من مناطق نائية. وهناك أقبية عميقة ونوافذ دائرية معروفة منذ فترة الفخار المزخرف بشرائح عريضة في العصر الحجري الحديث.

وحيث كشف علماء الآثار النقاب عن أطلال المعابد والقصور القديمة وجدوا شواهد عجيبة على نمط حياة في منتهى الرفاهية لم تبلغها حضارتنا المعاصرة، ولن يكون بامكانها أن تبلغها. فقد عثر المنقبون السوفييت عام ١٩٤٦ في جنوب سيبيريا في موقع قريب من الحدود الصينية، على قصر مبني منذ ما قبل التاريخ الميلادي يحتوي على كنوز في غاية الابهة. تبلغ مساحة القاعة الرئيسية لهذا القصر أكثر من مائة وعشرين متراً مربعاً، وقد بني فيه نظام للتدفئة يضمن تدفئة جميع غرف القصر من مدفأة واحدة بواسطة أنابيب تمر فيها جميعاً.

ولم يستطع مهندسو البناء في عصرنا الحاضر أن يقلدوا نظام التدفئة الروماني الذي يقوم على تدفئة أرض غرف البيت من تحت. ومثل هذه الطريقة كانت معروفة أيضاً في كوريا منذ قرون عديدة.

وتُظهر اللقى الاثرية في مدينة «أور» البابلية، التي يضم المتحف البريطاني أفضلها، كمالاً فنياً منذ الألف الثالث قبل الميلاد، يقف حياله أمهر الفنانين في عصرنا هذا عاجزين.

وقد حدا خوف الإنسان القديم من قوى الأشياء التي اخترعها بنفسه، بأحد فناني «بيرو» القديمة إلى رسم لوحة تخيل فيها «تمرد الأشياء» على إحدى المزهريات، وقد قام الباحث «كريكسبرغ» بتفسير هذه اللوحة فذكر: أن الحافلة السفلى للرسم تمثل بحراً بأمواجه وأسماكه وكلاب البحر. أما اللوحة بحد ذاتها فتعرض ثلاث مجموعات من الأشكال في كل واحدة منها هيئة إنسان، بينما بقية الأشكال عبارة عن أشياء أضاف عليها الفنان أذرعاً وأرجلاً ووجوهاً بشرية وعيوناً وغيرها لاعطائها ملامح الشخصية

الإنسانية. وفوق كل هذه الأشكال رسم طيرين يخفقان بجناحيهما وكأنهما يتقاتلان. وكانت هذه الأشياء المجسدة عبارة عن أسلحة وزينة للمحاربين. أما فكرة اللوحة فتعبر عن أفكار أسطورة قديمة تفترض أنه سيأتي يوم تثور فيه الكلاب والدواجن والقدور والأطباق وأحجار الرحى وكل ما صنعته يد الإنسان من أدوات وما ربّاه من حيوانات أهلية، ضد مضطهديها وتحمّلهم العبء الذي ألقوه على كاهلها. فأحجار الرحى ستطحن مخترعيها وستطبخ الطناجر صانعيها وتذبح الدواجن مربيها وتقلي القدور أصحابها. وقد حدث مثل ذلك من قبل، كما تقول الأسطورة، وسيحدث مرة أخرى ذات يوم.

الفصل الثاني

صالون التجميل عند البدائيين

فن الزينة البدائي - الألوان، مفاهيمها ورموزها

مفاهيم الجمال عند الشعوب - الوشم

عندما دخلت سيدتان متبرجتان بمختلف مواد التجميل، قاعة العبادة التابعة لإحدى الطوائف الزنجية الصغيرة في مدينة نيويورك، للمشاركة في ممارسة الطقوس الغريبة لدى هذه الطائفة، حباً منهما في المعرفة، رفع الكاهن اصبعه لدى رؤيتهما وصاح في المجتمعين حوله بأعلى صوته «انهما اثنتان على نمط ايزابيل قد جاءتا». ذعرت السيدتان وعادت بهما الذكرى إلى فصل في كتاب الملوك ورد فيه «أن خدم السيد قاموا بالقاء «ايزابيل»، التي صبغت وجهها وزينت رأسها، في أرض «جسريل» لتنهش الكلاب لحمها».

تمكنت السيدتان الزائرتان من النجاة من هذا الموقف بعد أن ملأهما الرعب. وعندما أخبرتا أستاذهما في الجامعة (الذي لم يكن بريئاً مما حدث لهما) دار نقاش مطول، كان موضوعه السؤال التالي: لماذا ينظر ذوو الأفق الضيق إلى الفتاة التي صبغت وجهها وزينت رأسها، أنها - وبكل بساطة - سيئة السمعة؟ وهل يتناقض التركيز الاصطناعي على المفاتن التي وهبتها الطبيعة، بالفعل، مع الشعور السليم؟

بالتأكيد لم يكن الأمر كذلك قبل عشرة آلاف سنة. ففي الكثير من بقاع الأرض، حيث لم يكن المرء قد سمع بعد مطلقاً بكلمة «فن التجميل»، تتبع النساء إلى الآن - وحتى الرجال أيضاً - نظماً خاصة، مغرقة في القدم، في مجال فن التجميل، لأسباب تعود سواء لمتعة جمالية صرفة أو لأسباب صحية ودينية. فقد كان عند مَنْ يسمى «بالمتوحشين» تصور دقيق لما يختص بالذوق الجميل، ولما يرونه جميلاً وجذاباً. ولا

يتركون مناسبة تفوتهم دون استغلالها في التأكيد على مفاهيمهم في هذا المجال. فالرجال والنساء على السواء يحاولون اضفاء صبغة من الأناقة على أجسامهم وملابسهم ومظهرهم العام.

وبينما يحتل الرجل المتحضر موقعاً متخلفاً جداً في مجال الاهتمام بجمال شكله، كان اخوته البدائيون ينافسون الجنس اللطيف، محاولين التفوق عليه في جمال المظهر، طالما كان ذلك ممكناً.

وبينما ظهرت في عالم الحضارة اختلافات أساسية في استخدام أدوات التجميل، بدت هذه الاختلافات أكثر وضوحاً لدى الشعوب البدائية بمقاييسها وأذواقها الخاصة التي تخلص لها، ولا ترغب بتقليد أزياء جيرانها. وقد قام العالم «السدون بيست» بدراسة وحصر مفاهيم الجمال عند شعب «ماوري» فذكر أن على الفتاة - لكي تتمتع بالجاذبية - أن تحوز على الشروط التالية:

«يجب أن تكون رجلاها حسنتي التشكيل وأن يكون شكل الموضع الذي يلتقي فيه العمود الفقري مع الحوض مقبولاً. وعلى الجميلة أيضاً أن تكون ذات وقفة مستقيمة». وبالمقابل وصف مقاييس جمال الرجل بالنسبة لنساء «ماوري» على الشكل التالي: «يجب أن يوقظ الانطباع بالقوة والنضوج، جميل القامة ذو وجه يوحي باللطافة، عينان واسعتان غير متباعدتين، تتوجهان نحو الإنسان بتعابير لطيفة. كما يجب على مثل هذا «الادونيس» أن يكون أيضاً لطيف المعشر وذا قامة ممشوقة». وهكذا فان مجمل هذا التصور يتطابق كلياً تقريباً مع معايير الجمال السائدة في عصرنا، أي مع مُثُل الجمال اليونانية.

كثير من الهنود الحمر في أميركا الشمالية مثل قبائل «هوبي» تتطلب من الفتاة الجميلة أن تذري على وجهها طحين الذرة وتعقص شعرها على شكل فراشة. وليست مفاهيم الجمال هذه كلها عبثاً، لأن كل مرحلة من مراحل الثقافة الإنسانية كونت مفاهيمها الخاصة عن الجمال، يسعى رجال ونساء مختلف الشعوب للسير عليها والالتزام بها.

وإلى جانب وجهات النظر المختلفة حول استخدام وسائل التجميل، يبدو أن جميع شعوب الأرضِ تلتقي في نقطة واحدة. ألا وهي: ان النظافة الخارجية شرط أساسي

لحسن المظهر. ولذلك لا يهمل أي فرد حسن التربية من أبناء الشعوب المتوحشة، قواعد الصحة البدنية. فالعبارة القائلة - «إنك تغتسل مثل الرجل الأبيض!» (الذي لم يكن يغسل خلال اقامته عند المتوحشين غالباً إلا وجهه ويديه) - تعتبر في الحقيقة من أكبر الاهانات التي يوجهها أحد سكان الغابات إلى شخص آخر.

وإذا ما قيض لأوربي أن يعيش بين «الشعوب البدائية» فلسوف تأخذه الدهشة من وعي النظافة البارز عند الشعوب، وقد أكد «أوكونيل» - الذي شارك لسنوات عديدة شعوب «بونابه» الأصليين حياتهم - أنهم يغتسلون مرتين إلى ثلاث مرات يومياً، وأن أفراد القبيلة الذين أهملوا نظافة أبدانهم قد «فقدوا مراكزهم الاجتماعية وخفضت مراتبهم ثم أبعدوا عن المجتمع» ليعيشوا في عزلتهم. وعلى المرء في قبيلة «كريك» الهندية الحمراء أن يغتسل مرة في اليوم على الأقل، وأن يتدحرج شتاء أربع مرات على الثلج وهو عار. وقد روى المكتشف القديم «أدير» بأن التخلي عن هذا الاستحمام اليومي يُعاقب عليه عقوبة صارمة، وهي تمزيق جلد ذراعي وساقي المذنب بأنياب الأفاعي. وحيث يتوفر الماء يحاول السكان الأصليون، من خلال الاغتسال والاستحمام، الحفاظ على النظافة قدر الامكان. ولكن حيث يكون الماء مادة ترفيهية، في الصحارى مثلاً، تستخدم الشعوب رمال الصحراء للتنظيف، وهناك قانون خاص جاء به القرآن الكريم يتضمن التعليمات بهذا الخصوص قبل البدء بالصلاة، ألا وهو التيمم، الذي يمكن الاستعاضة به عن الماء.

أما في المناطق القطبية أو شبه القطبية، حيث لا يسمح المناخ أحياناً بالاغتسال بالماء أو بالثلج، فقد اخترع السكان طريقة الاستحمام بالبخار، وصممت أكواخ خاصة للاستحمام بهذه الطريقة، حيث تُسخن الحجارة ويُرش عليها الماء فيتولد عنها بخار الاستحمام، وبعد أن يتعرض المستحمون العراة لهذا البخار لفترة من الوقت يقفزون غالباً في مياه الأنهار والبرك الباردة. ويمكن لعدة مستحمين ارتياد مثل هذه الحمامات «التركية» في آن واحد. وهناك حمامات أصغر من هذه تتسع لزبون واحد أو لزبونين.

وحتى المرضى يخضعون عادة لمثل هذه الاجراءات لخفض درجة حرارتهم، حيث يقوم رجل الطب أثناء ذلك بتلاوة صلوات وترانيم خاصة. وما يزال الرياضيون في الدول الاسكندينافية حتى الآن يتمسكون بهذا الحمام البخاري عندما يكون الطقس

بارداً. وقد أدى أثر البخار الساخن والماء البارد ثم أشعة الشمس اللاهبة في المناطق الاستوائية على بشرة الإنسان إلى متطلبات أخرى للعناية بالجسم. فقلما يوجد شعب في العالم لا يستخدم الشحوم والزيوت لتنظيف البشرة وصقلها، ولذلك تعتبر أوعية الزيت المصنوعة من اليقطين في طليعة مقتضيات فن التجميل، حيث يقوم الرجال والنساء بدهن أجسادهم - كلما استطاعوا ذلك - بمختلف أنواع «المراهم الباردة» وتستخدم بعض القبائل الافريقية زيوت النخيل لأغراض جمالية صرفة، بالإضافة إلى أنها تقي من الحشرات. كما تستخرج شعوب جزر المحيطات مواد دهنية تجميلية وبخاصة من زيت جوز الهند، الذي يدخل حالياً في صنع معظم مستحضرات التجميل الحديثة، وقد اخترع السكان طرقاً متعددة لفلق جوزة الهند وطحنها بوسائل خاصة. وأحياناً تخضع نواة جوزة الهند المسحوقة إلى عملية تخمر في الشمس، حيث يفرز الزيت ويمزج بمواد تجميلية، مثل زيت النخيل والخروع والدهن وحتى الزبدة أيضاً، مع إضافات أخرى من الخشب الأحمر وجذور الزنجبيل والحشائش أو غبار المعادن، ولا تقتصر فعالية هذه المراهم على وقاية الجسم من لهيب الشمس ولدغ الحشرات، بل - وكما أكد الكثير من الباحثين - تقي من البرد ومن التيارات الهوائية، إذ تدهن بها أجزاء من البشرة أو حتى البشرة بكاملها. وكثير من هذه الوسائل أكثر فعالية وأفضل لصحة السكان الاصليين من خرق القطن الرخيصة التي أرغمهم جشع تجار العالم المتحضر على اقتنائها كملابس. وتنتشر عادة مزج الدهون مع الألوان، للحصول على مواد التجميل، انتشاراً واسعاً، وبخاصة لدى القبائل الاسترالية والافريقية التي جعلت لهذه المستحضرات استخداماً مزدوجاً: فهي من جهة مرهم جلدي، ومن جهة أخرى مادة لتزيين الجسد.

إذن أصبح لدينا وصفة جاهزة للمكياج نجدها على طاولة التواليت في المسارح، وهذا ما يعيدنا ثانية إلى ايزابيل. فالتزيين باستخدام المراهم الدهنية الملونة ليس صرعة ماجنة من صرعات العصر الحديث أو مؤشراً على «الانحطاط»، فقد عرف الرجال والنساء منذ آلاف السنين قوة سحر الألوان على البشرة الآدمية واستخدموها بحنكة.

ويعتبر اكتشاف المواد الكيمياوية ووصفات مزجها من أقدم المعارف الإنسانية. فكان امتلاك شعب من الشعوب لهذه الألوان من الأهمية بمكان بحيث أن حقوق ملكية

الأرض والممتلكات الأخرى، - التي كانت مصانة إلى أبعد الحدود (يعاقب بالموت كل من يخرق حرمة الحدود) - كانت تلغى أحياناً ليتاح للقبائل القادمة من مناطق بعيدة، الحصول على ألوان الزينة «الضرورية للحياة». ويتضح من مناجم ألوان العصر الجليدي، أن أولى المخلوقات البشرية لم تدخر جهداً في الحصول على مواد أولية للزينة. وتثبت المكتشفات من العصر الحجري أن إنسان ما قبل التاريخ قد عرف أيضاً - كما الشعوب البدائية الحالية - وصفات دقيقة لإنتاج أدوات الزينة؛ إذ دلت هذه المكتشفات على وجود كميات كبيرة من وسائل الزينة حتى عند الأموات في قبورهم، لاصطحابها معهم في رحلتهم إلى العالم الآخر. كما ازدادت البراهين على مفاهيم الجمال القديمة جداً زيادة كبيرة مع بدء العصر الحجري المتأخر، الذي يشكل بحد ذاته مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني. والمثير للدهشة بشكل خاص ليس فقط وجود هذه المواد بكميات وفيرة جداً، بل أيضاً غنى الألوان عند الإنسان البدائي. فقد أثبتت دراسات خاصة قام بها «مانويل ديشيلت» أن إنسان ما قبل التاريخ قد استخدم ما لا يقل عن سبعة عشر لوناً من ألوان الزينة المختلفة، كان من أحبها الأبيض (الحوار، الجير، الطفل الجيري)، ثم الأسود (فحم خشبي ومعادن تحتوي على المنغينز) ثم تشكيلة ألوان الأصفر. (بدءاً من الأصفر الفاتح حتى الأحمر البرتقالي). وما تزال الشعوب البدائية في العصر الحاضر، على اختلاف درجات تطورها الثقافي تستخدم هذه المواد الأولية والألوان للغرض نفسه. ويظهر من خلال الأقنعة المصنوعة من الخشب المحفور بطريقة فنية في شبه جزيرة الغزال ومناطق أخرى من ماليزيا، تفضيل واضح للأبيض والأسود والأحمر، تضاف إليها أحياناً ألوان خضراء من أصل نباتي وكوبالت أزرق.

وقد ألحقت قبائل بعض الظلال بهذه الألوان الأساسية، إذ كانت تفضل دائماً تقريباً لوناً خاصاً أو مركباً لونياً معيناً. وترتبط بعض هذه الألوان أحياناً بقيمة رمزية يختلف تفسيرها الآن اختلافاً جوهرياً عن تفسيرات الشعوب البدائية. فاللون الأبيض مثلاً لا يعتبر عند قبيلة «بانقه» في غرب أفريقيا، لون البراءة، بل على العكس، لون الشيطان، لكنه مع ذلك أجمل الألوان، كما يرمز اللون الأسود إلى الليل وإلى كل ما هو مرعب ومزعج ومخيف كما ذكر الباحث «تيسمان». بينما يرمز اللون الأحمر إلى

الحياة. أما البنفسجي فيمثل عندهم لون الموت، حتى ان جميع أسماء النباتات الأصلية ذات الزهر البنفسجي تحتوي على المقطع Kun أو Bokun الذي يعني «الروح». وتعتبر ظلال الأشجار المائلة للزرقة أماكن مفضلة لإقامة أرواح الأموات. كما تعتبر الكائنات والأشياء ذات اللون «الشيطاني» الأبيض جميلة بشكل خاص. فقلما يقيم السكان الأصليون وزناً للطيور ذات الألوان البديعة، بينما يثير عندهم الطائر المسمى «مالك الحزين» ذو اللون الأبيض، كل الاعجاب. وبعكس هؤلاء، تعتبر بعض شعوب شرق افريقيا اللون الأسود القاتم، لون الفرح. وغالباً ما يتعرف المرء على مختلف الألوان عند إحدى القبائل البدائية من خلال مفرداتها اللغوية. فلدى قبيلة «خاما» في شرق بيرو مثلاً مفردة خاصة للاصفر والبنفسجي وهي «برتقالي موزي». والعبارة نفسها تطلق أيضاً على الأزرق والأخضر، بينما تستخدم قبائل هندية حمراء أخرى تسميات خاصة افرادية للأحمر والأصفر والبرتقالي والأزرق الغامق والأخضر الغامق والأزرق الفاتح والأخضر الفاتح والبني والأسود والأبيض.

ويمكن أن نلاحظ عادة اقتران بعض الألوان بمعان رمزية في عصر الحضارات الراقية وحتى في عصرنا الراهن. فالازتيك مثلاً (سكان المكسيك القدماء) يرمزون إلى الجهات الأربع بأربعة ألوان محددة. فالأحمر يرمز للشرق، والأزرق للغرب، والأصفر للشمال والأخضر للجنوب. بينما تصور الصينيون القدماء والفرس، الشرق أزرق والجنوب أحمر والغرب أبيض والشمال أسود. كما أن تماثيل معابد اللاما في التيبت دائماً حمراء. وكثير من آلهة التيبت تجلس على زهرات لوتس حمراء، بينما الزهرة البيضاء من اختصاص «تشان ريسغ» و«بوديساتغا» والزرقاء من اختصاص «تارا» وهم تماثيل التيب. وحتى العناصر كان لها ألوانها الخاصة أيضاً: فالخشب أخضر والنار حمراء، والتراب أصفر والحديد أبيض والماء أزرق. وكل كلمة في الصلاة المشهورة التي تقول: «أنت أيها الجوهر في زهرة اللوتس.... آمين» أو حرفياً: (om Main pad me Hum يرمز لها بلون خاص، بحيث أن كلمة om – التي تخاطب السماء – بيضاء، وكلمة ma – الموجهة لعالم آخر – زرقاء. و ni التي تعني عالم الإنسان، صفراء، ثم pad وترمز إلى عالم الحيوان وهي خضراء. و me التي تخاطب عالماً آخر، حمراء. وأخيراً العبارة الختامية المقدسة Hum، التي تسد أبواب جهنم، سوداء.

وهناك مقارنات عديدة يمكن أن نسوقها من الحضارات المصرية والهندية والصينية. وحتى في المسيحية يعتمد مبدأ الرمزية في الألوان إذ توجد إشارات خاصة للحزن والفرح تتراوح بين الأحمر والأبيض والأخضر والبنفسجي والأسود. كما تعود أزياء الكهنة أو الجمعيات الدينية إلى تصورات قديمة العهد، مثلها مثل ألوان لباس الحداد التي تختلف باختلاف الشعوب، ففي كوريا مثلاً يضع المرء قبعة بنية اللون كإشارة على الحزن. فكثيراً ما نتحدث عن أوراق صفراء أو قائمة سوداء أو حتى مع الأسف عن «السوق السوداء» أو نقول إن عروساً ترتدي لون البراءة، وغير ذلك من اصطلاحات عديدة.

ورغم أن لوحة ألوان البدائيين ليست غنية كما هي الحال عندنا حالياً، إلا انهم كانوا يعرفون جيداً كيف يعرضون ألوانهم المفضلة بمهارة متناهية. ويمكن من قديم الزمان أن الهنود الحمر في أميركا الشمالية قد درجوا على تلوين أجسامهم بالأحمر أثناء الغزوات، ولذلك أطلق عليهم أول من زارهم من ذوي الوجوه الصفر اسم «ذوي البشرة الحمراء»، ومن هنا جاءت تسميتهم بالهنود الحمر. ويحمل الهنود الحمر حتى الآن ألواناً حمراء وسوداء في أكياس ملونة مصنوعة من جلد الوعل، تصبغ النساء والأطفال أحياناً وجوههم بها.

كما تفضل قبائل «بابوا» في غينيا الجديدة اللون الأحمر، إذ تحرقه وتمزجه بزيت جوز الهند ثم تلون أجسامها به. وتستخدم نوعاً من التراب الأصفر لتزيين الوجه والذراعين والساقين، بينما تستخدم الأبيض لتلوين الصدر والفخذين. وهكذا تفرض العادة على كلا الجنسين استخدام ألوان مختلفة وتقنيات متنوعة في فن التزيين.

تستخدم كثير من القبائل الاسترالية والبانتو في جنوب أفريقيا مراهم دهنية ومركبات نادرة في فن التجميل، حتى روث البقر وبوله يستخدمهما مربو القطعان في افريقيا كمواد أساسية للتجميل والزينة كما يتداوون بهما وبخاصة بول البقر الذي يستخدمونه كقطرة للعين ويغسلون به أيديهم.

في معظم بقاع العالم نصادف ميلاً خاصاً نحو اللون الأحمر المستخرج من شتى أنواع المواد. فقد أكد بعض الهنود الحمر للمؤلف خلال إقامته بينهم، أن الأحمر هو أجمل لون في العالم، ولا يقارن به أي لون آخر مطلقاً. ويحصل هؤلاء على اللون

الأحمر البرتقالي النقي من شرخ في أحد الجبال ينبعث منه أوكسيد الزئبق، يصبغون به زحافاتهم وقواربهم وملابسهم وجميع الأدوات التي يستعملونها، وقد استمر هذا التفضيل للاحمر في ظل الحضارات الراقية. فحتى الآن تزين نساء الهند جباههن بلون أحمر «قمقمي». كما وضعت على جبهة المهاتما غاندي إشارة الطائفة الحمراء عندما كان جثمانه مسجى على النعش ومغطى بالزهور. بينما كانت ملامح وجهه مصبوغة بمرهم مستخرج من خشب الصندل. أما في العالم الاسلامي فيفضل استخدام اللون الأحمر المستخرج من أغصان وجذوع شجيرات الحنة، حيث تصبغ بها راحة الكفين وباطن القدمين والأظافر كتعبير عن السرور والنظافة.

أما أحمر الشفاه الذي يقال انه من مستلزمات الجمال الحديثة، فيعود إلى العصر الجليدي، ففي كثير من كهوف ما قبل التاريخ وجدت أقلام أحمر شفاه بحجم اليد وبشكل مدبب كما هو شكلها حالياً. فمنذ البدايات استخدمت النساء هذه الوسيلة لزيادة حمرة «شفاههن الوردية».

ولإظهار ألوان الزينة المفضلة كانت العادة أن ترسم أشكال هندسية تقليدية على الوجه والجسم، غالباً ما كانت تحدد موقع حاملها ضمن المجتمع، مثل تابعيته لإحدى القبائل، أو مرحلة البلوغ أو المجموعة الحرفية التي ينتمي إليها، أو شجاعته. وغير ذلك. وحتى أرجل الموتى كان يعاد نبشها أحياناً لتصبغ بنماذج لونية. وتظهر على كثير من اللقى التي تعود لعصر ما قبل التاريخ آثار واضحة لصباغ باللون الأحمر. وقد استمرت هذه العادة في الطريقة الكلاسيكية كما تمثلها صورة ذراعين ملونين لأم مع طفل احدى المزهريات المعروضة في المتحف البريطاني.

وقد ذكر المؤرخ الروماني «أميانوس مرسيلينوس» (٣٣٠ - ٤٠٠م) عن «الاغاثيين» أن «أجسامهم وشعر رؤوسهم كانت ملونة بالأزرق». وقد أدى المفعول الخيالي لنماذج الألوان المرسومة على الجلد الآدمي إلى نشوء عادة ارهاب العدو بهذا السلاح النفسي، حتى أن «سيزار» كان متأثراً جداً بالرسوم الحربية الزرقاء لدى البريتانيين، التي تخلع عليهم مظهراً «مرعباً». كما رأى المؤرخ اليوناني «تاسيتوس»: «جيشاً من الأشباح» الجرمانيين ذوي الرسوم.

أما الرغبة في الحفاظ على لون الوجه المفضل أطول مدة ممكنة فقد قادت إلى اختراع الاختام الترابية التي يمكن بواسطتها طبع النموذج المرغوب على الجلد. ويظهر من اللقى الاثرية أن هذه الأختام كانت موجودة حتى في العصر الجليدي وما تزال بعض قبائل منطقة كران شاكو في أميركا الجنوبية تستعمل مثل هذه الأختام. أما قبائل «داياك» في جزيرة بورنيو الاندونيسية فتختم على بشرة الوجة أو الجسد بنموذج تستخدمه بعد ذلك كأساس يقوم عليه الوشم. ولكنً من مساوئ هذا النموذج المرسوم بدقة أنه لا يقاوم الماء وأشعة الشمس، ولذلك، من أجل زينة دائمة ومختارة، اخترع الإنسان الوشم فيما بعد، هذه العادة المنتشرة في كافة أرجاء الكرة الأرضية، دون إضافة مادة ملونة على الأشكال المحفورة أو المرسومة في الجلد. فهنا يتعلق الأمر بوشم يترك آثار الندبة، كما كانت عليه الحال عند التسمانيين، وما زالت تستخدم في القارة الافريقية إلى أبعد الحدود. فبعض القبائل ترسم الشكل المطلوب بعناية فائقة بغبار الفحم الناعم على الأماكن المطلوب وشمها من الجسم، ثم تحفر بالسكين فوق الرسوم، وتدهن الجروح بمادة «الهارتس» الصمغية. وبهذه الطريقة يمكن تزيين كل الجسم تقريباً. أما وشم الفخذين بهذه «الطريقة التجميلية» فيعتبر خارجاً عن الحشمة. فقبيلة «بانغقه» تعتبر قبيلة «ياوندي» عديمات الحياء لأنهن يقمن بوشم أفخاذهن. وفي السودان توشم شارة القبيلة على وجنتي الأطفال الصغار. تفرك الجروح المحفورة بمزيج من ملح البارود والرماد والحشائش فتتورم هذه المواقع مؤقتاً ثم تترك ندباً عريضة واضحة للعيان، وهي العلامة المميزة لزنوج السودان.

وقد يستخدم أحياناً الوشم بالندبة مقروناً بالوشم باللون، لأن الأخير ينم بأسلوب أكثر دقة، إذ يسمح برسم خطوط أكثر وضوحاً بتزيينات معقدة وبترتيب متقابل ودقيق للجزئيات. ويتجلى ذلك على التماثيل المحفورة لدى قبائل «ماوري» في نيوزيلاندا. فكل شخص من هذه القبيلة – حتى الوجهاء منهم – فخور بنموذج الوشم الذي يدل على عشيرته وعلى مركزه الاجتماعي ونفوذه. فعندما قدم رسام أبيض صورة جميلة رسمها لأحد أفراد هذه القبيلة، وهو فخور بانجازها، نظر إليها صاحبها بابتسامة لا مبالية وألقاها جانباً. وعندما سأله الفنان عن الشكل الذي يتخيل انه يبدو عليه، رسم الرجل العجوز بكل فخر نموذجاً لوشم وجهه قائلاً: «هذا أنا، أما ما رسمته أنت فلا معنى له».

وعندما تزوج البحار الانكليزي «أوكونيل» في جزيرة «بونابه» من ابنة زعيم إحدى القبائل كان عليه أن يتحمل عذاب عملية وشم على جميع أنحاء جسمه من أجل إثبات تبعيته لعائلتها المبجلة. وبعد ذلك بوقت طويل علم أن الرسوم التي تغطي جسده تمثل تاريخاً يتضمن أسماء زعماء العشيرة المتوفَيْنْ وعظماء القبيلة. وقد استمرت عملية الوشم هذه أسبوعاً كاملاً قامت بها فنانتان، رسمتا بالأشواك، الوشم في النموذج المطلوب تثبيته، ثم عالجتا الجروح بالزيت والفحم الخشبي.

وكلما كانت المساحة المغطاة بالوشم أو بالرسوم كبيرة، كانت بالتالي إزالة شعر الجسم ضرورية. وهناك شعوب لا تستخدم الوشم ولا الرسوم، لكنها ترى في إزالة الشعر الذي لا ينبت على الرأس، ضرورة جمالية وهناك طرق عديدة لإزالة الشعر، سواء بالملاقط أو الأظافر أو الكماشات، أو بواسطة قطعتين من الصدف، كما حدث مع «اوكونيل». وقد جعلت ديانات الحضارات الراقية، كالهندوسية والإسلام، من إزالة شعر الجسم واجباً دينياً.

وكتعبير عن الجمال - لدى الذكور - أو عكسه، تعتبر اللحية واحداً من أطراف مجالات التاريخ الثقافي للإنسانية. وإذا ما تذكرنا بأن مؤرخي حضارتنا الراقية هذه قد ميزوا بين خمسة عشر نوعاً من أنماط اللحى البدائية، لأمكننا أن نتصور بكل بساطة كثرة أشكال اللحى البدائية التي تطورت عنها الأشكال التي نراها حالياً.

وقد بلغت أنواع اللحى السائدة من الكثرة بمكان، بحيث يصعب حصرها. فهي تتراوح بين اللحية الكاملة في استراليا مروراً باللحية على شكل مفتاح فلين، واللحية الآشورية إلى الوجوه الجرداء لدى الهنود الحمر. ويبدو في معروضات العصور الكلاسيكية أن وجوه الرجال الحليقة كانت هي المفضلة في البداية.

ويذكر الباحث «مونيفنت» أن أولى اللحى اليونانية ظهرت في نهاية الفترة الكريتية والموكينية. وكانت اللحية نصف الدائرية، التي تشكل اطارا الوجه الحليق، أكثرها شيوعاً وانتشاراً. ويعود هذا النوع الكلاسيكي للحية التي نعرفها من المقبرة الاثينية، إلى القرن السابع قبل الميلاد.

ويبدو هذا النمط أيضاً على الزخارف النافرة في معبد «أسوس» على وجه «زيوس» وعَبَدته في الاكروبوليس. ومن خلال صورة مصغرة للملك انكلترا «ادغار»

تعود لعام ٩٦٦ ميلادية يظهر مدى الحفاظ على هذا النمط من اللحى عبر القرون. ولا يزال هذا النمط من اللحى منتشراً حتى الآن بين السكان الأصليين في جنوب الجزيرة العربية والشواطئ الصومالية وفي جزر «سيلان» - سيرلانكا حالياً - وفي إحدى عشرة منطقة مختلفة في جزر المحيطات. كما بدت آلهة الأزتيك دائماً بشفة عليا حليقة ولحية على الذقن. وقد اختفت هذه اللحى من أرض حضارات منطقة البحر المتوسط منذ عام / ٥٠٠/ ميلادية لتحل محلها اللحية الكاملة لتختفي هذه بدورها بعد قرن من الزمن بشكل نهائي تقريباً.

ويميز «موتيفنت»، الذي درس تاريخ اللحى دراسة مستفيضة، بين ثلاث فترات زمنية لظهور اللحية الكاملة على الوجنتين: الأولى والأقدم كانت من خصائص الشعوب السامية. ولكن سرعان ما نقلتها عنهم بقية شعوب الشرق الأدنى. والثانية بدأت بعد ألف سنة من الأولى عندما لم تعد اللحية الكاملة هي السمة الوحيدة المميزة للساميين، وإنما انتشرت بين جميع سكان آسيا الصغرى. كما كان المصريون في عهد السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة يعتبرون كل مَن له هذا النوع من اللحى أنه من سكان الشرق الأدنى الأصليين. أما في المرحلة الثالثة فقد بدا أن هذه اللحية غير مرتبطة بأية مجموعات عرقية، بل أصبحت نتاجاً حتمياً لموضة متغيرة.

ويبدو أن ليس هناك أي عنصر من عناصر التجميل لا يمكن رده إلى أقدم العصور. وتلقي بعض الموضات - التي نتبعها من خلال ظهورها المفاجئ من جديد - ضوءاً لا يخلو من أهمية، على حالتنا الداخلية، لأن الموضة هي دائماً تعبير عن عقلية معينة، وبشكل ما نشعر وكأننا أقرباء للعصور التي ننسخ «أحداث ابداعاتنا» عن نماذجها. وهذا ما يتجلى بأبهى صورة في مجال تنوع التسريحات النسائية.

فالتسريحات التي نجدها عند مختلف الشعوب، خلال عصور التاريخ المكتوب وغير المكتوب، تدخل طي النسيان، وحالما تعود احداها للظهور لتصبح «جديدة» يمكن للمراقب الدارس والمتفهم للتاريخ الحضاري أن يستخلص منها نتائج شيقة، لأن تبدلاً ظاهرياً في أشكال التعبير الإنساني، يدل غالباً على تغير عام في العقلية.

وبالطبع يلعب الطقس وظروف الحياة الاقتصادية دوراً رئيسياً في تحديد أشكال الموضة. فالتسريحة المعقدة تتطلب وقتاً طويلاً ورفاهية في نمط الحياة بشكل أو بآخر،

فهي بالتالي تناسب الشعوب التي تمارس الزراعة. بينما قلَّ أنْ تسمح حياة عدم الاستقرار، لقبائل الجمع والالتقاط والقنص، بامكانية تخصيص عدة ساعات لتصفيف الشعر. ويمكن التمييز بين ثلاثة أنماط رئيسة للشعر: قصير ومجعد (الزنوج)، متموج ومتوسط الطول (الاستراليون والبيض)، ثم طويل وأملس (العروق المنغولية). إلا أن هذا التقسيم يظل عاماً ولا يراعي الأنماط الفرعية العديدة الواقعة بين هذه الأنواع الثلاثة.

ومن خلال دراسة العمر الثقافي لمختلف الشعوب يمكن أخذ فكرة أفضل، فقلما نرى عند الاستراليين، الذين ما زالوا يعيشون حياة المرحلة السفلى من المجتمع البدائي، تسريحات شعر مصطنعة. أما إذا ما أردنا الاطلاع على غير المألوف في هذا المجال، فعلينا أن نتوجه نحو الشعوب الزراعية، وبخاصة نحو غرب القارة الافريقية، فإذا ما قارنا مع تسريحات تلك الشعوب، لبدت تسريحات بلاط ماري انطوانيت عادية وتخلو من الابتكار.

فابتكار التسريحات في غرب أفريقيا يدخل في اختصاص فن النحت، إذ يستمر نحت التمثال عدة أشهر، إلى أن يتماسك بالطين والشحوم وغيرها.

ويتطلب إنتاج عمل فني كامل عدة أشهر يتخذ بعدها التمثال شكل القبعة الثابتة أو الخوذة. وكثيراً ما تستمر هذه التسريحات الفريدة من نوعها في الأشكال المنحوتة والمحفورة لدى هذه القبائل حتى بعد زوال الموضة نفسها أو فناء القبيلة المحلية التي أبدعتها.

من خلال هذه الحقيقة يستطيع علماء الإنسان «الاتنولوجيون» عن طريق دراسة التسريحات الافريقية، تحديد عمر العديد من الأعمال الفنية، التي لا تحمل تاريخاً، بشكل دقيق إلى حد ما.

وبدلاً من التسريحات الأصلية المعقدة يفضل الرجال والنساء في غرب أفريقيا أحياناً استخدام التسريحات الاصطناعية (بيروكات) بتثبيتها على الرأس بواسطة الصمغ، بحيث تصعب معرفة أنها مجرد تقليد للتسريحات الأصلية. وقد وجد الباحث «تيسمان» عند قبيلة «بانغقه» لوحدها خمسة وعشرين نموذجاً للتسريحات والبيروكات، ولكل منها تسمية خاصة.

بعض قبائل الكونغو تفضل الرؤوس الطويلة والرفيعة من الخلف، (يحصلون على هذا الشكل بضغط الجمجمة بألواح من الخشب منذ الطفولة) وتؤكد تسريحاتهم المائلة نحو الخلف على هذا الشكل من خلال ميزة تصفيف الشعر في قفا الجمجمة.

ولهذه الطريقة في تصفيف شعر الرجال مهمة أخرى إلى جانب الناحية الجمالية، وهي: تثبيت القناع الذي يضعه الرجل أثناء أداء الرقصات الدينية، وغالباً ما يقتصر استخدام هذه التسريحات الفنية على الرجال، بينما يكتفي الأطفال والنساء بمجرد قص الشعر.

تسريحات شعوب بولينيزيا هي بشكل عام أكثر بساطة؛ ففي الكثير من الأحيان يحلق شعر الرأس لايجاد مساحة أكبر للوشم الذي يهتم به السكان كل الاهتمام، ويعتبرونه أكثر أنواع الزينة جاذبية.

وكما يُستدل من هذه الأمثلة فقد نقلت حضارتنا الحديثة عن المراحل السالفة، وما تزال تنقل حتى الآن. وقد حالت أحياناً التعاليم الدينية القاسية لدى بعض الثقافات المتطورة دون انتشار بعض الموضات، وهكذا نرى عدم انتشار تسريحات الشعر القصير للنساء في العالم الإسلامي. ويعتبر تقصير الشعر عند الهندوس إشارة تقليدية للترمل، وليس تعبيراً عن الأناقة الدنيوية.

ولجميع الشعوب أساليب شتى وطرق متنوعة في صباغ الشعر. وقد وضع العلامة الانكليزي «بالفور» أسساً نظرية كاملة حول طرق صبغ الشعر في جزر «سالومون»، إذ حاول أن يحسم المسألة القديمة المختلف عليها علمياً حول أصل سكان جزيرة «اوستر» بزعمه أن القبعات الحجرية الحمراء التي تتوج التماثيل الهائلة في هذه الجزيرة ليست سوى تقليد للشعر المصبوغ، وأن سكان الجزيرة الذين جاءوا من جزر سالومون، قد خلدوا صورهم هناك كتماثيل ضخمة.

ويتطلب تصفيف الشعر الآدمي وترتيب التسريحات المختلفة، الاستعانة بمجموعة من المواد المساعدة، موجودة بأشكال متعددة ومنتشرة فوق القشرة الأرضية، فقد عثر في قبور العصر الحجري على أمشاط من العظم. وحتى الشعوب البدائية - سكان أرض النار مثلاً - تمشط شعرها بعظم فك الدلفين المسنن. أما وسائل غسل الشعر فمتعلقة في تنوعها واختيارها بنوع التسريحة وبتوفر بعض المركبات والمواد المعينة.

فالشعوب التي تحب الماء - كشعوب بولينيزيا - تغسل شعرها غالباً أثناء السباحة. كما تعرف بعض قبائل الهنود الحمر أنواعاً من الشامبو مستخرجة من عصير النباتات، وبخاصة من زنابق النخيل.

أما التسريحات الافريقية فهي غير مناسبة لمثل هذه الطريقة في غسيل الرأس، حيث يقي الأفارقة أنفسهم من الأوساخ والحشرات المؤذية من خلال تزييت الشعر وفركه بالكلس ومعالجته ببول البقر.

ونظراً للأهمية الكبيرة التي تعولها الشعوب البدائية على الشكل الخارجي لشعر الرأس، فمن الممكن الاعتقاد ببساطة أن مجموعة كبيرة من أشكال القبعات قد تطورت بنفس الوقت الذي تطورت فيه التسريحات. ولكن حقيقة الأمر كانت غير ذلك.

فرغم أشعة الشمس الاستوائية المسلطة على رؤوس الكثير من الشعوب البدائية، فإنَّ هذه الشعوب لا تعتبرُ لبس القبعة أمراً ضرورياً، بل كان بالدرجة الأولى تعبيراً عن المنزلة الاجتماعية والنفوذ، وبالتالي فان أهميتها تلك تفوق إلى حد بعيد أهميتها العملية. فأغطية الرأس عند كثير من زعماء القبائل الافريقية هي عبارة عن دليل على النفوذ (كما هي الحال أيضاً في استخدام المظلة التي تعتبرها الشعوب البدائية رمزاً للزعامة أو المركز الاجتماعي) وما يزال هذا المفهوم ساري المفهول حتى أيامنا هذه، بدءاً من القبعات الرسمية التي يضعها أصحاب النفوذ في الصين حتى قبعات العسكريين التي تزداد تزييناتها الذهبية مع علو المرتبة. وما «البيريه» والقلنسوة التي يضعها الكهنة إلا مثالٌ آخر على ذلك.

في المناطق الباردة، حيث تتطلب ظروف الطقس ارتداء القبعات وطواقي الفرو، تكون أشكالها عملية وبسيطة، بينما كانت قبعات سكان المناطق الاستوائية عبارة عن الشكل البدائي الذي تطور عنه التاج فيما بعد. وكانت القبعات بالنسبة للغزاة الأوربيين في افريقيا عبارة عن علامة تميزهم كسادة بالنسبة للسكان المحليين. ويمنح الفتى عند بعض شعوب جزر المحيطات قبعة كعلامة على بلوغه سن النضج، ولا يتلقاها إلا بعد اجتياز اختبارات قاسية في الشجاعة. وللقبعات عند بعض شعوب غينيا الجديدة شكل مدبب، مدهونة بالكلس أو مزينة بالريش والأزهار، ملتصقة برؤوس الرجال لا يخلعونها حتى أثناء النوم. وتسمح بعض القبائل للفتيان بارتداء مثل هذه القبعات حالما «نبت الشعر على ذقونهم»، بينما لا يسمح البعض الآخر للفتيان بارتدائها إلا بعد اجراء طقوس التعميد البدائي التي يدخل بعدها الفتيان مرحلة الرجولة. وتنتشر مثل هذه القبعات في كل أنحاء العالم. وقد لعبت القبعة الغريبة

بشكلها المدبب دوراً أسطورياً على مسار التاريخ لكنها فقدت أهميتها كإشارة على المرتبة الاجتماعية والنفوذ، واقتصر استخدامها على بعض السحرة والمشعوذين.

وفي القرن الحادي عشر أرغم اليهود في أوربا على ارتداء قبعات صفراء مدببة. وتبدو على قطع عملة، صكت في سكسونيا عام ١٤٤٤م، وسميت «قروش اليهود» صورة رجل بلحية يضع على رأسه قبعة مدببة. كما رأى «لاساج جيل بلاس» أكواماً من الحطب أعدت لحرق الهراقطة والملحدين في «طليلة». وكانت الضحايا المعدة للحرق تلبس قبعات مدببة مصنوعة من الورق وعليها رسوم تمثل لهيب نار وصور شياطين.

ولا تزال هذه القبعات المدببة علامة مميزة للمشعوذين المسرحيين والسحرة في السيرك. ومنها اشتق ما يسمى «بقبعة المغفلين» التي توضع على رؤوس الأطفال المشاغبين في أميركا كنوع من العقاب. فمن خلال هذا الماضي الرهيب لهذا الشكل من القبعات تبرز متعة البحث عن أصول العادات والأدوات المستخدمة في الحياة اليومية.

أما مفاهيم الجمال وحسن الذوق فتتنوع لدى مختلف شعوب الأرض إلى حد مثير للدهشة. ومن هنا فان نظرتنا إلى الأسنان البيضاء كعنصر جمال لدى الإنسان، تعتبر نظرة متحيزة، رغم وجود شعوب أخرى تشاطرنا وجهة النظر هذه. فقبائل «النوير» الافريقية مثلاً تستخدم رماد الحطب وروث الأبقار للحفاظ على أسنان بيضاء ونظيفة. كما تعتبر قبيلة «بانغقه» من أنصار العناية الفائقة بالأسنان، فالواحد منهم - كما ذكر تيسمان - يحمل معه عصا كبيرة للنزهة مزينة بالنحاس الأصفر، طرفها العلوي مقسم على شكل فرشاة. ويحب المتسكع أن يتوقف بين الحين والآخر لينظف أسنانه بهذه «الفرشاة».

وبالمقابل ترى قبائل في جزيرة «بورنيو» الاندونيسية أن جمال الفم لا يكتمل إلا بوجود أسنان سوداء، وقد راقب الباحث «شتال» الطريقة المعقدة للحصول على أسنان سوداء، مراقبة دقيقة. فذكر أن هذه الطريقة «مقدسة» فلا يسمح لأحد أن يلون أسنانه بالأسود إلا قبيل الشروع بطقوس احتفالات عيد الشيطان. كما يحب أفراد هذه القبائل أن يقطعوا رؤوس أسنانهم بواسطة مبرد من الحجر، حتى جزر السن، بعدها - وكما ذكر الباحث - لا يعانون من أية آلام أسنان لأنهم يمضغون مادة ممتازة للوقاية من ألم الأسنان تسمى «سيرين».

وليست عادة قطع الأسنان سوى واحدة من عادات بدائية عديدة لتشويهها. وغالباً ما ترتبط هذه الطقوس الرمزية بالسحر القمري، وتجري في احتفالات البلوغ كرمز على وقار البالغين. وتكسر بعض القبائل... «النوير» مثلاً - القواطع السفلى لأطفالها في سن السادسة أو السابعة، قائلة: «إنما نفعل ذلك للتأكيد على الفرق بين الإنسان والحيوان»، كما يقول الباحث «شميث». وأحياناً تبرد الأسنان الأمامية فقط بالازميل لتصبح مدببة. ففي جنوب شرق استراليا يقوم بهذه العملية أحد أكبر أفراد القبيلة سناً، الذي يظهر مقنعاً - كما يقول شميث - كالكائن الأعلى، ولا يجوز للفتية أثناء ذلك أن يبدوا أية علائم للتألم. ويفسر السكان الأصليون عادة تشويه الأسنان بقولهم الذي ذكره «ليندبلوم»: «نغير أسناننا لنتمكن بعد ذلك من البصاق بطريقة فنية».

وقد روى رجل من قبيلة «ماشاكو» في غرب افريقيا للباحث نفسه القصة التالية التي كتبها المؤلف بحرفيتها:

[خلعت ثلاث فتيات ملابسهن استعداداً لبرد أسنانهن. بُردت الأسنان وخُلعت لاحداهن سنتان وبُردت لها ست. أصبحت أسنان الفتاة الثالثة مدببة أكثر من أسنان زميلتها. قالت الفتيات الثلاث: «دعونا نرى من منا خلعت أسنانها وبردت على أحسن حال، هيا نبصق!» وبصقت الفتيات الثلاث. استطاعت الفتاة التي بردت أسنانها بشكل أفضل أن تقذف بصاقها مسافة أطول مما استطاعت زميلاتها، فأثار ذلك غيرتهما، فقامتا بالقائها في الماء فغرقت فيه]. انتهت القصة.

وهناك تشويه آخر غريب للأسنان، عمدت إليه بالدرجة الأولى شعوب الحضارات الراقية، وهو تلبيس الأسنان بأحجار كريمة أو بمعادن ثمينة. فعلى سبيل المثال تقوم بعض الشعوب بحفر ثقوب في الأسنان الأمامية وملئها برقائق من النحاس أو الذهب أو الصدف. ورغم أن الأمر يتعلق هنا بالدرجة الأولى بضرب من الزينة، إلا أن ذلك لا يعدو كونه تشويهاً.

وليس هذا التشويه هو الأغرب من نوعه، بل الأغرب من ذلك هو ثقب الجدار الفاصل بين فتحتي الأنف لتعليق بعض أنواع الحلي. فعند ثقب الجدار يوضع عود صغير في الثقب، ليستبدل فيما بعد بقطع حلي أكبر مثل الريش والعظام أو الخواتم الخشبية أو المعدنية وبخاصة في استراليا، بينما يقتصر هذا الامتياز في بولينيزيا على

النبلاء. وإذا ما تمت هذه العملية لأطفال الطبقة العليا (وعادة بواسطة عظم خصم مقتول) فإن ذلك مناسبة لإقامة احتفال كبير.

بالإضافة إلى ثقب جدار الأنف الداخلي تثقب بعض الشعوب جدار الأنف الخارجي الأيمن لتعليق قطع الحلي أيضاً. وقد نقلت حضارة الهندوس الراقية هذه العادة! فبدلاً من وضع أسنان الخنزير أو عيدان الخيزران، يعلق الهندوس خواتم أنفية مذهبة ومرصعة بالأحجار الكريمة. كما تثقب بعض الشعوب شحمتي الأذنين وتزين العينين حول القزحية بدائرة من النقاط السوداء. ومن أندر ضروب «تجيمل» الوجه نأتي على ذكر الأوتاد أو الأقراص المصنوعة من الخشب أو العاج، وهذه تعلق اما في الشفة العليا أو السفلى أو على الأذنين. فالهنود الحمر في منطقة آلاسكا كانوا يعلقون مثل هذه الأقراص في منتصف الشفة السفلى. وقد بلغت الأقراص الخشبية التي تعلقها النساء هناك على شفاههن حجم صحون فناجين القهوة، ولذلك فليس عجباً أن يكون فن التقبيل غير معروف أبداً عند نساء هذه المنطقة. وكذلك ثقوب الأذنين يمكن أن تأخذ حيزاً خارجاً عن المألوف عندما تعلق فيها «قطع حلي» ثقيلة، مثل، البكرات الخشبية التي تتدلى على شحمتي الأذنين وكأنها معلقة على شريط من المطاط، كما لا يعد طلاء الأظافر، الذي تستخدمه السيدات في عصرنا هذا، والمتدرج الألوان ما بين الزهري والقرمزي، اختراعاً حديثاً. فكثير من الشعوب البدائية تبرد أظافرها بالحجارة أو بالشظايا ثم تصبغها بألوان حمراء فاقعة، ويمكن ملاحظة هذه العادة المحببة، التي كانت منتشرة بشكل خاص في الصين ومصر، بصورة بينة على المومياءات المعروضة في المتحف البريطاني.

وقد بلغت زينة الجسم الإنساني أوجها في مستحضرات التجميل وأدواته التي صنعتها يد الإنسان، مثل أطواق العنق وأساور اليدين والتزيينات بالريش وبكل ما يتبادر للذهن من أنواع للزينة. فمن أوتار الحيوانات البسيطة التي تتدلى منها «اللآلئ» المصنوعة من عظام الطيور، حتى ريش الببغاوات وأذناب الطير المسمى مالك الحزين، والصدف والقلادات المصنوعة من النحاس الأصفر، والسلاسل التي تعلقها القبائل الافريقية في الأعناق، يستخدم الإنسان كميات غير معقولة من أنواع الزينة التي يحدد شكلها أو مادتها مدى جمالها وقيمتها. فقلما توجد مادة في الطبيعة لم تستخدم في تزيين الجسم الإنساني كشواهد على الذوق السليم وعلى غنى حاملها. وما

أنياب الخنزير البري وقواقع الحلزون وأسنان الوطواط وقشور البيض وعظام الأفاعي ودروع السلاحف والخواتم والأطواق الحديدية والفضية والذهبية سوى أمثلة قليلة على ذلك.

ولكن يجب أن نذكر أيضاً أن اختيار هذه الزينات محكوم أيضاً بالتصورات الدينية والسحرية لهذه القبيلة أو تلك. وهكذا نجد أن بعض الشعوب التي تتبع النظام الأمومي (نظام حق الأم) وتمارس الطقوس القمرية، تستخدم أدوات للزينة ذات شكل مفلطح وهلالي مصنوعة من الصدف ودروع السلاحف ومن مختلف أنواع المعادن ولها دائماً شكل القمر. وما تزال هذه الأشكال تلعب دوراً هاماً في الثقافة الإسلامية.

أما الشعوب التي تتبع النظام الأبوي (نظام حق الأب) وتمارس الطقوس الشمسية فتفضل القرص الدائري كأداة للزينة وترصعه بشتى أنواع الزخارف.

ورغم أن عدد المواد التي تصنع منها أدوات الزينة غير محدود، إلا أن هناك بعض المواد المفضلة، والتي لا يقل تفضيلها في منطقة عنه في منطقة أخرى. فحلزون «الكاوري» مثلاً يزين الأذرع والأعناق والشعر في منطقة تمتد من أفريقيا حتى استراليا. كما حافظ الخرز البللوري الملون على مكانته منذ القرون الوسطى وبخاصة في أفريقيا، حتى أصبح جزءاً من الثقافة الأصلية لشعوبها. فهي لا تغطي أجسام أفراد القبيلة فقط بل وأدواتهم الثمينة أيضاً المصنوعة من الخشب المحفور، كما نراه على كراسي زعماء القبائل. وقد نقل الهنود الحمر فيما بعد هذه «الدرر» واتخموا فن التزيين القديم عندهم بالخرز الملون.

ولكل قبيلة نوع من الخرز تفضله وتتزين به، لأن ذلك يخضع أيضاً لاعتبارات الموضة المتغيرة باستمرار. وكم دهش أحد الباحثين عندما حاول أن يقدم للسكان الأصليين نوعاً من الخرز البللوري الأزرق المتطور جداً كوسيلة تبادل سلعي، فوجد أن سيدات الهنود الحمر الأنيقات لا يتزين إلا بخرز أحمر. كما يجب الأخذ بعين الاعتبار أن هناك صدفاً تصلح لزينة الرجال فقط وأخرى خاصة بزينة النساء.

ولبعض أنواع الصدف قوى سحرية يسخرها المحبون المهجورون لكي «تجعل الأحشاء الداخلية للجميلة ترتجف من ثورة العاطفة» كما عبر عن ذلك كل من الباحثين «سبنسر» و«غيلين».

ويمكن لقطع الزينة التي يبدعها الفنانون الأفارقة أن تبلغ أبعاداً ضخمة. ولكن حتى أثقل هذه القلادات والخلاخيل وأساور العنق والمعصم، مصنعة أيضاً بدقة كتلك الأساور المصنوعة من شعر الماعز والملفوفة بأسلاك من النحاس. وكلما اقترب شعب من الشعوب من مستوى الثقافة الراقية، قام صياغه بتصنيع مواد ثمينة أكثر في مفهومنا المعاصر، كأدوات للزينة. ومن بين هذه المواد يبرز المرجان الأزرق في «بنين» حيث تعرض الرسوم النافرة على أطباق الزينة البرونزية، رجالاً بأذرع وأعناق ووجوه مغطاة بأطواق من المرجان الأزرق بحيث قلما يستطيعون التنفس من فمهم بسبب تلك الأطواق.

ومن بيرو القديمة جاءت «اللآلئ الخضراء» من أحجار الزبرجد الفاخرة التي تعود لفترة ما قبل حضارة «الانكا». كما كانت وحدات الأوزان الذهبية التي يستخدمها الاشانتي - جنوب السودان - لوزن غبار الذهب نفسها من معدن نبيل ومصنعة على هيئة حيوانات وزينات ورموز. وقد وجد الغزاة الذين داهموا «بيرو» قصوراً أصيلة فيها جميع الأغراض البيتية المستخدمة في الحياة اليومية، وكلها من الذهب الخالص.

وما على الذين أدهشهم اختفاء القطع الذهبية للعالم القديم والحديث إلا القيام بزيارة لحسناوات الصحراء في شمال افريقيا، ليروا زينة أذرعهن وأعناقهن المؤلفة من قطع العملات النبيلة، الأوربية منها والآسيوية، وتلبس جميع قطع الزينة، اما على البشرة مباشرة أو فوق الملابس، لأن عادة لبس الزينة قديمة على الأقل قدم عادة ارتداء الملابس القماشية، ان لم تكن أقدم منها. وبالطبع يلعب الطقس هنا دوراً رئيسياً وهاماً. فمن عرف الطقس الصيفي الحار والرطب في نيويورك، التي يقال عنها انها تمثل قمة الحضارة، يعرف أيضاً أن الرجال والنساء الذين كتب عليهم ارتداء الثياب العصرية في الشوارع خلال شهري تموز وآب، يرتاحون في البيت بملابس قلما تختلف عما ترتديه الشعوب البدائية في المناطق الاستوائية.

وقد تطور لباس الرجل الغربي المؤلف من البنطلون والصدرية والجاكيت عن لباس الشعوب القطبية، ومن أقدم قطع الملابس التي سكان أرض النار في أقصى جنوب قارة افريقيا يلبَسُها حتى الآن يأتي معطف الفرو المتدلي حول الجسم والمربوط بخيوط من الجلد وقشور الشجر وملفوف بحزام. ولا يقيم الهنود الحمر في منطقة لابرادور، الذين يعيشون من صيد الفراء - أي وزن لمعطف فرو «المنك» الذي يعتبر في نيويورك قمة

الأناقة، بل يرتدون الغطاء الصوفي السميك الذي تبيعه شركة «هيدسون باي» ويسمى البطانية المدبية، ويعتبر أجمل قطعة لباس يمكن للمرء أن يرتديها. وهذا برهان آخر على نسبية اصطلاح «موضة».

ولا تعتبر الملابس أو مختلف أنواع الأحذية، لدى جميع الشعوب وفي مختلف العصور، نوعاً من الزينة، بل بشكل وبآخر، اجراءات لوقاية الجسم.

الاستثناء الوحيد ربما كان قطعة ملابس خاصة بالمرأة تبدو وكأنها حديثة، ألا وهي حمالة الصدر التي تطورت عن مجرد خيط كانت تستخدمه الفتيات لربط أثدائهن. وعندما رأى الأب «شولين» مثل هذه الأحزمة عند إحدى قبائل شرق افريقيا وسأل عن منشئها جاءه الجواب على الشكل التالي: «أيها السيد، ان الأثداء ترتجف، وعندما يرى الرجال ذلك يحترقون» وتضع الكثيرات من الفتيات الافريقيات هذه الأحزمة المغرية وأحياناً يستبدلنها بشريط من القماش «لكي لا تتحرك الأثداء صعوداً وهبوطاً عندما تمشي الفتيات». وطالما أن جميع أفراد القبيلة تقريباً يرتدون قطع الملابس نفسها، فقلما يمكن الحديث عن موضة خاصة. فمثل هذه الموضة الخاصة يمكن أن تتطور حيث يسمح توفر مجموعة كبيرة من المواد المتنوعة بخلق تشكيلة فردية، حيث تزين الأقمشة بالنماذج المرسومة أو المطبوعة أو المنسوجة، وحيث يمكن استخدام مواد أخرى، كالأزرار وغيرها من الأشياء غير الضرورية، كنوع من الزينة. فالذوق الفردي هو المعبر عن المفهوم الحقيقي للجمال.

وهناك لوازم أخرى لفن الاغراء، خاصة العطور التي لم تظهر إلا في عصر الثقافات المتأخرة، لأن معظم أزهار المناطق الاستوائية لا تنبعث منها رائحة زكية. كما أن فنون الكيمياء لم تكن معروفة عند أقدم الشعوب. ورغم ذلك يمكن ارجاع عدة أدوات نلقاها على طاولة التواليت المعاصرة، إلى عصور قديمة. فهناك علب مصنوعة من العظم تعود للعصر الحجري تحتوي على أحمر شفاه، وأدوات زينة أخرى متعددة وأصبغة تعود للفترة نفسها. وهناك أيضاً ألواح صغيرة لحمل مواد للزينة تكون أحياناً على شكل يد ادمية بأصابع منفرجة، من العصر الجليدي، صنع على منوالها في مصر من المعادن الثمينة. كما عثر في كهوف عصر الجليد على لوحات اردواز مزخرفة وعلى زجاجات صغيرة من العظم وعلب مراهم جلدية ذات أغطية.

وما الـ «انروز» اليابانية المشهورة والمرصعة بالأحجار الكريمة سوى تقليد متأخر لهذه الأشكال نفسها.

أما المرايا فأقدم أنواعها عبارة عن صدفة ذات سطح أملس أو قرص معدني مصقول، نشاهد أشكالاً فاخرة ومتأخرة عنها في متاحف العالم. أما منشأها فهو مصر والصين وبيزنطة واليونان.

ويجدر بنا أن ننظر إلى رفاهية الحياة التي بلغتها الحضارات الراقية القديمة خلال الفترات التي سبقت بداية التأريخ. ويكفي الإنسان أن ينظر إلى قطع الزينة المصرية القديمة والتنقيبات الأثرية في «أور» (التي تعود تقريباً إلى عام /٢٥٠٠/ قبل الميلاد) ليصل إلى هذه القناعة.

وكلنا يعرف روعة فنون التجميل في عصر كليوباطرة وفي روما وفي حضارة «انكا» في البيرو القديمة. كما كانت امبراطورة بيزنطة «تيودورا» بحد ذاتها تحفة حية «غبار الذهب يملأ شعرها المائل للزرقة وعلى أهدابها الكحل العربي، وسادتها ملبسة بالحرير الصيني ومحشوة بريش الكراكي. مئات من الزجاجات وأدوات الزينة تغطي طاولة التواليت المصنوعة من خشب الليمون، صابونها من اسبانيا وحوض حمامها من خشب البطم المحفور».

أما عصرنا هذا فلم يعد يهتم بمثل هذه المواد الكمالية الفاخرة. فمع نشوء الديانات الحديثة نشأت بالتالي حياة أخلاقية جديدة وردت في سفر اللاويين الاصحاح التاسع عشر:

«لا تقصروا رؤوسكم مستديراً ولا تفسدوا عارضيكم ولا تجرحوا أجسادكم لميت، وكتابة وسم ولا تجعلوا فيكم لاني أنا الرب» أي لا تقصوا شعوركم حول الرأس ولا تحلقوا لحاكم ولا تجرحوا أجسادكم لمتوفى.

ولكن ذلك الجزء من الإنسانية الذي لم يطلع على أسرار الكلمة المكتوبة والمطبوعة، لم يتقيد بهذه التحريمات. فالرجال والنساء في جميع أنحاء العالم، الذين نطلق عليهم تكبرا اسم «البدائيين» مازالوا يفرحون بالألوان والزينات التي وهبتها لهم الطبيعة ويحاولون حتى الآن زيادة جاذبية جمالهم الطبيعي باتباع فنون التجميل التي حافظوا على معرفتهم بها آلاف السنين.

الفصل الثالث

الآلـة الأولـى أو الاختـراع الأول في تاريـخ البشريـة

الحياة في البرية صعبة على المخلوقات. ولكن الإنسان المزود بالذكاء، الذي حرم منه اخوته في المملكة الحيوانية، حاول منذ البداية، من خلال اختراع الآلات والأدوات المختلفة، أن يخلق لنفسه شروط حياة أفضل مما أتيح لبقية الكائنات الحية الأخرى التي تعيش في الطبيعة. ولذلك يظل اختراع الآلات والأدوات واحداً من أهم الخصائص التي يتميز بها الإنسان. فمنذ البداية حاول الإنسان أن يتغلب على أعباء الحياة الملقاة على عاتقه وتخفيفها مستخدماً مختلف القوى المساعدة. ولو كان بامكانه لحلم باختراع المصباح السحري ليخرج له جني يسخّره حسب مشيئته. لكن رغم أحلامه، لم يعش الإنسان في عالم الحكايات. ولو كان باستطاعته أن يخلق عبداً آلياً ذكياً، لاخترعه بنفسه وخلقه بيديه، لأن هذا العبد كان يجب أن يكون آلة، أي أول إنسان آلي تصنعه يد بشرية. وكم كان بحاجة إلى مثل تلك الآلة السحرية! وأكثر من كان يحتاج إلى هذه الآلة هي القبائل التي لم تكن بعد قد حققت الضمان النسبي لزراعة الأرض، فكانت حياتها عبارة عن التقاط وقنص مستمر على الدوام. حياة مرهقة وعلى وتيرة واحدة حالت دون الميل نحو التفكير والاختراع. فغالباً ما يستغرق الاهتداء إلى عش نحل بري على قمة شجرة واتخاذ الاستعدادات اللازمة للتوصل إلى العسل عدة ساعات. ولم يكن من السهل قتل الطائر أثناء تحليقه في الجو، أو اختبائه في الدغل، والتربص بالطريدة المارة، أو الوقوف في الماء برمح مشهر، استعداداً لصيد الأسماك التي تمر مسرعة. فكل أنواع الحصول على الطعام هذه تتطلب صبراً كبيراً وأقصى درجات المهارة. ومن الجائز أن تمضي أيام حتى تدنو حيوانات القنص دنواً يصبح فيه قتلها ممكناً. وبما أن الإنسان لم يكن قد تعلم بعد أن يفكر في أيام الرخاء بأوقات العوز ويدخر من طعامه للمستقبل، فقد كان يعيش على الدوام أقصى حالات الضيق.

وهكذا كانت الشعوب القديمة مضطرة لاختراع أدوات لقنص الحيوانات، أفضل من تلك التي استخدمتها أول الأمر. فبدلاً من العصي والحجارة المقذوفة بدأت تستخدم أدوات أخرى لاصطياد الحيوانات البرية، مثل السهام والحراب والشباك، وكذلك الأنشوطة التي تشد باليد. كل هذه التحسينات تتطلب حضوراً مباشراً وانتباهاً ويقظة من قبل القناص. ولم تكن تلك الطرق تفيد إلا في زيادة مدى ما تطاله يد الإنسان وإلقاء القبض على الحيوان المصطاد أو الذي أصابته الحراب، ريثما يصل إليه الصياد ويتولى أمره. وتمكّنَ الإنسان فيما بعد بواسطة الأدوات التي اخترعها، من اصطياد أكثر من حيوان في وقت واحد. فقد تمكنتْ مجموعة متعاونة من القناصين من القاء شبكة على قطيع من الحيوانات أو رف من الطيور، هذه الطريقة التي استخدمها الفرعون «حارم حب» منذ أقدم العصور، وما تزال مستخدمة حتى أيامنا هذه. وما يزال صيد طيور السمّن وأخرى غيرها يتم بواسطة شبكة ضخمة على أطرافها حجارة لزيادة ثقلها.

تقوم قبائل داياك في جزيرة بورنيو الاندونيسية باصطياد الوعل بهذه الطريقة إذ تحاصر قطعانه وتدفعها باتجاه شبكة مشدودة على شكل نصف دائرة. وبهذه الطريقة يتم صيد الظباء والغزلان في شرق افريقيا والأرانب في مناطق الاسكيمو. تساق هذه الحيوانات أول الأمر من قبل مجموعة الصيادين باتجاه الشباك المنصوبة حتى تعلق بها؛ ومن ثم يقوم الصيادون بضربها حتى الموت. وتشكل طريقة الصيد هذه تقدماً هاماً بالنسبة لطرق القنص الافرادي والمجهدة التي كانت تستخدم من قبل، لكنها أيضاً تتطلب دوماً حضور الصياد الدائم ومساعديه.

كما انتشر صيد الطيور بواسطة الشباك انتشاراً واسعاً، فسكان سيبيريا يصطادون الوز البري بهذه الطريقة، بينما يصطاد الاسكيمو دجاج الثلج بواسطة شباك سمك اللقس وبالأسلوب نفسه. بينما يتطلب الصيد بأسلوب المطاردة باتجاه الشبكة اتباع طريقة أخرى مختلفة. فقد اتبعت قبائل الهنود الحمر في منطقة البراري في أميركا الشمالية طريقة مطاردة قطعان الجاموس بين مجموعة متقاربة من الاسوار باتجاه حفرة تسقط فيها هذه الحيوانات.

وهناك طرق بدائية أخرى لصيد الطيور نستخدمها نحن الآن حيث ننادي البط أو الوز البري بصيحات تمويهية مقلدين صوته. فعندما يقترب يقوم الصياد المختبئ خلف دغل أو شجرة بشد حبل في يده مربوط بآلية معينة توقع الحيوان في سلة أو قفص أو شبكة.

وفي الوقت الذي زادت فيه امكانات الحصول على صيد وفير باستخدام كافة التحسينات التي طرأت على طرق الصيد، بقيت مسألة هامة لم تحل بعد وهي: الحصول على النتيجة نفسها أو ما يشبهها دون الحاجة إلى تواجد الصياد الدائم. فلا يمكن التوصل إلى تسهيل حقيقي للعمل وإلى تخفيف ملموس لأعباد الصياد إلا عندما يصبح بالامكان الاستعاضة عن مهام انتظار الطريدة وتشغيل أو حل الأنشوطة التي تصطاد أو تقتل الحيوان، بوسيلة آلية تقوم بذلك.

فاختراع مثل هذا الجهاز سيسمح للصياد بالبحث عن أعمال أخرى في الوقت الذي يقوم فيه الجهاز باصطياد الحيوان. وبنفس الوقت أيضاً يمكن اصطياد عدة حيوانات في وقت واحد وفي أمكنة مختلفة. فأثناء وقت الفراغ المكتسب هذا يتوفر للصياد وقت يتفرغ فيه لصنع حاجات بيتية تساعد في تحسين أسلوب حياته، أو يبقى فيه في بيته، يغني ويرقص ويستمتع.

وقد جاء بالفعل ذلك اليوم الذي تم فيه هذا الاختراع الموعود، عندما توصل الإنسان، ولأول مرة، إلى اختراع آلة تعمل له أثناء غيابه. فقد أنتج ذكاء الإنسان إنساناً آلياً احتل مكانه بدقة تقنية عالية. ولم يكن هذا الجهاز السحري سوى شرك الحيوان.

فالشركُ الحقيقي يغني عن السهام والشباك والعصي والأنشوطات التي تلقى باليد. بالإضافة إلى أنه يحقق نتائج أفضل وأكثر ضماناً بكثير، ويستطيع أن يحل قوى أكبر من تلك التي تستطيع أن تؤديها اليد. فمن خلال تصميم آلية حل ذات بناء هندسي يعتمد على مبدأ الرافعة أو العتلة، فان أي لمسة خفيفة يمكن أن تحل ثقلاً ضخماً يتناسب مع قوة الحيوان الذي يتم اصطياده.

ورغم افتقار المخترعين عند الشعوب البدائية لأية معارف مدرسية عن مبادئ الفيزياء، وعدم معرفتهم لأسباب الظواهر الميكانيكية، إلا أنهم كانوا مراقبين متمرسين لكل ما يحدث في الطبيعة، فدأبوا على تقليده بشكل آلي.

ولم يكن معلمو الفيزياء لدى الإنسان البدائي سوى الأغصان التي تنحني صدفة نحو الأسفل ثم تعود إلى وضعها الطبيعي، وجذوع الأشجار التي تتدحرج بعد عاصفة على منحدر، والحفر الأرضية المليئة بأوراق الأشجار المتساقطة. فاستخدم ما تعلمه من هذه الظواهر بأسلوب ذكي. وعندما لاحظ أن آلاته التي تستخدم هذه القوى أصبحت

تعمل بالفعل، لم يقنع باختراع نوع واحد من الشرك، بل قرن بين معرفته الميكانيكية التي اكتسبها وبين معرفته بالمناخ وبعادات الطرائد المتواجدة في موطنه، ليخترع مئات الأنواع من الشراك التي تتناسب مع خصائص الوسط الذي يعيش فيه.

ولكي يجعل إنسانه الآلي فعالاً، استخدم سرعة التيارات وسرعة الانزلاق على الجليد، وعطش حيوانات الغابة التي تبحث عن الماء، وحب الدببة للحلويات، وغريزة السرقة عند البوم، ووداعة وخوف المخلوقات الليلية وعنفوان النمر الذي يقفز عندما يسقط في الشرك مرة واحدة فقط، فان لم تحقق له هذه القفزة الوحيدة حريته، استسلم وانتظر مصيره. وفي معرفته الدقيقة لطباع الحيوانات المتواجدة في محيطه، أخذ في اعتباره مقدرتها العالية على الشم، فمحى جميع آثار الإنسان عن آلته، بحيث قام بنشر الخشب المستخدم في صنعها واستخدم مواد لاصقة وأربطة طبيعية، وجعل الطعوم في المصائد من تلك الأنواع التي تطغى رائحة صمغها، أو دمها، أو أية صفة أخرى فيها، على أي أثر يدل على الإنسان. ولخداع عين الحيوان موهت المصائد المنصوبة بأسوار اصطناعية مغطاة بأغصان الأشجار، وسترت الحفر المعدة كمصائد بالحشائش والأوراق المتساقطة من أجل التضليل. وبدءا من الاسطوانات الصغيرة المصنوعة من الخيرزان لصيد الفئران، حتى المصائد الضخمة التي تقام لصيد الزرافات والفيلة، اخترعت الشعوب البدائية المئات من طرق القنص، تثير حتى الآن اعجاب وحتى دهشة العلماء. وتملك بعض المتاحف مصائد حيوانات أو أجزاء من مصائد جاء بها العلماء ضمن مجموعاتهم، لم يتعرفوا على بعضها قط أو لم يستطع أحد أن يقوم بتركيب أجزائها، إذ يتطلب ذلك معرفة متخصصة تستطيع تحديد ملامح وتركيب المصائد التي اخترعتها الشعوب البدائية بطريقة عبقرية. وغالباً ما لا يتسنى ذلك إلا بعد دراسة واعية ومتعمقة لمجمل ثقافة الشعب الذي اخترعها، تراعي فهم الظروف المناخية الخاصة والحيوانات التي وجدت فيها.

ورغم استخدام المبادئ الفنية المختلفة عند بناء «الإنسان الآلي» الأول في تاريخ البشرية، تبقى هناك مواصفات مشتركة بين جميع المصائد، وذلك خلافاً لوسائل القنص التي يتطلب عملها وجود الصياد - لأنها تمثل تركيباً يطبق من تلقاء نفسه بآلية معينة على الحيوان دون أي تدخل من قبل الصياد، ويبقى ممسكاً به أو يقتله. وبالإضافة إلى

هذه الصفة المشتركة يمكن تقسيم مصائد الحيوانات التي استخدمتها الشعوب البدائية إلى أربع مجموعات رئيسية من حيث تركيبها ومبتدأ آلية عملها. ونظرة عميقة ومتفحصة إلى هذه المجموعات تعطينا لمحة مفيدة عن الذكاء الفائق الذي استخدمه الإنسان الأول في جهوده لتحسين أسلوب حياته. وهناك تشكيلات لا حصر لها من أنماط المصائد الأربعِ هذه. يظهر في كل منها المبدأ الأساسي المستخدم في صنعها بوضوح.

النوع الأول، وهو المصيدة التي تعتمد على الثقل الهابط وهي - كما يدل عليها اسمها - تقوم على مبدأ حركة الحيوان الذي تصطاده، أو على الثقل الذي ستحله حركة الحيوان ليسقط ويلقي القبض عليه. والمصيدة الوحيدة التي تقوم على هذا المبدأ مؤلفة من حفرة في الأرض تغطى فتحتها بأوراق الأشجار والأغصان الضعيفة وغير ذلك مما يوفر التمويه الشامل بحيث تطأ قدم الحيوان المار - دون أن يدري - فوقها ومن ثم يسقط فيها.

وتتناسب سعة الحفرة مع حجم الحيوان الذي أقيمت من أجله. ولمنع الضحية من إمكانية الافلات تستخدم مختلف أنواع الاجراءات التي تمنع حدوث مثل ذلك، منها زيادة عمق الحفرة، أو حفرها على شكل مخروط بحيث لا يستطيع فيها الحيوان العالق حراكاً. وكذلك تنصب أحياناً في قعرها أعمدة مدببة في طرفها الأعلى، بحيث تغرز في جسم الحيوان أو تسبب له جراحاً.

ويقوم «البوشمن» باعداد حفر لصيد الزرافات لها شكل خاص؛ إذ يحفرون حفرتين مجاورتين بينهما جزء غير محفور بحيث إذا وقع الحيوان في الشرك تسقط قائمتاه الأماميتان في حفرة والخلفيتان في الحفرة الثانية ويظل بطنه فوق المنطقة غير المحفورة فلا يستطيع في هذه الحالة حراكاً. وتقام مثل هذه الحفر بشكل مجموعات، تفصل بين الواحدة والأخرى مسافات معينة، إمّا على أطراف الغابة أو على الطرق التي تسلكها الحيوانات في طريقها إلى النبع. (صورة رقم ٢).

وقد استخدمت مثل هذه المصائد حتى في الحرب العالمية الثانية. ولكن الحيوان في هذه المرة لم يكن سوى «الديناصور الحديث» أي الدبابة التي كثيراً ما سقطت في مثل هذه الحفر المموهة.

وهناك نمط آخر من هذا النوع يحل محل ثقل الحيوان كمبدأ لحل الثقل، إذ يقوم الحيوان نفسه بحل ثقل حجر أو جذع شجرة أو مركب من عدة أشياء ثقيلة.

ويفترض في ارتفاع المصيدة أن يولد قوة، تتناسب مع علو الثقل الهابط. والشكل الأبسط لمثل هذه المصيدة هو الحجر المتوازن بعصا متحركة. فالعصا الخشبية التي تسند الحجر تشكل في الوقت نفسه الميكانيكية التي تحمل الطعم، بحيث يؤدي سحب الطعم إلى سقوط الحجر، فتؤدي قوة الثقل إلى قتل الحيوان.

ولكن هذه الميكانيكية قد لا تؤدي إلى النتيجة المرجوة عندما يتحمل عمود الاستناد الجزء الأكبر من المركز. ففي هذه الحالة يقلل الثقل الواقع على عمود واحد فقط من فعالية المصيدة أو يلغيها نهائياً، فيصبح بامكان الحيوان أن يأكل الطعم دون أن تطبق عليه المصيدة، ولذلك أدرك الإنسان البدائي ضرورة تقليل القوة اللازمة لانطباق الشرك لزيادة فعالية المصيدة. وقد تحقق ذلك بادخال نواقل تخفف من ضغط القوة. وقد استخدمت مثل هذه المصائد في جميع أنحاء العالم وبخاصة من قبل الشعوب القطبية.

وكثر عدد المواد التي تزيد من ثقل المصيدة بحيث صار من الضروري ادخال تعقيدات على ميكانيكية سقوطها، فكانت النتائج التي تم التوصل إليها مذهلة. فقبائل ناسكابي الهندية الحمراء في شبه جزيرة لابرادور مثلاً تبني مصائد للدببة باستخدام أربعة أو خمسة جذوع أشجار لتوفير الثقل المطلوب وبذلك يمكن سقوطها بمجرد لمسة بسيطة من أنف الحيوان للطعم، وبالتالي قتله(١). (صورة رقم ٣).

وبعد أن وصلت المصيدة التي تقوم على الثقل إلى كمالها التقني بدأ القناص البدائي بدراسة قوانين طبيعية أخرى، فقد راقب مثلاً كيف تتورط الحيوانات أحياناً في شرك أدغال كثيفة في الغابات العذراء وتختنق، ولذلك صمم مصائد على مبدأ العقدة «الأنشوطة» حيث تشكل هنا حركة الحيوان مبدأ الحل والثقل عندما يحاول الافلات منها، وغالباً ما تنصب مثل هذه الأنشوطات بوضع عمودي لأن الصياد يريد أن يستغل هنا حركة الحيوان إلى الأمام. وبما أن العنق هو الموقع الأكثر حساسية عند معظم الحيوانات فان تصميم الأنشوطة يقوم على مبدأ دخول رأس الحيوان فيها فتضيق الأنشوطة حول رقبته وتمسك به. ولكي تبقى الأنشوطة مفتوحة وثابتة فقد استخدمت

مختلف الأدوات المساعدة. فاما أنها نصبت حرة على الطريق التي يفترض أن الحيوان سيسلكها أو تثبت على حوامل تُبقي عليها مفتوحة. وكان استخدام الأنشوطة مقروناً عادة بأسوار طبيعية في البرية، تنصب الانشوطات في فتحاتها. (صورة رقم ٦).

وهناك نوع آخر من أنشوطات الصيد مستخدمة في عدة مناطق من العالم القديم تعمل على مبدأ وضع القدم. ويتم صنعها باستخدام مجموعة من العصي المرنة والمدببة مثبتة معاً على اكليل دائري من الألياف بحيث تلتقي رؤوسها المدببة في الداخل. تثبت هذه المصيدة على جذع شجرة أو قاعدة عمود، وغالباً فوق حفرة صغيرة. وحالما تضع الضحية - وغالباً ما تكون غزالاً. قدمها على المصيدة، تغرز الرؤسس المدببة في رسغها الحساسة. ويزداد هذا الغروز كلما حاول الحيوان التخلص منها. وغالباً ما يقترن وجود هذا النوع من المصائد بوجود أنشوطة تمنع الحيوان من الهرب والنجاة. (صورة رقم ٥).

أما نظام المصائد الرئيسي الثالث فهو ما يسمى «بأرجوحة المشنقة» الذي تستخدمه قبائل عديدة في افريقيا وأميركا وآسيا يومياً وحتى عصرنا هذا. ويقوم هذا النوع من المصائد على قوة مرونة الغصن أو الشجرة، والمبدأ الميكانيكي هنا هو تراخي أو قوة المادة المستخدمة كلولب «زمبرك»، التي تعود إلى موقعها الأصلي. ولا يتعدى هذا النوع من المصائد كونه مجرد أنشوطة تستخدمها الشعوب الزراعية لاصطياد حيوانات صغيرة، وقد مكنها نمط الحياة المستقرة من نصب مثل هذه المصائد بعناية ودقة، وتطوير آلية عملها باستمرار نحو الأفضل. وإذا ما انكب مهندس حديث مثلاً على دراسة مسائل نظرية الحركة أو قانون الدفع في الآلات، فسيرى في هذا النوع من المصائد الذي استخدمته الشعوب البدائية، الاختراع الأول للروافع، التي تلعب الأشكال المتطورة منها دوراً في غاية الأهمية في التقنيات الحديثة.

ولم يقتصر استخدام هذه المصائد على صيد الحيوانات فقط، بل استفاد الإنسان من قوة دفع الغصن أو الشجرة في مجالات أخرى. ففي أواسط الكونغو كان إعدام العبيد وأسرى الحرب يتم بهذه الطريقة. كما استخدمها سكان «بورنيو» و«هندوستان» في تشغيل المنافخ في الأفران العالية لصهر الحديد. ولا تزال هذه الطريقة مستخدمة في تشغيل أفران فلاحي شمال أوربا، كما يدير النساجون في شرق آسيا أنوالهم بهذه الطريقة. وتستخدم أيضاً في صيد الأسماك، حيث تحل الصنارة أو السلة محل

الأنشوطة. وقد ساهمت استخدامات أخرى لمبدأ هذه المصائد، بالإضافة إلى القنص والحرب، أيضاً في أمور سلمية. وليس هذا النوع من المصائد مجرد الشكل البدائي لقوس القتال والقنص، بل أيضاً الشكل الأول لقوس آلة الكمان أو الربابة وجميع الآلات الوترية. فالوتر المركب على جسم يصدر عنه طنين - يقطينة مجوفة مثلاً - أصبح آلة موسيقية، تطورت من خلال إضافة أوتار أخرى، إلى آلة وترية تطورت فيما بعد إلى الكمان أو التشيللو الحديث.

وقد عرف القوس كسلاح منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد في الصين. كما أن تأثيره على تطور طرق الحرب في الأزمنة الغابرة معروف لكل من له إلمام بالتاريخ. ولا نغالي إذا ما قلنا إن قوة الامبراطورية الرومانية كانت مستحيلة لولا القوس. ولولا معرفة مصائد الحيوان البدائية التي تقوم على المبدأ نفسه لما كان بالامكان تطوير هذا السلاح. أما النوع الرئيسي الآخر من المصائد، فهو ذلك المستخدم بكثرة ويقوم على الالتواء كمبدأ للقوة. وقد عرف الإنسان من خلال التجربة أن أية مادة مرنة تُلف حول محورها العرضي ستعود إلى وضعها السابق إذا ما أفلتت. وإذا ما ظلت مشدودة تتولد عنها قوة كبيرة.

وقد نشأ هذا النوع من المصائد في مناطق الحضارات السامية، في آسيا وافريقيا، ومنها انتقل إلى المناطق التي تأثرت بثقافاتها. ولئن استخدمت شعوب بدائية - كالاسكيمو والتشوكشن - هذه المصائد، إلا أنها ليست أكثر من عنصر ثقافي مقتبس، ليس من نتاج اختراعاتها الخاصة. ويشبه تصميم هذا النمط من المصائد تصميم المصيدة الفولاذية الحديثة، ولا تختلف عنها إلا بالمادة المصنوعة منها، فالمصائد الفولاذية التي يمكن الحصول عليها شراء من السوق، بدءا من مصائد الفئران حتى مصائد الدببة التي تنتجها شركة «هودسون باي» ما هي إلا نماذج من هذا النمط، لا تختلف عن النماذج القديمة إلا بمادة الصنع. وقد نقل اليونانيون مبدأ الالتواء عن الشعوب الشرقية، ثم طورها الرومان بتصميم منجنيقاتهم الضخمة وآلات القذف. وكمادة مرنة فقد استُخدمت أوتار الحيوانات، تماماً كما يستخدمها الآن الاسكيمو في مصائد الذئاب والثعالب، وتعتبر آلات الفتل العائدة للعصور الكلاسيكية فعالة جداً لدرجة أن الكثير من الحكومات الأوربية سحبتها أثناء الحرب العالمية الأولى من المتاحف ووضعتها في خدمة الجيوش كقاذفات ألغام.

فلا يمكن إذن تجاهل الأهمية البالغة للمصائد التي اخترعتها الشعوب البدائية لتطور التقنية الحديثة. فأهمية اختراع مصيدة الحيوان الأولى كانت - في التاريخ الثقافي للإنسانية - أكبر حتى من اختراع الدولاب. كان للاستخدام اللاحق للمعارف الفيزيائية المكتسبة من خلال تصميم مصائد الحيوان أثر يفوق جميع الاختراعات الأخرى في الميدان التقني، والسؤال الذي يمكن أن نطرحه الآن هو: ما عمر هذا الإنسان الآلي «الروبوتر» الأول، الذي صنعته يد الإنسان؟ وحتى استطاع الإنسان لأول مرة أن يحول قوى الطبيعة إلى آلة خاضعة لإرادته؟ لاشك أن ذلك كان قبل آلاف السنين، فليس هناك من قبيلة أو شعب على وجه الأرض لم يعرف في حياته ما لا يقل عن عدة أنواع من المصائد. فمن وجهة نظر علم الاتنولوجيا كان لاقدم الثقافات دراية بفن بناء المصائد.

وكما تدل اللقى الأثرية من العصر الجليدي، كان الناس الذين عاشوا تلك الأحقاب ماهرين بتركيب المصائد، حتى أنه ما يزال بالإمكان التعرف على بعض النماذج التي صنعوها. فقد سبق ورأينا امكانية التعرف على أماكن دينية مقدسة ومساكن بشرية تعود إلى العصر الحجري المتأخر في أوروبا، وذلك في جنوب فرنسا، في منطقة «غارون» وبخاصة في «الدوردون» وفي الجانب الآخر من جبال «بيرينه» في منطقة «بيسكايا» التابعة لمقاطعة الباسك، التي اكتشفت فيها كهوف تعود لما قبل التاريخ. جدران هذه الكهوف مغطاة برسوم فريدة من نوعها من حيث الغنى الفني، وبخاصة رسوم حيوانات تشمل بالدرجة الأولى الجاموس والماموث. وقد احتفظت هذه الرسوم بألوانها الأصلية، [حمرة مائلة للبني وصفرة فاهية] رغم مرور آلاف السنين - بصورة ممتازة.

وتمتاز هذه الرسوم نفسها بالمزج الرائع بين صور الحيوانات الطبيعية، وبين رموز من الخطوط المستقيمة، مرسومة في بعض الأحيان حتى في جسد الحيوان نفسه. كما تمتاز أيضاً انها لا توجد مطلقاً قرب مداخل الكهوف، بل في أعماقها، بعيداً عن ضوء النهار، بحيث لا يمكن رؤيتها إلا بإضاءة اصطناعية.

ومن هنا يتضح أن هذا النوع المخبأ من الرسوم لم يكن نوعاً من المعارض الفنية للعصر الجليدي. وقد حاول العلماء على مدى سنوات عديدة إيجاد تفسير لذلك، ساعدتهم في ذلك جملة من الحقائق، فقد ثبت أولاً: أن القنص كان النمط الاقتصادي الرئيسي في العصر الجليدي، ولذلك كانت الطرائد تحتل محور اهتمام البشر. ثانياً: ما

تزال هناك قبائل، مثل «البوشمن» في جنوب قارة أفريقيا، ومعظم سكان استراليا الأصليين، وكذلك الشعوب القطبية، تعيش حتى الآن نمطاً اقتصادياً يتناسب بكل دقائقه مع ذلك النمط الذي ساد إبان العصر الجليدي. ولذلك أصبحت عاداتهم وتقاليدهم، بالنسبة لنا، مفتاحاً لمعرفة الثقافة التي وجدت آنذاك، فحتى الآن يجتمع «البوشمن» الأفريقيون، والاستراليون الأصليون عشية القيام بمشروع قنص هام برئاسة «الكاهن الساحر» لضمان نجاح حملة القنص، من خلال ممارسة طقوس سرية ورقصات سحرية، منها رسم الحيوان الذي يريدون صيده - سواء أكان غزالاً أو «كونغورو» - بصورة تحاكي طبيعته بكل دقة، إما في الرمل أو على صخرة. يتحلق الصيادون حول هذه الصورة السحرية لطعن الحيوان، الذي ترمز إليه الصورة، بالرماح وأدوات الصيد الأخرى ومن ثم «قتله».

وتقتنع هذه الشعوب كل القناعة انه لولا هذه الطقوس، لما كان بامكانها الحصول على أية طريدة. ففي تصورات البدائيين لا يوجد أي فرق بين موضوع ما وبين صورته. ولذلك ففي اعتقادهم أن قتل الحيوان يتم مسبقاً عند المساء، أثناء طعن صورته. وما القنص الحقيقي في اليوم التالي إلا نوع من الشكليات.

ولذلك فليس من المنطق، أن لا ندرك أن الرسوم الجدارية في كهوف ما قبل التاريخ، التي عاش فيها أناس لهم التركيبة الاجتماعية - الاقتصادية نفسها، ما هي إلا تعبير عن سحر مشابه يختص بقضايا الصيد. ويصبح هذا التفسير أكثر وضوحاً وجلاء إذا ما لاحظنا أن رسوماً تمثل «أطباء السحر» وهم يرقصون مرتدين الأقنعة ويؤدون الحركات نفسها، التي تؤديها الآن الشعوب البدائية الباقية، في رقصات الخصوبة المكرسة لزيادة عدد حيوانات القنص، تظهر جنباً إلى جنب مع رسوم الحيوانات.

ولكن كيف استطاع إنسان العصر الجليدي أن يقضي على حيوانات ضخمة، كالجاموس والماموث، بأدوات الصيد البدائية التي استخدمها؟

يمكن للعلم الحديث أيضاً أن يوضح هذه المسألة، فقد وجدت الأشكال الهندسية الغريبة التي نشاهدها على الرسوم الجدارية في الكهوف إلى جانب صور حيوانات الصيد، التي أطلق عليها العلماء اسم «الرسوم الغامضة»، أخيراً تفسيرها الصحيح.

لم يعد هناك في العلم أي شك بأن هذه الرسوم الغامضة ليست سوى مصائد حيوانات رسمها سكان أوربا القدماء قبل آلاف السنين في الكهوف الاسبانية والفرنسية بشكل تحاكي فيها الطبيعة الأصلية بحيث يمكن حتى الآن معرفة تفاصيل ودقائق تصميمها وبنائها وكذلك تنوع أنماطها وبالتالي يمكن أن نقول إن عمر الإنسان الآلي الذي صنعه الإنسان، أي آلته الأولى، مصائد الحيوانات، يتراوح بين عشرة إلى عشرين ألف سنة. فرسوم الكهوف تعود إلى مرحلة العصر الجليدي الثالث والفترة التي أعقبت عصر الجليد التي - وكما أثبت العلم - تشتمل المرحلة الواقعة بين الألف العشرين والألف الثامنة قبل الميلاد. وبدون أية صعوبة يمكننا الآن أن نتعرف من خلال هذه الرسوم الجدارية القديمة على المصيدة القائمة على مبدأ هبوط الثقل التي رسمت داخل جسم جاموس كبير في كهف «فونت دو غوم» والتي لا يختلف تركيبها بشيء عن تلك التي تستخدمها الشعوب البدائية الباقية على قيد الحياة. فبالمصيدة نفسها يصطاد «البوشمين» في جنوب افريقيا الضباع وتصطاد قبائل تالتان الهندية في أمريكا الشمالية الذئاب، وقبائل بلات فوت (القدم السوداء) الثعالب، وهنود منطقة «لابرادور» الدببة، وقبائل منطقة (ماكوندو) في شرق أفريقيا، الغزلان.

ومن خلال امتداد انتشارها في العالم وقدم استخدامها تعتبر المصيدة التي تشبه الدولاب من حيث الشكل ربما من أكثر أنواع المصائد التي أثارت الاهتمام. إذ نجدها في كهوف عديدة تعود لعصر ما قبل التاريخ وفي المقابر المصرية، كما هي واضحة مثلاً على الرسوم الجدارية الموجودة في «هيراكونبولس». وقد أكد العالم السويدي «غيرهارد ليندبلوم» أنها منتشرة في أفريقيا وآسيا وحتى «كاراكوروم» و«اتسينغول» بل ولاحقها حتى «آمور» أما الباحث «فروبينيوس» فقد عثر على أشكال لهذه المصيدة في الرسومات الصخرية العائدة لما قبل التاريخ في «فزان» كما أن صور «برويل» التي أخذها عن «تابل بالا» فتدل على انتشار واسع لها في الصحراء الافريقية وقد تبدو هذه الفكرة شديدة الغرابة لأولئك الذين لم يتعرضوا لتاريخ نشأة الآلة الأولى في تاريخ البشرية. لكننا الآن تأكدنا أن مبادئ القوة الرئيسية الأربعة التي تستخدمها التقنية الحديثة منقولة عن مخترعين مجهولين في العصر الجليدي عاشوا قبلنا بعشرات آلاف السنين فوق هذه الأرض، وقبل أن يولد ارخميدس بكثير عرفوا

قوانين الرفع واستخدامه في آلية معقدة، هذه القوانين التي لم تتغير من حيث المبدأ رغم التحديث والتحسين الذي طرأ عليها. كما أن المصيدة التي تعتمد على قوانين الثقل قد استخدمت من قبل المصريين في تصميم الأجهزة الاوتوماتيكية لمائهم المقدس والتي بينها لنا «هارون الاسكندراني»[٢] في الصورة. ففي هذا الجهاز الاوتوماتيكي تسقط قطعة النقد المرماة على آلية مصممة على مبدأ المصيدة يفتح بواسطتها الصنبور لتنزل كمية من الماء تعادل السعر المدفوع.

وما زلنا حتى الآن نستخدم هذا المبدأ عندما نلقي بقطعة نقد في جهاز اوتوماتيكي لنحصل على قطعة خبز أو طوابع بريدية أو قطعة شوكولاته. وهنا تلعب القطعة النقدية الملقاة على الجهاز من الناحية التقنية، دور الحيوان الذي يضغط بوزنه على الآلية المنصوبة فتلقي القبض عليه. كما أن الأجهزة الاوتوماتيكية المعدة للعب أو لتبديل النقد أو تلك التي تصدر عنها موسيقى، مصممة على المبدأ نفسه.

هناك نوعان من المصائد الحديثة ليس لهما سلف قديم أولاهما: ما يسمى بالعين الكهربائية أو خلية السيلينيوم التي ينقطع مخروط ضوئها بمجرد وجود ظل شخص يقترب منها فتفتح الباب بشكل أتوماتيكي. وثانيهما: مصيدة الفئران الالكترونية الخلابة التي لها آلية مشابهة. كلاهما مصيدتان حقيقيتان وليستا طريقتين للصيد تشبهان المصيدة، وذلك لأن عملهما لا يتطلب وجود الإنسان إلى جانبهما. ويعتبر هذان الجهازان مثالين على القوة السحرية للالكترونيات التي اكتشفت في القرن العشرين. ولكن تحقيق الحلم القديم باختراع إنسان آلي «روبوت» على هيئة آلة، يعمل للناس حتى في حال غياب سيده، يعود إلى العصر الجليدي.

الهوامش:

١ – هناك في بعض مناطق سورية طريقة لصيد الطيور تقوم على المبدأ نفسه تسمى محلياً «طافوحة» المترجم.

٢ – عالم رياضيات يوناني عاش ربما في القرن الأول قبل الميلاد.

الفصل الرابع
ثمار الأرض

الأنماط الاقتصادية الأولى - هل انتقل الإنسان من حياة الجمع والصيد إلى الزراعة بقفزة نوعية أم أنّ هناك حلقة مفقودة؟ الزراعة نشأت بفضل المرأة - بداية تدجين الحيوانات - اختراع المحراث كان ثورة.

لخيرات الأرض أهمية بالغة في حياة الإنسان منذ أقدم العصور، فالخبز واللحم والأسماك والثمار والخضروات التي تعتبر مواد أساسية في وجباتنا الغذائية اليومية كانت تشكل أيضاً غذاء الإنسان القديم. وحتى في عصر الذرة لم يَحُلّ شيء محل هذه المواد الأساسية، فلا يمكننا حتى الآن أن نصنع في مختبراتنا أي رحيق أو «امبروسيا»(١) أو أية أقراص سحرية أخرى نحل بها مشاكلنا الاقتصادية المعاصرة. عالمنا أصبح خلال هذه المسيرة التاريخية أصغر، وأصبحت الإنسانية، رغم جميع النزاعات تشكل أسرة واحدة أكثر مما كان الأمر في السابق، يرتبط جميع أفرادها بعضهم ببعض. وقد تأكد أن أقل من سبع مساحة سطح الأرض صالح لاستخراج الغذاء لبني البشر.

فإذا ما قضى الجفاف الآن على حقول القمح في الأرجنتين أو كندا وحقول الرز في بورما وسيام، أو ألم وباء بقطعان البقر في الدول التي تصدر اللحم، فإن شبح المجاعة يهدد جميع القارات، تماماً كما يحل الجوع في منطقة القبيلة المتضررة لدى الشعوب البدائية عندما تنسحب قطعان الجاموس من منطقة «البراري» في أميركا أو إذا ما تجنبت حيوانات «الكاريبوس» المنطقة التي يقتنص فيها الهنود الحمر في كندا أو حكم عدم فيضان نهر النيل على أرض مصر بالمجاعة أو دمرت ذبابة «تسي تسي» قطعان الماشية في شرق أفريقيا، أو انسحبت قطعان «الرنة» السيبيرية إلى أقصى الشمال، أو قضى

الحر على البطيخ البري الذي ينمو بأرض «البوشمن» في أفريقيا، أو دمرت ألسنة النيران في استراليا بذرة «النارد» أو ثمار النبات المحلي المعروف باسم «بونيا - بونيا».

ورغم أن الإنسانية قد تعلمت مع مرور الزمن أن تخلق من خلال استغلال الأرض بصورة منظمة - الشروط المسبقة لتواجد مجموعات من الشعوب تتكاثر بصورة دائمة، إلا أن مبدأ طرقنا في الحصول على الغذاء ما يزال كما كان عليه في أقدم العصور. تماماً كأجدادنا القدماء؛ ما نزال متعلقين بالمواد الغذائية النباتية والحيوانية نفسها. وما تزال الزراعة وتربية الحيوان حتى الآن، ومنذ آلاف السنين تشكل عماد الاقتصاد الإنساني. وما يزال إنسان القرن العشرين، كما كان أجداده البدائيون متعلقاً إلى أبعد الحدود بالظروف المناخية السائدة. وما يزال اكثار الحيوانات وانماء النباتات الغذائية مشروطاً بالمناخ والطقس اللذين يؤثران بصورة مباشرة أو غير مباشرة على مظاهر حياة وامكانات تغذية جميع الكائنات الحية. ولذلك كان الإنسان منذ أقدم الأزمنة مضطراً لتكييف عاداته ونوعية ممتلكاته المادية مع المتطلبات المناخية التي ولد فيها. وكذلك عرفت الحيوانات كيف تتلاءم مع تقلباتها ومتطلباتها. وربما تعرضت مرحلة تطور الإنسانية - التي حدثت منذ ما يزيد عن ٧٥ ألف عام تاريخ العصر الحجري، وهي المرحلة المعروفة باسم إنسان نياتدرتال، لأقوى وأشد التبدلات المناخية، وبالتالي لأشد التغيرات التي أمكن إدراكها في مجال النبات والحيوان. ورغم ذلك فقد عرفت هذه الشعوب القديمة كيف تتكيف اقتصادياً وثقافياً، وبنجاح، مع محيطها الذي يتغير بصورة مستمرة.

ورغم ان إنسان «نياندرتال» لم يكن قد توصل إلى معرفة الزراعة وتربية الحيوان، إلا أنه استطاع أن يسد رمقه تحت الظروف المتغيرة باستمرار، وعاش بكل بساطة، حياة اقتصادية تعرف باسم من اليد إلى الفم.

وقد كان النمط الاقتصادي التقليدي الذي سار عليه إنسان العصر الحجري الأول هو القنص الجماعي.

أضيف إلى الغذاء النباتي الذي جمعه الإنسان البدائي، مثل التوت البري والثمار والبذور، لحم الحيوانات التي اقتنصها مثل الرنة والماموث والبقر البري ودب الكهوف والحيوانات ذات الوبر وغيرها. ويظهر من دراسة الأسلحة وأدوات القنص البدائية لهذه القبائل بكل وضوح، أن القناص الفرد لم يكن بامكانه قط أن يصطاد مثل هذه

الحيوانات الهائلة دون مساعدة أفراد قبيلته، وأن القنص الجماعي كان بناء على ذلك ضرورة حياتية.

ولكي يتمكن الفرد من العيش أدى النمط الاقتصادي لعصر الجليد إلى نشوء تنظيمات ضمن قبائل أو مجموعات محلية. وبالإضافة إلى ذلك كانت كمية اللحم، التي تحصل عليها الجماعة عند قتل حيوان، كبيرة لدرجة انها تزيد إلى حد بعيد عن حاجة الأسرة الواحدة، ولذلك تطلب هذا الواقع توزيع اللحم على جميع الأسر التابعة للقبيلة. ولم تكن أسباب هذا السلوك الاجتماعي تعود لطبيعة مثالية وإنسانية وإنما كان توزيع الطرائد بين جميع الأفراد عبارة عن نتيجة طبيعية لنوعية الحيوان المقتنص. وكان لطريقة التوزيع هذه مزية أخرى، وهي أن جميع أفراد القبيلة يحصلون بها على الغذاء، حتى ولو ان احدى مجموعات القنص لم يحالفها الحظ كالمجموعة أو المجموعات الأخرى. وقد قادت المعرفة بمبادئ وأصول القنص بطريقة المطاردة، هذه الشعوب إلى اختراع الإنسان الآلي الأول، الا وهو المصيدة أو «الشرك».

لم ينقرض كلياً هذا النمط الاقتصادي الذي ساد في العصر الحجري الأول، والذي يعتبر أقدم نمط اقتصادي في تاريخ البشرية، بل ما يزال يشكل خاصية لدى جميع الشعوب التي درجنا على تسميتها بالشعوب البدائية. وتنتشر هذه الشعوب في جميع أنحاء العالم تحت مختلف المعطيات الجغرافية. إذ نجدها في المناطق الاستوائية التي يعيش فيها أقزام افريقيا وشعوب «فيدا» في جزيرة سيلان، وقبائل «سيمانغ» و«سينوي» في شبه جزيرة الملايو وقبائل كوبو في جزيرة سومطرة في اندونيسا، ونجدها أيضاً في جنوب آسيا وأميركا الجنوبية لدى العديد من القبائل المحلية. كما ان «البوشمن» وقبائل استرالية عديدة تعتبر في عداد شعوب الجمع والصيد التي تستوطن البوادي والصحاري. كما تدخل أيضاً شعوب أرض النار في أقصى جنوب قارة أميركا الجنوبية في عداد هذه المجموعة. فاقتصاد هذه الشعوب يتكيف بدقة مع الظروف المناخية للمناطق التي تتواجد فيها. ومن أبرز خصائص هذه الشعوب هو عدم الاستقرار المشروط حكماً بقلة توفر الموارد الغذائية.

ولكي تستطيع هذه الشعوب البقاء على قيد الحياة، تقطع - حتى أصغر المجموعات منها، مناطق شاسعة جداً، وبصورة دائمة.

ولكن حتى في هذه الدرجة الدنيا من التطور الاجتماعي، تطور نظام معين لتقسيم العمل، تقوم بموجبه النساء بجمع الأغذية من مصدر نباتي كالثمار والجذور والدرنات والبذور وغيرها، بينما يقوم الرجال بتأمين الغذاء من المصدر الحيواني عن طريق قنص الطرائد وصيد الأسماك.

أما أدوات العمل التي كانت تستعملها النساء في اقتلاع الجذور والدرنات من الأرض فقد كانت عبارة عن عصا بسيطة مدببة من طرفها مصنوعة على الغالب من جذع أو غصن شجرة، بينما كانت أسلحة الصيد التي يستخدمها الرجال عبارة عن رماح وهراوات وفي بعض الحالات أقواساً وسهاماً.

أما المهارة التي كانت تستخدم فيها هذه الأدوات البدائية فقد كانت بالفعل مدعاة للعجب. ويشعر أفراد قبائل الجمع والقنص هذه انهم - كما كتب الباحث زايفرت Sei-wert عن قبيلة Bagielli (وهي قبيلة أقزام في الكاميرون) «سادة الغابة». فرغم صغر أجسادهم يقومون بقنص الشمبانزي والغوريلا والفهود والجواميس وحتى الفيلة القوية دون أن يساورهم أي خوف منها. ولديهم طريقة خاصة لصيد الفيلة وصفها الباحث المذكور آنفاً، يمكن أن تقدم لنا معلومات مفيدة عن الطرق التي كان يستخدمها إنسان العصر الجليدي في صيد حيوان الماموث المنقرض: «أول ما يدهنون كل أجسادهم بمخلفات الفيل حتى لا يشتم الحيوان أي خطر وانما يشم رائحته فقط إذا ما مر باحتراس بقربهم. وإذا لم تتوفر امكانية أخرى، يتقدمون زحفاً على بطونهم ببطء حتى يصبحوا تحت الحيوان الذي لا علم له بشيء، وبشكل مفاجئ سريع وبكل القوة يغرزون رمحاً مسموماً في الأماكن الطرية من بطنه، ينهار بعدها بقليل ويسقط، ثم يقطعون خرطومه بالسكاكين الحادة فوراً حتى يسيل دمه».

وما هذا سوى مثال على قدرة الشعوب البدائية في التغلب على قصور ادواتها البدائية بذكائها، ولا يقل الذكاء والحنكة المستخدمان في الحصول على الغذاء ذي المنشأ النباتي عنه في طريق القنص، فحالما يتم جمع كل ما يمكن أن يؤكل في منطقة معينة، تنتقل هذه القبائل إلى مناطق أخرى - غالباً تبعد كيلو مرات عديدة عن الأولى - لتبدأ البحث فيها من جديد عما يمكن أن يعتبر نوعاً من الغذاء.

ومع تبدل الفصول يتغير أيضاً نوع النباتات الملتقطة، فعلى سبيل المثال يصطحب البوشمن أثناء الجفاف آلاف اليقطينات البرية أثناء تجوالهم في رمال صحراء كالاهاري، لأنها تمكنهم من العيش دون ماء.

ولكن شعوب الجمع والقنص لا تلتهم كل نبات يبدو لها مستساغاً بعض الشيء، وإنما تعرف جيداً كيف تميز بين المفيد والضار من النبات. وقد كان اكتشاف نبات غذائي جديد بالنسبة لهذه الشعوب بمثابة اختراع هام، من حيث الأهمية. وقد أكد الباحثان سارسين أبناء عم أن قبائل «الفيدا» في سيلان[٢] عرفت أربعين نوعاً من النباتات وعشرين نوعاً من الحيوانات تحصل منها على الغذاء. والأهم من ذلك هو معرفة الاستراليين الجيدة بالنبات، فقد ذكر الباحث «توماس» ان الاستراليين يعرفون حوالي ثلاثمائة نوع من النباتات يمكن تناولها كمواد غذائية. ويتعلق عادة عدد أفراد المجموعات التي تمارس الصيد أو الجمع بالدرجة الأولى بخصوبة المنطقة التي يعيشون فوقها. فكلما قل الطعام ضاقت بالتالي دائرة الباحثين عن غذائهم من منتجات الأرض الشحيحة، ففي تسمانيا واستراليا والمناطق القطبية لا يجتمع إلا نفر قليل من الأفراد عند البحث عن الغذاء. وقد ذكر الباهث هـ. ل روث ان مثل هذه التجمعات في تسمانيا لم تكن تضم أكثر من ثلاثة إلى أربعة أكواخ، لا يزيد عدد ساكني الواحد منها عن ثلاثة إلى أربعة أشخاص. وأكبر مجموعة شاهدها الباحث «مارتين» في شبه جزيرة الملايو[٣] كان عدد أفرادها سبعة وعشرين شخصاً. بينما عثر الباحث زيلنخمان لدى «الفيدا» على مجموعات تضم من واحد إلى خمس أسر تعيش معاً. كما ذكر «مالينوفسكي» أن معظم الاستراليين يتجولون كل أسرتين أو ثلاث أسر معاً في المنطقة التي يجمعون منها ما يتغذون به وهذا يعني أن العدد الاجمالي لمجموعة من هذا النوع يتراوح بين ستة إلى تسعة أشخاص. ولا يزداد عدد المجموعات المتجاورة سكنياً إلا عندما تتحسن الظروف الاقتصادية.

وقد عثر الباحث هوفيت (Howitt) على مجموعة من قبيلة «كورناي» في جنوب شرق استراليا مؤلفة من ثمان عائلات، وعلى مجموعة أخرى من قبائل «فورو نيجري» مؤلفة من ست عائلات. ورأى الباحث «باسارج» في منطقة البوشمن اثني عشر كوخاً مشيدة بعضها قرب معظمها يسكنه شخص واحد فقط. أما قبائل الاندامان فتنقسم إلى مجموعات يبلغ تعداد الواحد منها حوالي خمسين شخصاً.

ولكن حتى عندما نعتبر أن شعوب الجمع والقنص تمثل أقدم تشكيلة اقتصادية في تاريخ الإنسانية إلا أن نمط حياتها لا يمثل أبداً البدايات الأولى للثقافة، لأن مهاراتها التقنية المتعددة وأسلحتها ومصائدها وطرق القنص التي تتبعها، وكذلك معرفتها بتوليد النار تدل على مسار تطور طويل. وبعكس الحيوانات التي يجب أن تكيف أجسامها مع الغذاء المتوفر في الطبيعة وهو في مادته الأولية، فقد تعلمت جماعات الإنسان القديم أن تقوم باعداد المواد الغذائية التي توفرها لها الطبيعة، بحيث تكفي متطلبات عضوية الإنسان. فبواسطة النار جعلت من اللحم والأطعمة النباتية غذاء مستساغاً وحولتها إلى حالة ذات مذاق طيب وسهلة الهضم.

أما السؤال عن الطريقة التي تم بها الانتقال من هذه التشكيلة الاقتصادية القديمة، القائمة على الجمع والقنص، إلى أشكال أسمى، كالزراعة وتربية الحيوان، فما يزال منذ أقدم الأزمنة واحدة من مسائل العلم التي لم تتضح بعد. وقد حاول علماء اليونان قديماً أن يجدوا جواباً على هذا السؤال عندما ميزوا بين ثلاثة أنواع مختلفة للتشكيلات الاقتصادية: الأول: وهو النمط المتبع عندهم، والذي يقوم على زراعة الأرض. والثاني: النمط الاقتصادي الخاص بالبدو مربي الماشية الساكنين على أطراف العالم اليوناني، والثالث: هو نمط اقتصاد قبائل الجمع والقنص. وقد ارتكب أتباع هذا التقسيم خطأ أساسياً عندما قسروا وجود هذه الأنماط الثلاث في وقت واحد، على تتابع زمني. ومن هذه الخطيئة نشأت ما تسمى بنظرية المراحل الثلاث: الصيد، وتربية الحيوان والزراعة التي أخذ بها لعدة قرون. وقد وصفت المرحلة الأولى من حياة الجمع والقنص إما بالعصر الذهبي الذي يشبه الجنة، أو بالحالة نصف الحيوانية «للمتوحشين». وقد سادت نظرية المراحل الثلاث هذه التي لا تتزعزع حول تاريخ أنماط الاقتصاد البشري بشكل خاص في القرن الثامن عشر، وبخاصة في كتابات «روسو» و«آدم سميث»، بينما نقلها كل من فريدريش ليست، س. كوغنيتي دو مارتيس، وعالم آثار ما قبل التاريخ الفرنسي موريتليت، والبلجيكي لافيلين وغيرهم إلى القرن التاسع عشر.

ولكن الكميات الضخمة من المواد التي جمعت حديثاً حول علم الشعوب، والحقائق التي غدت معروفة من خلال رحلات البحث الحديثة، تؤكد بوضوح بأن هذه النظرية

القديمة لم تعد قادرة على الصمود طويلاً. فقد ألقت بشكل خاص كتب «ارنست غروسه» و«ادوارد هان» ضوءاً جديداً على الأشكال الاقتصادية للإنسانية. ولكن حتى الآن لم ينقطع الجدل العلمي حول مسألة نشوء الزراعة وتربية الحيوان. وما يزال بعض العلماء يحاول حتى الآن توضيح الانتقال من اقتصاد الاستهلاك اليومي إلى اقتصاد الإنتاج، بمساعدة التحليل النفسي. فعلى سبيل المثال اعتقد «تايلور» أن نشأة زراعة الأرض لم تكن «اختراعاً». إذ كان من الطبيعي بالنسبة لشعوب الجمع والقنص أن تبذر أو تزرع بصورة منتظمة، البذور والجذور التي كانت معروفة لديها. ورأى «تايلور» أن شعوب الجمع والقنص المتنقلة قد تحولت إلى الحياة المستقرة نتيجة لهذه العادة، وبالتالي تقبلت نمط حياة أرقى، إذا ما نظرنا إليه من الناحية الثقافية.

وإذا ما أمعنا النظر في هذه التفسيرات النفسية لوجدنا أنها ليست سوى تأملات نظرية طائشة. فالحقائق الإتنولوجية تثبت بكل وضوح وجلاء أن الاستعداد النفسي للزراعة، وبخاصة إمكانية انتظار نضج النبتة أو الثمرة، كانت غريبة كلياً عن تصورات شعوب الجمع والقنص. وقد بُذلت محاولات عديدة في أصقاع مختلفة من العالم «لهداية» قبائل الجمع والقنص للزراعة، ولكن ثبت في جميع هذه المحاولات أن القبائل التي قسرت على الدخول في هذه المرحلة الاقتصادية لم يكن بوسعها أبداً، حتى استيعابُ هذا الشكل المتطور من اقتصاد الإنتاج. فإمّا أقدمت هذه القبائل على أكل البذار الذي وزع عليها لزراعته، وإما اقتلعت النباتات الفتية التي بدأت تظهر في الحقول التي استصلحها الخبراء البيض وهي غير ناضجة، وتناولتها مباشرة كغذاء.

وقد وقع اختيار الحكومة البرازيلية مرة على قبيلة «بورورد»، التي تعتمد على اقتصاد الجمع والقنص لإجراء مثل هذه التجربة. وزعت عليهم الحكومة الأراضي والبذار، وقام خبراء من الدولة باعداد الحقول اللازمة للتجربة. كما وزعت عليهم كميات من المواد الغذائية، تؤمن بقاءهم حتى فترة جني المحصول. ولكن ماذا حدث بعد ذلك بالفعل؟ حالما أصبح لدى الـ «بورورو» فؤوسُ بدأوا فوراً بقطع أشجار «البيكي» Piki التي كانوا يضطرون في السابق للتسلق عليها لقطف ثمارها. كما كان من الضروري حراسة مزارع قصب السكر ليلاً ونهاراً، خوفاً عليها من الدمار الشامل.

كما دمرت مزارع المانيوك نتيجة إتلاف نباتاتها قبل أوانها. وذهبت النساء اللواتي اعتدن على اقتلاع الجذور البرية بعصيّهن المخصصة لذلك، إلى الحقول لاقتلاع الدرنات النامية قبل نضوجها.

وقد حاول أحد المبشرين المجتهدين أن يعرِّف قبائل «ڤاسكيله» الافريقية، التي تمارس اقتصاد الجمع والقنص، على بركات الدين المسيحي وبركات زراعة الأرض، لكن السكان ضحكوا منه ورفضوا جميع مقترحاته بعبارة «وهل ستموت القرود من الجوع؟» نحن نعرف الغابات والأنهار والمستنقعات، فالإله يريدنا أن نطوف دائماً هنا وهناك، وليس في إرادته من شيء أن نمسك في يدنا فأساً» ولم يكن هناك مجال للاعتراض على ذلك. وحتى هذا المبشر نفسه لم يستطع أن يمنع السكان الأصليين من بحثهم عن غذائهم «كالزنابق منتشرة في الحقل».

كما ذكر «فان أوفربرغ» أن القبائل الزنجية في «لوزون» رفضت تعلم فن الزراعة والجني، لأنها لم ترغب في البقاء في منطقة معينة واحدة». وقد أكد هذا الباحث أن القبائل التي أمكن تعليمها زراعة بعض أنواع الخضراوات، غادرت المنطقة غالباً قبل أن يحين موعد جني ما زرعته.

أما المثال الساطع على عدم قدرة شعوب الجمع والقنص على الاقتناع بجدوى وغاية زراعة الأرض، فتقدمه لنا قصة قديمة عن أقزام منطقة الكونغو التي كانت واقعة تحت السيطرة البلجيكية، نقله لنا الباحث «شيبيستا»، كانت هذه القبائل فخورة جداً بجرأتها والحرية المطلقة في أسلوب حياتها. ورغم أنها تعيش إلى جوار قبائل زنجية أخرى تمارس الزراعة، لم تنقل عنها أبداً هذا النمط الاقتصادي. والقصة التالية توضح لنا لماذا تبيح هذه القبائل لنفسها جمع الموز من مزارع الزنوج. «في إحدى جولاته في الغابة العذراء وبصحبته أحد الزنوج وصل رجل من «البغمن» مرة إلى قرية يسكنها الشمبانزي. وهناك شاهدا ولأول مرة أشجار الموز بعناقيدها الذهبية المدلاة، وهنا ظنا أن الثمار سامة، ولم يجرؤا على تناولها. فقام الزنجي بتشجيع القزم على تذوق طعمها، فقبل ذلك وتذوقها، فوجد أن طعمها رائع. ورغم ذلك لم يجرؤ الزنجي على تناولها. ثم خلدا إلى النوم، وفي يقين الزنجي أن مرافقه سيموت لا محالة لتناوله الموز. وعند الصباح أول ما اتجهت أفكار الزنجي إلى القزم الذي نهض من رقاده سليماً معافى

وسط دهشة زميله. عند ذلك تجرأ الزنجي وتذوق الموز ليجده ذا طعم ممتاز، وهذا فكر الاثنان بطريقة لنقل زراعة الموز إلى قريتهما. فأخذ القزم معه الثمرة واعتبر أن الزنجي غبيٌ لأنه فضل أن يأخذ معه غرسة. غرس القزم الثمرة وغرس الزنجي الشتلة، وعندما بدأت بعد فترة قصيرة أوراق الغرسة بالذبول والسقوط، فرح القزم أول الأمر فرحاً كبيراً. ولكن الزنجي الذكي كان يعرف، ودعا القزم، بعد بضعة أشهر ليحل عنده في القرية، وخلال تلك المدة كان القزم ينتظر أن تنبت موزته. ولكن دون جدوى. فالثمرة التي زرعها في الأرض تعفنت ولم ينبت منها شيء. وكم كانت دهشته عظيمة عندما ذهب إلى قرية الزنجي ووجد شجيرات الموز وعليها العناقيد مدلاة. وهنا ضحك الزنجي الذي قدم لضيفه باكورة انتاجه من الموز. أدرك القزم أنه غير أهل ليكون فلاحاً، ومن الأفضل أن يتابع حياة القنص، بينما يمكن للزنجي أن يستمر في زراعة الموز، وسيأتي هو ليأكل منها. ومنذ ذلك الوقت يعتقد الأقزام أن لهم حقاً في الموز الذي يزرعه الزنوج، فلولاهم لما تعرف الزنوج على زراعة الموز».

كانت هذه مجرد بعض الأمثلة التي توضح بجلاء أن التأملات النظرية المبنية على علم النفس الحديث غير صالحة أبداً لشرح الانتقال من النمط الاقتصادي القائم على الجمع والقنص إلى الزراعة. كما أن اعتقاد بعض علماء الاتنولوجيا والاقتصاد بأن الحياة المستقرة جاءت نتيجة لممارسة الزراعة، غير مقبول أيضاً، إذ يزعم ممثلو هذا الرأي أن حياة مستقرة نسبياً لم تأت إلا بعد اختراع الزراعة، وبالتالي يكون الاستقرار نتيجة لاختراع الزراعة، وليس شرطاً أولياً لهذا الاختراع. هذه النظرة هي أيضاً نوع من التأملات النظرية النفسية. وليس هناك أدنى شك بأن الاستقرار النسبي على الأقل كان الشرط الأساسي لاختراع الزراعة. بالإضافة إلى ذلك كان يجب على مخترعي النمط الاقتصادي الأرقى أن يمتلكوا الاستعداد النفسي الهام لإمكانية انتظار نضج المحصول. فأية مجموعة شعوب كانت تحوز على الشروط الأساسية النفسية والحقيقية لاختراع الزراعة؟

في الواقع هناك شعوب تقدم من خلال مواصفات نمطها الاقتصادي الحلقة المفقودة بين شعوب الجمع والقنص من جهة، وشعوب اقتصاد الإنتاج من جهة ثانية.

وأنا أطلق على هذه الشعوب اسم «شعوب الجني» التي تحصل على غذائها من جني نوع أو أكثر من أنواع النباتات البرية، وقلما بكميات كبيرة، تشكل عماد حياتها

خلال السنة كلها. ولا تربي هذه القبائل حيوانات ولا تمارس زراعة الأرض، بل يقوم نمط حياتها الاقتصادية على الجني المنتظم - وليس الجمع حسب الفرص المتاحة - لنوع أو لعدة أنواع من النباتات التي تنمو في البرية.

وقد عاشت الشعوب التي تمارس اقتصاد الجني في القارات الخمس. وكما أظهر الكثير من الحفريات الأثرية فقد اعتمد نمط اقتصاد المرحلة المتأخرة من العصر الحجري القديم، حتى بدايات العصر الحجري الحديث، على جني الثمار والبذور البرية. وبينما قلما نجد الآن في افريقيا «شعوب جني» صرفة. إلا أن التقارير القديمة تؤكد أن جني النباتات والبذور البرية قد لعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية للعديد من القبائل الافريقية. وقد ذكر المؤرخ «هيرودوت» أن المصريين القدماء كانوا يجنون زهرة اللوتس بكميات كبيرة، يجففونها بأشعة الشمس، ثم يسحقونها لتتحول إلى طحين يصنعون منه الخبز. ويصف جذور اللوتس بأن حجمها بحجم التفاحة ولها طعم حلو.

كما ذكر «كوتشي» أن سكان منطقة «كوردوفان» السودانية كانوا يجنون الرز البري ويستخدمونه في صنع الخبز، بينما ميّز الباحث «شفاينفورت» بين ثلاثة أنواع من الأرز تشكل في افريقيا الاستوائية أحد مصادر الغذاء الرئيسية، دون أن يقوم أحد بزراعتها.

ويشكل الأرز البري في أسواق السنغال - حتى الآن - مادة هامة للتجارة، ويباع بأسعار أعلى من تلك التي يباع بها الرز المزروع.

وفي استراليا نجد شعوباً تعتمد اقتصاد الجني، وخاصة في مناطقها الشرقية والجنوبية والشمالية. وهذه تجني بالدرجة الأولى جذور «اليام» البرية وبذرة الـ «ناردو» وجذور الزنبق وثمرة بونيا - بونيا والثمار المعروفة باسم «زاكادازين» وغيرها.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المنتجات البرية تحفظ اما بحالتها الطبيعية أو تُعامل بطريقة تسمح بحفظها لمدة طويلة، بحيث تشكل مادة غذائية رئيسية طوال العام. يضاف إلى ذلك أن الثمار البرية تشكل مادة تجارية مرغوبة، وأحياناً تُحفظ هذه الثمار بعملية تكسبها طعماً حامضاً، كما هو الحال مثلاً لدى بعض القبائل الاسترالية. وفي جنوب غرب غينيا الجديدة يشكل نخيل «الساغو» مصدراً غذائياً مرغوباً للعديد من القبائل.

وعلى الأرجح كان مربو حيوان الرنه الآسيويون القدماء في الأصل صيادي أسماك، أو «شعوب جني» قبل أن يتحولوا إلى مربي الرنه.

وحتى الآن هناك مناطق قطبية شاسعة - تسكنها قبائل التشوكتشن والياكوت والتونغوز - يلعب جني الجذور البرية والبصل والثوم دوراً هاماً في حياتها. ويجمع التشوكتشن بشكل خاص جذور نباتات معينة وبكميات كبيرة، إذ يخضعون هذه النباتات لعملية تكسبها مذاقاً حامضاً، يمكن تناولها على مدار السنة حتى الموسم التالي.

ولم يكن باستطاعة سكان بولينيزيا التوطن في جزر «كارولناتول» لولا وجود «شجرة ثمر الخبز». وفي منطقة كران - شاكو - في أميركا الجنوبية يجني السكان نبات «ألغاروبا» و«التوسكا». بينما اعتمد «الأراواك» وسكان بيرو القدماء بالدرجة الأولى على جمع البطاطا البرية. ولولا وجود البطاطا البرية كعماد أساسي للحياة، لما أمكن تصور وجود دولة الانكا في البيرو. وقد عثر الباحث «هارشبرغر» خلال تحرياته الأثرية عن ثقافة ما قبل التاريخ في البيرو، على بعض درنات هذه النبتة يبلغ طول الواحدة منها حوالي أربعة سنتيمترات شبيهة كل الشبه بالبطاطا البرية التي تنمو في أيامنا هذه فوق جبال المكسيك.

ومن أشهر ثمار المحاصيل في أميركا الشمالية يأتي رز الماء البري، وجوز البينيون والبلوط، تتممها مجموعة أخرى من النباتات والمنتجات النباتية مثل قرون شجرة «المسكويت» وجدور «المسكال» ودرنات بوص المستنقعات ومجموعة أخرى من البذور البرية.

وتعيش قبائل شرق كاليفورنيا بالدرجة الأولى على البلوط وجوز البينيون. ولذلك لم تعرف هذه الشعوب المجاعة حتى العصر الحديث، حيث انقلب الأمر فيما بعد. فقد حدثت عام ١٩٤١ كارثة حقيقية عندما تلف محصول البلوط في وادي سان خواكين. وأكدت التقارير المقدمة حول هذه المجاعة ما يلي: «قبل أن يُلزمنا الرجل الأبيض بحضارته كان بامكاننا أن نحفظ بلوطنا وطحين ثماره قدر ما نشاء بحالة صالحة للأكل. أما الآن فسرعان ما يغزو الدود ثمار البلوط بعد بضعة أشهر». وفي كل معكسر للهنود الحمر - وما يزال هناك المئات منها - تحفظ كميات كبيرة من ثمار البلوط في سلال مصنوعة من أغصان الصفصاف وربما كان سبب ذلك هو الطفيليات النباتية التي دخلت مع المتحضرين.

وعلى أية حال يظل رز الماء أهم منتوج يجنيه الهنود الحمر في مناطق أميركا

الشمالية الغنية بالبحيرات، وخاصة في شمال غرب أواسط القارة. وقد كتب الأب «هنيبين» عام ١٦٨٣ في دفتر مذكراته ما يلي: «تنبت كميات كبيرة من الرز البري في البحيرات دون زراعة، ودون أية عناية. وقد قص عليّ الهنود الحمر عدداً كبيراً من الحكايات المتعة حول حقول الرز هذه، وأن معارك دامية دارت بين قبائل «سيوكس» و«أوجيبڤا» حول ملكية حقول الرز البري. وتعتقد قبائل «أوجيبڤا» حتى الآن أن الرز البري الذي يطلقون عليه اسم «مانومين» قد خُلق كطعام خاص للهنود الحمر. وسمعتهم في أول أيام جني المحصول يتوجهون للاله الأكبر بالشكر والامتنان على المحصول. حتى إنهم يطلقون على شهر آب تسمية تعني «شهر جني الرز». والجني نفسه يشكل محور الحياة الاقتصادية لهذه الشعوب. وكانت النساء قديماً تربط الرز بحزم قبيل نضجه وهو في البحيرة، وذلك لوقاية حباته من العواصف والطيور المائية، وكذلك لتسهيل عملية حصاده فيما بعد.

ويحاول كثير من أساطير الهنود الحمر شرح أصل هذه المادة الغذائية المباركة. فهم يعتقدون أن نبات الـ «مانيتو» استجاب ذات يوم أثناء إحدى المجاعات لابتهالاتهم، وظهر لرجل الطب في إحدى جماعاتهم السرية ليقول لهم: «اجلبوا البذور الحادة كالرماح فلبّها يقدم لكم غذاء حلواً». وفي الوقت نفسه علّم الهنود الحمر أسرار الحصاد وطريقة تحضير الحبوب التي ما تزال منذ أقدم الأزمنة تجرى بالطريقة نفسها.

وبعكس قبائل الجمع والصيد التي تجول باستمرار في منطقة توضّع القبيلة وتعيش حياة «من اليد إلى الفم»، تفكر شعوب الجني في أوقات الرخاء بأيام القحط القادمة، وتحسب حساب المستقبل، حيث تحفظ هذا الغذاء الثمين بكل عناية لتتناول منه في فصول القلة. كما أن مساكنهم ذات تركيب ثابت أكثر من الشعوب التي تتبع نظام اقتصاد الاستهلاك الآني. إذ تتوضع في مناطق معينة، وغالباً قرب حقول المحصول[٤] التي تضم غالباً عدة مئات من الكيلو مترات المربعة.

ومهما كانت أنواع النباتات التي تجنيها هذه القبائل المختلفة فان التأثير الهائل لهذا النمط الاقتصادي يظهر على مجمل تطورها الثقافي.

ومن أهم الخصائص التي تتميز بها هذه الشعوب تأتي المخابئ المبنية بكل عناية ودقة وبيوت المؤونة المحكمة البناء، لحفظ منتجات الحصاد.

ورغم أن شعوب الجني لم تتطور إلى النمط الاقتصادي القائم على زراعة الأرض، إلا أن نظرتها للنباتات البرية مختلفة كل الاختلاف عن نظرة شعوب الالتقاط والقنص، وقريبة نفسياً كل القرب من نظرة الشعوب التي تمارس العمل الزراعي.

وبما أن الثمرة التي يجنونها تشكل بالنسبة لهم ضرورة حياتية مطلقة، فانهم يتغنون بها ويزينونها في أغانيهم وطقوسهم، ويبحثون عن تشجيع لاكثارها بشتى السبل، فقبائل الجني في غرب استراليا مثلاً تغرس أثناء جني «اليام» بعض الدرنات في التربة ثانية، كما ترمي قبائل «أوبجيقا» الهندية الحمراء أثناء حصاد الرز كمية من الحبوب في أرض الطمي الخصبة في البحيرات، أكبر من تلك التي تسقط في القارب وبذلك تضمن حصاد السنة القادمة دون أن تدري. كما يحفر سكان جزر المحيط الهادي، عندما يقطعون أشجار جوز الهند البرية، الأرض حول جذورها لتنمو عليه غراس جديدة.

ويشكل حقل الجني محور حياة القبيلة، وكل نشاطها الاجتماعي، وبما أن عماد حياة الجماعة مضمون، فان أعداداً متزايدة من أفراد القبيلة تنتقل لتسكن قرب الحقل لتشكل جماعات يفوق حجمها إلى حد بعيد حجم جماعات الالتقاط والقنص. فقبائل «قينيباغو» تعيش على شكل جماعات يصل تعداد الواحدة منها إلى ثلاثمائة نسمة وأكثر. وكذلك في غينيا الجديدة تعيش قبائل «أوبوتو» و«فاكماتيمي» غالباً قرب أشجار نخيل الـ «ساكو» البرية بمجموعات يصل تعدادها إلى ألف نسمة.

وفي أميركا الشمالية كانت حقول الرز البري السبب الرئيسي لانتشار قبائل «سيوكس» و«ألغونكين». وكذلك في بولينيزيا كانت شجرة «ثمرة الخبز» السبب الكامن وراء هجرات أمواج كاملة من الشعوب.

وبناء على ذلك فان الشعوب التي تجني دون أن تبذر، والتي يشبه عمل الجني عندها عمل الشعوب الزراعية كل الشبه، هي التي يمكن أن تكون أول من اخترع الزراعة، وهذا ما سيتضح فيما بعد من خلال حقيقة أن نمط اقتصاد شعوب الجني فقط، هو الذي خلق شروط نشوء تربية الحيوان.

لم يكن بوسع شعوب الالتقاط والقنص، التي تضطر للبحث عن الغذاء نتيجة ضيق الحال، إقامة علاقة حميمة وصداقة مع الحيوانات التي تقنصها. فلكي تضمن

استمرار حياتها، كان عليها أن تقتل كل طريدة برية تصادفها. ولكن بما أن ثمرة الجني تشكل مادة الغذاء الرئيسية لشعوب الجني، وهي التي تقيهم من الفاقة والجوع، فقد كان بامكان هذه الشعوب أن تتخذ موقفاً لطيفاً من الحيوانات.

وهكذا فإن شعوب ثقافة الجني هي التي يمكن أن تحوز على الشروط الأولية لنشأة الزراعة وتربية الحيوان.. وبذلك فالاحتمال كبير بأن معرفة العمل بالأرض ونشأة تربية الحيوان قد انطلقا من هذا النمط المتطور لاقتصاد الاستهلاك السريع. وفي المناطق المحفوظة بشكل خاص من العالم تطورت فيما بعد الزراعة البدائية على مر القرون إلى النمط الاقتصادي الذي عُرف لدى الثقافات الراقية، والذي يتميز باستخدام المحراث في زراعة الأرض.

ولكن في أي مكان من العالم حدث هذا التطور ضمن الشروط المثالية؟

هذا ما لم نعد نستطيع الآن تحديده، رغم وجود بعض الدلائل التي تؤيد فكرة أن ذلك حدث في جنوب أو وسط آسيا.

وبما أن هناك لقى أثرية تعود للعصر الحجري الحديث، تدل على وجود نمط اقتصادي يقوم على الزراعة، فإننا يمكن أن نفترض قيام هذا النمط في الألف الخامسة قبل الميلاد، وقد صاغ كل من «مينغين» و«هاينه غيلدرن» تعبير ما يُسمى بـ «ثقافة البلطة المدرفلة» كأقدم شكل من أشكال اقتصاد الإنتاج في العصر الحجري الحديث، انتشر من أواسط آسيا (الصين) - التي ربما كانت أقدم منطقة انتشر فيها هذا النمط الاقتصادي إلى بقية أنحاء الأرض.

وربما كانت هذه التسمية مشتقة من الأداة الحجرية المجلوخة المسماة «بلطة مدرفلة» وهي عبارة عن بلطة ذات مقطع عرض دائري وشفرة مجلوخة جهتها الخلفية دائرية أو كروية. وفي الواقع كان نمط اقتصاد ثقافة البلطة المجلوخة - الذي يعود للعصر الحجري الحديث - منتشراً في جميع أرجاء الأرض. وقد دخل على شكل موجات هائلة إلى قارتي آسيا وأوروبا والمناطق الآسيوية الشرقية والجنوبية وعالم جزر ميلانيزيا. ورغم أن أنماط التعبير المحلية عن هذه الثقافة مختلفة في بعض الأحيان، إلا أنها كانت مرتبطة في كل مرة بتربية الخنزير أو اقتنائه. فحيث ظهرت الخنازير البرية كانت تُصطاد ثم تربى داخل أسوار، إلى أن تحين الحاجة إليها كطعام، وأحياناً يحافظ عليها بقصد تربيتها وتدجينها.

ومن هنا تتوضح حقيقة أنه في جميع المناطق التي عُثر فيها على عناصر ثقافية من تلك الحضارات، كانت هناك كميات كبيرة من عظام الخنزير البري.

أما السؤال عن أنواع أولى النباتات التي غرسها الإنسان الزراعي الأول، وهل كانت حشائش أم درنات أم جذوراً أو أشجاراً، فهذا ما تصعب الإجابة الدقيقة عنه الآن.

ويرى الباحث ڤيرت Werth أن الموز كان أول نبتة غُرست في جنوب آسيا. كما يرى «برونتون» أن أول نوع من الحبوب المزروعة كان القمح المسمى «أيمر» Emmer، وقد زرعه الفلاحون المصريون منذ الألف الخامس قبل الميلاد.

وبما أنه غدا من المستحيل تقريباً الاهتداء إلى آثار أقدم الدرنات المزروعة في العالم من خلال التنقيبات الأثرية، فإنَّ مسألة الاهتداء إلى عمر أقدم المزروعات في مجال أنواع الحبوب، تظلُّ خيرَ ما يمكن الاستعانة به.

وقد تعرفنا عن طريق الرسوم التي تعود للعصر الحجري الحديث عن أنواع من الحبوب المزروعة. كما أثبتت التنقيبات الأثرية في منطقة بحر قزوين، أن الشعير كان معروفاً منذ عام /٤٥٠٠/ قبل الميلاد. وقد عرفت قبائل فلاحية، عاشت في العصر الحجري الحديث في منطقة سويسرا الحالية، ثلاثة أنواع من القمح ونوعين من الشعير ونوعاً واحداً من الذرة البيضاء.

ومن أنواع البقول عُرفت أيضاً زراعة الفول - ولكن في العصر البرونزي - ثم زراعة البازلاء والعدس.

كما زُرعت كميات هائلة من الكتان والقنّب والخشخاش، وربما استخدم الكتان والخشخاش كمادة مخدرة. ومن أنواع الفاكهة كانت شجرة التفاح معروفة، وربما تم تطعيمها في ذلك العصر المبكر.

وأيّا كانت الثمار الأولى التي أنتجتها الحقول المزروعة، فمن المؤكد أن الحقول لم تكن تُحرث بالمحراث الذي عُرف فيما بعد، وانما بالمعزقة، وإلى حد ما بعصي الحفر البدائية، المعروفة في تاريخ الثقافة. وكانت التقنية الزراعية - إذا ما استخدمنا هذا التعبير - تتعلق بالدرجة الأولى وبشكل عام «بنكش» الأرض، وليس بتحويلها من حالة إلى أخرى.

وما يزال عزق الأرض بواسطة العصا المخصصة لذلك، منتشراً حتى الآن في مناطق واسعة من العالم، وبخاصة في أفريقيا الاستوائية وأميركا وأندونيسيا وجزر المحيط الهادي، وتأتي الدرنات والجزريات مثل الـ «يام» والمانيوك والبطاطا الحلوة والتارو والبطاطا العادية، في طليعة النباتات التي تزرع بكثرة في هذه المناطق. كما تأتي الذرة الصفراء والأرز والذرة البيضاء في طليعة فصيلة الحبوب. وقد درجت العادة أن تقوم قبيلة بمفردها بزراعة عدد محدود من هذه المحاصيل، وغالباً ما تشكل احداها عماد حياة القبيلة الاقتصادية. ولكن ذلك لا يعني الاقتصار على زراعة هذا النوع الهام فقط، بل تُستكمل زراعته بزراعة محاصيل أخرى أقل أهمية. وعلى هذا الأساس تنتشر زراعة المواد المخدرة ونباتات التوابل، في كل مكان تقريباً.

وإذا ما سئل المزارعون البدائيون عن عمر وأصل النباتات التي يزرعونها لأجابوا بأن الأقوال القديمة والأساطير تثبت أن أسلافهم كانوا يزرعونها منذ أقدم الأزمنة. وتزعم قبائل «توبي» أن نبات المانيوك نما ذات مرة في قديم الزمان على أحد القبور. بينما تُرجع قبائل «باكريري» أصل هذه النبتة إلى نوع من الأسماك، يعيش في نهر يجري في منطقتهم. ويُعتقد أن الآلهة والأرواح والحيوانات وأبطال الأساطير هي التي باركت الإنسانية، ووهبتها منذ أقدم الأزمنة، مثل هذه المحاصيل.

وليس ثمّة شكٌ بأن اختراع الزراعة كان بفضل جهود المرأة. وحتى في عصر اقتصاد الاكتفاء الذاتي، كانت النساء هي المسؤولة عن تموين الأسرة بالغذاء ذي المنشأ النباتي، وبالتالي كانت النساء أول من طبّق اختراع البذار والغرس. ومع ذلك تابع الرجال - حتى بعد اختراع الزراعة - عملهم في مجال القنص، رغم أن زراعة المحاصيل ألغت ضرورة تأمين هذا الغذاء الرئيسي.

وغالباً ما كان استصلاح حقل جديد، أو زراعته لأول مرة، أو بدء البذار، أو حتى تحديد منطقة معينة لاستصلاحها، مناسبة لإقامة الاحتفالات وممارسة الطقوس، وبخاصة هناك، حيث يشارك جميع أفراد القرية معاً في كافة الأعمال المتعلقة بالزراعة. فقبائل «نادا» في جزر «زوندا» مثلاً، تستشير قبل كل شيء «كاهنها» المفضل، وهو عبارة عن عصا من الخيزران، يطلقون عليها اسم «تيبو»، قبل الإقدام على استصلاح حقل جديد واعداده للزراعة.

توضع هذه العصا فوق النار حتى تتشقق، لأن شكل ونوعية تشققها يحددان الجهة التي سيجري فيها استصلاح الحقل الجديد ومدى اتساعه. وقبل ذلك يوجهون لهذا «الكاهن» خطاباً طقوسياً بقولهم:

«أيها التيبو! نريد أن نستصلح حقلاً جديداً، فإذا ما كانت الطريق الموصلة إليه، أو كانت التربة نفسها، لا تناسب خططنا، فنرجو أن تبيّن لنا ذلك بقفزة نحو الأعلى واليمين!» فإذا ما كان «جوابه» متناسباً مع هذه الرغبة، بدأ العمل حالاً.

وبعد أن تحدد قبيلة من القبائل التي تمارس الزراعة باستخدام الفأس، موقع ومساحة الحقل الجديد، تقام حفلات الغناء والرقص باشراف طبيب القبيلة. ويبدأ قطع الأشجار في اليوم التالي. يقوم الأفراد باقتلاع الغابة العذراء والأدغال والحشائش، وتقطع الأشجار بالفؤوس الحجرية، بينما تبقى الجذور في التربة. ثم تُحرق الأغصان والشجيرات وينثر رمادها فوق الحقل كسماد.

وبينما يقوم الرجال بأصعب الأعمال، تقوم النساء باطعام أفراد القبيلة. ومتى تم اعداد الحقل الجديد بعد يوم عمل مضنٍ، تتولى النساء زراعته وسط ممارسة كل ما يخطر للذهن من ضروب الطقوس السحرية، لضمان نمو هذا المحصول الحيوي. وتقوم قبائل «نادا»، على سبيل المثال، أيضاً هنا، باستشارة «تيبو»، فيدعون أرواح المحاصيل التي سيزرعونها للتجمع في الحقل الجديد. وهنا يخاطبون عصا الخيزران أو «تيبو» قائلين:

«تيبو، لقد استصلحنا الآن الحقل كله، نقيناه من الحشائش الضارة وحرقنا شجيراته وأدغاله. وغدت الأرض طاهرة. فاستقدم لنا الأرواح المحملة بالأرز ليكون لنا محصول وافر. دع أعمدة بيوت المؤونة تنهار تحت ثقل الأرز المحصود، والأرض من تحته تتصدع. نرجوك أيها التيبو عِدْنا بمثل هذا الحصاد الوفير. فإذا ما كانت هذه ارادتك فأظهرها لنا من خلال قفزة نحو الأسفل واليسار» وبعد هذا الطقس الاحتفالي تقوم النساء ببذر الحبوب في الحقل.

يقوم الهنود الحمر في أميركا الجنوبية بزراعة درنات المانيوك في التربة حيث تنمو لها أوراق. ويقتلعون الدرنات حسب الحاجة إليها على أن تُزرع نبتة جديدة مكان الدرنة المقتلعة، وبذلك تظل الحقول بحالة جيدة ومنتظمة على الدوام. وهذا ما أثار اعجاب ودهشة بعض المراقبين.

فقد قال أحد القساوسة المسيحيين، بعد عودته من زيارة لمنطقة في شرق أفريقيا، كانت واقعة تحت الاحتلال البرتغالي، شاهد فيها حقول السكان الأفارقة: «كنت أعتقد أن باستطاعتي أن أعلّم هؤلاء الصبية السود أشياء عديدة. ولكن أدركت الآن كم بامكاني أن أتعلم منهم». ورغم هذه العناية الجيدة بالحقول، فان معظم قبائل ثقافة العزق بالأرض تهجر أرضها بعد جني موسم أو موسمين وتفضل الانتقال إلى مكان آخر تستصلح فيه حقلاً جديداً.

وقد انتقلت بعض قبائل الكونغو وعدة قبائل ميلانيزية كانت تمارس الزراعة بالعزق إلى ممارسة نظام الزراعة بالتناوب الذي يشبه نظام الدورة الزراعية في أفريقيا، بحيث تزرع البقول في الأرض المستصلحة حديثاً. وبعد جني المحصول تزرع الذرة البيضاء وشتلات المانيوك معاً حيث يمكن أن يستمر جني درنات المانيوك مدة عامين كاملين. وعندما تذبل الشتلاك يترك الحقل بواراً ويبدأ أفراد القبيلة باستصلاح حقل جديد. وقد أدرك العديد من المزارعين البدائيين مزايا السماد، فبعض شعوب البانتو في شرق افريقيا تزيد من خصوبة أراضيها باستخدام سماد الأبقار. وقد لاحظ الباحث «ليفينغستون» أن شعوب زامبيزي تستخدم رماد النباتات كسماد. أما أفضل أنواع السماد بالنسبة لقبائل الهنود الحمر في أميركا الشمالية فكانت الأسماك والقواقع. وفي البيرو استخدم «الانكا» المخلفات العضوية لتحسين تربة حقولهم، بينما استخدم سكان المكسيك القدماء المخلفات التي يطرحها الإنسان، كسماد لزيادة خصوبة تربتهم.

كما يعود نشوء حدائق الأزهار الأولى، كتعبير عن حب الجمال، أيضاً إلى ثقافة الزراعة بالعزق. فغالباً ما كانت تزرع حشائش وأزهار على أطراف الحقول، أو بين حدائق أشجار الفاكهة، كما هو الحال لدى قبائل «بابوا» في استراليا. وقد بلغت هذه الجهود كمالها في الجزر القائمة في بحر المكسيك والحدائق الأسطورية المعلقة لدى الملكة سمير اميس.

بالإضافة إلى زراعة الأرض كان لنوع آخر من اقتصاد الانتاج تأثير كبير على الاقتصاد العالمي والتاريخ الإنساني، ألا وهو تدجين وتربية الحيوان، وبخاصة الأبقار. ويمكن الاعتقاد أن فن تدجين الحيوانات وتربية البقر قد تطور عن ثقافة زراعة الأرض. ولكن في الحقيقة لم يكن الأمر كذلك. فأقدم الحقائق التي تم التوصل إليها حول تدجين

الحيوانات الأهلية، وكذلك مجمل تركيب الثقافات الزراعية، تناقض هذا الاعتقاد. فثقافة وعقلية مربي الحيوانات تختلف اختلافاً جذرياً عن تلك التي لدى المزارعين. أما حقيقة أننا نجد أحياناً وحتى الآن أيضاً قطعاناً من الحيوانات المدجنة في بعض التجمعات القروية لدى الشعوب التي تمارس زراعة العزق، فلا تشكل دليلاً على أن هذه الحيوانات قد دجنت هناك، بل على الأغلب تم اصطيادها وهي برية، ومن ثم دجنت.

الأمر يختلف بالنسبة للدجاج والخنازير التي لا تدخل في عداد الحيوانات السارحة، ولذلك فانها تحتل منزلة خاصة. ويستدل من اللقى الأثرية التي تعود للعصر الحجري الحديث، كما رأينا، على أن الخنازير والطيور البرية قد ربيت بكميات كبيرة داخل أسيجة حتى أصبحت تشكل مادة غذائية. ولئن وجدت أثار تربية حيوان منتظمة لدى المزارعين، إلا أنها دون شك منقولة عن الشعوب الرعوية.

والكلب، كأقدم حيوان بيتي، كان منذ العصر الحجري المتوسط رفيقاً للإنسان. سلفه كان الذئب. وقد جاء الكلب إلى أوربا أثناء العصر الجليدي. ثم دخل أميركا بحالته المدجنة عن طريق أول المستوطنين الذين حلوا فيها.

أما تربية الخيول والبقر والغنم فأول ما بدأت في تلك الاصقاع من الأرض التي وجدت فيها الأنواع المتوحشة منها بكميات كبيرة. وكان وسط آسيا. وعلى الأرجح كانت المناطق الممتدة من غرب تركستان حتى هضبة التيبت الموطن الأصلي لتربية البقر.

وفي الواقع تظهر في الطريقة الحالية لتربية حيوان الجاك[٥] جميع خصائص ثقافة رعوية مغرقة في القدم.

كان أقدم الأنواع المعروفة من الأبقار المدجنة نوعاً ذا قرون طويلة يعود إلى الشكل البري القديم للثور الآسيوي المسمى «أور». كما يبدو أن تدجين الغنم ومن ثم الماعز نشأ أيضاً في المنطقة نفسها. وقد نشأت ثقافة مربي الخيول والجمال شمال مناطق مربي الأبقار الأوائل في جبال «ألتاي» وفي بوادي قرقيزيا و«بارابا». أما الانتشار الأوسع لثقافات مربي حيوانات الركوب - كمركب مستقل - فقد امتد غرباً حتى بوادي جنوب شرق روسيا والقوقاز وشرقاً حتى صحراء «غوبي». ورغم الاستخدام الأصلي للحصان والجمل كحيوانات للحمل، وكمصادر للحليب، لم يكن ذلك يوماً ليشكل نمطاً اقتصادياً مستقلاً، إذ لم يكن باستطاعة مربيها أن يطعموها. وهكذا نجد مربي

حيوانات الحمل يخالطون غالباً، بدون استثناء، شعوباً تمارس جني المحاصيل الزراعية وتربية الحيوان.

شهدت ثقافات مربي الماشية انتشاراً عالمياً بصيغة واحدة نسبياً، سواء أكانت هذه الصيغة قد انتقلت بشكل مباشر، من خلال تنقل الشعوب نفسها، أو بشكل غير مباشر من خلال انتقال نمطها الاقتصادي والثقافي. وقد ألقت الحفريات الأثرية، وبخاصة في «أناو» والتي وصفها العالم «بومبلي»، بأنها تلقي ضوءاً على أقدم ثقافات مربي الماشي. ففي «أناو»، وهي مدينة أثرية في واحة قرب أشاباد في منطقة قزوين، عثر على بقايا ثقافة تربية ماشية على عمق /٤٥/ قدماً، تعود لحوالي عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد. ومع وجود عناصر ثقافية لأقدم حضارة تربية ماشية يمكن تحديد تاريخها، وجد أيضاً الشعير والقمح كنباتات زراعية، مما يدل على وجود ثقافة مختلفة، ويمكن أن تكون تربية الماشية هي النمط الاقتصادي الأقدم منها.

وقد تم انتشار ثقافات مربي الماشية عن طريق انتقال الشعوب المباشر من مواطنها الأصلية نحو الجنوب. ونقلت أوربا ومناطق آسيا الشرقية مبدأ تربية الأبقار، ولكنها لم تنقل الثقافة الرعوية. أما مواقع مربي الماشية المتقدمة في أقصى الجنوب الآسيوي فقد كانت تمتد من جبال «نيلغيري» جنوبي الهند حتى منطقة «تودا» الحالية، بينما تدفق التيار الرئيسي لانتشارها نحو ايران وبلاد ما بين النهرين وسورية وأفريقيا.

وفي افريقيا نفسها انتشرت الشعوب الرعوية القادمة من الشمال الشرقي عن طريق مصر، وبشكل أقل عبر شمال القارة حتى جزر الكناري، بكل قوتها فوق شرق افريقيا دون أن تتغلغل في أواسط افريقيا الاستوائية - حتى أعماق الجنوب، وكانت هذه الشعوب تربي الأبقار بالدرجة الأولى.

وهكذا تشكل تربية الأبقار محور الحياة الاقتصادية في أفريقيا بينما كانت في آسيا تربية الأغنام والجاك بالإضافة إلى البقر. كانت هذه الحيوانات تربى بالدرجة الأولى للاستفادة من الحليب والشعر والصوف والسماد، وبشكل أقل من أجل اللحم، فكان القطيع يعتبرها ثروة، ولذلك لا تنقص هذه الثروة بالذبح إلا لأسباب قاهرة. إذن يمكن القول ان الفرعين الرئيسيين لاقتصاد الإنتاج: الزراعة وتربية الحيوان قد تطورا في كثير من مناطق العالم عن النمط الاقتصادي الذي مارسته الشعوب التي أطلقنا عليها

اسم «شعوب الجني». وقد حصل لقاؤهما واندماجهما فوق مناطق شاسعة من العالم. وباندماجهما النهائي أصبح من الممكن أن تتحقق شروط الغزو الاقتصادي للأرض، ومع ذلك لم يكن بالامكان تحقيق الاستغلال الاقتصادي لمناطق شاسعة لولا اختراع المحراث، ولما كان بالامكان اطعام العدد الكبير والمتنامي لسكان الأرض. فاختراع المحراث وقوة جر الحيوانات الأهلية - البقر بالدرجة الأولى ومن ثم الخيول - هي التي مكنت الإنسان من استصلاح حقول واسعة، وبالتالي خلقت أساساً لنمط زراعي حقيقي منتج. وإذا ما نظرنا إلى المحراث من وجهة نظر ميكانيكية، لرأينا أنه مركب من مبادئ المعزقة ومن شكل خاص من المعول متطور عن عصا العزق. ويعود أقدم وجود معروف له إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد عرفت الشعوب الزراعية الداخلية ضمن اطار ما يسمى بثقافة الفخار اليدوي في منطقة الدانوب، المحراث الذي استخدمته الشعوب الهندو - جرمانية في تلك الفترة نفسها.

وأول ما نشأ المحراث في منطقة ما من العالم، انتشر منها فيما بعد إلى مناطق أخرى. وعلى الأرجح كانت مواطن الثقافات الراقية في الشرق الأدنى هي الموطن الأصلي لاختراعه. كانت أقدم المحاريث مصنوعة من الخشب. وما تزال المحاريث الخشبية البدائية مستخدمة حتى الآن في بعض الدول الأوربية.

أما الاعتقاد المتكرر بأن لاختراع الدولاب أو العربة علاقة باختراع أو استخدام المحراث فهو خاطئ. فقد استخدم المحراث في البداية دون دولاب؛ وما تزال حتى الآن محاريث قبائل الباتاك - في جزيرة سومطرة الاندونيسية ومحاريث الصينيين واليابانيين بدون دواليب[٦].

أما بالنسبة للهنود الحمر في أميركا فلم يكن المحراث معروفاً. وربما كان السبب في ذلك عدمَ وجود حيوانات الجر لديهم. وقد طورت الحضارة الأميركية الراقية - كما في المكسيك والبيرو - نمطاً من الاقتصاد الزراعي إلى نظام البستنة، وإلى استصلاح حقول صاعدة على شكل مدرجات جبلية.

ومن أهم مميزات ثقافة المحراث هي التسميد المنتظم للتربية وتطوير نظام معقد للري. ولم يتطور الشكل البدائي للمحراث إلا بعد نهاية القرن الثامن عشر، حيث تم تحديثه بعد ذلك من خلال اختراعات جذرية. بعد ذلك فقط تم استبدال الأجزاء الخشبية بأخرى حديدية

أو فولاذية، ثم جمعت عدة محاريث لتشكل وحدة مجتمعة معاً. وبعد ذلك بكثير استخدمت القوى الميكانيكية مثل الماكينات البخارية والمحركات في عملية الجر.

وبذلك ينتهي تاريخ نشوء الزراعة وتربية الماشية، أهم عاملين من العوامل التي وفرت للإنسان إمكانية العيش بأعداد متزايدة فوق الأرض. فلم ينقل اختراع المحراث وتربية الماشية، الشعوب التي تملك حقولاً واسعة لزراعة الحبوب أو قطعاناً هائلة من المواشي، إلى وضع تستطيع فيه أن تؤمن غذاءها فحسب، بل جعلتها أمينة على الحاجات الاقتصادية للإنسانية جمعاء.

الهوامش:

١ – طعام الالهة كما ورد في الأساطير اليونانية . (المترجم) .

٢ – أصبح اسمها الآن سريلانكا (المترجم) .

٣ – أصبح اسمها ماليزيا (المترجم) .

٤ – ان اصطلاح حقل المحصول الذي يستخدمه المؤلف عند حديثه عن شعوب اقتصاد الجني لا يتعلق هنا بالطبع بقطعة أرض معينة قامت يد الإنسان بتهيئتها للزراعة وانما بنوع معين من أنواع عديدة من النباتات البرية يغطي عدة أميال مربعة من الأرض وتعطي الانطباع بوجود حقول شاسعة .

٥ – ثور يعيش في منطقة التيبت ضخم وطويل الصوف .

٦ – وكذلك المحراث القديم الذي يستخدمه الفلاح السوري . (المترجم) .

الفصل الخامس

اختراع العمل اليدوي

أقدم المهن اليدوية في التاريخ - أنواعها، مادتها وتقنياتها النسيج والورق - الدور الحضاري للمغزل والنول - اختراع الفخار والبورسلان - بدايات التعدين وطقوسه - تقسيم العمل البدائي

الكلمات التي قالها «هالر» ورفضها «غوته»: «لا روح مخلوقة تنفذ إلى قلب الطبيعة» دحضتها إلى حد ما التطورات التي أحدثتها السنوات الماضية. فقد استطاع الإنسان، من خلال قدرته على تصوير نمو الخلية، والكشف عن القوى التي تتحكم بالكون، أن يميط اللثام عن أسرار أساسية في الطبيعة.

والفرق بين العصور السالفة وعصرنا الراهن هو أن الإنسان يسعى الآن، بالعمل العلمي المنظم، ليجعل من نفسه سيداً على الطبيعة، بعد أن كانت فيما مضى تمثل السيد مطلق القوة على الإنسان الذي استقى علمه ومهاراته من ظواهرها. فقد كان الإنسان، والحالة تلك، تلميذاً للقوى العظمى التي تحيط به. ولكن وظائف دماغه مكنته - حتى في ذلك الوقت - من حيازة ملكات عقلية ومادية جعلته يحمل - وبحق - اسم الإنسان العاقل Homo Sapien وكانت تلك الملكات تتجاوز بكثير ما لدى المخلوقات الأخرى من المملكة الحيوانية. حتى الحيوانات أيضاً قدمت شواهد تنبئ عن ذكاء مدهش. فقد شوهدت الفيلة مثلاً عندما تقتلع غصناً وتضرب به الكلاب التي تلحق بها.

كما أن الفنون المعمارية لكلب الماء - هذا المعلم المعماري الذكي - معروفة جيداً للناس. ونعلم أيضاً أن حيوان «وسبه» Wespe الأميركي الصغير يستخدم حصاة يدق بها طبقة التراب في المنطقة التي يضع فيها بيضه لتغدو صلبة تحفظ البيض. فهل يمكن

اعتبار أن هذه المظاهر من الذكاء الحيواني هي بالفعل نتيجة لعملية تفكير دقيقة؟ وهل يعتبر الاستخدام الذكي لمواد الطبيعة برهاناً على قدرة حقيقية على الاختراع؟

لكن هذه الحيوانات - مهما بلغت درجة ذكائها - تستخدم موادها كما وفرتها لها الطبيعة. لأنها غير قادرة على صنع أدوات تظهر بأشكال جديدة لتخلق بالتالي امكانات استخدام جديدة. فالحيوانات يمكن أن تستفيد من مواد الطبيعة المتوفرة لكنها لا تخترع شيئاً. أما الإنسان فقد عرف منذ العصر الجليدي، أن يحول المواد الأولية التي وجدها، إلى أدوات جديدة، ارتقت بمستوى حياته فوق مستوى حياة عالم الحيوان. طبعاً لم تصلنا اسماء المخترعين الأوائل، ولا نعرف من هم وبالتأكيد، لم يكن رجل معين مسؤولاً عن اختراع الفأس الحجرية الأولى أو السلة المجدولة الأولى، أو مصد الرياح الأول، أو معطف الفرو الأول. فكل هذه الاختراعات كانت حلقات في سلسلة متصلة، اخترعها صانع مجهول واكملتها خبرات أجيال عديدة في مسيرة طويلة وبطيئة. فقد عرف منذ العصر الجليدي، أن يحول المواد الأولية التي وجدها، لكن من الخطأ أن نعتبر أن كل إنسان في عصور ما قبل التاريخ كان عبقرياً مزوداً بموهبة تجعله قادراً بمفرده على اختراع كل ما يحتاجه.

وليس أسخف من العبارة الشائعة التي تقول: «الحاجة أم الاختراع» لأن الظروف المناخية السائدة في منطقة ما، والاستعداد النفسي لتقبل فكرة جديدة، وهجرة العناصر الثقافية والشعوب، تعتبر من العوامل الحاسمة التي تساعد على انتشار المعارف التقنية أو تحول دون انتشارها، فلا يمكن أن يكون اختراع أحذية الثلج والزحافات الثلجية قد تم في الغابات، أو أن يكون اختراع الأفران العالية قد بدأ في المناطق القطبية التي لا حديد فيها.

ولن يكون بوسع أي فرد من قبائل «بوشمن» في صحراء كالاهاري الافريقية - مهما كان ذكياً وعبقرياً - أن يبتكر مخزن مؤونة أو نول حياكة. ولا يمكن أن يكون صنع اللباد الصوفي قد بدأ في استراليا. وكذلك لا يمكن أن تكون فكرة شباك النوم المعلقة قد نشأت لدى الاسكيمو.

ورغم أن امتلاك جميع هذه الأشياء يساهم في تحسين الممتلكات الثقافية لهذه الشعوب، إلا أن الطبيعة لم توفر لها في مناطقها المواد الأولية الضرورية لصنعها.

والأهم من ذلك هو أن اختراعها كان سيبدو غريباً كل الغرابة عن أمزجتها. حتى ولو جاء من يشرح لها ويعلمها هذه المهارات الفنية، فسرعان ما ستتخلى عنها وتنساها. تماماً كما تنظر الشعوب القزمية Pygmärn إلى جيرانها من الشعوب الزنجية، ذات القامة الطويلة، التي تمارس العمل الزراعي، نظرة استخفاف، لأن اختراع عنصر ثقافي معين، أو نقل وتقبل اختراع ما من ثقافة أخرى، يتطلب شرطاً أساسياً مشتركاً، وهو: أن يكون أسلوب تفكير القبائل المعنية بذلك يتضمن الاستعداد النفسي المناسب لتقبلها، وإلا فلا يمكن للاختراع أن يتطور بنفسه أو أن يتم تقبله من أي مصدر كان، ويختلف الاختراع المستقل عن تقبل هذا الاختراع من خلال حقيقة بسيطة، وهي: أن الاختراع يتطلب تفكيراً خلاقاً، بينما التقبل ليس سوى تلقٍ واستيعاب لهذا الاختراع. ولشرح هذا الاختلاف فمن الأفضل ايراد بعض الأمثلة: فعلى سبيل المثال كان التركيب الكلي للحضارة اليابانية على أقصى درجات الاستعداد سلفاً لتقبل جملة من عناصر الثقافة الغربية، بدءاً من التصنيع حتى أحدث الأسلحة، بينما من غير الممكن لثقافات أخرى مثل ثقافات «البوشمن»، أو سكان استراليا الأصليين، أو شعوب منطقة أرض النار، – نتيجة للاختلاف الثقافي الكبير جداً في مجمل نواحي حياتها – أن تتقبل مثل هذه الاختراعات.

ومن جهة أخرى فقد نقلت بعض الشعوب البدائية عناصر ثقافية معينة عن الشعوب المتحضرة، ولكن دون أن تعي الغاية الحقيقية منها، ففي افريقيا مثلاً جعل من «الدبوس المشبك» زينة تعلق في الأذن، كما اعتبرت اسطوانة الحاكي «كورال أشباح» مادي. كما ظهرت لوحة أرقام الساعة الأوربية كزينة زخرفية في فن العديد من الشعوب البدائية. ومن الأهمية بمكان أيضاً أن نذكر الاختلاف بين الاختراع والتغيير، أي (التعديل)، الذي صاغه الباحث «نورد نسكيولد» عند تقبل العناصر الثقافية.

فبينما يعني الاختراع صنع شيء جديد، يمثل التعديل مجرد تحسين يطرأ على شيء موجود مسبقاً.

وغالباً ما يكون من الصعب جداً – ان لم نقل من المستحيل – أن نحدد مكان نشأة أي من الاختراعات القديمة، ذلك لأن انتشار العديد من العناصر الثقافية في أنحاء متفرقة من العالم كبير جداً، بحيث نجد الآن مراكز ثقافية موزعة في أنحاء

مختلفة من العالم، لا يحتوي على مجرد أدوات وبيوت وأجهزة، بل أيضاً على مؤسسات دينية وعرفية واجتماعية وأنماط اقتصادية متشابهة كل الشبه، إلى حد التطابق تقريباً.

وتفترض معظم المنجزات التقنية التي حققتها حضارتنا الحديثة وجود سلسلة متصلة من اختراعات تعود إلى عصور سحيقة. ورغم التحسينات الكبيرة التي طرأت على الكثير من التقنيات القديمة، من خلال عمليات التصنيع الحديثة، فما تزال هناك مجموعة كبيرة من مواد الاستخدام القديمة جداً، مستعملة حتى يومنا هذا، تماماً كما كانت تستخدم قبل آلاف السنين. وقد استخدمت الشعوب البدائية الكثير من هذه الأدوات والأجهزة، حتى قبل أن يعرف عنها الأوربيون شيئاً، بوقت طويل.

ومن الاكتشافات والاختراعات التي قام بها الهنود الحمر في أميركا الشمالية قبل قدوم الفاتحين يذكر الباحث «نوردنسكيولد» بالدرجة الأولى: الاستفادة من النباتات الغذائية مثل الذرة والمانديوك والبطاطا ودوار الشمس والأرضي شوكي والفاصولياء.

كما قام الهنود الحمر أيضاً بتربية حيوانات عديدة مثل «اللاما» و«ألباكا» وفأر المسك والديك الرومي، كما عرفوا القطن والكوكائين ومن مخترعاتهم أيضاً: الأسرّة المعلقة والكرة المطاطية وصنع المواد غير النفاذة للماء. كما انتجوا مختلف أنواع السموم واستخدموا في غزواتهم الحربية غازاً ساماً على شكل بخار الفلفل.

وقبل استخدام طريقة التداوي بالايحاء النفسي من قبل Coués بزمن طويل، عرف طبيب الغابة كيف يداوي مرضاه بطرق مشابهة. وبينما ظلت نسبة وفيات المرضى أثناء عمليات فتح الجمجمة تصل حتى بداية هذا القرن[1] إلى ٩٠٪، فتح أطباء الهنود الحمر في أميركا الشمالية جماجم مرضاهم بدقة متناهية وبدون حوادث وفاة تذكر. وكذلك الأمر بالنسبة للتوليد بالعملية القيصرية. وقبل أن يحصل «فاغنر ياوريغ» على جائزة نوبل بالطب لمعالجته للسفلس من خلال الملاريا، بمئات السنين، أرسل رجال الطب في شرق افريقيا مرضاهم المصابين بالسفلس إلى المستنقعات ليصابوا بالحمى الشافية من هذا المرض.

وفي أفريقيا استخدمت الهواتف المصنوعة من قشور اليقطين وجلود الجرذان قبل عصر الكهرباء بفترة طويلة، وما يزال الاسكيمو يستخدمون أوانيَ مشدوداً عليها جلد

في اتصالاتهم «التلفونية» لمسافات لا بأس بها. كما أن الأبراج المبردة بالهواء التي وصفها «ماركوبولو» بأنها «رئات اصطناعية بشكل ناطحات سحاب مربعة» ما تزال حتى الآن في البحرين من أقدم المنشآت.

كما أن لنظاراتنا الشمسية أو الثلجية الحديثة أشكالاً قديمة تتمثل في العظام المحفورة التي تحمي العين، يستخدمها الاسكيمو والهنود الحمر في المناطق القطبية، وكذلك واقيات العيون المنسوجة بأشكالها المتنوعة التي ما تزال مستخدمة في ميلانيزيا وبولينيزيا وأميركا الجنوبية، بينما تؤدي الأغطية الرقيقة المصنوعة من اللباد، الغرض نفسه في منطقة التيبت.

وإذا ما صنعنا اليوم - كتعبير عن رفاهيتنا الحديثة - مواد استعمال من جميع الأنواع، ومن مختلف المواد الأولية التي تخطر بالذهن، فقد دلتنا على هذا الطريق مئات الأجيال من الصناع اليدويين، من خلال منتجاتهم التي صنعوها من الحجر والخشب والعظام وألياف الأشجار وجلود الحيوانات، ومن المتعة بمكان أن نلاحظ على الأقل أهم طرق الإنتاج البدائية، لأنها أصل كثير من الأشياء، التي نعتبر الآن ملكيتها مسألة لا غنى عنها.

فإذا ما راقب هاو مجموعات يضمها متحف اثنولوجي، ورأى نفسه محاطاً بفيض من مختلف الأدوات المصنوعة من شتى المواد، فعادة ما يطرح السؤال التالي: ما هي أنواع الحرف اليدوية والمواد الأولية التي يمكن أن تكون الأقدم في التاريخ الثقافي للإنسانية؟

يقودنا نوع المواد الثقافية التي استطاعت أن تحافظ على نفسها من التلف، تحت ظروف معينة ومناسبة، إلى الاعتقاد بأنها هي بالفعل أقدم المواد التي صنعها الإنسان. لكننا غالباً ما ننسى أن أهم أشكال التعبير عن الحياة الإنسانية وعن ممتلكات الإنسان المادية، محكوم عليها أن تؤول إلى «غبار» سواء أكان جسد الإنسان العاقل نفسه Homo Sapien، أم المواد التي استخدمها وصنعها من ألياف الأشجار، أو من بقايا الحيوانات، أو من مواد أخرى وجدت عنده سابقاً. فقبل ما يسمى بالعصر الحجري بكثير كانت هناك على الأرض كميات كبيرة من الخشب صنّعت - كما هو الآن - بشكل أو بآخر، لتكون منها مواد فنيت مع القدم. ويمكننا الآن أن نلاحظ لدى الشعوب

التي ما يزال مستوى حياتها بمستوى حياة شعوب العصر الحجري الحديث كالقبائل الاسترالية التي تمارس الجمع والقنص، أو جيرانها التسمانيين الذين لم يمض على انقراضهم زمن طويل أن عصراً قديماً معيناً سبق العصور المنصرمة، وذلك من خلال ملاحظة كيفية تصنيع الخشب. ويذكر علم ما قبل التاريخ القديم عصوراً معينة مثل عصر الحديد أو عصر البرونز أو عصر الحجر المجلوخ.. ولكن يمكن الآن أن نؤكد بشكل نسبي أن العصر الحجري، وبالتحديد عصر الحجر المدقوق، وعصر الخشب، قد امتدا فترات أطول بكثير من تلك التي ذكرها علم ما قبل التاريخ. ولكن ذلك لا يعني أن تصنيع الخشب قد قضت عليه مواد أخرى نهائياً في عصور لاحقة. بل العكس تماماً، كما يتضح من خلال الأدوات التي نستخدمها في حياتنا الحديثة. نريد هنا فقط أن نؤكد أن الخشب يعتبر من أقدم المواد المصنعة المتوفرة، وأنه كان الأسهل تصنيعاً بالنسبة لأدوات العمل البدائية المتوفرة آنذاك. وكما هو الحال في العديد من أصقاع الأرض، حتى الآن، كان إنتاج الأدوات الخشبية هو العمل اليدوي الغالب في العصور الأقدم.

وبما أن أدوات العمل المتوفرة آنذاك لم تكن تسمح بصنع مواد متنوعة من الكتلة الخشبية، فقد لعب لحاء الشجر دوراً كبيراً في صنع قطع كبيرة، كمصدات الرياح والقوارب، وذلك نظراً لسهولة تصنيعه. أما أدوات العمل فقد كانت عبارة عن صدف وأنياب الحيوانات والعظام والحجارة. وإن جولة في متاحف الشعوب تظهر لنا النتائج المدهشة التي تتحقق حتى الآن باستخدام مثل تلك الوسائل البدائية، دون استخدام قطّاعات المعادن أو المسامير.

كثير من البيوت التي شيدتها الشعوب البدائية ما تزال تبنى في عصر الثقافات المتطورة بكل أجزائها من خلال ربط الأعمدة والسطوح وبقية أجزاء التركيب، بينما الأدوات المصنوعة من قشور الشجر - التي أثبتت قدرة مقاومة مدهشة - فتخاط أجزاؤها معاً، اما بأوتار الحيوانات أو بألياف الأشجار، أو تلصق هذه الأجزاء بالغراء أو بالمعجون. أما الأواني الخشبية الكبيرة مثل الطبول أو القوارب فتصنع من جذع شجرة يقص بالشكل المطلوب ثم يجوف باستخدام النار.

وكما سبق أن رأينا، فان «عصا الحفر» - هذا الجهاز الذي لا غنى لشعوب الجمع والقنص عنه - هو من أقدم أدوات العمل الإنسانية. وهذه العصا مؤلفة إما من عقدة

متشعبة أو من عصا مدببة من الأسفل ومشوية بالنار لتكتسب المزيد من الصلابة. وعنها تطور الرمح الخشبي كأداة القنص. وغالباً ما تكون الأطراف المدببة والمشوية بالنار لهذه الرماح صلبة لدرجة أنها أحياناً تفوق في صلابتها صلابة الاسنة المصنوعة من الحديد أو المعادن الأخرى. كما تعطينا الطريقة الاسيوية في تطرية الرماح المصنوعة من الخيزران بالزيت، ومن ثم اخضاعها لعملية تصلب في الرماد الحار، اسنّة تحاكي صلابتها صلابة المعدن. وقد استخدم المحاربون في الشرق الأقصى مثل هذه الرماح الخيزرانية التي تنافس بكل جدارة أسلحة القتال القريب الحديثة.

أما الترس فقد تطور عن العصا التي تستخدم للوقاية من الضربات، تطورت فيما بعد بأشكال مختلفة، ومن مواد مختلفة أيضاً، كما نستدل على ذلك من التروس الافريقية المصنوعة من الجلد. وهناك سلاح آخر متنوع الأشكال وهو النبوت الخشبي، الذي تستخدمه جميع الشعوب البدائية بكل أشكاله وتنوعاته بدءاً من غصن الشجرة البسيط ونتوءات الجذور، حتى العصي ذات الرسوم والزخرفات الرائعة بالأهداب والكلف والريش التي يستخدمها سكان جزر المحيط الهادي في رقصاتهم الطقوسية. ولدى الاستراليين عصي محفورة بغاية الاتقان ومزدانة بأشكال زخرفية متعددة. كما تقوم العصا الاسترالية المسماة «بوميرانغ» - والتي تعود إلى قاذفها بعد أن يطلقها - على مبدأ فيزيائي معقد، وهو الشكل الحلزوني عند طرفي العصا التي تتخذ شكل المنجل. أما معظم أدوات المنزل البدائية فقلما تختلف عن تلك التي نستعملها الآن، الا أنها تفوقها إلى حد كبير، سواء من حيث الاتقان في الصنع أم في جمال الشكل. وهذا ما ينطبق بشكل خاص على ملاعق الأكل والمغارف وأواني الشرب والصحون وصحاف الطعام. وحتى الشوكات الخشبية كانت تستخدم أيضاً في الطعام، ولكن مناطق انتشارها كانت محدودة وغالباً كأدواة طقوسية. فالشوكة ذات الرؤوس الثلاث المعروفة في البحار الجنوبية لا يستخدمها إلا الكانيباليون[٢] لتناول اللحم البشري. كما أن بيوت «يورك» في كاليفورنيا مجهزة بصحون وصوان وصناديق من الخشب الأحمر الجميل. ويوجد في جميع أنحاء الأرض تقريباً وسائد ومقاعد وأوان متنوعة لحفظ المؤونة. حتى الصنادل المصنوعة من الخشب المحفور بطريقة فنية لدى قبيلة «تيكار» الافريقية لهي أجمل وأكثر أناقة من تلك الأحذية الحديثة التي ينتعلها الإنسان الآن

على شاطئ البحر. وفي بولينيزيا تصنع أعمدة البيوت الخشبية وأقنعة الرقص والطبول والصحاف الخشبية وعلاقات الملابس بدون استخدام أدوات عمل معدنية، بل فقط بمساعدة الصدف وجلد السمك الخشن والرمل والحجارة الخفيفة التي تستعمل للتنظيف.

وبما أن سكان أفريقيا الأصليين قد عرفوا فن إنتاج الحديد قبل مجيء المكتشفين بكثير، فان الشواهد على فنونهم اليدوية: كالصحاف وأعمدة البيوت وصور الآلهة وكراسي زعماء القبائل بلغت من الكمال ما جعل المدارس الفنية لقبائل الغابات تلك، مراكز يؤمها البيض الذين يحاولون تعلم المهارات الفنية وتقليدها.

ورغم أن تقنيات تصنيع الخشب قد اكتملت في ظل الحضارات الراقية وبخاصة بعد اختراع المسحج وفن تعشيق القطع المتناظرة، إلا أنها لم تتغير من حيث المبدأ. وقد قلدت الصناعة الحديثة مصائد الحيوانات الخشبية التي استخدمتها الشعوب البدائية، وكذلك الأقواس والسهام ومواد أخرى لا حصر لها، وصنعت على غرارها.

ويعتبر قشر الشجر من أسهل المواد الخشبية تصنيعاً. فمنه تم تشييد أقدم مسكن للإنسان وهو واقية الريح، وتصنع كثير من الشعوب سلالها وحاويات حاجاتها من قشور الأشجار التي تعتبر في مناطق ثقافية شاسعة أهم مادة للصناعة. فجميع أدوات الهنود الحمر في لابرادور مصنوعة من الخشب والقشور، ما عدا الجلد الذي يحصلون عليه من حيوانات الصيد.

وحتى الجلد لم يكن بامكانهم استغلاله بدون قواربهم المصنوعة من قشور الشجر، وبدون زحافاتهم الخشبية. فمجمل أدواتهم المنزلية تقريباً مصنوعة من قشور شجر البتولا المقطع بطرق شتى. وفي هذه الحالة تستخدم أسنان كلاب الماء كمقصات، بينما تقوم شرائط الجلد الرقيقة وأوتار الحيوانات وجذور شجر الشربين مقام الخيطان. كما تعالج الأواني والحاويات بالصمغ المطبوخ أو غراء السمك لتصبح كتيمة وتزين بزخارف تمثل غالباً أشكالاً حيوانية، أو رموزاً سحرية أو نباتات وأشكالاً هندسية. ينتج عن هذا التفاعل في النهاية تضاد جميل في الألوان ما بين البيج والبني. وتحفظ المربيات والدهون والأطعمة القابلة للحفظ في أوان ضخمة مصنوعة من قشور شجر البتولا، ذات أغطية بحكم سدها، لوقايتها من الحشرات والأوساخ والرطوبة.

ربما كانت الصيغة الأهم في استخدام قشور الشجر هي تحويله إلى قماش تصنع منه ملابس جيدة، تعتبر بديلاً حقيقياً للأقمشة المنسوجة. ويعتبر القماش المصنوع من قشور الشجر، الذي لم تعرفه قبائل الجمع والقنص، إحدى خصائص الثقافات الأرقى، وكان هذا القماش يصنع في افريقيا ومدغشقر واندونيسيا وبولينزيا حيث عرف باسم تابا Tapa وربما انتشرت معرفة صنع القماش من قشور الشجر من بحر الجنوب حتى أميركا الشمالية والجنوبية، واستخدمت مثل هذه الملابس في آسيا وأوربا منذ عصور ما قبل التاريخ. ويتم الحصول على «التابا» من قشور أشجار التين والتوت. فبعد فصل القشرة عن الجذع واخضاعها لعملية ترطيب، يتم تصنيعها باستخدام هراوات ومطارق خشبية خاصة حتى تتحول إلى لدائن طرية. وعندما ينتهي تصنيعها تصبح غالباً أكثر نعومة من بعض الملابس النسيجية. في بولينيزيا توشى هذه الملابس بزخارف متعددة الألوان ودقيقة الترتيب بواسطة طبعها بأختام من الخشب أو الخيزران. أما في أفريقيا فغالباً ما تستخدم قطعة من سن الفيل كمطرقة لصنع القماش من قشور الشجر. كما يستخدم مسحوق الأحمر في تلوينه.

كان تصنيع القماش من قشور الأشجار بواسطة الطرق على ألياف القشر، أصل صناعة الورق أيضاً، هذا الاختراع الذي يرجع إلى الصينيين، الذين صنعوا أقدم أنواع الورق من مزيج من ألياف شجر التوت ونباتات أخرى. وبالتقنية نفسها تم تصنيع البابيروس المصري من ألياف القصب.

بالإضافة إلى الخشب وقشر الشجر استخدم الإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ أيضاً العظام والقرون والصدف كأدوات عمل. وهناك عصور ما قبل تاريخية كاملة سميت باسم الأدوات العظمية التي وجدت فيها. كما حفظت الدهون والألوان في أوان مصنوعة من العظام. وكان فك دب الكهوف، ذو الأسنان الضخمة، يشكل واحداً من أكثر أنواع الأسلحة فعالية. كما كانت صنانير الصيد والمخارز ومكاشط الفرو والابر تصنع في عصور ما قبل التاريخ من العظام، وبالأسلوب نفسه المتبع الآن لدى العديد من الشعوب البدائية.

وتمثل ما تسمى بالبلطات اليدوية، التي تعود إلى العصور الحجرية الأولى، (وهي أحجار صوان مشظوفة لها شكل حبة اللوز أو البيضة أو على شكل قرص) أدوات

هادفة ومتقنة الصنع، بحيث يمكن اعتبارها نتاج عملية تطور طويلة. وكلمة «باليوليتيكوم» Paläolithikum المستخدمة في علم آثار ما قبل التاريخ مشتقة من كلمتين يونانيتين هما «باليوس» Palaios وتعني قديم ثم «ليتوس» Lithos وتعني الحجر، أي تعني العصر الحجري القديم. وهذه الفترة تنقسم بدورها إلى ثقافات عديدة مثل: البلطات الحجرية والشفرات والعظام.

بينما يتميز عصر «نيوليتيكوم»، أي العصر الحجري الحديث في أقدم أشكاله - كما سبق أن رأينا - بما يسمى ثقافة البلطات المصقولة لدى الشعوب التي تمارس زراعة الأرض، حيث تستخدم المعزقة ذات الحد المجلوخ في أعمال العزق وحفر التربة. وتمتاز أقدم الأدوات الحجرية غير المصقولة بأشكالها المتنوعة على شكل الصدف، حيث يستدل من أشكالها على أوجه استخدامها. إذ نستطيع حتى الآن أن نميز وبدون أية صعوبة - بين مختلف أنواع مكاشط الجلد والمناجل والسكاكين وغيرها من الأدوات التي لم يكن من الممكن لمقابضها الخشبية أن تقاوم فعل آلاف السنوات. أما رؤوس السهام الحجرية فانها تعود لعصور أكثر حداثة، وهذه تصنع إما من حجر واحد ذي مقبض أملس أو من حد من الحجر مثبت على مقبض خشبي. ويستعمل الهنود الحمر في كاليفورنيا أمواساً من الكوارتز أو الاوبسيديان ذي النوعية الجيدة لسلخ جلود حيوانات القنص الضخمة، بينما تستخدم الأمواس الحجرية الصغيرة ذات القبضة الخشبية في الأعمال البيتية. وقد استخدم الازتيك القدماء عند ممارسة طقوس تقديم القرابين البشرية أمواساً حجرية من مادة الاوبسيديان، وما تزال الأمواس الحجرية التي تستخدمها كثير من الشعوب في طقوس الختان تذكرنا بهذه العادة القديمة.

وقد عثر على فؤوس حجرية أثناء الحفريات الأثرية في أميركا الجنوبية. وما تزال بعض الشعوب البدائية تستخدم مناشر خشبية تشبه كل الشبه تلك التي وجدت في حفريات ما قبل التاريخ في سويسرا الحالية.

يشكل استخدام الهاون والرحى لدى الشعوب البدائية في جميع أنحاء العالم مجالاً آخر هاماً من مجالات استخدام الحجر للأغراض المنزلية(٣). وهناك شعوب كثيرة تصنع مواد للزينة من الحجر، فالطوارق مثلاً أو شعوب السودان الغربي يصنعون أساور سوداء من الرخام. وغالباً ما تكون غاية في الاتقان والتكوين. وهناك أيضاً عصي

خاصة باقامة الطقوس، مصنوعة من حجر البازلت أو اليشب، أو من الحجارة شبه الثمينة، تعبر عن منتهى مظاهر الابهة والعظمة عند سكان جزر المحيط الهادي.

وتعتبر الصولجانات المصنوعة من اليشب ذي اللون الأخضر الغامق من أجمل القطع الفنية المعروضة في المتاحف.

يرى كل من يطلع على المجموعات الاتنوغرافية، مدى أناقة وجمال الحقائب والسلال التي أنتجتها مهارة الشعوب البدائية، والتي تفوق مثيلاتها عندنا إلى حد كبير. ورغم أن فن جدل الألياف النباتية معروف في جميع أنحاء العالم، إلا أن أجمل القطع هي تلك المصنوعة في افريقيا وجزر المحيطات. أما في المناطق القطبية فقد اتخذ الابداع الفني أشكالاً أخرى، نظراً لعدم توفر المادة النباتية اللازمة لذلك.

يعتبر فن صنع السلال من أقدم الحرف اليدوية في تاريخ الإنسانية؛ ويمكن للمهتم أن يتتبع مختلف مراحل تطور هذه الحرفة بدقة. فمن الجَدْلِ البسيط لسعف النخيل وقشور الشجر وسوق الحشائش، تطور فيما بعد فن النسيج. وبينما كان فن الجَدْلِ معروفاً على النطاق العالمي، إلا أن النول لم يظهر -كعلامة مميزة لمراحل حضارية أعلى - إلا مع ظهور الثقافات الزراعية. ولم تكن صناعة الحصر والغرابيل، وغيرها من مواد مصنوعة من ألياف النباتات تتطلب من أدوات العمل أكثر من مخرز أو أبرة من العظم أو الخشب. وكانت السلال المصنوعة من سعف النخيل من أبسط المواد المصنوعة بهذه الطريقة. والأهم من ذلك كله كان صنعَ الأوعية المجدولة التي تحفظ فيها الشعوب البدائية أدواتها البيتية وتنقل فيها موادها الغذائية. ومن تعبير «جمع وقنص» يُستدل على أن أقدم الشعوب كانت تحتاج إلى أوعية تجمع فيها النباتات الغذائية وتنقلها إلى مناطق سكناها. وهكذا تعطي هذه الشعوب الجانب الأكبر من الأهمية لخفة وسعة أوعيتها المجدولة، وكذلك للشكل العملي لهذه الأوعية.

بلغ فن الصناعة اليدوية من الاتقان وسعة الخيال الذي لا ينضب في هذا المجال ضروباً من الروعة والجمال لا يمكن وصفها، بل يُنصح بالاطلاع المباشر عليها في قاعات المتاحف. ومن أهم وأمتع هذه المعروضات تأتي الأسوار والجدران الضخمة من العشب المجدول، والسلال المصنوعة من سوق نبات «الليانا»، وآلاف الأدوات المنزلية، كالأطباق والصحون والمصافي والمظلات المربعة لوقاية الرضيع النائم من أشعة الشمس.

أما الاستفادة الأخرى والهامة جداً من الألياف النباتية فهي صناعة الحبال والخيطان، التي تلعب دوراً هاماً في ثقافات الشعوب البدائية كمادة للربط والتثبيت. فمنها تصنع السلال والأنشوطات وبها تثبت دعائم المسكن. ويمكن تحويل الألياف إلى حبال، إما في حالتها الطبيعية، أو عن طريق اخضاعها لعملية تعفن، تتحول بعدها إلى مواد ربط قوية جداً. وبذلك تصبح انشوطات صيد سمك القرش التي يصنعها سكان جزيرة «سانتا كروس» مناسبة جداً لاصطياد الطريدة والابقاء عليها في الشرك. وقد خلف لنا الباحث «تيسمان» حكاية طريفة عن قبيلة «بانغقة» توضح حقيقة أن الكثير من الحيوانات والأسماك تقع في الشراك والشباك نتيجة كسلها وتهاونها، إذ فاتها أن تتلف المزروعات التي تنبت عليها الألياف المستخدمة في صنع حبال الصيد والشراك والشباك.

حتى الشعر الآدمي يستخدم أيضاً في صنع الحبال والمواد الأخرى القائمة على فن الجدل. فالاستراليون يجدلون الأحزمة وأقراط العنق والرأس من شعر البشر وشعر حيوان «الاوبوسوم»(٤). فعندما يطلب الصهر من حماته شعرها ليصنع منه حبلاً، عليها أن لا ترد طلبه. ويزين سكان جزر كاليدونيا قبعات زعمائهم بأربطة طويلة مصنوعة من شعر الإنسان. ويستخدم سكان «أسام» الأصليون شعر الإنسان لتزيين رماحهم.

وفي جزر «ميلفيل» تصنع من شعر الإنسان المجدول مع الريش والألياف النباتية أحزمة وأساور وغيرها من قطع الزينة. كما يعلق المحاربون كرات صفراء من الريش، معلقة على حبال مجدولة من شعر الإنسان حول أعناقهم، لوضعها في أفواههم أثناء المعركة، تماماً كما يأخذ الملاكمون في أيامنا هذه، أثناء المباريات، الفك الخاص بهذه اللعبة بين أسنانهم. تمتاز كل هذه المنتجات النسيجية بعدة مميزات من أهمها: التناظر والليونة والاتقان، فهي في الواقع منتجات صناعة يدوية فنية. ولكن مع ذلك لا يمكن الحديث عن عملية نسج حقيقية إلا بتوفر الخيط الأكثر دقة وطولاً من الألياف المجدولة القصيرة أو الأربطة والحبال التي عرفتها الثقافات الأقدم.

أدت الحاجة إلى خيط طويل ودقيق وبالتالي متساوي المتانة، إلى اختراع آلة جديدة وهي المغزل. فمع أن تقنيات استخراج وتنقية وفتل الألياف معروفة جيداً لدى العديد من الشعوب، إلا أن عملية الغزل تتطلب حسب تعبير الباحث «هوبر» «سحبا

منتظماً للألياف المندوبة وجدلها في خيط انسيابي دقيق أو غليظ» والتعريف التالي للمغزل يعودُ أيضاً للباحث نفسه:

«إذا ما علق جهاز خشبي، في أعلاه خطاف وفي أسفله ثقل، بالخيط، يمكن التوصل إلى جدل منتظم للألياف وذلك بالفتل المستمر لقطعة الخشب ذات الثقل، أو للمغزل، كما أصبح يطلق على هذه الآلة».

ومع ازدياد وتيرة حياة الاستقرار عند الشعوب بدأ المغزل بالظهور كواحد من أهم أدوات العمل اليدوي. ولذلك فإن الاعتقاد بأن اختراع العمل الزراعي وظهور المغزل كعنصرين ثقافيين متلازمين، صحيح. ويظهر من خلال أقدم اللقى الأثرية أن جميع بيوت المزارعين في عصور ما قبل التاريخ كانت تمارس فنون الغزل والنسيج، وأن المغازل الفخارية التي وجدت في الطبقات السفلى من حضارة «آناو» في «ميرف» في «ترانس - قوقوزيا» تعود على الأقل إلى عام /٣٥٠٠/ قبل الميلاد. كما وجدت قطع مشابهة أيضاً في خرائب «اريدو»، وفي ما يسمى بحضارة «سيسكلو»، الما قبل تاريخية في اليونان، وكذلك في حفريات العصر الحجري الحديث في كريت. وبشكل خاص عثر على عدد كبير من المغازل اليدوية وأثقال الأنوال في بقايا مساكن فلاحي العصر الحجري الأوربيين، حيث وجدت أجزاء من الأنوال واطارات النسيج وآلات صناعة الخيوط والحصر المنسوجة والأقمشة الكتانية التي لم تفن رغم مرور آلاف السنين. وتشبه المغازل البدائية التي تستعمل في أيامنا هذه تلك التي كانت في أقدم العصور والتي عرفت أيضاً في بلدان الحضارات الراقية، كما في مصر والهند والبيرو. فعندما تغادر إحدى نبيلات البيرو منزلها بزيارة جارتها، كانت إحدى امائها تتبعها بسلة فيها المغزل وبعض أدوات العمل اليدوي الأخرى.

يتضح من هذه الحقائق أن نول النسيج، الذي تطور عن تقنيات الجَدْل، كان من اختراع المرأة. ولم ينتقل فن النسيج إلى الرجال إلا في عصور ثقافية متأخرة عندما ظهرت الاختصاصات في العمل اليدوي. فقد اتخذ النول شكله من شكل اطار الجَدْل بخيوطه المتوازية والمرتبة على شكل سلسلة، والتي يتداخل فيها خيط العمل أو اللفة. وما يزال سكان ميلانيزيا الأصليون وسكان جنوب أميركا الاستوائية وغيرهم من قبائل الهنود الحمر في أميركا الشمالية ينسجون أربطة رؤوسهم وأحزمتهم وأربطة الحمل على

مثل هذا الاطار البسيط، وذلك بمساعدة أبر مصنوعة من العظم أو من الخشب، تعتبر الشكل البدائي للمكوك. وللأنوال البدائية أنواع متعددة جداً يمكن أن تشكل مادة لدراسة خاصة قائمة بذاتها. وقد قسمها العالمان الاثنولوجيان «شابل» و«كون» إلى ثلاث مجموعات رئيسية تبعاً لمبادئ القوة التقنية وهي: النول ذو العمود الواحد: وهو عبارة عن خشبة مائلة معلقة بين عمودين أو دعامتين، ثم النول ذو الدعامتين (وغالباً ما يستخدم في وضع أفقي) حيث تشد الخيوط على عارضتين ثابتتين، ومجهز بدواسة، ثم النول ذو الدعامتين الذي تستخدمه الثقافات الراقية أو الذي يسمح وجود الدرافل الدوارة فيه بانتاج قطع من القماش غير محدودة الطول. وقد طرأت تحسينات عديدة على هذا النوع الأخير بحيث يمكن اعتباره النموذج الذي قامت عليه الأنوال الصناعية الحديثة.

ومن الأنوال اليدوية القديمة صنعت أقمشة نسيجية ممتازة تفوق منتجات صناعتنا الحديثة.

فمتانة وجمال هذه الأقمشة يعودان إلى التأني التام في الصنع. كما تمتاز بشكل خاص بزخارفها ورهافة ألوانها الطبيعية المدهشة. أما حقيقة أن النول قد ظهر في مناطق ضيقة من العالم فمرده أن ظهوره جاء متأخراً في سلم تطور الحضارة الإنسانية. فحتى الدائرة الثقافية البولينيزية المتطورة جداً لم تعرف النول، وباستثناء قبائل «بويبلو» و«نافاهو» لم يصل النول إلى الهنود الحمر في أميركا.

كانت الأقمشة المصنوعة على أنوال الحضارات القديمة الراقية غاية في الروعة من الناحيتين الفنية والتقنية. فقد نسج سكان بيرو ابان فترة ما قبل كولومبس أغطية وإزارات توضع على الكتفين. تصنعها عذراوات الشمس كقرابين للآلهة، وعليها أساطير كاملة تمثل العفريت والنمر والأفعى المتعرجة. كما زينوا ملابسهم القديمة برسوم تمثل قاذفات رماح وأسراباً من العصافير الطائرة. كما أن فخامة الأقمشة المنسوجة في مصر معروفة جداً من خلال اللقى التي عثر عليها في موقع وادي الملوك. ولا يمكن أن تبلغ صناعة الأقمشة الحديثة مستوى نوعية الحرير الصيني أو المخمل الفارسي أو النسيج الخشن القبطي، أو أن تفوقها من حيث الجودة. وهناك منسوج ما يزال منذ مئات السنين يعتبر القماش الأغلى في العالم، رغم آخر الاكتشافات التي تم التوصل

إليها في المخابر الحديثة في مجال الصناعة النسيجية، ألا وهو الحرير الذي غامر الكثيرون بحياتهم وضحوا من أجل الحصول على سر صناعته من ذوي المناصب وأصحاب النفوذ الذين كانوا يحيطون مقامهم العالي بأبهة الحرير. وما يزال تعبير «حرير طبيعي صافي» حتى الآن يعني الجمال والنوعية الممتازة التي لا يمكن حتى للنايلون الحديث وبقية المنسوجات قريبة الشبه به أن تبلغه. ومنذ حوالي عام /٢٠٠/ قبل الميلاد اكتشف الكوريون امكانات تربية دود القز، ومن ثم انتشر شيئاً فشيئاً علم هذا «النسيج الالهي» ومعرفة تقنية صنعه، في اليابان وأواسط آسيا حتى بلاد فارس والتيبت. وفي القرن السادس الميلادي أدخل جوستينيان فن انتاج الحرير إلى بيزنطة، وبعد ذلك نقل الاغريق هذا الفن. ولم يكن اكتشاف الحرير أو صناعته معروفاً لدى أي من الشعوب البدائية. فتاريخ الحرير إذن هو تاريخ الثقافة الراقية.

وقد سبق أن رأينا أن اكتشاف فن النسيج تطور عن حرف الجَدْلِ وصنع السلال اليدوية القديمة. ومن هذه التقنية القديمة نشأت أيضاً حرفة هامة أخرى، اكتشفت من قبل النساء، كفرع أكثر حداثة لفن الجَدْلِ، ألا وهو فن الفخار، أي صنع القدور والأواني من الطين والصلصال. ورغم أن المواد المستخدمة في عملية الجَدْلِ وصنع الفخار مختلفة جذرياً، الا أن طريقتي الصنع متشابهتان تقريباً.

وهكذا تعود بشكل خاص واحدة من أقدم تقنيات صنع الفخار، التي هي صنع الأواني من الدوائر الطينية، مباشرة إلى طريقة الجَدْلِ الحلزونية. ولكن ذلك لا يعني أن الشعوب التي عرفت أقدم تقنيات الجَدْلِ كانت تعرف حكماً هذا النوع من الفخار. وكما هو الحال بالنسبة للنول، فان صناعة الفخار لم تظهر إلا عند الشعوب التي وصلت مرحلة الزراعة، من حيث نمط الحياة الاقتصادية.

أما الشعوب الرحل ذات الأنماط الاقتصادية البدائية، فلم يكن لديها الوقت، ولا حتى امكانية تطوير معرفة الفخار في ظل نمط حياتها غير المستقر. كما أن تغيير مكان الاقامة بصورة مستمرة يجعل من غير الممكن لهذه الشعوب أن تحمل معها الأواني القابلة للكسر كلما رحلت.

حاولت مجموعة من النظريات أن تعطي تفسيراً حول اختراع الفخار. فمن هذه النظريات ما يقول إن صنع الفخار تطور عن عادة تطيين الأواني المجدولة بالطين

المجبول بالماء لتصبح غير نفاذة، وإن استخدام مثل هذه الأواني قرب النار قد قاد إلى فكرة صنع أوان مؤلفة من الطين فقط، دون حاجة إلى الهيكل الأساسي المصنوع بطريقة الجَدْل. ومثل هذا الاعتقاد يمكن أن ينسجم مع الحقائق. وعلى أية حال فليس لدينا الآن أية امكانية، لتفسير البدايات الأولى لصناعة الفخار. فبينما يمكن أن ينطبق مثل هذا التفسير على الأواني المصنوعة من الطين المجفف، إلا أنه من المشكوك فيه أن تكون صناعة الأواني الفخارية المشوية قابلة للتفسير بناء على هذا الأسلوب. فعلاَّمة من درجة «نوردنسكيولدس» يصف هذه النظرية بأنها «هراء» أو «جوفاء»، فهو يوضح أن السلال المطلية بالطين المحروق لم تتحول من خلال هذه العملية إلى أوان فخارية كتيمة، بل تحولت بكل بساطة إلى كومات من الطين المشوي المكسور. ويعتقد أن معرفة الغسل وتحويل الطين إلى أوان صغيرة بأشكالها الأولية، قد سبقتا «الطرق البنائية» المستخدمة في صنع الأواني الفخارية الضخمة.

عمدت الشعوب التي تمارس صنع الفخار إلى طرق مختلفة لتصنيع الصلصال أو الطين الذي تستخدمه، حسب مواصفات المادة الأولية الموجودة تحت تصرفها. تنظف الكتلة الترابية وتجفف كما تتخلص من الأجسام الغريبة عن طريق التصفية. وعندما يصبح الطين غضا يمزج بمواد تزيد من قوة تماسكه كالرمل والنخالة والرماد أو قطع صغيرة من الخشب أو العشب. أما إضافة قطع الاسفنج على كتلة الفخار فهو اختراع خاص بالهنود الحمر في أميركا الجنوبية. وحالما يصبح «العجين» لينا وطيعا للتشكيل، يمكن البدء بصنع الأواني الفخارية. وقد ذكر الباحث «بليشكه» خمس طرائق رئيسية مختلفة لصنع الأواني الفخارية، منتشرة في مختلف أنحاء الأرض، اعتبر أربعة منها بدائية، بينما اعتبر أن الخامسة فقط تخص الثقافات الراقية. والطريقة الأكثر بساطة هي صنع آنية خشنة من كتلة طينية مضغوطة في الوسط وجدرانها الخارجية مبنية باليد. وغالباً ما توضع في داخلها حجر على شكل قالب من أجل تسهيل العمل. وما يزال «البابوا » في غينيا الجديدة يصنعون الكثير من الأواني بهذه الطريقة، رغم أنهم يعرفون تقنيات أخرى لصنع الفخار.

وهناك طريقة لصنع الفخار اسمها تقنية البروز الحلزوني، تمتاز باستخدام قوالب الطين على شكل السجق، تلف بادئ الأمر على الأرض لتشكل قاعدة الاناء ثم يصبح

اللف عمودياً متصاعداً شيئاً فشيئاً حتى يبلغ العلو المطلوب. ويقوم الصانع بصقل جوانب الاناء الداخلية والخارجية بحجر أو بقطعة من الخشب. وتشبه هذه الطريقة إلى حد بعيد الطريقة الثالثة التي هي صنع الأواني الفخارية من مجموعة من الحلقات الطينية تلصق مع بعضها البعض ليتشكل منها الاناء، بحيث تكون كل حلقة أوسع من الحلقة التي سبقتها. أي أن أضيق حلقة تشكل القاعدة وأوسع حلقة تشكل حرف الاناء الأعلى. وهنا أيضاً يقوم الصانع في الختام بصقل جوانب الوعاء الداخلية والخارجية. الطريقة الرابعة لصنع الفخار تبدأ بصنع القاعدة الدائرية للاناء مع زوائد طينية متدلية على الجوانب، ومن خلال دوران الاناء البطيء تتقوس نحو الأعلى ثم تتصل مع بعضها البعض.

أما الطريقة الخامسة في صنع الفخار الوحيدة التي تمثل خاصية من خصائص الثقافات الراقية، فتستخدم جهازاً حديث الاكتشاف وهو ما يسمى «بمخرطة الخزف» التي تعتبر تجديداً ثورياً في عالم الصناعة مثله مثل بقية أنواع العجلات بحيث استخدمت مبدأ لا يعتمد على محاكاة ما هو موجود في الطبيعة. وبالتالي فان اختراعه يعتبر انتصاراً لذكاء الإنسان، لأن الدولاب والقرص الدوار لا يعتبران محاكاة لأي من الظواهر التي نشاهدها في الطبيعة.

عرف دولاب الفخار في مصر منذ بداية الألف الثالثة قبل الميلاد كما استخدمه الحرفيون الكريتيون منذ أقدم مراحل العصر البرونزي، وكان معروفاً أيضاً في مناطق عديدة في الهند. أما في أوربا فلم يظهر إلا حوالي عام ٥٠٠ قبل الميلاد، وكان ذلك في فرنسا وألمانيا، ولم يعرفه السكان الأصليون في كافة أنحاء القارة الأمريكية إلا بعد قدوم المكتشفين.

كانت منتجات صناعة الفخار البدائية تشوى على نار مكشوفة وغالباً ما كانت مزخرفة بحزوز زخرفية أو برسوم. أما الطلاء المينا الزجاجي فقد كان أيضاً من اختراعات الحضارات الراقية. ولقبائل غرب أفريقيا طرق متعددة في زخرفة الأواني الفخارية. فالأشكال الزخرفية محفورة على عصا خشبية تضغط على الآنية الفخارية الطرية بأوضاع مختلفة فتطبع الرسوم على سطح الآنية، ثم تترك لتجف في الهواء وتشوى ليلاً على النار. أما هنود أميركا الجنوبية فقد اخترعوا الأواني ذات الحواف

الجوفاء. وفي المناطق التي يقل فيها وجود الحجارة كانوا يضعون كرات طينية تستخدم للطبخ عوضاً عن الحجارة الساخنة. كما يضع الهنود الحمر غلايين من الفخار بأشكال متعددة كما تبينه لنا دراسة حول غلايين التبغ الفخارية التي تصنعها مختلف الشعوب، بدءاً من الغابات حتى غرف التدخين الهولندية. أما النماذج الأكثر كمالاً لفن صنع الفخار فقد خلفتها لنا الحضارات القديمة الراقية وبخاصة حضارات الفرس والهند ومصر والمكسيك وبيرو.

ونجد في علم ما قبل التاريخ أن أشكال الفخار المختلفة قد أعطت أسماءها لمناطق ثقافية عديدة. وبينما، لم يستطع حرفيو العصر الحجري القديم - الذين يدخلون في عداد شعوب الجمع والقنص - أن يطوروا فن صناعة الفخار، فقد كان العصر الحجري الحديث، أي عصر أقدم الشعوب الزراعية، غنياً جداً بالمنتجات الفخارية. فهناك ثلاث مراحل رئيسية من هذا العصر، اتخذت أسماءها من أهم الأشكال الفخارية التي وجدت فيها. إذ نتحدث في معرض الكلام عن ثقافات العصر الحجري الحديث عن «الفخار المحزوز بالحبل» وعن الصحون ذات الشكل الناقوسي، أو Vase a Campana ثم عن «الفخار المصنوع بطريقة الأشرطة الفخارية الملصوقة على الاناء». وقد عثر على اللقى التي تتناسب مع هذه التسميات بشكل خاص في وسط أوربا، وفي شبه جزيرة ايبريا وايطاليا وفرنسا وبريطانيا، وكذلك في المراكز القديمة لثقافة الدانوب.

لم تقتصر المنتجات الفخارية على الأواني والحافظات، حتى منذ أقدم العصور، وانما تعدتها أيضاً إلى صنع هيئات بشرية، وجدت في وسط أوربا خلال ما يسمى بعصر «اوريغناسيان». وكان العصر الحجري الحديث غنياً بالتماثيل البشرية والحيوانية (وبخاصة التماثيل النسائية) كما كان للقدور والمزهريات الطينية ذات الزخارف الرائعة، ما يقابلها من الأدوات العملية، كالمغازل والأختام الطينية وغيرها من الأدوات المستعملة.

وجدت في قبور المصريين القدماء أعمال خزفية من مختلف الأنواع، كانت الغاية منها أن يستخدمها الأموات في حياة الآخرة. ويمكن أن نرى ذلك بشكل خاص في المتحف البريطاني، حيث توجد مئات القطع، وخاصة الأشكال الرمزية والقماقم والصحون الصغيرة المملوءة بالفاكهة والخضار.

بلغ فن الزخرف أوجه باختراع البورسلان، الذي يمثل مساهمة أخرى أضافتها الحضارة الصينية الراقية للتراث المادي للإنسانية. ويمكن أن نصل في التقصي عن أصل البورسلان حتى القرن السابع الميلادي. يعود اختراع البورسلان للرغبة في ايجاد بديل للصحون والأطباق المصنوعة من النفريت (أو اليشب) النفيسة التي تعود لأقدم العصور والتي صنعت النماذج الأولى للبورسلان الصيني على غرارها تماماً، سواء من حيث الشكل أو اللون. ومن هنا فان أقدم البورسلان لم يكن أبيض اللون، وإنما تظهر فيه درجات لونية من الأخضر والرمادي أو الأزرق التي يظهر فيها هذا الحجر شبه الثمين.

ويعود تثمين الأواني البورسلانية الرقيقة والهشة إلى مرحلة متأخرة إذ نشأ في عصر لم يعد فيه المرء يرى في المادة الجديدة تقليداً للنفريت إنما بدأ بانتاجه كمادة مستقلة بحد ذاتها لصناعة أشكال فنية في غاية الدقة.

وما تزال قطع البورسلان المصنوعة في مشاغل تشينغ - تشيب في مقاطعة كيونغ تسي تعتبر الأنفس في العالم. وقد اعتبر البورسلان في كل العصور أفخم زينة للمائدة. وحالما دخل اليابانيون في الحرب العالمية الثانية مقاطعة كيانغ شي الصينية حاولوا نهب قدر ما استطاعوا من الأعمال الفنية، كرمز لانتصارهم. وبعد أن استعاد الشعب الصيني حريته كلفت الحكومة فناني تشينغ تشن بانتاج عدد من المجموعات البورسلانية الفخمة للاحتفال بالنصر على الغزاة المهزومين، وذلك تأكيد رمزي على بعث مجد الصين.

ولكن الإنسانية لم تستخدم مجرد المعدن والنباتات لصنع الأعمال الفنية والأدوات المنزلية، إذ ساهمت المملكة الحيوانية، وإلى أبعد الحدود، في إغناء التراث الثقافي الإنساني. فقد سبق أن رأينا أن مكاشط الجلود وسكاكين السلخ وغيرها من أدوات تدخل في عداد أقدم الأدوات ما قبل التاريخية. ومن هنا فليس من شك بأن القدرة على نزع جلود الحيوانات وتصنيعها كانت من أقدم مهارات الإنسان.

وبينما لم يكن لدى الشعوب البدائية أية معرفة بعمليات الدباغة والتدكيك والصقل، كان الاستراليون ينتجون معاطف الفرو في المناطق الباردة ويخيطون جلود الحيوانات بأوتار الكنغورو. ويرتدي سكان افريقيا الجنوبية معاطف فرو دون أي تصنيع تقريباً. كما يعتبر سكان أرض النار، المعاطف وأغطية النوم المصنوعة من فرو حيوان

كواناكو مادة لا غنى عنها وتصنع جلود الحيوانات في كل أنحاء شاطئ افريقيا الشرقي، من أقصى جنوب القارة حتى الغابات الاستوائية، إلى مجموعة كبيرة من الأدوات وقطع الملابس، بحيث يمكن الحديث عن مناطق سودانية برمتها «كمناطق جلود». ولكن مع أن استخدام جلود الحيوانات معروف في جميع القارات، إلا أن مهارات تصنيعها تتفاوت من شعب إلى آخر. ومما لا شك فيه أن لدى الشعوب الرعوية خبرات متطورة في هذا المجال.

وبينما يعتبر انتاج الجلد هدف لطرق التصنيع جميعاً، فإنّ تصنيع شعر ووبر وصوف مختلف الحيوانات، يشكل حرفة أخرى هي صنع اللباد الضروري لحياة العديد من الشعوب، وبخاصة شعوب آسيا الوسطى والسودان وقد بلغت ذروة كمالها في منطقة التيبت.

وللحصول على المادة الأولية لإنتاج اللباد يجز سكان التيبت الحيوانات التي يصلح شعرها أو صوفها لهذه الصناعة. يندف الصوف ثم يبلل ويكبس بقوة حيث يتحول إلى نسيج قوي شبيه بالقماش، غير نفاذ للماء. وينتج سكان التيبت أنواعاً رقيقة من اللباد لا تزيد سماكتها عن سماكة المنديل. أما عند صناعة أغطية الخيام، أو مقاعد السروج أو بطانات الأحذية أو أغطية النوم فتضغط عدة طبقات من الصوف فوق بعضها البعض للحصول على السماكة المطلوبة. أما الحقيقة الجديرة بالاعتبار فهي أن معظم الشعوب التي تنتج الصوف لا تحول هذه الألياف الحيوانية إلى غزل أو قماش، لأن انتاج اللباد أقدم بكثير من معرفة الأقمشة الصوفية المنسوجة.

وهكذا تقدم المملكتان الحيوانية والنباتية، والجوامد أيضاً، المادة الأولية لأقدم الصناعات. ولكن ذكاء الإنسان وطموحه لم يكتفيا بهذه المواد، وانما عرف الإنسان كيف يكشف كنوز الأرض. فقد اكتشف النحاس والحديد، ونفذ إلى أسرار الرمال النهرية التي تحوي الذهب.

تم الحصول على الخلائط المعدنية باذابة مختلف المعادن بعضها مع البعض، كما أقيمت الأفران العالية في البراري، فأعطت الإمكانية التي تطورت عن هذه المعرفة الحديثة دفعاً جديداً للمهارات الفنية المتوارثة وخلقت طرقاً جديدة للكشف والتركيب. فقد منحت الاختراعات والصناعات الجديدة، ومن ثم الانعتاق من تحكم الطبيعة بالإنسان، قدرات وامكانات جديدة.

كانت بدايات عصر الحديد في أوربا - الذي يعتبر عصر الفولاذ الحالي مرحلة متطورة عنه - قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة، عندما بدأت معرفة الحصول عليه بالتسرب إلى مناطق البحر المتوسط. أما في الصين فقد كان - كما يستدل من وثائق حكومة الامبراطور «ياو» - معروفاً في عام ٢٣٥٧ قبل الميلاد وفي مصر عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد رغم اعتباره حتى عام ١٦٠٠ قبل الميلاد شيئاً غريباً بعض الشيء. ورغم قدمه السحيق، فان الحديد يمثل الفرع الأحدث من صناعة التعدين. فقد تطور عصر الحديد عن عصر البرونز، الذي تطور بدوره عن معرفة النحاس. وعندما نفكر بالمنتجات المعدنية للشعوب القديمة فسرعان ما تثب إلى مخيلتنا صورة كنوز الفضة والذهب التي عثر عليها في مصر و«اور» وبوليفيا وكولومبيا، ثم نتوقف عند الثروات الخيالية لدى الممالك والملوك الزائلين، وأدواتهم الفخمة في وادي الملوك في مصر وفي بلاد الفرس واليونان والمكسيك. فرغم أن هذه الثقافات الراقية القديمة كانت تملك ثروات لم نعد نعرفها في عصرنا هذا، إلا أن أباريقها الذهبية وأواني موائدها وعقودها وأساورها وأقراطها وتماثيل آلهتها أو غيرها من الأدوات الترفيهية، لم تكن التعبير الحقيقي عن ارتفاع مستوى حياة جميع مواطني تلك الشعوب، وانما كانت تمثل امتيازاً لقلة من الصفوة المختارة جمعت كنوزها على حساب عمل الفقراء. فالجواهرجية في قبائل «تشيبتشا» الذين أبدعوا أدوات منزلية من الفضة والذهب لقصور الأغنياء وزينوا الأقنعة الذهبية وكافة أنواع الحلي الموشاة بأسلاك الذهب، كانوا معدمين، مثلهم مثل العبيد الذين استخرجوا المعادن الثمينة من مناجم الذهب في مصر. ولم يكن انجاز هذه الأعمال الفنية ممكناً لولا وجود أدوات عمل مناسبة لصنعها. كان النحاس والبرونز أقدم المعادن التي صنعت منها أدوات العمل اليدوي. فمع العصر الحجري الزائل بدأ عصر البرونز، عندما تعلم الإنسان سكب النحاس والقصدير في خليط معدني جديد تولد عنه البرونز. وكانت هذه التقنية معروفة في كريت منذ حوالي نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، كما كانت معروفة في أصقاع عديدة من العالم، بحيث لا يمكن الآن معرفة موطنها الأصلي بالضبط.

فعلى هضبة «بوتوسي» في بوليفيا القديمة التي كانت تنتج البرونز أقيم خمسة آلاف فرن عال، وفي الصين كانت برونزيات سلالة «شانغ» (١٧٦٦ - ١١٢٢) قبل

الميلاد تصنع على أسس التقاليد الفنية القديمة. وعندما تم الكشف عنها من مدافنها الصينية التي بقيت فيها آلاف السنين، لوحظ أنها لا تحمل من الصدأ إلا القليل مما يلحق بالأدوات البرونزية النقية جداً عندما تتعرض للهواء أو الماء ولذلك كانت إما زرقاء كريش طائر الثلج أو «ذات خضرة نقية كقشرة البطيخة».

وعند الاهتمام بقضية انتاج المعادن لدى الشعوب البدائية، تتجه أنظارنا نحو افريقيا، التي جاءت منها - منذ اكتشافها - أفضل منتجات العمل البدائي في مجال التعدين. فإذا ما نظرنا الآن إلى الأساور البرونزية وأدوات العمل وقطع الحلي التي صنعتها قبائل «أدامار» في نيجيريا وتوغو، لرأينا أن تلك المنتجات الفنية ليست سوى بريق ضعيف لعصر صب المعادن أو الشمع المذاب Cite perdue الذي بلغ كماله ذات مرة في افريقيا عن طريق «الشكل الضائع» الذي وجدت أروع وأفخم منتجاته في الرسومات البرونزية النافرة والأشكال البشرية والحيوانية في مصر «بنين».

ويتضح من أزياء تماثيل الأوربيين الظاهرة على هذه الأعمال الفنية أن الصناعة في غرب افريقيا قد بلغت ذروتها في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

تقوم التقنية المتبعة في طريقة الشمع المذاب أو Cire perdue على صنع قالب من الشمع للشكل الذي نريد صبه بالمعدن. (بينما يصنع هذا القالب من الطين في حالة القطع الكبيرة) ثم يغطى بطبقة من مسحوق حجر الاجر أو كبريتات الكالسيوم، تحضر فيها - بعد أن تجف - ثقوب للتهوية والصب، ثم يسخن هذا الشكل الأساسي على نار ليذوب الشمع ثم يملأ بالمعدن السائل. ويكون التمثال الذي يصنع بهذه الطريقة خالياً تماماً من النتوءات، ثم يصقل بواسطة المبارد والمطارق والخرامات.

وتظهر جميع البرونزيات التي عثر عليها في «بنين» أيضاً خلفيات منقوشة في غاية الدقة، تمثل غالباً أزهاراً وأشكالاً هندسية. وكما لاحظ «لوشان» فقد أثارت هذه الرسومات حتى غيرة كبير مبدعي عصر النهضة في هذا المجال وهو الفنان «بنغينوتو شيليني».

أما أهم فروع صناعة التعدين الافريقية فهي بلا شك انتاج الحديد. ورغم أن شعوباً افريقية لم تعرف فن صهر الحديد (البوشمن والأقزام مثلاً) إلا أنه من المرجح أن هذا الفن قد عرف في أفريقيا قبل أن تعرفه أوروبا. ويمكن أن يقال بحق إن ذلك كان

انجازاً افريقياً، رغم اعتقاد العديد من العلماء أن معرفة الحصول على الحديد جاءت من جنوب آسيا أو من آسيا الصغرى، إلى أفريقيا. إلا أن باحثين مرموقين أمثال «لوشان» يصرون على الأصل الافريقي لهذا الفن.

ومهما كان الأمر، يمكن أن نقول ان افريقيا هي الموطن الكلاسيكي للطرق البدائية في الحصول على الحديد. فقبل بداية التاريخ المكتوب بفترة طويلة أقامت الشعوب الافريقية أفراناً عالية. ولكن بناء الفرن العالي ليس شرطاً أساسياً للحصول على الحديد من قبل الشعوب البدائية. فلا تزال شعوب عديدة تصهر فلزات الحديد في موقد النار الذي يشبه الفرن الأرضي القديم الذي تستخدم فيه الحجارة الساخنة للطبخ.

تتطلب هذه التقنية وجود بعض العناصر المساعدة التي لا غنى عنها، بخاصة المنفاخ الذي كانت المراوح وأنابيب النفخ من أشكاله البدائية. أما تجهيزات العمل اليدوي لدى الحداد البدائي فقد كانت على أبسط ما يمكن التفكير به. فلم تكن مطارقه وسندانه سوى حجارة أو كتل من المعدن. وكانت كماشته عبارة عن قطعتين من الخشب أو «بنسة» بشكلها البدائي. وبهذه الأدوات التي لا يمكن أن ننتظر منها الكثير، كانت تصنع أدوات متنوعة، بدءاً من الأدوات الضرورية للزراعة والعمل اليدوي والحرب وقطع الحلي واللالئ الحديدية ومشدات الذراعين والقدمين والقبات وغيرها، حتى السواطير بأشكالها المتعددة التي تستعمل في قطع الشجر وجني المحصول، وأخيراً القطع النقدية التي لها شكل الرمح، وغيرها من أدوات بيتية لا حصر لها.

وفي مناطق أفريقيا الشرقية تصنع قلادات حديدية بأعلى درجات الاتقان والجودة. وما تزال الطرق المتبعة في القرن العشرين تقتفي أثر الطرق التي اخترعها الحدادون الأفارقة وتسير على منوالها.

وصل ارتفاع الأفران العالية في «غورما» و«توغو» و«يوروبا» غالباً إلى خمسة أمتار. ويعتبر حدادو قبائل «فولبه» و«ماندينغو» من أمهر الصناع الحرفيين بين الشعوب البدائية، فقد وصل طول القضبان الحديدية التي صنعها الـ «بانتو» إلى كيلو مترين، وهكذا فان أفريقيا هي في الواقع قارة الحديد.

وهناك واحدة من أهم القضايا المتعلقة بانتاج الحديد، ألا وهي: المركز الاجتماعي للحداد. فبينما يحظى في غرب السودان بنظرة تقدير يمكن مقارنتها بحظوة الكهنة

عند الملوك والزعماء، يعتبر في كل مناطق شمال افريقيا منبوذاً مكروهاً ومنفراً. وقد فسر الباحث «شتولمان» هذا المركز الاجتماعي للحداد من حقيقة أن القبائل ذات البشرة البيضاء، التي هاجرت فيما بعد، كالحاميين وغيرهم، والتي وجدت الزنوج يمتلكون على أسرار لم تكن هي قد عرفتها بعد، حاولت أن تصنفهم، من قبيل الغيرة - كمخلوقات مشبوهة.

وفي مناطق أخرى من العالم - كمنطقة التيبت مثلاً - يُصنف الحدادون في عداد الفئة الاجتماعية الدنيا. والأسباب هنا دينية بالدرجة الأولى لأن ذباحي البقر «المقدس» عند البوذيين، وكذلك الحرفيين الذين يصنعون السكاكين المستخدمة في هذا الذبح، يعتبرون كائنات منحطة، لا يمكن لها يوماً أن ترتقي إلى منزلة اللاما.

ولكن ذلك لا يعني أن يمتنع حتى البوذيون المتدينون عن تناول اللحم، الذي يعتبر «خطيئة». فقد وجد مخرج ذكي للحالات الضرورية يقوم به اللاما بقراءة قداس على الثور المعد للذبح يضمن فيه بعث هذا الحيوان مرة أخرى، ويضمن أيضاً للحداد الذي صنع سكين الذبح أن لا تلحق به تبعات غير مريحة في حياة الآخرة نتيجة ذلك.

وتعتبر شعوب آسيوية أخرى، كالـ «البوريات» مثلاً، الحدادين، في عداد أعلى الطبقات الاجتماعية، فهم معفون من دفع الضريبة، وينظر إليهم وكأنهم يمتّون للآلهة بقرابة. وما مَنْ يطلق عليهم في منغوليا بـ «داركسات» سوى حدادين بمرتبة الفرسان.

وجدت أهمية الحديد تعبيراً عنها أيضاً في الكتاب المقدس: إذ نقرأ في كتاب صموئيل الأول الفصل الثالث عشر:

«ولم يوجد صانع (حداد) في كل أرض اسرائيل لأن الفلسطينيين قالوا: لئلا يعمل العبرانيون سيفاً أو رمحاً، بل كان ينزل كل اسرائيلي إلى الفلسطينيين لكي يحدد كل واحد سكته ومخله وفأسه ومعوله..»

ومنذ ذلك العصر أصبحت ملكية الحديد تحسم المعارك وتصنع تاريخ العالم، كما جاء في كتاب القضاة الأول الفصل التاسع عشر والرابع:

«وكان الرب مع يهودا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادي لأن لهم مركبات حديد». و«فصرخ بنو اسرائيل إلى الرب لأنه كان له تسع مائة مركبة من حديد. وهو ضايق بني اسرائيل بشدة، عشرين سنة».

وقد لا نستطيع أن نفي أهمية الأدوات المعدنية بالنسبة للحضارات الراقية القديمة حقها. وأصاب الباحث «فاليندرز بيتري» عندما قال: «آلاف الكتّاب وصفوا منحوتات البارتينون في أثينا، ولكن أحداً منهم لم ينشغل بالأدوات التي استخدمت في صنعها». وفي دراسته الشيقة عن الأدوات المعدنية في العالم القديم أكد هذا الباحث بأن شكل الازميل بلغ كماله منذ ٢٥٠٠ عام، وأن المصريين القدماء قد استخدموا المناشر والمثاقب ذات الأسنان المصنوعة من معدن الكوروندیوم والأحجار الكريمة لتحطيم صخر الكوارتز قبل ستة آلاف عام. والحقيقة أن هناك العديد من الأدوات القديمة جداً، التي لم تَرْقَ الأدوات الحديثة إلى مستواها، بل أيضاً ساد صنعها أو دخلت طي النسيان مع مرور الزمن. وهذا ما ينطبق بشكل خاص على «البنسة» المصرية المؤلفة من قطعتين، وكذلك على المنجل المصري، اللذين كانا في غاية الاتقان سواء في الصنع أم في الاستخدام العملي.

بالنسبة لسكان آسيا وأوربا الأصليين فلم يكن الحديد أصلاً معروفاً لديهم. وقد نقل شعب «كامبا» في البيرو، وهو الشعب الوحيد بين الهنود الحمر الذي عرف صهر الحديد، هذه المعرفة عن الأوربيين. أما الهنود الحمر في أميركا الشمالية في مرحلة ما قبل كولومبس، فقد كانوا أحياناً، مثلهم مثل جيرانهم الذين أطلق عليهم «اسكيمو السكاكين الصفراء»، يصنعون أدواتهم من النحاس الذي عثروا عليه في مناطقهم، ولكن هذه الأدوات كانت تصنع بالطرق على المعدن البارد، إذ لم يكن السكان الأصليون قد عرفوا آنذاك عملية الصهر.

ويعتقد الباحث «نوردنسكويلد» أن الهنود الحمر في أميركا الجنوبية قد اخترعوا سر صنع البرونز بمعزل عن الآخرين.

وفي أفريقيا تشكل عملية صهر الحديد غالباً محور ممارسة الطقوس الدينية الهامة. فعلى «الغانغولا» الذين يحفرون ثقوب الصهر أن يمتنعوا ولفترة طويلة عن تناول الطعام وممارسة الجنس.

وتلقى جذور مقدسة في الحفرة ثم تبلل بدم دجاجة قُدمت قربانا وتتلى عليها العبارة التالية: «إننا لا نقتلك لنأكلك، وإنما لنجعل هذا يتحول إلى حديد».

كما أن قبيلة «بانغقة» لا تبدأ بعمل هام قبل أن يقوم الرجال الذين يمارسون الطب في القبيلة بصنع الأدوية الضرورية والباهظة التكاليف لهذا العمل. ويعتبر حضور رجل

الطب شرطاً لا غنى عنه أثناء الصهر. إذ لا يبيع التفويض بصهر الحديد إلا لقاء ثمن مرتفع يبلغ خمس غنمات وخمس دجاجات وخمس قطع من أسلاك النحاس الأصفر، ويوضع المزيج السحري (- وهو عبارة عن حزمة من ورق الشجر، قشور شجر مقدسة، سم، وقطعة من دماغ أحد الأجداد - الذي «سيحرس» عملية الصهر) في قدر صغير يوضع بدوره في حفرة الصهر ويغطى بالفحم الخشبي وفلزات الحديد ثم بطبقة أخرى من الفحم. ثم توضع قطعة من الفحم المشتعل فوق الحفرة ليبدأ العمال المكلفون بنفخ الكير، عملهم، ترافقهم أصوات الأجراس الحديدية التي يحملها رجل الطب وهو يقوم بأداء بعض الرقصات وسط الغناء والصراخ، ويُخرج أصواتاً حادة من قرن الغزال الذي يحمله.

أما عند قبائل «البوريات» الآسيوية فلا يستطيع المرء أن يصبح حداداً إلا إذا وُجد بين أسلافه من كان يمارس هذه الحرفة. فلا يسمح لأي فرد عادي من أفراد القبيلة هكذا ببساطة أن يمارس المهنة المقدسة. أما من توفرت فيه الشروط المطلوبة ورفض الشرف الرفيع الذي تقدمه له مهنة الحدادة فيجب أن يموت. وهناك أسطورة قديمة عند هذا الشعب تحكي عن العصور المشئومة التي كان فيها على الإنسانية، التي عاشت يوماً دون معرفتها بالحديد، أن تضع حداً لحياتها (أو أن تكون قد عاشت عيشاً ضنكا). فذات يوم قررت الـ «تنغري»، أو الأرواح الخيّرة، أن ترسل الرب «بوشنتوي» وأبناءه التسعة إلى الأرض، ليعلموا الناس هذه الحرفة اليدوية المقدسة. ولكن الرب نفسه سرعان ما عاد إلى السماء بينما تزوج أبناؤه من بنات الإنسان وأصبح أول تلامذتهم أسلاف كل من جاء بعدهم من حدادين. وقد أعطى كل من أبناء الإله التسعة اسماً شخصياً وأصبحو شفيعي (أولياء) أدوات الحدادة. وتعظيماً لهم تقام احتفالات دينية بانتظام تغنى فيها كما ذكر الباحث «ساند شيبق» ترنيمة مقدسة يؤديها الشامانون جاء فيها:

حدادوك التسعة البيض يا «بو شنتوي»
الذين يملكون الشرر المتلألئ
والأدوات التي تصدر أصوات الضجيج.
والسندان الفولاذي الصلب
والمبرد ذا الصرير

عندما نزلتم على الأرض
وكأنما نزلتم على تل
رغم أنها كانت جبال سايان
ففي حدادتكم
يكمن سحركم القوي
في منافخكم. في سحركم الرائع
فقد صهرتم الحديد الأسود
وجعلتم الحديد الأزرق يرغي ويزبد
ولحمتم القدور السوداء
ودرفلتم القدور الزرقاء
وصنعتم القدور الفولاذية
هؤلاء أنتم!

عظيمة هي قوة الحديد، والأعظم منها قوة الاكتشاف عند الإنسان. وإذا ما أمعنا النظر في مجمل تاريخ العمل اليدوي البدائي لوجدنا أنه كان هنالك ومنذ بداياته الأولى تقسيم منطقي وذكي للعمل بين الجنسين.

فمنذ القديم كانت المرأة لدى شعوب عديدة (مثل الأقزام والبوشمن في افريقيا، ولدى الاستراليين وسكان أرض النار) سيدة المنزل ومدبرته، بينما كان الرجل مسؤولاً عن تأمين أدوات القنص وعن جميع الأعمال المتعلقة به (يضاف إلى ذلك تحضير سم الاسهم عند البيجمن). وفي جزيرة سيلان كانت المرأة هي التي تحفر جذور «اليام» وتطهو طعام العائلة. بينما تتركز مسؤولية الرجل على احضار الطرائد المصادة إلى البيت.

عالج الباحث «مان» تقسيم العمل لدى قبائل «الاندمان» معالجة شيقة، إذ وجد أن الأعمال التالية تدخل في عداد مهام الرجل:

القنص، صيد السمك، صيد السلاحف، جمع العسل البري، صنع القوارب، بناء الأكواخ الثابتة، يضاف إلى ذلك صنع الأقواس والأسهم ومعظم الأدوات المنزلية. أما النساء فتقع على عاتقها المهام التالية: إدارة المنزل، تربية الأطفال، جمع المواد الغذائية النباتية، طبخ الطعام، جلب الماء، العناية بالنار المتقدة، بناء الأكواخ البسيطة غير

الدائمة، وضع الأواني والحلي. كما أن مهام أخرى مختلفة مثل حلاقة أفراد العائلة وتزيين بشرتهم بالندبات والوشم تدخل أيضاً ضمن اطار المهام الملقاة على عاتق ربة المنزل.

جرت العادة في زمن الثقافات القديمة أن يقوم كل عضو في القبيلة بصنع الأدوات الضرورية له ولأسرته، بينما لم ينشأ العمل اليدوي المتخصص إلا في عصر الثقافات الزراعية، حيث يتولى الرجل القيام ببعض الصناعات الفنية التي كانت قبل ذلك تدخل حصراً في مجال عمل المرأة.

ففي «مبالاند» الشرقية من الكاميرون على سبيل المثال، كانت النساء تقوم بصناعة الفخار، بينما يقوم الرجل بأعمال الجَدْلِ. وعلى العكس من ذلك في توغو، إذ يقوم الرجال بالأعمال الفخارية. وفي جزيرة – سانتا كروس – تقوم النساء بجميع الأعمال المتعلقة بصيد الأسماك وزراعة الأرض والطبخ، بينما يقوم الرجال بصناعة جميع مواد الثقافة المادية تقريباً باستثناء الملابس المصنوعة من قشور الشجر. أما أعمال الحياكة، مثل صناعة البسط التي تحتل مكاناً مرموقاً، وكذلك صنع الأدوات والأسلحة، فهي من عمل الرجال، يقومون بها غالباً ضمن مجموعات في مجمع القبيلة. وفي ميلانيزيا تقوم النساء فقط بصناعة الأدوات والأواني الفخارية.

أما مدى تعدد وجوه المعارف التقنية غير العادي لشاب من قبائل «ماوري» على سبيل المثال، فقد عالجه الباحث «بيست» معالجة مستفيضة: يبدأ الشاب تعليمه بصنع الأدوات الحجرية والعظمية والرماح والمعازق وأدوات أخرى صغيرة تستخدم في جني محصول «التارو». وفي مرحلة متقدمة يلج إلى أسرار تشييد البيوت والأكواخ وحُجر الطبخ وبيوت المؤونة ورفوف حفظ الأطعمة، وبعدها يتعلم بناء مصدات الرياح وبيوت العلاج بالتعريض للهواء وغيرها، وكذلك فن تصنيع الخشب واستخدام المدقات الخشبية والأسافين لتقطيع الخشب كمادة للبناء واستخدام الأزاميل الحديدية والمثاقب وفن الحفر على الخشب ورسم الزينات. كما تحدث العالم «بيست» عن «دورة أخرى» يجب أن يخضع لها الشاب. وهي التي يتعلم فيها صنع قوارب الصيد وجميع ما يتعلق بذلك، وبخاصة صنع صنانير الصيد.

وقد يؤدي أحياناً حصر إنتاج بعض الأدوات المعينة، واقتصاره على بعض الناس المختصين، إلى تخصص دقيق، بحيث تصبح النتيجة وحيدة الجانب وغير عملية.

وكثيراً ما يتجلى ذلك بشكل خاص في افريقيا، حيث يقوم حرفي واحد فقط بانتاج مادة معينة، يضطر كل من يحتاجها أن يشتريها منه. وقد ذكر الباحث «تيسمان» عن قبيلة «بانغقه» أن رجلاً - على سبيل المثال - يصنع ملاعق الطعام لكنه يمتنع عن صنع المغارف، وآخر يصنع المقاعد الخشبية لكنه لا يصنع غيرها، وأن صانع الأقواس لا يصنع غيرها أيضاً. كما أن الحقيبة الخاصة بالرجال لا يمكن الحصول عليها إلا من عند اختصاصي بصنع حقائب الرجال وهكذا...

وقد أجبرت هذه الحالات غالباً أفراد القبيلة على القيام برحلات طويلة من أجل الحصول على مادة، مثل حمالة الأطفال البسيطة المؤلفة من قطعتين من الجلد يمكن لأي فرد أن يقوم بصنعها. ولكن لا يمكن الحصول عليها عملياً إلا عند مختصين بصنعها.

أدى مسار هذا التخصص المتزايد باستمرار إلى قيام جماعات وفئات حرفية منظمة في ظل الحضارات الراقية. ويحاول الآن بعض أصحاب الحرف الفنية في القرن العشرين بعث قيمة الأشياء المصنوعة يدوياً وصنع أدوات يمكن مقارنتها من حيث النوعية بتلك التي كانت تصنعها الشعوب البدائية، التي لم يكن «صنع الأفضل للجميع» يشكل عندها مشكلة.

الهوامش:

١ - القرن العشرين .

٢ - أكلة لحوم البشر .

٣ - تعتبر الرحى أو الجاروشة والجرن من أدوات البيت التقليدية في بعض مناطق الريف العربي السوري، وهي مصنوعة غالباً من الحجر البازلتي الأزرق . (المترجم) .

٤ - حيوان أميركي من ذوات الجراب يتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر . (عن قاموس المورد) .

الفصل السادس

المسرات ومجالس الأنس

- تقاليد الطعام والضيافة - بداية استخدام الملح - الشاي والقهوة والمتة والكاكاو - أصلها وتقاليدها.

- اكتشاف المخدرات - بداية فن التقطير ومعرفة الحكول

- حكاية التبغ والتدخين عبر التاريخ.

- تقاليد مجالس الشرب - الدمى البدائية والألعاب الشعبية - أنواع الرياضة البدائية.

إذا ما أردنا أن نقيم أمسية احتفالية فلا بد أولاً، وقبل كل شيء، من اتخاذ مجموعة من الاستعدادات الضرورية.

فبالإضافة إلى ارتداء المناسب من الثياب، والحرص على التواجد في المكان المعين في الوقت المناسب، لابد من تأمين بطاقات الدخول أو اعداد المنزل لاستقبال الضيوف. وبدون أن نشعر أحياناً، قد يفقد سرورنا المسبق جزءاً من اندفاعه العفوي نتيجة الاستعدادات الضرورية والمتعددة الجوانب.

أما الشعوب البدائية فقد كانت - من هذه الناحية - أحسن منا حظاً إلى حد بعيد. فبغض النظر عن حالات استثنائية قليلة، كان الاستعداد المنظم لإقامة مجالس الأنس في حكم غير المعروف. فمرح البدائيين الطبيعي والعفوي يضفي عليهم توازناً داخلياً يشبه حالة سعادة دائمة، رغم أنهم لا يعيشون في جنة، بل لديهم ما يكفي من الهموم. فقد تكيفوا كلياً مع عالمهم الضيق والخطر فاعتادوا عليه وصاروا يتقبلون حتى العوزَ والمرضَ أو الفشلَ، براحة قوامها فلسفة خاصة في الحياة.

ففي ظروفه الصعبة يأمل الإنسان البدائي، وهو مفعم بالتفاؤل بتحسن سريع لأحواله السيئة. وإذا ما ابتسم له الحظ، يبتسم له ويفرح، دون أن يستعجل ساعات الرخاء. فلم يكن الوقت يشكل مفهوماً لديه. فليس في الغابات الموحشة من يقول له: «لقد تأخرت».

إذن كيف كانت تقام مجالس المسرات وتُنظم ساعات الفرح؟

لم تعرف الثقافات القديمة التبغ أو الكحول، ولم تكن بحاجة لهما أصلاً لاضفاء جو المرح على احتفال عام. فقد كانت الاجتماعات تتم بشكل عفوي وطوعي، لأن التحديد المسبق لموعد اجراء الأعياد والاحتفالات في أيام معينة، موضوع جاءت به الثقافات اللاحقة. فكلما توفر الطعام الكافي، وسمحت ظروف الطقس والمواصلات يجتمع الناس متحررين من كل قيود الرسميات، الجيران في منازلهم أو مضافاتهم لمجرد التسلية وتبادل الأحاديث، أو قبائل كاملة تتبادل الزيارات مع قبائل أخرى، لمشاركتها تناول الفائض مما توفره الطبيعة من مواد غذائية، كما هو الحال عند الشعوب التي تعيش كفاف يومها من جمع ثمار الأرض. فإقامة الحفلات والولائم متعلقة بالدرجة الأولى بتوفر المواد الغذائية الضرورية. فما من مكان في العالم كان الجوع فيه دافعاً لكرم الضيافة. فكلما توفر الصيد وكثرت الخيرات التي تجود بها الأرض، وخاصة تلك التي تتلف سريعاً، وكلما اصطيد حوت، كان الترحيب الحار بالضيوف أمراً محبباً.

ومن خلال تنوع مصادر الغذاء، لم تكن قائمة الطعام في الحياة البدائية فقيرة أو مملة، ولو أنه من الطبيعي أن يكون للمناخ تأثير كبير على امكانات تحضير الطعام. ففي أرض النار مثلاً - التي ذكر الباحث «غوزينده» أن غاباتها الباردة الرطبة شبه «ميتة»، لأنها تظل معظم أوقات السنة قابعة تحت «كفن من الثلج» - يقدم الشاطئ والبحر والبوادي غذاء السكان الرئيسي. وفي المناطق القريبة، من الأكمات والشعاب، يصطادون الطيور المائية، مثل الوز البري والبطريق والقاق والنورس، وفي البحر يصطادون كلاب الماء وأسود الماء والحيتان والقواقع والصدف والجمبري وقنافذ البحر ليقتاتوا بها. ويوفر لهم الحيوان المسمى «كواناكو» أفضل وأحب أنواع اللحوم الحمراء. ويقومون بطهوِ أو شي لحوم الطعام في الرماد الساخن أو على نار متقدة. ونتيجة للمناخ شديد البرودة فان طعامهم يفتقر إلى العنصر النباتي أيما افتقار.

ولكن سكان أرض النار يعيشون - رغم طعامهم الخالي من الأملاح - حياة سليمة وكافية. وبخلاف بحثنا الدؤوب عن الفيتامينات في حياتنا المعاصرة، فان هذه الشعوب تتدبر أمرها دون تناول الخضار. وجواباً على سؤال يتعلق بهذه الناحية أجابني أحد الهنود الحمر من قبيلة «ناسكابي» في شبه جزيرة لابرادور «أن الدب يأكل حب العلّيق ونحن نأكل الدب فعلام التوجه نحو الثمار والخضار؟». وقد نوه الباحث «ستيفانسون» مراراً بأن طعام الاسكيمو المؤلف تقريباً فقط من اللحوم والأسماك، ربما كان الطعام الأكثر ملاءمة للصحة في العالم.

أما قبائل الصيد في بوادي المنطقة الشرقية من بوليفيا فان لها مطبخاً غنياً.

فثمار العديد من أنواع النخيل، التي غالباً ما تشوى بالنار، تشكل غذاء هاماً وبالتالي جيداً. بينما يحضرون وجبات متنوعة من الحيوانات التي يقتنصونها كالتابير[1] والفاطور[2] والخنازير البرية، والسلاحف والسناجيب، وذوات الدروع والأفاعي والحشرات، وحتى الديدان، التي غالباً ما يطهونها في الرماد الحار.

حتى في المناطق غير المضيافة يوجد مولعون ببعض الاكلات الشهية. فسكان جنوب شرق الاسكا الأصليون يقدمون لضيوفهم نوعاً من الأطعمة المجمدة مؤلفاً من ثمار العليق المهروس، كما يحسنون تحضير طعام شهي من بيض السمك المجمد.

كذلك الأمر بالنسبة للهنود الحمر في منطقة ألاسكا، فلم يعرفوا الملح قبل وصول المكتشفين، ولكن كانت عندهم تشكيلة غنية من الثمار والخضار العطرية، وبخاصة توت الأرض وأنواع أخرى من الثمار التي تشبه الفريز أو التوت البري والكرفس البري واللحاء الداخلي الأبيض لشجيرات (التنوب) الفتية ذي الطعم اللذيذ. كما كانت لتحضير الأطعمة المؤلفة من اللحوم طرقٌ شتى. ويعتبر كلب البحر والوعل والدب حيوانات الصيد الرئيسي في منطقتهم، بالإضافة إلى أنواع سمك اللقس الخمسة المتوفرة في منطقتهم. وهذه تشكل عاملاً هاماً في تغذيتهم، وتؤكل إما طازجة أو مجففة في الهواء أو على النار لاستهلاكها فيما بعد. أما الوجبة الشهية الخاصة التي يمكن أن تقدم لضيف عزيز فهي رؤوس سمك اللقس والسمك المفلطح التي تدفن في حفر أرضية عدة أيام ثم تؤكل بعد أن تكون رائحتها قد بلغت أقصى انتشارها.

انتقلت طريقة تجفيف اللحم والسمك - كإحدى طرق حفظ الطعام - عن

الاسكيمو. أما الأطعمة ذات الطعم اللذيذ بشكل خاص فهي الأطعمة التي تحفظ بالتدخين، والتي تلعب دوراً كبيراً في حياة الهنود الحمر في شبه جزيرة لابرادور. وقد حدت عادة الاسكيمو بتجميد الأسماك، ثم تناولها فيما بعد، نيئة في حالة شبه فاسدة، بجيرانهم الهنود الحمر أن يخترعوا لهم اسماً ساخراً وهو «أَكَلَةُ النيء».

ولا تضمن ثمار الجني، التي تجمع بكميات كبيرة مرة في العام، الأمن الغذائي للشعوب التي تعيش على جمع هذه الثمار فقط، بل تتيح لها أيضاً ممارسة تقاليد الكرم والضيافة إلى أبعد الحدود. فعندما تنضج جذور الزنابق البرية، وغيرها من النباتات التي تجود بها الطبيعة، يدعو الاستراليون القبائل المجاورة لهم برمتها، حيث تعقد حلقات الرقص وتقدم العروض المسرحية. وبما أن الطعام يكفي لسد احتياجات جميع الموجودين، فيمكن للمرء أن يستسلم لجميع أنواع المسرات التي تؤمنها مثل هذه المناسبات الاحتفالية.

وفي أميركا الشمالية تتبادل القبائل بعض أنواع الطعام. فقبيلة «كاميا» مثلاً تعطي جزءاً من محصول ثمار البلوط لقبائل «ديغونيو» لقاء جزء من البطيخ الأحمر، الذي تمارس هذه القبائل زراعته. أما لدى قبائل «أباخن» فتعتبر الاحتفالات التي يقيمها أفراد القبيلة الذاهبون لجني ثمار «جوز البينيون» من أهم مناسبات الفرح السنوية. وتتكرر هذه المناسبات الاحتفالية عندما يحين وقت جمع درنات المسكال[٢]. وفي المناطق ذات الهضاب ينصبون خياماً، ويسرفون في تناول الغذاء ثم يتمتعون برواية الحكايات والغناء والرقص والتحدث في شؤون الآخرين. ورغم أن أنهار ومستنقعات أرض قبائل «الاباخ» غنية بأنواع ممتازة من الاسماك النهرية، إلا أن الاباخيين لا يأكلون منها مطلقاً، لأنها - كما جاء في إحدى حكاياتهم الخرافية - مضرة بالصحة. وكما ذكر الباحث «ريغن» يروي «الاباخ» أن أسلافهم أصيبوا مرة بمرض بعد تناولهم وجبة من هذا السمك فقد «غطت جلودهم بقع تشبه تلك التي تغطي جلود الأسماك» وبعد ذلك بفترة وجيزة مات كل من تناول هذا السمك. ومنذ ذلك الوقت امتنع كل أفراد «الاباخ» عن تناوله. كما أن ادعياء الطب يحذرون كل من يريد أن يتذوق هذا السمك من «خطر الموت» المرتبط بذلك، وتعتقد قبائل «بومو» أن الأسماك وثمار البلوط أتت من منشأ فوق طبيعي. وجاء في أساطيرهم أن الأرض

خلقت خمس مرات من جديد وأن الكوارث الطبيعية دمرتها أربع مرات. وأثناء فترة الخلق الثالث توجه الاله «ماروندا» إلى البشر، ومشى بينهم يعلمهم جني وتحضير ثمار البلوط مخاطباً النساء قائلاً: «اجنوا هذه واصنعوا منها مسحوقاً» ثم علمهن كيف يجففنها ويسحقنها ويستخلصن منها طعمها المر لتتحول إلى طحين، وعندما أعدت أول وجبة منها أرادت نساء قبيلة «بومو» المضيافات دعوة صانع الجميل إلى الطعام، وعندما استدعيَ لذلك كان قد اختفى. لكنهنَّ عزَّين أنفسهنَّ بفكرة أن الاله ذهب إلى قبائل أخرى ليعلمها طريقة تحضير ثمار البلوط كما فعل عندهم.

وتتنوع طرق تحضير ثمار البلوط، فإما أن تطبخ حتى تنضج ثم تهرس - وهذا هو الغالب - أو يصنع من طحينها خبز، أو يحضر منها مشروب على مبدأ تحضير القهوة من البن.

أما أكبر تنوع وغنى في لائحة الأطعمة فمن الطبيعي أن يكون لدى الشعوب التي تمارس زراعة الأرض، التي تملك خبرات غنية في تحضير مختلف أنواع الأطعمة من النباتات التي تزرعها. فقد أدت بهم الخبرة الطويلة إلى تحضير وجبات شهية خاصة حازت على تقدير عال من قبل الذواقة. فقبائل «غواراني» في باراغواي، مثلاً، تصنع نوعاً من الجبن وذلك بدفن جذور «المانديوكا» في مستنقع تتعرض من خلاله لعملية تخمر. ولكن غالباً ما يجفف مسحوق المانديوكا في الشمس ثم يزحن ليتحول إلى طحين يستخدم في صنع رقاقات الخبز. أما الدرنة الطرية المقشرة فتطبخ غالباً في الماء، أو تهرس ثم تحول إلى مسحوق جاف، يخبز بالدهن. بينما تشوى الدرنات غير المقشرة في رماد المواقد الحار.

في جزر المحيط الهادي وفي افريقيا واندونيسيا يشكل نبات الـ «تاور» أو «جذور خبز الماء» (Calocasia) المادة الغذائية الرئيسية، والذي يجب تحضيره بعناية فائقة قبل تناوله. بينما تؤكل أوراقه الفتية، التي تشبه أوراق السبانخ، كخضار نيئة. وقد خلف لنا الباحث «كريمر بانوف» وصفاً تفصيلياً عن الطريقة التي تقوم فيها ربة البيت الميلانيزية بتحضير جذور التارو للمطبخ: تنقل الجذور من الحقل إلى البيت في سلة تحمل على الظهر، تقوم المرأة بايقاد نار قوية ثم تقشر الجذور بسكينها المصنوعة من الصدف، تلف الخضار النظيفة بورق الموز وتغلفه بدوره بطبقة خارجية من أوراق

التارو الكبيرة ثم تحزمها بقضبان غضة من نبات الليانا. وهنا قد يختلف عدد مثل هذه الحزم باختلاف عدد أفراد الأسرة أو الضيوف الموجودين. كما تقوم باعداد حزم أخرى تضم قشور الجذور وبقاياها لتقدم للخنازير. وبعد أن يخمد لهيب النار تتناول المرأة الأحجار المسخنة من الموقد وتضع حزم التارو في الرماد الحار ثم تغطيها بالحجارة الساخنة وبطبقة من الرمل. وبعد حوالي ساعتين تنضج الجذور، فتستبعد الطبقة الخارجية المؤلفة من ورق النباتات، وتقدم وجبة الطعام جاهزة. وفي هذه الأثناء تنتظر الخنازير نصيبها بفارغ الصبر. ويقدم لها علف جيد، بحيث جعل الباحث المذكور آنفاً يذكر بأن لحم الخنزير الميلانيزي المحمر «يشبه لحم العجل في طراوته».

وهناك نبات غذائي آخر هام في جزر المحيط الهندي يسمى «ساغو» مستخرج من لب نخيل الساغو الذي يقطع ويقسم، حيث يستخدم نصفا الجذع المفتوحان في الوقت نفسه كأحواض لهرس لب الشجر. يصفى الساغر ويغسل ثم يعجن في النهر الذي تجرف مياهه البقايا والفضلات التي يجب التخلص منها، وتبقي على القطع الكبيرة التي تستخدم كطعام. هذه تجفف لتصنع منها قطع خبز قاسية ومستديرة، أو تهرس وتطبخ كالجيلاتين. أما في افريقيا فللموز الذي يطلق عليه في الواقع اسم «خبز الزنوج،» - نظراً لأهميته كنبات غذائي - الأهمية نفسها، التي يمثلها «المانديوكا» في أصقاع عديدة من العالم أو «التارو»، وثمرة الخبز وغيرها...

يحضر الموز غالباً مشوياً، أو يصنع منه الحساء والمرق. تقشر الثمار الخضراء وتقطع قطعاً صغيرة ثم تهرس ويصنع منها الدقيق الذي يضاف إليه الفلفل والملح وبعض المركبات الأخرى وتقطع قطعاً كروية تطبخ بالماء أو بالزيت. يضاف إلى ذلك أن المطبخ الافريقي غني بالمنتجات الحيوانية بمختلف أنواعها بدءاً من السمك واللحم والطيور حتى الحشرات والجرذان والتماسيح. كما تأتي النعامات والفيلة في طليعة الحيوانات التي توفر مادة اللحم. وتعتبر وجبةُ العشاء، الوجبة الرئيسية في افريقيا، عندما تنحسر حرارة النهار. ولا تأكل قبائل «الشيلوك» إلا بعد غروب الشمس لاعتقادها أن من غير اللائق تناول الطعام في ضوء النهار. وغالباً ما تتناول مجموعات صديقة طعامها معاً في ولائم جماعية تصاحبها احتفالات تتضمن الرقص والموسيقا والعروض الدرامية. وعندما يحل الظلام يبدأ قصاصو الحكايات باختلاق قصصهم فتحول الأشكال التي تبدعها مخيلتهم، الليل إلى مسرح متعدد الأشكال والألوان.

ومن أغرب الأطعمة الافريقية نذكر هنا ذلك الصنف من الطعام الذي يسمى «تراب الطعام» وهو عبارة عن تربة خصبة، أو طين من نوع معين، يعتبر طعاماً شهياً، وخاصة في المناطق المتاخمة للسودان. يضاف هذا التراب كنوع من التوابل للأطعمة أو يطحن كنوع من الطحين أو يخبز كنوع من الخبز. وقد ذكر الباحث «بليشكه» بأن ذوي النفوذ المرموقين، يأكلون يومياً ثلاثة «أرغفة» من هذا النوع.

إن تناول التراب كطعام، أو ما يسمى بأكل التراب Geophagie عادة منتشرة في جميع أنحاء العالم، وتمارس بشكل خاص في أميركا الجنوبية والصين واندونيسيا.

فقبائل «تاتو» في كاليفورنيا تمزج دقيق نبات القيقب بتربة حمراء مسحوقة. وفي أوقات المجاعة تناول الألمان والروس ما يسمى «بالزبدة الصخرية» أو «دقيق عامل المنجم». كما نشأت لدى سيدات اسبانيا النبيلات في القرن السابع عشر شهية معينة لتراب منطقة «ارتيموز» ذي الطعم اللذيذ، بحيث تدخلت الدولة والكنيسة وفرضت عقوبات شديدة على هذه «الآفة».

أما أشهر المعادن التي تدخل في التغذية، أي ملح الطعام، فلم يكن معروفاً لدى جميع الشعوب. فكثير من شعوب الجمع والقنص تستغني عن الملح وتستعيض عنه بتوابل نباتية مختلفة أو برماد بعض نباتات التوابل ذي النكهة اللذيذة، يضاف إلى الطعام.

ويشكل الملح مادة ثمينة في جميع أنحاء افريقيا. ففي المناطق التي لا يتوفر فيها، تنظم رحلات تجارية كبيرة للحصول عليه. وكبديل عن الملح توصل سكان افريقيا الأصليون إلى طريقة، ولكنها معقدة جداً، للحصول على الملح من نباتات مستنقعية. أما الماء فلا يمكن لشعب من الشعوب العيش بدونه، إذ تضاف إليه مواد أخرى لصنع أشربة ذات طعم لذيذ وخاصة في المناسبات الاحتفالية. ويعتبر نبات الشاي من أشهر النباتات ذات النكهة التي تضاف إلى الماء لصنع الشراب، وأكثرها انتشاراً. ويسود الاعتقاد بأن الشاي قد انتقل من أسام إلى الصين، حيث ازدادت الرغبة فيه، وبخاصة منذ القرن الرابع الميلادي. وقد عثر على وثيقة قديمة تعود إلى عام ٥٦ قبل الميلاد تتضمن مقاطع شعرية ساخرة يطلب فيها إلى عبد كسول أن يقوم أخيراً «لإعداد الشاي واحضار أواني الشراب».

وكان أول استخدام للشاي لأغراض طبية. ففي حالات المرض كان ينصح بإضافة أوراق الشاي إلى الأرز والزنجبيل والملح وقشور البرتقال أو الحليب. وقد وصل الأمر حتى إلى اعداد مشروب من البصل. ونتيجة لمواصفاته المنبهة وطعمه اللذيذ، أصبح الشاي واحداً من المشروبات المفضلة التي تقدم خاصة في اللقاءات الحميمة والمناسبات الاحتفالية. وتعتبر الطقوس المتعلقة بتحضير الشاي من أكثر التقاليد الثقافية تطوراً في آسيا.

أما الشاي المفضل لدى سكان «باراغوي» والمعروف خطئاً باسم «المتة» فهو مشتق من اسم «الجوزة» التي يمتصون الشراب منها بواسطة أنبوب مجوف اسمه «بامبيجا» وهو مشروب ذو فعالية تنبيهية كبيرة لا يجوز أن يخلو منه مجتمع الهنود الحمر في هذه البلاد.

أما النكهة الحقيقية للمشروب الساخن الآخر الذي غزا العالم، وهو القهوة، فلا يعرفها جيداً إلا الرحالة الذي شربها في موطنها الأصلي في افريقيا. وقد اشتق اسمها من اسم موطنها، أي من مقاطعة «قفا» في جنوب الحبشة. وهناك أكثر من خمسين نوعاً منها تزرع في المناطق الاستوائية من العالم. وقد عرفت القهوة خلال القرن الخامس عشر في العالم العربي وجزيرة «جاوا» الاندونيسية. وبعد مائتي عام عرفت القهوة في أميركا الجنوبية وبقية العالم.

ويمكن مقارنة الطريقة الافريقية الدقيقة في تحضير القهوة إلى حد بعيد بطقوس تحضير الشاي في اليابان. فمن رأى مرة مجموعة من العرب المتدثرين بالبرنس مجتمعة لتذوق المشروب «الالهي» فلن ينسى حرارة الجو الذي يسود مثل هذه الاجتماعات الاحتفالية. حيث يحمصون حبات البن الخضراء في وعاء مملوء بالجمر المتقد، ويتم اخراج كل واحدة من حبات البن بملقط من الخشب وفحصها جيداً. وبعد التحميص يتم سحقها بواسطة مدق من الحديد، في جرن من الخشب «المبهاج» لتصبح ناعمة. يوضع المسحوق في الماء ثم يطبخ ببطء على نار هادئة. ثم يصب المشروب في آنية من الفخار تملئ ثلاث أو أربع مرات بالقهوة المحضرة بالطريقة نفسها، ثم تصب القهوة في فناجين الضيوف، وتنتشر رائحتها الزكية التي تذكر بألف ليلة وليلة، فتلهم الضيوف المجتمعين.

وكذلك الأمر بالنسبة للشوكولاته المفضلة في جميع أنحاء العالم التي يستحصل عليها من حبات الكاكاو. وأول «من اخترعها» هم الهنود الحمر في أمريكا الوسطى. من نبات الكاكاو. وعندما وصل الفاتحون إلى مملكتي، «ألتولتيك» والـ «أزتيك» تعرفوا ليس فقط على هذا المشروب الجديد، بل لاحظوا أيضاً أن حبات الكاكاو تستخدم هناك كقطع نقدية.

كان يتم تحضير شراب الشوكولاته، عند سكان المكسيك القدماء، بتحميص حبات الكاكاو وسحقها ثم طحنها ناعمة وإضافة الفانيلا أو الفلفل إليها. أما إضافة السكر فلم تكن معروفة.

كان بامكان الموسرين فقط إضافة العسل أو عصير الصبار الاميركي لتحلية مشروبهم من الشوكولاته.

وفي عام ١٥٢٠ عرفت أوربا الكاكاو عن طريق الفاتحين الاسبان العائدين. وبعد حوالي مائة عام وصل الكاكاو عن طريق اسبانيا إلى ايطاليا وفرنسا، فأصبح هذا المشروب من أحب المشروبات وأفضلها، أما المنتوج الحلو المشهور باسم شوكولاته، فلم يغز العالم إلا بعد أن اكتشف الهولندي «فان هوتن» طريقة خلص بها مسحوق الكاكاو من الزيوت عسيرة الهضم، أدت فيما بعد إلى انتاج مشروب الشوكولاته بطعمه اللذيذ.

ورغم أن الكاكاو كان يشكل المشروب الكلاسيكي الشعبي في منبته الأصلي في أميركا الوسطى وأن حب الكاكاو يزرع حالياً في أنحاء كثيرة من المناطق الاستوائية في العالم، إلا أنه ظل مشروب قبائل بدائية قليلة، فلم يكن له أي تأثير على ثقافات الشعوب الأخرى، ولم تحتل الشوكولاته مكانها في السوق العالمية إلا بمبادرة الاوربيين وروحهم التجارية.

وهناك كثير من الشعوب تعتبر أن مضغ المواد المنبهة لا يقل اثارة عن تذوق المشروبات ذات النكهة اللذيذة. فالسلف البدائي للبان الواسع الانتشار حالياً، كان اسمه «بيتل» وهو مستخرج من جوز «الاركا»، وهي عبارة عن مادة ثمينة وهامة جداً لدى السكان الأصليين في ميلانيزيا وميكرونيزيا والهند الشرقية وشبه جزيرة الملايو.

وقد نقل التجار الهنود هذه المادة المنبهة إلى شرق افريقيا حيث لاقت اقبالاً كبيراً.

وتقدم الشعوب التي تمضغ هذه المادة عادة للضيف الكبير لفة منها كرمز لكرم الضيافة، وهذه اللفة عبارة عن ورقة طازجة من نبات فلفل خاص فيها مزيج من مسحوق جوز الاريكان مع الكلس أو مسحوق المرجان، ولهذه المادة طعم مر ومنعش، لكن من مساوئها انها تصبغ أسنان المدمن عليها بالأسود، وتضفي على اللثة لوناً بنياً يثير القرف. وتحفظ لفائفها هذه في علب من الخشب المحفور بأشكال جميلة متنوعة ومتقنة الصنع.

وقد كانت قبائل «تشيبتشا» في كولومبيا تحمل معها مثل هذه العلب الصغيرة لتأمين المادة المنشطة في كل الأوقات، وهي الكوكا. فقبل أن يتوصل العلم الحديث إلى اكتشاف المادة الدوائية من نبات الكوكا، ومادة الكوكائيين المستخرجة من أوراقه بوقت طويل، كان السكان الأصليون في كولومبيا وبوليفيا والبيرو يمضغون أوراق الكوكا، المرة والممزوجة بمسحوق الكلس، وألفوا مفعولها المنبه.

وبعد ذلك انتشر في العالم الكوكائين الفتاك المستخرج بطريقة معقدة، والتي تسعى قوانين جميع الأمم المتحضرة إلى الحد من انتشاره.

ومن أخطر المخدرات التي أودت بصحة شعوب بأكملها، يأتي بالدرجة الأولى الافيون المستخرج من بذور زهرة الخشخاش، ثم الحشيش المعروف منذ عهد ماركو بولو، كمفتاح الجنة «وهو منتوج من نبات القنب. وقد اشتقت الكلمة الانكليزية والفرنسية Assadssin. أي «قتلة» من اسم أكلة القنب أو الحشاشين الذين حرضهم «شيخ الجبل» قبل مئات السنين أثناء النشوة على تعاطي المخدرات، لقتل أعدائه. ويقدم كتاب بودلير «الجنة المصطنعة» أفضل وصف للخيالات المتقلبة للحشيش، وهو كتاب شاعر كبير خرب صحته من خلال سوء استعمال هذا المخدر.

وكان تعاطي الحشيش والافيون على ما يبدو معروفاً منذ عصر ما قبل التاريخ، كما دلت على ذلك بقايا النباتات وأدوات التدخين التي وجدت في أمكنة السكن القديمة.

ولدى الشعوب البدائية معرفة مدهشة ببعض المواد المخدرة، سواء أكانت تلك التي تدخنها أو تشربها أو تتنشقها. ولكن الدوافع التي كانت تحدوها لاستهلاك مثل هذه المواد تختلف كل الاختلاف عن الدوافع التي أفرزتها الحضارة الحديثة. فغالباً ما كان

لهذه الدوافع طابع ديني. فقد كان الناس يتجمعون لاحياء احتفالات طقوسية يتمتعون فيها بحالات من السكر والنشوة التي يخلقها تعاطي المادة المخدرة. وقد اقتصرت معرفة تركيب المادة المخدرة لدى بعض هذه الشعوب على طبيب القبيلة، بينما كان بعضها الآخر يستخدم المواد المنشطة سراً لاذكاء روح الشجاعة لدى الجنود قبل التوجه إلى المعركة. ومن القبائل التي يشكل القنص والجمع نمط حياتها الاقتصادية، لم يكن سوى بعض الاستراليين يعرفون المفعول المخدر، ولمادة مخدرة واحدة فقط مستخرجة من نبات ظلي يحتوي على مادة «سولامين» يطلقون عليها محلياً اسم «بيدغيري» أو «بيتوري». أما سكان غينيا الجديدة فقد كانوا يتناولون «في الأوقات المضطربة» نوعاً من الفطر معروفاً باسم «نوندا». ولدى الهنود الحمر بشكل خاص معرفة جيدة بالمواد المخدرة إذ تنتقل قبائل «زوني» إلى حالة من الغيبوبة المصطنعة بعد تناول بذور نبات يدعى «عشب جيمس تاون». أما المكسيكيون القدماء والهنود الحمر في منطقة البراري وغيرهم فيستخرجون المادة المخدرة من أنواع معينة من الصباريات. كما أن أنواعاً أخرى من المخدرات مثل «تبغ الاستنشاق» و«المشروب الأسود» والماريجوانا تساهم إلى حد كبير - حتى في أميركا الحديثة - في زيادة نسبة الجريمة، وبخاصة لدى الشباب.

وعند تناول هذه المواد المنشطة والخطرة هناك فرق كبير بين الاعتدال والافراط، الذي يعبر عنه بالدرجة الأولى اختيار هذه المادة أو تلك. فالآن لا تستطيع سوى قلة من المتزمتين أن تستغني عن واحدة من أقدم المتع التي عرفتها الإنسانية، وهو الدخان أو التبغ الذي عم استعماله في كل مكان، حيث يجتمع الأصدقاء في مجالس الأنس والتسلية، أو حيث يتابع مفكر وحيد ابداعاته الخلاقة.

وتختلف وجهة نظر العلماء الحديثين حول منشأ عادة التدخين، اختلافاً كبيراً. فرغم أن الباحث «ليندبلوم» قد كتب عام ١٩٤٧ بأن «جميع الآراء تقريباً باتت مقتنعة الآن أن التبغ جاء إلى أميركا من العالم القديم» فما يزال هناك العديد من العارفين يشاطرون الباحث «نوردنس كيولدس» وجهة نظره القائلة بأن «تبغ النشاق والسجائر والسيكار والغليون هي من اختراع الهنود الحمر».

وقد دهش الرواد الأوربيون الاوائل، الذين كانوا أول من جاب أطراف العالم الجديد، من عادة سكانه الأصليين «إخراج دخان من حزمة من ورق النبات مثبتة في

الفم» ثم جلبوا معهم هذه العادة عندما عادوا إلى أوطانهم. وقد اعتبر التبغ أول الأمر، أي في بداية القرن السادس عشر في أوربا كدواء، وخاصة لمداواة ألم الأسنان والتهاب المفاصل وغيرها من الأوجاع. وقد قام «جان نيكوت» وهو مبعوث فرنسي في البلاط البرتغالي بتعريف النبلاء، بالدرجة الأولى، بالتبغ فاشتهر كمكتشف لهذا «العشب الطبي» الذي وصف مسحوق أوراقه لمداواة ابن «كاتارينافون ميديسي».

ولم ينتشر تدخين أوراق التبغ في أوربا إلا بعد وقت طويل. ومنذ ذلك الحين اختلفت الآراء حول التبغ ما بين وصفه «بعشبة الشيطان» وبين وصفه «بتنفس الآلهة». وكيفما كان الأمر فان كلمات الباحث «شتال» تظل حقيقية، وهي: «ليس هناك من نبات آخر أثر في الحياة الاقتصادية والثقافية للإنسانية بالقدر الذي بلغه التبغ». وكما نعرف من خلال عادة «غليون السلام» لدى الهنود الحمر، لم يكن التدخين بالأصل سوى طقس ديني يمارس في المناسبات الاحتفالية الخاصة. وما تزال مقاطع الحجارة الحمراء في «بايب ستون» التي تصنع منها الغلايين، مكاناً مقدساً بالنسبة لجميع قبائل الهنود الحمر، إذ تعتقد هذه القبائل أن الاله «مانيتو» قد خلق هذه الحجارة للرجل الأحمر. وتتنوع الطرق التي يستمتع بها الهنود الحمر في أميركا بالتبغ، تنوعاً كبيراً. ففي أميركا الجنوبية توضع لفائف من التبغ في الفم، بينما تستعمل قبائل «توكانو» سيكاراً بحجم كبير، يضطر المرء معه إلى استعمال حمالات خاصة متشعبة لتسنده في فم المدخن. وهذه الحمالات مصنوعة غالباً من الخشب المحفور. وبالمناسبة فان كلمة سيكار أول ما نشأت في أميركا الوسطى ومشتقة من كلمة «سيغار». وتسود عادة مضغ أوراق التبغ لدى قبائل عديدة في كاليفورنيا، وبخاصة تلك التي تقطن أقصى شمال ساحل المحيط الهادي في أميركا الشمالية، التي تمزج أوراق التبغ مع مسحوق كلس الصدف المشوي. وفي أحيان أخرى تنقع أوراق التبغ بالماء ويشرب منقوعها. ويعتقد أفراد قبيلة «شوكنانزي» أن بامكانهم التعرف على السحرة بعد تناولهم هذا المشروب.

وعندما يصطاد الهنود الحمر في منطقة لابرادور دبا، يشعلون غلايينهم وينفثون بعض السحب الدخانية فوقه، اكراماً لروح هذا «الزعيم» المتوفى. ولا يمكن أن يتم عقد أي اتفاق أو اجراء محادثات سلمية دون استدعاء حضرة الاله «مانيتو» من خلال

القيام ببعض الطقوس الخاصة بالغليون المملوء بنوع من التبغ المر. ويطلق الاسكيمو على التبغ اسم «أتاماويا». ولكن حتى في عصرنا هذا الذي يصل فيه التبغ المصنوع في المصانع الحديثة إلى مناطق الهنود الحمر، لا يزال هؤلاء يفضلون التبغ المحلي المأخوذ من لحاء الشربين والصفصاف - لأنه يعجب الآلهة. وبخاصة في المناسبات «المقدسة».

وغالباً ما يزرع الهنود الحمر تبغهم بأنفسهم، ويدخنونه إلى جانب الأنواع الأخرى البرية التي يجمعونها. فقبيلة «يوروك»، على سبيل المثال لا تمارس أي نوع من الزراعة سوى زراعة التبغ.

في المناطق التي لم يكن التبغ معروفاً فيها، كان رد فعل سكانها الأصليين على «عشب التدخين»، الذي أدخله الأوربيون، مختلفاً. ففي غينيا الجديدة يقوم الرجال والنساء والأطفال بتدخين التبغ ومضغه وهناك يتاجرون بهذه «العشبة» ويزرعونها في الحقول ثم يصنعون منها لفائفَ ضخمة على شكل «سيكار»، وبالمقابل وكما يروي «أوكونيل» فان سكان «بونابه» الأصليين «لم يستوعبوا متعة التدخين أبداً». كما أن بعض سكان جزر المحيط الهادي ينظرون إلى التبغ نظرتهم إلى نوع من التوابل يضيفونه إلى النبات المحلي «بيتيل» عند مضغه.

أما سكان افريقيا الأصليون فقد تحولوا إلى مدمني تدخين. فقد ذكر الباحث «البرت شفايتسر» عن منطقة «لامبارين» أنها «بلاد التسمم المزمن بالنيكوتين» إذ لاحظ أن النساء أكثر اقبالاً على التدخين حتى من الرجال. وقد أدى هذا الافراط عندهم إلى قلق ليلي مزمن فأصبحوا يهدئون أعصابهم المثارة ليلاً بمزيد من الافراط في التدخين. وقد كتب أحد موظفي شركة التبغ الانكلو - أميركية إلى شركته حول قبيلة «كافيروندو» في شرق افريقيا ما يلي: «جعلنا في كل عبوة أربع سجائر لأن «الكافيروندو» يدخنون أربع سجائر في وقت واحد، اثنتين في زاويتي الفم واثنتين في فتحتي الأنف». ويوجد لدى قبيلة «بانغفة» الافريقية أربعة أنواع من التبغ. أما «النوير» في السودان «فيحسنون» طعم تبغهم باضافة الرماد وروث الأبقار، ويدخنون هذا المزيج في غلايين ضخمة من الفخار لها أوان من القرع. وكثيرة هي الأشكال التي صنعت بها الشعوب البدائية غلايينها ورؤوس هذه الغلايين، بدءاً من حجر الغليون

«المقدس» لدى الهنود الحمر في أميركا الشمالية وكندا، المصنوع من الحجر الأحمر والأسود، حتى أنواع الغلايين الأخرى المتعددة التي تستعملها بقية شعوب الأرض، المصنوعة من الفخار أو الاردواز أو الخشب.

وفي افريقيا يتحدث الكثير من الأساطير عن المنشىء الالهي للتبغ، ولا يمكن تصور حفلة يقيمها الزنوج تخلو من متعة التدخين: ومن أشهر أدوات التدخين التي عرفت في بلدان الحضارات الراقية تأتي النرجيلة المنتشرة في الهند والصين وفارس والبلاد العربية. والنرجيلة عبارة عن وعاء (عادة من قشرة جوز هند أو بيضة نعامة أو وعاء من الفخار أو البورسلان) مملوء بالماء يتصل فيه أنبوب يحمل رأس غليون. يسحب المدخن الدخان المبرد والمنقى بالماء بواسطة مشرب يوضع في الفم ويتصل بالوعاء أيضاً. وقد درج الرجال في العالم الاسلامي على الاستمتاع بتدخين النرجيلة في الأمسيات الرطبة وهم يتسامرون. وأحياناً قد تستخدم مجموعة من الرجال نرجيلة واحدة، (وكلمة نرجيلة مشتقة من الكلمة الفارسية «نارجيل» وتعني: جوز الهند) بحيث يستخدم كل منهم مشربه الخاص. وقد انتقلت النرجيلة العربية والهندية المسماة «هوكا» إلى العديد من القبائل البدائية في افريقيا. ولكن صورة مجموعة من الرجال تدخن وتتسامر لا تكتمل دون إضافة أخرى لبعث جو من الفرح والبهجة، وهذه الإضافة هي: المشروبات الكحولية. ليس الكحول على الاطلاق نتاجاً من نتاجات الحضارة الحديثة. فمشروبات مثل «ابيريتيف» الذي يقدم كمقبّل في مقاهي باريس، أو الفودكا التي تتصدر لائحة المشروبات الروسية، أو الويسكي التي تقدم في الأندية الانكليزية، أو أنواع الخمور والشمبانيا الأخرى، ليست في الحقيقة سوى مشروبات ملطفة عن أنواع البيرة والخمور التي صنعتها الشعوب البدائية الزراعية أو المشروبات الحكولية التي صنعتها الشعوب الرعوية من الحليب الرائب، وتحتاج كل طريقة من طرق تحضير المشروبات الكحولية إلى دراية بعملية التخمير، تلك العملية التي كانت دوماً نصب أعين الشعوب البدائية. ولكن كيف اهتدى الإنسان البدائي إلى عملية التخمر؟ من الممكن أن شخصاً ما نقع قطعة من الخبز في وعاء من الماء ولاحظ في صباح اليوم التالي أن فقاعات صغيرة بدأت تنطلق من هذا السائل وأن كتلة متماسكة قد تشكلت في قعر الاناء. وعندما تذوّق هذا «الماء» وجد أنه نقله إلى حالة من المزاج السار غير

العادي، فقرر على أثره الاستمرار في هذه العملية. أو أن رجلاً ما قطع جذع شجرة صبار «الاغاف» فشرب من عصيره وأخذ الباقي في يقطينة مجوفة إلى البيت. وعندما عاد بعد مضي فترة ليشرب منها، لاحظ أن الشراب قد اكتسب مذاقاً أطيب بكثير مما كان عليه سابقاً، فحاول منذ ذلك الوقت أن يصنع المزيد منه وفق خطة مرسومة. وتندرج جميع المشروبات الكحولية ضمن مجموعتين رئيسيتين: الخمور التي يشكل السكر المادية الكحولية فيها، ثم البيرة التي تنتج مادتها الكحولية من السكر أيضاً ولكن بإضافة مواد نشوية. وهناك مشروبات كحولية أخرى تحصل عليها الشعوب الرعوية من سكر الحليب.

ومن أشهر أنواع الخمور التي تصنعها الشعوب البدائية ذلك النوع المستخرج من النخيل. تقطع شجرة النخيل وتنصب بشكل مائل ورأسها نحو الأعلى ثم تفتح في جذعها ثقوب، تفصل بينها مسافات متساوية، يتجمع فيها النسغ الذي يوضع في أوان من اليقطين، وتوقد نار خفيفة تحت الجذع. يصب النسغ السائل في وعاء كبير ويغطى، ثم يوضع جانباً ليتخمر. وبعد ثلاثة أو أربعة أيام يمكن تناول الخمر المحضّر بهذه الطريقة، ويمكن عندئذ أن تبدأ الوليمة. أما في المناطق الاستوائية فيختمر العصير الذي جمع عند الصباح، بعد ساعات قليلة وتفيض رغوته على حوافي الوعاء. ويحدث التخمر بواسطة فطريات التخمر المتواجدة في الهواء، التي تحول سكر العصير إلى كحول وحمض الكربون، والكتلة التي تترسب في قعر الاناء هي الخمائر. وتحصل كثير من الشعوب الافريقية على خمر النخيل دون أن تضطر إلى قطع الشجرة، إذ يتسلق الرجل جذع الشجرة عند المساء ويخدس الجزء العلوي من تاجها الذي يحمل الأغصان الفتية. وفي صباح اليوم التالي يصبح السائل الذي تدفق في الأواني جاهزاً للشرب، وتعتبر الأواني المملوءة في هذه الحالة دليلاً يهتدي إليه العطشى، تماماً كاللوحات المعلقة على مداخل المطاعم والمشارب، وقد وصف الباحث «تيسمان» الذي تذوق خمر النخيل الأصفر، الشبيه بالشمبانيا، الذي تصنعه قبيلة «بانغفة» بقوله «مذاقه طيب لا ينسى».

أما مشروب الهنود الحمر المسمى «بولك»، والذي تطور عن مشروب الـ «أوكتلي» الذي استخرجه الأزتيك، فمستخرج من زهرة الصبار الأميركي. وكثير من

قبائل الهنود الحمر في أميركا الشمالية، التي تستخدم في ذلك ثمار الـ «زاغوارو»، تنتج الخمر من الصبار أيضاً، وغالباً ما تقدم هذه المشروبات في الولائم الكبرى، التي يحضرها ذوو المناصب الرفيعة والنفوذ في القبيلة، مثل «رجل الطب» والساحر الذي يجلب المطر. ولدى الشعوب البدائية مواد أولية أخرى مفضلة لصناعة المشروبات الكحولية، مثل الذرة الصفراء والبطاطا الحلوة والمانديونكا وقصب السكر.

ولدى بعض قبائل الهنود معرفة جيدة بصنع أنواع فخمة من الخمور، وخاصة تلك التي تصنع من نخيل الـ Salopogaxo، التي تعطي الشجرة الواحدة منها في أوج تفتحها كمية تصل حتى خمسة وعشرين ليتراً في اليوم. وأثناء ذلك الوقت «ليس لدى السكان عمل سوى الشرب». وتقام في ذلك الفصل من العام مختلف الحفلات والرقصات لتزيد من جماله وبهائه.

ويشكل شرب الخمر المستخرج من الرز محور الاحتفال بعيد «ميغاناكان» في جزيرة بورنيو الاندونيسية، حيث يدعو الموسرون أصدقاءهم وينحرون لهم في هذه المناسبة أعداداً لا حصر لها من الخنازير والدواجن. أما الأكثر تنوعاً وتشعباً من صنع الخمور وانتشارها فهو انتشار مختلف أنواع البيرة بين الشعوب البدائية، التي تلعب دوراً كبيراً وهاماً في أرجاء عديدة من العالم، وبخاصة في أفريقيا، إذ يتفوق تذوق البيرة على الخمور. ومن قُيض له أن يجوب أرجاء القارة السوداء، فلن ينسى ذكرياته السعيدة عن أمسيات البيرة التي عاشها بين سكانها. فعندما تُصنع البيرة الطازجة يجتمع كل أبناء القرية في وليمة عامرة.

وتشكل البيرة أفضل المشروبات لدى «الأباخن» الذين يستخرجونها من جذور «المسكال» ومن وريقات الصبار الطرية. ثم يشكل العسل البري والذرة، أو زنابق النخيل، المواد الأولية لصناعة البيرة لدى سكان شرق بوليفيا. وتقوم بعض القبائل بالتسريع بعملية التخمر من خلال عجن المواد الأولية الخليطة، وبعضها يمضغ الأجزاء النباتية قبل أن يضع المزيج على النار.

أما البيرة المفضلة لدى قبائل هيمالايا فتسمى «ماروفا» وتصنع من الذرة البيضاء وأنواع أخرى من الحبوب، وترشف بواسطة أنابيب رفيعة للشرب من أوعية دائرية من الخيزران، لها أغطية من أوراق الموز، تعتبر مكاييل ثابتة لدى السكان

الأصليين. وعندما يفرغ الاناء حتى منتصفه يعاد ملؤه مرة أخرى بالماء الساخن، إلى أن يفقد المشروب مواصفاته المنبهة. ويتفوق الكهان البوذيون في تحضير هذا النوع من البيرة، إذ يبرعون - كزملائهم في مناطق أخرى من العالم - في مجال هذا الفن.

أما كيف ومتى كان اختراع التقطير الذي أدى إلى إنتاج مشروبات ذات نسب كحولية عالية، فهذا ما لا يمكن تحديده بالضبط. ربما لاحظ أحدهم أن اناءاً مملوءاً بالخمر، فرز، تحت تأثير أشعة الشمس الاستوائية، قطرات أعطت مشروباً أكثر تركيزاً بكثير من بقية محتويات الاناء. ولكن كيفما كان الأمر: فمن خلال تطويل الغطاء واضافة نظام تبريد للأبخرة الكحولية نشأ لدينا جهاز التقطير. ويعتبر الكونياك غاية ما تنتجه أجهزة التقطير، وقد صنعه، على سبيل المثال، سكان جزر «مالوكا»، من نبيذ النخيل. ومن خلال إضافة متممات تقنية أخرى، نشأت، وخاصة في جاوا وسيلان وسيام وعلى ساحل مالابار، أجهزة تقطير معقدة تنتج مختلف أنواع المشروبات ذات النسب الكحولية العالية.

ومنذ عام ١٢٥٣ ذكر المبشرون، الذين تجولوا في المناطق الشاسعة من جبال «بريات» في أواسط سيبيريا حتى شمال التيبت ومناطق القرقيز، أنهم تعرفوا هناك على نوع قوي من الكونياك معروف باسم «كوميس». كما تذوقه أيضاً الرحالة ماركو بولو. وقد وصفه أبو الغازي عام ١٢٥١ بأنه «سائل صاف يشبه الكونياك المقطر مرتين». يصنع هذا المشروب «كوميس» من حليب الجمال والحمير ويتم تخميره بواسطة كتل من الزبدة.

وقد مجدت أساطير وحكايات الشعوب البدائية ولائم الشراب والشاربين. ويفصح المثل الشعبي السائر في قبيلة «مايا» الهندية الحمراء «الناس العراة يصنعون البيرة ولكن المتأنقين في اللبس يشربونها» عن مرارة اجتماعية معينة، إذ يعني: ان الأغنياء ينعمون بما يصنع لهم الفقراء ليستمتعوا به. فعندما تدور الكؤوس عند أفراد قبيلة «كباندو» في توغو، يود الشاربون أن يتبادلوا عبارات المجاملة. وعندما يفرغ الاناء تصب القطرات الأخيرة منه على الأرض حيث يذكر الشارب اللقب الذي يكنى به على طاولة الشراب ليتلقى جواباً لطيفاً من أصدقائه. فاذا ما قدم نفسه مثلاً باسم «داتسومو» أي «الأفعى تقطع الطريق» كما ذكر الباحث «برايتكويف» أجابه

أصدقاؤه بعبارة «ميد زينا كبو او» أي «انها لا تخشى من الكمين» وإذا ما أطلق على نفسه اسم «كلونغو» أي «درع السلحفاة» يناديه بقية الندماء بمجنون «ونحن أيضاً دروع سلاحف منذ القديم» الأمر الذي يعني أن ليس بمقدور أي حشرة أو حيوان آخر أن يتحايل على السلحفاة الذكية التي تقي نفسها داخل درعها.

وتفصح أغنية الشرب التي يرددها أفراد قبيلة «داسون» في بورنيو التي ذكرها الباحث «شتال» عن وجهة النظر الحكيمة بأن المرء يمكن أن يشرب من البركة في البرية دون أن يتضرر منها بينما تسبب الأوعية المليئة بالخمر في البيت صداعاً يعقب حالة الخمار. تقول الأغنية:

هناك في الخارج كمية كبيرة من السائل
لكنها لا تسبب لنا الصداع
ولكن الجرة الصغيرة المليئة بالسائل في البيت
تسبب لنا طنينا في الرأس

وكما تُظهر لنا أغاني «أناكريون» و«لي تاي بس» فقد زينت الثقافات الراقية في كل العصور مسرات الخمر، واطلق على الاله الازتيكي «كسيبه» لقب «شارب الليل». وقد اقتصر تذوق شراب «بولك» في العصور القديمة على «الرجال والنساء المحترمين الطاعنين في السن» فقط، باستثناء فترة الاحتفالات الكبرى بعيد «تكويل هيتونيتل»، حيث يمكن لجميع الرجال والنساء والأطفال أن يشربوا كما يريدون.

ومنذ حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد عرفت في مصر أربعة أنواع مختلفة للبيرة. وقد ثبت المنشأ «الالهي» للبيرة كتابة، منذ الألف الرابعة قبل الميلاد، إذ تضمنت إحدى الكتابات الهيروغليفية على لوح حجري قديم، التحذير التالي الموجه إلى الشباب: «لا تفرط أبداً بشرب البيرة، إذ تسقط وتتكسر عظامك، ولا أحد يمد يده إليك، يتابع أصدقاؤك الشرب قائلين: القوا بعيداً هذا السكير». ولا تختلف هذه العبارة في مضمونها عن التحذير الذي سمعته مرة في كنيسة تابعة لإحدى الطوائف الزنجية الصغيرة في أميركا. يقول التحذير: «احذر أن يتناول الرب مفتاح المعلبات ليفتحك فلا يجد فيك سوى البيرة». ويبدو أن تذوق البيرة كان منتشراً إلى حد كبير في أوساط الطلاب المصريين، فمنذ زمن طويل قبل بدء التاريخ كتب أحد المثقفين إلى تلميذه العبارة التالية: «سمعت بأنك تهمل كتبك

وتستسلم للمتعة واللهو. تذهب مساء من شارع إلى شارع ورائحة البيرة تُبعد الناس عنك، وتسبب الأذى لروحك. نعم، لقد شوهدت تعتلي الجدران وتداهم المنازل. انك تثير اشمئزاز الناس منك وتجلب الشر لهم».

الرقص والرياضة والألعاب:

ليس من العدل أن تقتصر معالجة مجالس الانس والمسرات لدى الإنسانية على الطعام والتدخين والشراب. فهناك مثلاً مسرات ومجالس أخرى بريئة ومفيدة، كالرقص والرياضة والألعاب، التي تعتبر عوامل هامة من عوامل المرح والمسرة لدى الشعوب البدائية، تعبر عن نفسها في مجموعة لا حصر لها من أنواع التسليات ذات الطبيعة الرزينة.

وهنا يأتي دور الأطفال بشكل خاص. وقد اخترعت جميع شعوب العالم أطرف اللعب لتجميل السنوات الأولى من عمر صغارها بأسلوب تربوي فكه. فأطفال قبيلة «بانغقه» الافريقية يتسلون بألعاب كروية مصنوعة من الحجارة المدورة، كما يلعبون بجوز الهند. يقوم ذووهم بصنع الدمى وأنابيب النفخ ولعبة النحلة والعرائس والعكاكيز وألعاب السحر والأحاجي، ويعطونهم نماذج صغيرة عن الأقواس وفخاخ صيد الحيوانات والطبول ليلعبوا بها. كما يتمرنون أيضاً على لعبة شد الحبل وسباق الجري، وبكلمة موجزة فان لديهم كل ما يمت إلى حياة الطفولة السعيدة.

وتتخذ دمى الشعوب البدائية غالباً أشكالاً ممتعة جداً، وخاصة تلك التي توجد لدى قبائل «كوروتي» الهندية الحمراء في بوليفيا التي تعتبر من أطرف أشكال الدمى. فلهذه الدمى غالباً رأس صغير قلما يستطيع المرء رؤيته. كما أن الوشم منتشر على جميع الجسد. وبما أن أطفال هذه القبائل معتادون على رؤية العري فان دماهم تظهر تفاصيل واقعية. كما كانت دمى الحضارة المصرية القديمة، المجهزة بأطرف متحركة، واقعية إلى أقصى الحدود.

بعض هذه الدمى يحمل «بيروكات» من شعر آدمي، وعليها كرات صغيرة من الطين كما تفعل الفتيات النوبيات اللواتي يحملن في شعورهن كرات من الشحم. ومن اللعب المفضلة نذكر بشكل خاص تلك التي تسمى «الخباز العامل»: وهو عبارة عن هيئة واقفة

على لوح لها ذراعان وساقان متحركان. فإذا ما شد المرء الخيط المثبت عليها، بدأ الرجل «يعجن العجين» بحيث يحرك بساعديه كتلة التراب في هذا الاتجاه وذاك.

أما الفتيات الصغيرات فكان عندهن بيوت خاصة باللعب مجهزة أفضل تجهيز بنماذج مصغرة عن الاثاث والمفروشات التي يستخدمها الكبار، بدءاً من المرآة المعلقة على الجدار، حتى الدروج الجرارة في خزائن الملابس. أما الطريف بشكل خاص فقد كانت اللعب المصرية والبابلية والآشورية على هيئة حيوانات، مثل التماسيح ذات الفك المتحرك والقنافذ التي تثبت على عربة وتجر بواسطة خيط. كما كانت تربى الحيوانات البيتية المدجنة والطيور، مثل القرود، والهدهد المحبوب بشكل خاص لوجود الزنية على رأسه، لامتاع الأطفال المصريين.

أما ألعاب التسلية التي يمارسها الكبار فقد كانت وما تزال حتى الآن في غاية التنوع. وربما كان الرقص أكثرها تعبيراً عن الفرح ومجالس السرور. ولكن حتى أكثر الشعوب بدائية، كالاستراليين مثلاً، كانت تستمتع بمسابقات الجري ومسابقات رمي الرمح وألعاب الكرات، وكذلك ألعاب شد الحبل المحبوبة في أصقاع أخرى من العالم، وخاصة في بولينيزيا وأمريكا وأفريقيا.

ويمكن القول بأن لجميع ألعاب التسلية الحديثة تقريباً ما يناظرها من الألعاب البدائية. بدءاً من ألعاب الذاكرة حتى ألعاب الألواح الخشبية كالنرد أو الشطرنج أو الدومينو وألعاب الحظ، أو بالأحرى القمار، حيث كان البدائيون يمارسون نوعاً من لعب القمار، وخاصة في مجال المجموعتين الأخيرتين، لقاء مواد ثمينة، كما هي المقامرة الآن في سباق الخيل. ونذكر هنا على سبيل المثال لعبة «المنقلة» المنتشرة في جميع أنحاء القارة السوداء.

وتخسر قبيلة «أوبانغي» المولعة بلعبة الـ «كوكا» مبالغ لا تصدق من المحار المتداول كمعادل نقدي. وتقتصر المشاركة بهذه اللعبة على الرجال فقط، لأن النساء - كما ذكر «ليدر» - «لا يلعبن، إذ ليس لديهن وقت لذلك». وحتى المآتم تشكل لدى بعض الشعوب مناسبات للمقامرة، حيث يعتبرون أن روح المتوفى تشكل فألا حسنا للرابح، وتنتشر هذه العادة بشكل خاص لدى الهنود الحمر في أميركا الجنوبية وقد خلف لنا عالم الأجناس «كارستن» وصفا للكيفية التي تمارس بها هذه اللعبة. يقول:

«تكرس البقية المتبقية من الليل للعب القمار بكرات مشتعلة من القطن. يوضع لوح خشبي بشكل عرضاني فوق جثة المتوفى وعليه كرة مشتعلة من القطن. يجلس اللاعبون على يمين ويسار الجثة وينفخون الكرة المشتعلة هنا وهناك، بحيث تظل في حركة دائمة. وحالما استقرت أمام أحد اللاعبين ينفخها بعيداً عنه إلى الجهة المقابلة وهكذا. أما الغاية من اللعبة فهي ابعاد «خطر العدوى» الذي يأتي من الجثة، حيث يخافون أن يقوم جني الموت بالبحث عن ضحايا جديدة بين أقرباء المتوفى الأحياء».

ولا تمنع الغاية الرهيبة من هذه اللعبة، المشاركين، من الاستسلام التام لحمى هذه المقامرة.

أما العادة المنتشرة في جميع أرجاء أميركا الجنوبية، بتحويل ذكرى الأموات إلى عيد للاحياء، فيمكن أن نلاحظها حتى الآن في المدن الكبرى الحديثة. إذ قلما نجد فرقاً بين عادة الهنود الحمر في الاكوادور في «يوم الأرواح» بإقامة ولائم طعام كبيرة تكريماً للموتى، وبين عادة المكسيكيين حالياً «في يوم الأرواح» ببيع الحلوى على زوايا الشوارع، حيث يتبادل عادة العشاق قطع الحلوى المزينة بالأحرف الأولى من أسمائهم، كهدايا.

بالإضافة إلى الألعاب التي تعود إلى عادات مغرقة في القدم، كان لتاريخ الرياضة أهمية كبيرة في ثقافات جميع العصور. ومن أقدم مظاهرها رياضة الطيور التي كانت تمارس بشكل خاص في جزر المحيط الهندي بحماس بالغ. وفي هذا المجال يفضل طائر يسمى «فريغات» بسبب قدرته غير العادية على التحليق في الجو، والذي يعتبر حارسه مقدساً، ويكرم، من خلال حمل اسوارة من الريش، كـ «زوج» أسطوري لهذا الطائر. تماماً كما كان ذات يوم يعقد قران دوقات البندقية على البحر من خلال خاتم. ورغم أن طائر «فريغات» كان يتمتع بالاحترام كـ «طائر أرواح» فقد تطورت الطقوس المكرسة له إلى نوع من الرياضة، برع فيه بشكل خاص سكان بعض الجزر كما ذكر «ب. أ. كايسر». ولكن يجب قبل كل شيء تدجين هذا الطائر. فبعد اصطياده مباشرة يوسم على ذيله لمعرفة مالكه عندما يحلق في الجو. وانه ليوم سعيد، حتى للقرية برمتها، ذلك اليوم الذي يتمكن فيه أحد من تدجين طير جديد من هذا النوع، إذ تتعالى صيحات الفرح: «الآن صار يطلب بنفسه»، وتطعم هذه الطيور بالأسماك، وتشرب الماء من أفواه أصحابها المفتوحة. وعندما ينتهي تدجينها كلياً ولا تعد تترك

صاحبها، تعاد إليها حريتها ثانية ويسمح لها بالاشتراك بالمسابقات مع الطيور الأخرى حيث يؤخذ التحليق الشاهق وفنون أخرى بالحسبان عند توزيع الجوائز.

ولدى سكان الجزر هؤلاء خبرة كبيرة في تدجين جميع أنواع الطيور المتواجدة عندهم تقريباً، وخاصة الطائر الليلي المعروف باسم «اديزكوي» الذي يطلق اسمه أيضاً كلقب على المتسكعين ليلاً من أفراد القبيلة. كما يعتبر صراع الديوك والخنازير والأسماك من أمتع التسليات وأحبها لدى سكان جزيرة «تاورو». ويقوم الأطفال حتى بتدجين أنواع من الفراشات رغم أن هذه الحشرات تعتبر تقمصاً لأرواح الموتى، وتربى على الأشجار قرب الأكواخ، حيث تقوم بمهاجمة الفراشات البرية العابرة، فتدخل بذلك السرور على قلوب أصحابها.

وتشكل هذه التسليات المتنوعة بالحيوانات المدجنة، الحد الفاصل بين الرياضة واللعب، ولذلك خفت ممارستها لتقتصر على مناطق محددة. بينما تطورت وتنوعت أنواع الرياضة التي يدخل الإنسان نفسه، في مبارياتها. وهذه منتشرة في جميع أرجاء الأرض.

ونادراً ما اعتبرت الشعوب البدائية أن المشي والركض هما نوعٌ من الرياضة المعترف بها، لأنها عادية جداً، وأقل من أن يكون مجالاً للتحدي في المباريات.

وحتى عندما يقطع السكان مسافات طويلة، وهم مثقلون بالاحمال، فوق أرض وعرة المسالك، فان الطاقة التي يبذلونها في ذلك، مهما كان حجمها، لا تعتبر إنجازاً رياضياً. وكذلك الأمر بالنسبة للجري السريع الذي يعتبر بالنسبة للاستراليين، والبوشمن، والهوتنتوت في افريقيا، القادرين على اللحاق بحيوانات القنص، من شروط الحصول على الغذاء.

وقد ذكر «بيتر كولب» عام ١٧١٩. انه لم يكن من الممكن، حتى لخيَّال، أن يلحق برجل من الهوتنتوت، عندما يكون في رحلة قنص. وقد حققت قبائل «تراهورمار»، التي تقطن جبال «سيرا - مادري» في شمال المكسيك، انجازات مدهشة في مجال الجري بحيث أطلق عليهم جيرانهم اسم «رالاماري» أو «العداؤون». إذ يقطع أحدهم مسافة تزيد عن مائتي ميل دون استراحة، ويستطيع أفراد قبيلة - جيري - في جزيرة «تيبورون» في خليج كاليفورنيا، مطاردة وعل قوي حتى قتله وهم حفاة، أو اللحاقِ بحصان جامح والامساكِ به خلال وقت قصير. فهم يتدربون منذ مراحل طفولتهم المبكرة

على الجري، تساعدهم في ذلك أجسامهم النحيفة المتناسقة وولعهم التقليدي بهذه الرياضة، إلى أبعد الحدود. كما أن التسلق - رغم الانجازات المدهشة في هذا المجال - لا تعتبره الشعوب البدائية رياضة، مع أن القيام بمهام شاقة كتسلق الأشجار الصعبة للوصول إلى ثمارها، أو إلى بيوض بعض الحيوانات أو أقراص العسل، يلاقي اعتراف أفراد القبيلة وإعجابهم بمن يقوم به.

ويستطيع المبرزون في مجال القفز العالي استقطاب عدد لا بأس به من المشاهدين المعجبين. وتنظر بعض القبائل، مثل. فاتوسي - في شرق افريقيا، ذات القامات الطويلة والنحيفة، إلى البراعة والتفوق في هذا المجال كتعبير عن مميزات الرجولة. فالشاب الذي لا يستطيع أن يقفز بمقدار طول قامته على الأقل، لا يعتبر بالغاً، وتستخدم قبيلة «فاتوسي» تلالاً قليلة الارتفاع وغيرها من المرتفعات الترابية كمقياس تحسب به طول القفزات، التي يصل علوها، بدون أي عناء، إلى مترين ونصف المتر.

كما أن القذف يشكل رياضة محببة عند الكثير من الشعوب، حيث كانت الأحجار المسطحة - كأقدم شكل من أشكال قرص الرمي تستخدم في ذلك. فاليد الأمينة لهؤلاء البارعين في الصيد ومواصفات أسلحتهم تهيئهم منذ الطفولة المبكرة لهذه الرياضة.

في أميركا الشمالية يركز المشاهدون المختصون من الهنود الحمر في مثل هذه العروض على الرشاقة والتنوع التي يبديها الرماة أكثر من تركيزهم على القوة الجسدية المبذولة في ذلك، وغالباً ما تقام ألعاب الرمي هذه بشكل مجموعات، حيث يلعب فريقان متقابلان ملتزمان بالقواعد المحددة للعبة. أما المواد المقذوفة فهي عادة جذوع قصب سكر، أسنان كلب الماء، جوز أو كرات ترابية. كما أن للعبة الرمي المسماة «شوفيالتوف» لدى قبائل «زوني» طبيعة دينية. إذ تبارك أدوات اللعبة قبل اللعب بمراسم احتفالية في مذبح إله الحرب الذي يعتبر شفيع هذه اللعبة.

ويشكل الـ «بوميرانغ» أقدم أداة للصيد والرياضة عند الاستراليين، وقد نقلته شعوب أخرى في مناطق متفرقة من العالم، إذ يوجد لدى بعض قبائل الهنود الحمر في أميركا الشمالية، وفي الهند ومصر، حيث كانت تجهز به، حتى نهاية القرن التاسع عشر، فيالق بأكملها. كما اعتُبرت المبارزة بالرماح عند البت في النزاعات بين مختلف القبائل، نوعاً من الرياضة وخاصة في جزيرة «فيجي» وفي غينيا الجديدة وأميركا

وافريقيا. وكذلك كان للمصارعة، التي دخلت في أنواع الرياضة الحديثة، جمهور عريض بين الشعوب البدائية، وعُرفت في جميع أنحاء العالم، من استراليا حتى البرازيل، ومن افريقيا حتى فنلندا، ومن بولينيزيا حتى القوقاز، ومن جنوب شرق آسيا حتى اليابان، حيث يعتبر الـ «سوماتوري» في عداد الأبطال القوميين.

وكذلك الأمر فان الملاكمة هي من أنواع الرياضة المفضلة. حتى جعل ملك جزر «تونغا» تنظيم مباريات دورية ومنتظمة في الملاكمة واجباً وطنياً يحافظ على أدائه حفاظاً شديداً.

لم تكن الشعوب البدائية، التي تنظم تلك المباريات، تعرف على الاطلاق القفازات التي يرتديها الملاكمون، بل كانت تستعيض عنها بلف الأيدي بأحزمة. وقد تحولت «قفازات» الملاكمة عند سكان جزر «مورتلوك» من خلال وجود أسنان سمك القرش فيها إلى سلاح خطير، فالملاكم الذي يسقط أولاً يعتبر خاسراً.

وحتى حكام الألعاب الرياضية كانوا معروفين، ففي «هاواي» مثلاً كانوا يتدخلون عندما تخرق قوانين اللعبة أو تطول مدة المباراة، عند ذلك يتم تفريق المتبارين بواسطة عصا.

أما السباحة فلم تكن على العموم تصنف كنوع من الرياضة، ولكن ركوب الأمواج على ألواح خشبية كان يشكل في بولينيزيا محور مسابقات كبرى، يفوز فيها المشارك الذي يسبق في الوصول إلى الشاطئ، دون أن يسقط في الماء.

وربما كان لعب الكرات أحب أنواع الرياضة، حيث رعاه ويرعاه الهنود الحمر والزنوج والمصريون والأوربيون منذ غابر الأزمنة.

ولمعظم ألعاب الكرات الشهيرة لدى الأمم المعاصرة أسلاف بدائية عند الشعوب القديمة ما تزال لها، حتى الآن، أهمية ومعانٍ سحرية ورمزية، الأمر الذي يدل على أنها قديمة جداً.

وعندما يحين فصل صيد الحيتان تمارس قبيلة «ماكاه» الهندية الحمراء لعبة الهوكي باستخدام عظم الحوت ككرة، وعصا تشبه هراوة إله الحرب كمضرب.

وتُظهر المخطوطات الازتيكية القديمة آلهة النور والظلمة عند لعب الكرات. وكان في عداد واجبات الحكام المكسيكيين مراقبة مجموعة النجوم المعروفة باسم الدب الأكبر عند منتصف الليل لأنه كان معروفاً باسم «ملعب الكرات» أي أن النجوم تمارس فيه هذه اللعبة.

وتتنوع ألعاب الكرات تنوعاً كبيراً، وخاصة لدى الهنود الحمر في أميركا الشمالية، بحيث يحتاج وصفها الدقيق إلى مجلدات عديدة. وفي الألعاب ذات المرحلتين، مثل الهوكي وغيرها، تستخدم كرات من مختلف الأشكال والحجوم، وهي عادة كرة طرية من جلد الوعل محشوة بحشائش أو ألياف نباتية، وقد تطورت لعبة كرة القدم الأوربية عن لعبة كرة لدى الاسكيمو، لها نفس القوانين، وتستخدم فيها أيضاً كرة جلدية تشبه الكرة الأوربية كل الشبه.

أما الكرات التي استخدمها المصريون القدماء في رياضتهم فقد كان قطرها عشر سنتيمترات ومؤلفة من نصفي كرة من الجلد مخاطين بعناية مع بعضهما البعض. ومحشوين بالقش أو بنبات الحلفا.

أما اللاعبون المرنون فقد كانوا يستخدمون غالباً كرات ملونة وقابلة للكسر من التراب البللوري لإظهار براعتهم في ذلك.

وهكذا فقد عرفت الإنسانية دائماً على مر آلاف السنين كيف تقطع جدية الحياة وتجعلها أكثر تقبلاً، من خلال الولائم وممارسة الرياضة والألعاب. ولكن رغم وجود مختلف أنواع التسليات والمتع، فإننا لا نستطيع الحديث عن أعياد تقام في مناسبات معينة وأوقات محددة، إلا منذ بداية عصر الحضارات الراقية. فلم يبدأ الاحتفال بالأعياد الوطنية والدينية وأعياد الميلاد وأيام الذكرى واليوبيل، ومختلف الأعياد المرتبطة بتاريخ ملزم محدد إلا في زمن الحضارة الراقية، لأن الحساب المسبق للأحداث، والاعداد المنظم والدقيق لأحداث ستقع في المستقبل، كان غريباً كلياً عن أسلوب تفكير الشعوب البدائية.

وهكذا جمعت حفلات الطقوس الرسمية الكبرى في العصور الكلاسيكية وما قبل الكلاسيكية، جميع عناصر السرور والتسلية، التي نشأت وتطورت بصورة عفوية. كما ساهمت الاستعراضات الزاهية والرقصات والألعاب والولائم وحفلات الطعام، معاً، في إقامة احتفال كبير، وافقت عليه الكنيسة والدولة والمجتمع.

وتقسم قبائل «تشيبتشا» سنتها إلى ثلاثة أقسام متساوية، أحدها مكرس خصيصاً للاحتفالات بالأعياد. بالنسبة للمسلمين يبدأ فصل المسرات بعد رمضان، وبالنسبة للكاثوليك ينتهي مع بداية الصوم. وهكذا فان أعياد الحضارة الحديثة محددة

بتواريخ ومواعيد معينة. وأيا كان المضيف، سواء أكان أسرة، أم مجموعة أما ناديا أم كنيسة أم حكومة، فهناك تنظيم رسمي ينظم مظاهر مسراتنا ومجالسنا، وربما استطاعت هذه الحقيقة أن تساهم في تنظيم أفضل من حيث الشكل الخارجي لأعيادنا ودعواتنا. ولكن ما يثير التساؤل هو فيما إذا كانت متع المدن الحديثة يمكن أن تقاس بصفاء الارتجال العفوي للفرح من أجل الفرح، الذي تتميز به مجالس الأنس التي تُعقد في الصحاري والبوادي أو في الغابة العذراء.

الهوامش:

١ - حيوان أميركي شبيه بالخنزير . (المورد) .
٢ - تمساح أميركي . (المورد) .
٣ - نوع من الصبار . يستقطر في المكسيك مسكر من أوراقه الداخلية . (المورد) .

الفصل السابع

عن الطرق والجسور والعربات والسفن

- بدايات وتطور الطرق ووسائل النقل والحمل - بداية استخدام الحيوانات للحمل والجر - اختراع الدولاب ثورة في عالم التقنية.

عندما تطوي السيارات الأرض فوق الطرق المعبدة، وتخرق القطارات الأرقام القياسية للسرعة، ينتاب المسافر في عصرنا هذا الشعور بالزهو بالتقدم الذي توصل إليه العالم، فقد كان شكل وسرعة وسائل المواصلات الحديثة، قبل قرن مضى، ضرباً من الخيال غير المعقول، إلا أن بناء الشوارع والطرقات التي تحتاجها هذه الوسائل تعتبر في عداد أقدم إنجازات الإنسانية. فالطرق لوحدها كانت تلك الوسيلة التي قربت المسافات الطويلة بين أرجاء الأرض، وسهلت ممارسة التجارة وشن الحروب منذ آلاف السنين.

وقد قادت ضرورة إعادة تصليح وترميم طريق معين - سواء أكان هذا الطريق يؤدي إلى أقرب مصدر للماء، أم طريق قوافل عبر الصحراء أو الجبال - إلى مد أقدم الطرق في تاريخ البشرية. فمن خلال جعل طريق ما سالكا - بازالة الصخور والأشجار والادغال عنه - يمكن توفير الوقت والجهد الجسدي، لأنه يسهل الوصول إلى مخازن المؤونة ومنابع المياه، ويضمن نوعاً من الأمن أثناء السفر، إذ يقل خطر الضياع في البراري، وتسهل امكانية زيارة الجيران أو ارتياد أقرب سوق تجارية.

وقبل كل شيء ساهم وجود الطرق في هجرات الشعوب الكبيرة، وتبادل العناصر الثقافية بين هذه الشعوب، ففي أوقات السلم وأوقات الحرب تحركت القوافل التجارية أو الجيوش على هذه الطرق باستمرار، لينشأ نوع من الاحتكاك بين مختلف الشعوب والأفكار، وعلى الطرق وشرايين المواصلات الهامة هذه حدث التواصل بين الشعوب منذ

أقدم العصور، ونشأ الاتصال بين القرى والأسواق، وبين السواحل والمناطق الداخلية. وما زال هذا التواصل إلى يومنا هذا.

ولذلك فإن تاريخ الطرق الرئيسية في حياة الإنسانية، يعتبر في الوقت نفسه، تاريخاً للحضارة.

فالقوافل الافريقية ورحلات الصيد تحركت من بحيرة تشاد ومن تومبكتو حتى الشاطئ الشمالي، ومن النيل والنيجر عبر السودان، حيث جذبت المراكز التجارية، مثل سوكوتو وكانو وغيرها، التجار. كما كان الطريق القديم بين مصر وأعمدة هرقل(١) شبه أسطورة. والقارة السوداء بمجملها، من البحر المتوسط حتى أعماق أفريقيا، كانت وما تزال عبارة عن شبكة من الطرق والمسالك. ويمر طريق تجاري منذ قرون عديدة عبر استراليا البدائية، من الشاطئ الشمالي الغربي حتى خليج استراليا الكبير بطول يبلغ أكثر من ألفي ميل.

وفي أوربا تطورت حضارة منطقة الدانوب منذ عصر ما قبل التاريخ على ضفتي النهر، فكانت طيلة آلاف السنين ملتقى للتجارة والتبادل الثقافي. ويظهر تاريخ تطور طرق الملح الأوربية القديمة، التي كان ينقل عليها هذا المعدن من مناجمه إلى الأسواق التجارية، حتى الآن، من خلال أسماء المدن الواقعة عليها مثل «رايشنهال» و«هاله» اللتين كانتا منطلق الطرق التجارية التي تساير ضفاف الأنهار، كالدانوب والالبه اللوار.

كما خلدت حكايا ألف ليلة وليلة الطريق التجارية ذات الأهمية الفائقة بين بغداد والبصرة. وعلى شرايين المواصلات القديمة والهائلة ما بين الاورال وبحر قزوين هاجرت عبر التاريخ تجمعات بشرية جديدة من آسيا إلى اوربا. كما حددت طرق الحرير القديمة رحلات ماركوبولو التي قادته من سمرقند إلى هندوكوش، وعبر صحراء غوبي إلى بكين. وعلى طريق الحرير هذه انتقلت الأقمشة الصينية النفيسة عن طريق آسيا الوسطى والصغيرى، ومنها إلى أرجاء الامبراطورية الرومانية. وقد بدأت هذه العلاقة التجارية حوالي عام ١١٤ قبل الميلاد. فقد ذكر بطليموس ان الرحلة من العاصمة الصينية آنذاك «ليان غتشاو» حتى هضبة البامير كانت تستغرق في ذلك الوقت سبعة أشهر. وفي أميركا تحركت قوافل، المايا فوق مناطق هائلة. فقد عثر على خرائط الطريق المشهورة الممتدة من خيكالانو عبر الغابة العذراء إلى مناطق الذهب في هندوراس والتي اتبعها «كورتس» ١٥٢٤ - ١٥٢٥ أثناء حملته.

وبالطبع لا يمكن مقارنة المسالك والطرق التي استخدمتها الشعوب البدائية، من حيث شهرتها، بشرايين المواصلات هذه، لكنها بالتأكيد لا تقل عنها قدما، ان لم تكن أقدم منها. فقد كانت خطوطاً لتحديد الاتجاه أكثر منها طرقاً عسكرية. وغالباً ما كان مسارها مشروطاً بظروف جغرافية معينة، إذ كانت تلف حول العوائق الطبيعية وتتجه - حسب طبيعة الأرض - نحو الممرات الجبلية، وتساير مجاري الأنهار والمناطق السالكة عبر الغابات والصحاري. تدحرجت العربات المغطاة، التي استخدمها الرواد الأوائل في أميركا الشمالية، على آثار الهنود الحمر باتجاه الغرب، وما تزال طرق المواصلات الحديثة والضخمة، تتبع المسالك القديمة نفسها التي اتبعها السكان الأصليون. فالطريق القديم من لوزيانا حتى بحيرة «بونتشارترين» ما يزال حتى الآن واحداً من أهم شرايين المواصلات. وكانت مجاري الأنهار - وما تزال - تحدد انتقال الناس والبضائع. فقد حددت ضفاف النيل وهوانغ هو والفرات ودجلة وسان لورانس والميسوري والميسيسبي والامازون اتجاه انتقال الإنسانية منذ آلاف السنين.

وقد سهل لقاء الشعوب، من مختلف الأجناس على هذه الطرق الممتدة على طول ضفاف تلك الأنهار الكبرى، منذ آلاف السنين، تبادل البضائع وقيام مراكز ثقافية هامة، فأنهار منطقة الكونغو جعلت شعوباً بمجملها تتحول إلى التجارة، هذه الظاهرة التي تكررت في جميع أنحاء العالم.

يعتبر ربط هذه الطرق المائية الهامة بعضها ببعض من خلال حفر الأقنية، من أقدم وأهم انجازات الإنسانية في مجال البناء والتشييد. وأصبحت ذكرى القيصر الصيني «يانغ تي» (٦٠٥ - ٦١٨) الذي أمر ببناء قناة القيصر الشهيرة خالدة في التاريخ. وفي منطقة تيار الامازون عرف الإنسان منذ أقدم العصور كيفية درء خطر الفيضانات التي كانت تتكرر سنوياً من خلال بناء عدد كبير من الأقنية. وقد ثبت للعلم الحديث أن الممر المائي الهائل بين نهري «اورينوكو» و«ريونيجرو» لابد أن يكون من صنع يد الإنسان. وبينما كان للأنهار والطرق المائية أثر فعال في اتصال الشعوب بعضها مع بعض عبر التاريخ، إلا انها من جهة أخرى كانت عقبة يصعب التغلب عليها بالنسبة للرحالة أو المسافر الذي يريد بلوغ الضفة الأخرى.

وهكذا اخترع الإنسان الجسور حتى يتمكن من عبور الأنهار والشرايين المائية الأخرى. وقد أوجدت الشعوب البدائية منذ أقدم العصور وسائل وطرقاً تتغلب

بواسطتها على التيارات والوهاد. وبدءاً من الوسائل المساعدة البسيطة حتى الأبنية الهائلة، تتجلى الجسور التي أقامتها الشعوب والقبائل بأشكال متعددة. فقد حفرت الشعوب البدائية الرعوية في منطقة هيمالايا ثقوباً مرتبة ترتيباً تقابلياً في الصخور، ثبت فيها المتسلقون، سواء نزولاً أو صعوداً نقالات من الخيزان. ونصبوا أعمدة خيزرانية فوق الوهاد يعبر بواسطتها المسافر فوق الشعاب والوديان، كما ثبتت حبال مجدولة من شعر «الجاك» على جانبي العائق في أعلى قمم الشجر ليقوم المسافر الجالس على كرسي من الخيرزان المجدول بتحريك الحبل حتى يصل به إلى الجانب الآخر. كما كانت الجسور التي أقامها الهنود الحمر في بيرو من الحبال تؤمن عبوراً أميناً فوق الأنهار والوديان. وتعتبر الجسور المعقدة المنصوبة من ألياف شجر الليانا، والتي تشيدها شعوب عديدة في ميلانيزيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية والهند واندونيسيا، انجازاً عظيماً في فن البناء. وتؤمن هذه الجسور القوية والمجدولة باتقان (لها إلى حد ما شكل سلة نصف دائرية وتصل حتى خصر الشخص أو حتى كتفيه) عبوراً أميناً فوق الأنهار والوهاد. وهذه الجسور مثبتة من الطرفين إمّا على الأشجار أو في قمم الصخور. وبوجود الاسوار على جانبي الجسر يمكن للراكب أو المسافر أن يقطع النهر واقفاً.

كما أن جذوع الأشجار الممدودة عرضانياً فوق مجرى مائي تعتبر أبسط أنواع الجسور الخشبية ولكنها لا تكفي لعبور الأنهار العريضة، ومن أجل مثل هذه الأنهار تقام جسور خشبية معقدة بمساعدة دعائم ذات فروع متشعبة، يوجد منها أنواع متقنة الصنع بشكل خاص في كولومبيا وميلانيزيا والكاميرون. وهكذا عرف الإنسان - رغم العقبات التي أقامتها الطبيعة - كيف يتابع طريقه في الاتجاه المرغوب، وكيف ينتقل وينقل متاعه وبضائعه بأمان إلى المكان الذي يقصده. وفي تسلق الجبال استخدمت عصى الترحال التي زينت بأجمل الرسوم والتزينات، وبخاصة في المناطق التي يوجد فيها كبار الفنانين في مجال الحفر على الخشب، كما في افريقيا أو في جزيرة بورنيو الاندونيسية. وغالباً ما كان لهذه العصى أهمية خاصة كرمز على المكانة التي يتمتع بها حاملها، أو لممارسة السحر.

وفيما يتعلق بحمل الأمتعة والبضائع، فلا يوجد شعب في العالم لم يخترع وسيلة أو أكثر من وسائل تسهيل هذا العمل. فالحلقات المنسوجة أو الوسائد الصغيرة توضع

على الرأس لتسهيل الحمل. وكذلك أحزمة الحمل وأربطة الرأس وغيرها من السيور تدعم وتسند الأثقال التي تحمل على الظهر. وهناك حزام حمل الأثقال المعقود حول الرأس والمعروف جيداً، بشكل خاص في آسيا وافريقيا وأميركا الشمالية والجنوبية، إذ يرتبط غالباً بسلة أو ثقالة كحزام الرأس المكسيكي الذي يتصل بدوره بما يسمى بسلم الظهر. في آسيا، وكذلك لدى الهنود الحمر في أميركا الشمالية، تحمل الامهات أطفالهن خاصة على الظهر بينما تحمل نساء الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية أطفالها غالباً في شال عريض من النسيج معلق بالكتف. أما عند الرحلات فيثبت الرضيع ضمن اطار له شكل السلم. وكانت أواني الماء الكبيرة لدى شعب «انكا» مزودة باذنين في قسمها الأسفل، تمكنان من حمل هذه الأوعية على الظهر بواسطة حبال، بدلاً من حملها على الرأس، كما هي الحال غالباً في الاحمال المشابهة. وبينما كان الإنسان في عصر الثقافات القديمة يحمل أعباءه وأحماله بنفسه فقد دأبت الطبقة الحاكمة في عصر الثقافات الراقية على القاء مهمة حمل ونقل الأثقال على كاهل الفئات «الدنيا». فقد كان السنغاليون النبلاء، أو ذوو الحسب والنسب، يضعون أمشاطاً في دائرة شعورهم كدلالة على انهم وأسلافهم لم يحملوا في يوم من الأيام أية احمال على رؤوسهم.

أما أبسط أنواع الأدوات المساعدة في حمل الأشياء الصغيرة فهي شبكة الحمل التي عرفتها شعوب عديدة وبخاصة في أميركا واستعيض عنها في افريقيا وآسيا فيما بعد بالأكياس الجلدية.

وتنتشر حقائب الحمل والسلال المنسوجة والمجدولة في جميع أنحاء العالم، سواء أكانت مخروطية كما في آسيا وامريكا، أو مربعة كما هي غالباً في افريقيا، لكنها جميعاً صنعت للغرض نفسه، وهو تسهيل حمل أو حفظ المواد الغذائية أو الأدوات البيتية. وتعتبر ثقافة الحمل من أقدم أدوات الحمل على الإطلاق، وهي ما يطلق عليه سم «نير» عبارة عن جذع شجرة أو قطعة خشب تحمل على الكتفين بشكل عرضاني ويعلق حملان متساويان في نهايتيها وهذا شرط أساسي لحفظ توازنها. ولذلك تعتبر هذه الأداة الأفضل لحمل أواني الماء المتساوية في الحجم والوزن. وأول ما وجدت هذه الأداة في آسيا. ولكن مكتشفي أميركا الجنوبية عثروا عليها هناك كوسيلة حمل مفضلة لسكانها الأصليين. وقد تحدث «نوردنسويلد» عن معاناة الهنود الحمر الذين

أجبرهم الفاتحون الاسبان على حمل أثقالهم على الظهر بدلاً من حملها على ثقالات خاصة كما درجت عادتهم.

أما العتلة التي يمسك رجلان بطرفيها ويعلقان الحمل في منتصفها، فتعتمد على مبدأ فيزيائي آخر. وكثيراً ما تتبع هذه الطريقة في افريقا وآسيا وجزر المحيط وفي بعض مناطق أميركا الجنوبية. فبواسطة عتلة الحمل هذه يمكن نقل كل ما يخطر على الذهن من مواد ثقيلة بدءاً من الطريدة المقتولة حتى طبول الانذار وجثث الموتى.

وفي بعض الأحيان كان الأشخاص المميزون يتمتعون بحق تكليف أشخاص آخرين بحملهم، وخاصة الحكام وأصحاب النفوذ الذين يحرم على العامة النظر إليهم، اما لأسباب دينية أو لأسباب أخرى. ويعود أصل الهودج إلى ثقالات الحمل تلك. إذ يؤتى بكرسي أو شبكة نوم معلقة وتثبت على عارضتين خشبيتين أو أربعة، ثم تحمل من أطرافها على أكتاف الحمالين.

وفي افريقيا بشكل خاص، حيث التركيز على القوة والجاه من خلال مظاهر خارجية، فما يزال الهودج حتى الآن وسيلة انتقال مفضلة عند الزعماء ورؤساء القبائل وذوي النفوذ القوي من البيض. وفي الصين لم يكن قبلا أحد من ذوي النفوذ يسافر دون هودج، وبخاصة في جنوب الصين، حيث كان الهودج تعبيراً عن المركز الاجتماعي الرفيع. وكان عبيد قبيلة «تشيبتشا» يحملون أسيادهم كلما أرادوا الانتقال من مكان إلى آخر داخل شباك مثبتة على أعمدة خاصة بالحمل. وفي البيرو كان «الانكا» الحاكم شخصية مقدسة لدرجة أنه لم يكن يسمح لرعيته حتى بالنظر إلى وجهه. ولذلك كان يسافر دائماً في هودج مقفل يحيط به المشاة الذين كانت مهمتهم ابعاد كل ما يمكن أن يشكل عائقاً أمامه، من طريقه. ومن هذا التصور عن «قداسة» نظرة الحاكم نشأت عادة «الستارة أمام العرش» التي تعتبر من الطقوس التي يجب التمسك بها بشدة، وبخاصة في مصر والحبشة وبعض المناطق الافريقية الأخرى وهكذا انتشر الهودج، الذي يحجب الشخص «المقدس»، من بابل ومصر حتى روما الكلاسيكية، حيث كانت النساء الحرائر بشكل خاص تحجب عن أنظار العامة. وبعد الحروب الصليبية انتشرت الهوادج أيضاً في بقية أنحاء أوربا واستخدمتها معظم الحرائر من نساء «الركوكو».
كان الإنسان يشكل القوة المحركة الوحيدة في جميع وسائل النقل هذه، وكانت قدم

الحمال بشكل خاص هي العضو الذي أكثر ما يقع عليه عبء الأثقال ومع ذلك قلما كانت هناك مساع - وبخاصة في المناطق الاستوائية - لتخفيف العبء عن قدم الحمال العارية من خلال لباس واق للقدم. ولكن سبباً آخر، وهو الرغبة في عدم ترك أثر الأقدام، كنوع من التمويه، أدى فيما بعد إلى مجموعة كبيرة من الاختراعات. وقد أدرج المكتشف القديم «ميسون» الصنادل والموكاسين(٢) ومختلف أحذية الشعوب البدائية، وبحق، في عداد أقدم وسائل النقل الضرورية بشكل خاص لحماية قدم الحمال من رمل الصحراء الساخن أو من الأشواك والحجارة المدببة.

ففي منطقة «روريوما» الاستوائية اخترع الهنود الحمر صنادل من أوراق نهيل «ماوريتيا» كما اخترع «البوشمن» في جنوب افريقيا صنادل عملية للمشي تقي أقدامهم من رمل صحراء كالاهاري الساخن وتحول في الوقت نفسه دون الغوص فيه. وتعتبر هذه الصنادل واحدة من تجهيزات القنص الهامة عندهم، فبها يستطيعون حتى ملاحقة الطرائد على الاقدام ومن ثم قتلها.

وبينما تسهل الصنادل والموكاسين عملية الركض أو السير فوق التراب، تؤمن أنواع أخرى من الأحذية، وبخاصة أحذية التزلج، حركةً سريعة وأمينة فوق الجليد. وقد كانت أحذية التزلج المصنوعة من العظام موجودة في آسيا وأوربا منذ عصر ما قبل التاريخ.

ومنذ القرن الثالث عشر عرف في هولندا حذاء للتزلج مصنوع من الخشب ومزود بقضيب من الحديد. ويعتبر هذا النوع شكلاً متطوراً عن أحذية التزلج التي كانت تسمى «عظام الجليد».

أما أحذية التزلج الحديثة، المصنوعة من الصلب، فأول ما ظهرت حاولي عام ١٨٥٠ في أميركا. بالنسبة لأحذية التزلج التي يستخدمها الاسكيمو، والمصنوعة من أسنان الحيتان، وتشبه أحذية التزلج العظيمة، فتعتبر بالدرجة الأولى واحدة من أدوات الصيد. فبواسطتها يلاحقون طرائدهم فوق الجليد.

تطور حذاء الثلج أو «سكي»، الذي يستخدم للحركة فوق المناطق الثلجية، عن ألواح خاصة بالتزلج عرفت منذ العصر البرونزي وتشبه أحذية الثلج - التي كانت مستخدمة على نطاق واسع ومنذ أقدم العصور في آسيا وأوربا - تلك الحديثة التي تستخدم في أيامنا هذه. قاعدتها السفلى كانت مصنوعة من قشور شجر البتولا الملبس

بفرو حيوان الرنة أو كلب البحر. كما كانت العصي الخشبية المثبتة في نهايتها قطع من العظم المدبب ودولاب صغير يساعد على التوقف - كما هو الآن - وسائل مساعدة لا غنى للمتزلج عنها.

وأحذية التزلج التي يستخدمها «اللاب» حالياً في النرويج أكثر طولاً وعرضاً من الأنواع القديمة. فهي لم تعد ملبسة بالفرو من جهتها السفلى، وبذلك غدت قريبة الشبه بأحذية التزلج الحديثة، التي زادت أهميتها كأدوات رياضية في جبال «تيليمارك» النرويجية. ولا يعتبر هذا النمط من أحذية الثلج واحداً من العناصر الثقافية الخاصة بالهنود الحمر في أميركا.

وبينما يتيح حذاء الثلج «سكي» امكانية التزلج السريع فوق المناطق المكسوة بالثلج، يؤدي حذاء الثلج الآخر، ذو الاطار العريض، مهمة أخرى وهي: الحركة بأمان فوق المناطق ذات الطبقات الثلجية السميكة. ويلعب هذا النوع من أحذية الثلج دوراً في غاية الأهمية في جميع المناطق القطبية من العالم.

ونحن الآن بصدد الحديث عن «ثقافة حذاء الثلج» التي انطلقت من آسيا ووصلت إلى القارة الاميركية، قبل انتشار الاسكيمو في شمالها، وقبل وصول آخر بقاياهم حتى شمال كاليفورنيا. وتعتبر الصنادل المصنوعة من الجلد الطري والمسماة «موكاسين» وسيلة لا غنى عنها للحركة والانتقال، فأصبحت المناطق القطبية من أميركا الشمالية مراكز كلاسيكية «لأحذية الثلج ذات الأطر» التي لا تبلغها الأنواع الأوربية الخشنة.

وقد تطورت صناعة هذا النوع من الأحذية الثلجية عند هذه الشعوب إلى فن قائم بذاته يمارسه الهنود الحمر في منطقة لابرادور باتقان بديع، ونشأ نتيجة لذلك تقسيم دقيق للعمل. فبينما تقع مهمة حفر الخشب، وبالتالي تحضير القسم الخشبي من الحذاء على عاتق الرجل، تختص النساء بفتل الشرائط الجلدية التي تتطلب مهارة فنية فائقة.

ومنذ أقدم العصور اخترع القناص القطبي المزود بأحذية الثلج هذه، أداة هامة أخرى استطاع بواسطتها أن ينقل أسلحته ومؤونته وطرائده بسهولة ويسر فوق الثلج، هذه الأداة هي الزلاجة الثلجية التي تطورت عن عادة جر الأثقال على وجود الحيوانات. فمن خلال جر طرائده، سواء أكانت الطريدة وعلاً أو دباً أو حيوان الرنه، أدرك المرء سهولة انزلاق الجلود. وسرعان ما حلت الأجزاء الخشبية الملساء محل وسيلة النقل

الأولية تلك، فتم اختراع الزلاجة. ويستخدم الشكل المسطح القديم لهذه الزلاجات بشكل خاص في المناطق القطبية من آسيا وأميركا وأوروبا (قبائل اللاب الرعوية مثلاً). وتعتبر الشعوب القطبية أن لا غنى عن هذه الأداة الشتوية، إذ تنقل عليها الطرائد والحطب والأطفال والمرضى وجثث الموتى إلى المقابر. وفي الربيع عندما يعود الهنود الحمر من مناطق القنص إلى مناطق الاستقرار يخبئون زلاجاتهم على قمم الأشجار المتواجدة في مناطق القنص.

ويمكن اعتبار الزلاجة المجهزة بقضيب الاستناد، التي يستخدمها الاسكيمو وغيرهم من الشعوب القطبية، اختراعاً جديداً نسبياً.

أما الشعوب الاسكندنافية فتستخدم ما يسمى «بالزلاجة الصيفية» لنقل الأخشاب فوق الأرض الملساء في مناطق الغابات الإبرية.

وباستخدام مثل هذه الزلاجة استطاع المصريون القدماء جر حمولات ثقيلة فوق رمل الصحراء.

كانت الاحمال التي تُسحب بواسطة الزلاجات من الثقل بمكان، بحيث لا تكفي قوة الرجل الفرد لتحريكها، ولذلك يجب أن نفترض أن الإنسان قد عمد منذ أقدم العصور إلى الاستعانة بأقدم الحيوانات التي عايشها، أي بالكلاب. وفي الواقع كانت الكلاب تقوم بجر زحافات إنسان ما قبل التاريخ، كما هي الحالُ الآن في المناطق القطبية. ومن بعد الكلاب أصبح حيوان الرنه أو الايل حيوان الجر الرئيسي، وبخاصة في أوربا وآسيا. وفي مرحلة متأخرة أصبح يستخدم لإنتاج الحليب من جهة، ومن جهة أخرى للركوب.

والشيء نفسه حدث أيضاً بالنسبة للبقر. فقد كان البقر الذي يطلق عليه اسم «جاك» في منطقة التيبت، أول نوع من أنواع الأبقار المدجنة. أما الجاموس الصيني فقد تم تدجينه فيما بعد.

وقد عثر في بقايا تجمعات فلاحية تعود إلى مرحلة ما قبل التاريخ - عرفت بعضاً من وسائل الراحة في الحياة - على أنيرة[٢]. الجر التي كانت تشد على الثيران أو البقرات.

ولم يستخدم الحصان، الذي وجد في أوربا منذ العصر الحجري القديم كحيوان بري، للجر، إلا حوالي نهاية العصر الحجري الحديث.

وانتقل الحصان خلال الألف الثالث قبل الميلاد من آسيا، عبر آسيا الصغرى إلى بابل، ووصل إلى مصر حوالي نهاية المملكة الوسطى. وحوالي عام ألفين قبل الميلاد أسس كبار مربي الحصان في شمال أفريقيا تقاليدهم الشهيرة.

أما أميركا ما قبل كولومبس فلم تكن قد عرفت الحصان بعد. فقبل وصول الأوربيين بفترة طويلة كانت حيوانات «اللاما» و«ألباكا» تستخدم في أميركا الجنوبية على نطاق واسع، وما يزال الهنود الحمر يستخدمون تلك الحيوانات حتى الآن.

الأمر مختلف في آسيا، فمنذ أقدم العصور وحتى الآن تستخدم هناك مجموعة كبيرة من الحيوانات لنقل الأثقال، وبخاصة الكلب والجاك والحصان والرنة والجمل بمختلف فصائله و«الزبو»(٤) والفيل والحمار وحتى الغنم.

ولكن لم تكن جميع تلك الشعوب تعرف كيف تسخر الحيوانات في حمل وجر الأثقال. فلم يكن سكان استراليا الأصليون مثلاً، أو سكان جزر المحيط الهادي واليابان وجميع مناطق أفريقيا شبه الزنجية يعرفون حيوانات الجر بادئ الأمر.

عرف الإنسان كيف يستخدم الحيوانات لجر الأثقال قبل أن يعرف استخدامها للركوب، بفترة طويلة جداً. ومع ذلك فان «ثقافات حصان الركوب» الآسيوية مغرقة في القدم، ففي «كول تيب» مثلاً عثر على مجموعة كبيرة من التماثيل تعود إلى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، تمثل هيئات بشرية فوق ظهور حيوانات ركوب.

بعد أن دخل الحصان القارة الأميركية، أصبحت قبائل معينة، وبخاصة الهنود الحمر في منطقة «البراري» في أميركا الشمالية، وقبائل «شاكو» في أميركا الجنوبية (كانوا يركبون فوق سروج جلدية محشوة بالقش ويحملون قطعاً عظمية كمهماز) مغرمة بركوب الخيل، لدرجة أن أصبحت مجمل حياتها تسير إلى حد ما فوق صهوة الجياد.

حل الحصان عند هنود منطقة «البراري» بالدرجة الأولى محل الكلب الذي كان في العصور القديمة يجر ما يسمى بـ «ترافوا» Travois أو أنشوطة. وهي عبارة عن تركيب مؤلف من عارضتين خشبيتين، يثبت الحمل في منتصفها ويقوم الحيوان بجرها على الأرض.

تعتبر هذه الأنشوطة من أقدم طرق النقل المعروفة، إذ كانت تستخدم لحمل الحزم والخيام والأطفال والأحمال الخشبية وغيرها... وما يزال «الكركيز» وغيرهم من

المجموعات الاثنية في آسيا تستخدم هذه الطريقة التي يقوم فيها الجمل بدور حيوان الجر ويقوم الراكب بتوجيهه الوجهة المطلوبة. ولكن تطورات جذرية حدثت في هذا المجال قبل أن تفسح هذه العربة البدائية المكان كلياً لوسائل نقل أفضل وأسهل.

وفي هذا المجال يبقى الدولاب أهم وأذكى اختراع في موضوع شؤون النقل، هذا الانجاز العظيم للحضارات الراقية الذي لم تدركه الشعوب البدائية.

فباستعمال الدولاب فقط، ومن خلال دورانه الذي قلل من الاحتكاك بالأرض، قل إلى حد كبير مقدار القوة اللازمة لجر الأثقال وحملها، وبالتالي تحققت السهولة والسرعة في هذه العملية. فالأثقال التي لم يكن تحريكها ممكناً في السابق، غدت - بواسطة الدولاب - سهلة النقل والحركة.

وتعود أولى الشواهد الأثرية على وجود الدولاب إلى ثقافات المدن في بلاد ما بين النهرين. وهناك اعتقاد بأن فكرة الدولاب قد تطورت عن عادة زحزحة الأحمال الثقيلة بواسطة جذوع الأشجار، هذه التقنية التي استخدمها المصريون في نقل الحجارة الضخمة اللازمة لبناء الاهرامات. كانت أقدم الدواليب مؤلفة من مجرد أقراص خشبية دائرية غليظة مثبتة بقوة على محور يتحرك مع حركة الدولاب.

وكتحسينات هامة طرأت على الدولاب فقد اخترعت سرّة العجلة، ثم الأبعاد التي أدخلت بالتدريج على القرص الخشبي. وبالتدريج أيضاً بدأت الأبعاد بين القطع الخشبية الدائرية تقل، إلى أن تكونت البرامق خلال العصر البرونزي. وقد صنعت عجلات مجهزة بالبرامق منذ حوالي عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد في آسيا الصغرى.

وبينما تطورت العربة اليدوية المستخدمة لنقل الأثقال منذ أقدم العصور لتصبح وسيلة مواصلات عامة، اقتصر استخدام العربة ذات العجلتين، أول الأمر، على الآلهة وانصاف الآلهة. وعندما بدأ الناس شيئاً فشيئاً بمعرفة مزاياها، سمح بادئ الأمر للحكام، ومن بعدهم للأغنياء باستخدامها. وفي عصرها الكلاسيكي كانت العربة الحربية تستخدم للرياضة والحرب من قبل النبلاء.

وفي مجال الزخرفة دخلت العجلة في فنون شعوب الحضارات الراقية كرمز أسطوري للشمس والألوهية والحظ. وحتى الآن ما تزال بعض العادات القديمة، مثل دحرجة العجلات المشتعلة عن قمة جبل احتفالاً بالانقلاب الشمسي، أو قذف أقراص

خشبية في الهواء، تذكرنا بتلك التصورات الاسطورية. وتعتبر العربة ذات العجلتين أقدم من تلك التي بأربع عجلات. كما تدخل العربة ذات العجلة الواحدة، المجهزة بشراع - كما في الصين - في عداد أقدم وسائل المواصلات.

في جنوبي الصين يستخدم أيضاً الهودج المزود في منتصفه بعجلة، فلا يحتاج القائمون عليه سوى إلى توجيهه. وفي شمال الصين ما تزال تستخدم ما تسمى «بالعربة الضخمة» في الرحلات الطويلة تحمل كوخاً على شكل خيمة منصوباً فوق عجلتين. ويشبه هذا النوع «العربة المغطاة» الشهيرة التي شيدها الرواد في أميركا الشمالية.

كانت حيازة العربات عاملاً استراتيجياً بغاية الأهمية في حروب شعوب الثقافات الراقية القديمة. وكما نعلم من خلال الأدب الكلاسيكي، فقد لعبت الحواجز التي أقيمت من عربات الحرب وآلات القذف والمنجنيقات ذات العجلات، التي استخدمها الرومان، دوراً في غاية الأهمية.

وبشكل خاص كانت الصين أرض منشأ العديد من المخترعات الهامة، بحيث أن الكثيرين من الرحالة الغرباء قد درجوا على اعتبار «الريكشا» أو «جينريكشا» الصينية المشهورة، وسيلة مواصلات «شرقية محضة». ولكن ذلك ليس صحيحاً بأي حال من الأحوال، لأن الصينيين يطلقون على «الريكشا» حتى الان اسم «يانغ تشي» أي «العربة الأجنبية». فهي في الواقع اختراع أميركي يعود إلى أكثر من مائة عام. وقد قام المبشر المعمداني «يوناتان غوبل» الذي يعيش في يوكوهاما، بمساعدة بنّاء ياباني باختراع «الريكشا» بعد أن وصف أحد الأطباء لزوجة المبشر الأميركي «حركة هادئة في الهواء الطلق». ثم جاء فرنسي مغرم بالصفقات التجارية رأى هذه العربة وأدرك امكاناتها، فأدخلها عام ١٨٤٧ إلى الصين، وهناك لاقت نجاحاً هائلاً لدى العجزة الذين يستخدمون الكرسي النقال والهودج، وسرعان ما أصبحت محور صناعة قائمة بذاتها.

حتى وقت ليس بالبعيد كانت تتحرك في شوارع الصين حوالي ٤٠٠ ألف عربة «ريكشا» بين وسائل المواصلات الحديثة ولكنها ستصبح قريباً جزءاً من الماضي، لأن حكومة الصين الشعبية قد أعلنت وبحق، أن حرفة حمالي «الريكشا» تمثل احتقاراً للإنسان وحطا من قدره.

كان تطور العربة الكلاسيكية ذات العجلتين إلى الحناطر (حوالي ١٥٠٠) ثم إلى أنواع أخرى من العربات في القرن التاسع عشر، ثم إلى السيارات الحديثة، سريعاً جداً، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن العجلة البسيطة قد استخدمت آلاف السنين دون أن تتطور إلى وسائل مواصلات أكثر راحة.

المواصلات المائية

لم يتوقف الإنسان، الذي عرف فتح الطرقات في البراري، واجتياز الوهاد والأنهار بالجسور التي شيدها، أمام الساحات الشاسعة التي يغطيها الماء. فحيث توفرت لديه الرغبة باتباع الطرق المائية التي صنعتها الطبيعة باتجاه معين، فقد أخضعها بقواربه وسفنه.

كانت أقدم وسيلة مواصلات مائية عبارة عن الشكل البدائي للقارب. ولم يكن هذا الشكل أكثر من مجرد جذع شجرة عادي يجوب عباب النهر. وما تزال شعوب غيينا الجديدة تستخدم هذا الشكل البدائي من وسائل المواصلات.

فعندما وصل الباحث «فينش» الجزيرة، تحلق حول سفينته عدد كبير من السكان الأصليين وهم يجدفون ببراعة فائقة هذه القوارب البسيطة أو حتى جذوع الأشجار. وعن جذع الشجرة العائم تطور فيما بعد القارب المصنوع من جذع شجرة مجوف من جهته العلوية.

ونظراً للانتشار السريع لمثل هذه القوارب، فقد غدا واحدة من وسائل النقل العامة في جميع أنحاء العالم. وبذلك فهو من استراليا حتى جزر المحيطات، ومن السودان حتى المناطق القطبية في آسيا وأوربا، قارب الشعوب البدائية. وقبل كولومبس كان هذا القارب يشكل المطية المائية الوحيدة عند قبائل أميركا الجنوبية غير المستقرة. فقد تجرأت هذه القبائل أن تجوب البحار بقوارب من هذا النوع، كثيراً ما بلغ طولها ثمانية عشر متراً. فقبائل مثل «غواتو» و«باياغوا» في منطقة «شاكو» كانت تستخدم قوارب من هذا النوع بواسطة مجاديف على شكل رماح، قرب ضفاف الأنهار، بينما استخدم السكان الأصليون في مناطق غابات استوائية أخرى مجاذيف قصيرة على شكل عكاكيز.

قوارب من هذا النوع استخدمها أيضاً سكان الساحل الجنوبي الشرقي من الاسكا، تميزت بصناعة أفضل وبزخارف فخمة من الخشب المحفور. وقد ذكر الباحث «كريغر» الذي أكد على ولع هذه القبائل الهندية بالأعمال الخشبية أنها «تكاد تكون مسكونة بفن الحفر على الخشب» ووصف قواربهم الطويلة المصنوعة من جذع شجرة أرز واحدة بقوله «انها مزودة بمقدمة ونجمة مصنوعة من قطع خاصة من خشب الأرز. وكل من هذه الزخرفات المحفورة تمثل حيوانات أسطورية أو واقعية لها أهمية طوطمية تحيط بها زخارف غنية. ويحمل بعض هذه القوارب، التي يبلغ طول بعضها عشرة إلى عشرين متراً، أشرعة منسوجة من قشور شجر الأرز دون دفة توجيه. فتوجيه القارب في الوجهة المطلوبة يقوم به شخص يجذف في القسم الخلفي من القارب. وكانت بعض القبائل تبحر مسافة تبلغ أكثر من مائة ميل». وتتسع مثل هذه القوارب حتى خمسين راكباً. وكذلك في افريقيا، وبخاصة في الكاميرون، توجد قوارب من هذا النوع غنية بالزخارف، بينما قوارب منطقة السودان أقرب إلى البساطة والخشونة. ولجميع صيادي الأسماك في شرق أفريقيا قواربهم الخاصة، حسب روايات الآباء البيض، الذين درسوا بناء قوارب تلك الشعوب دراسة مستفيضة. فان كانت الشجرة التي وقع عليها الخيار لتصبح قارباً، طويلة أكثر من اللازم، تقص، وان كانت أقصر من المطلوب يحفر حولها حتى الجذور. وبعد التخلص من الأغصان والقشور والجذور يتم تجويف الجذع بواسطة بلطة أو بواسطة أداة متعددة الأغراض تسمى «تيسو» وتترك عارضتان سميكتان من الخشب في وسطها كمسند للأرجل. وحتى الأشجار المنحنية يمكن تحويل جذوعها إلى قوارب من هذا النوع، فتبدو غالباً غريبة فوق الماء، رغم امكانية توجيهها بالجهة المطلوبة، وعندما يصبح القارب جاهزاً للاستخدام تعلق عليه التمائم التي تعتبر ضماناً له طيلة فترة استخدامه التي قد تزيد عن ثمان سنوات. ويرتبط تدشين القارب الجديد، بنزوله في الماء لأول مرة، بطقوس عديدة تتم أثناءها مناداة أرواح الأسلاف وتوجيه أقسى عبارة التهديد للبشر وللأشباح الذين قد يجرؤون، بنية سيئة، على إلحاق الضرر بالقارب الجديد... أما مناطق شمال أوربا وآسيا فقد عرفت هذه القوارب على الأرجح فيما بعد، وبالتالي لا يمكن اعتبارها بقايا عصر ما قبل التاريخ. ففي كل مستنقعات فنلندا وشمال روسيا الغنية جداً بالبقايا الثقافية القديمة لم يتم العثور ولو على قارب واحد من هذا النوع يعود إلى ما قبل التاريخ.

وقد لاحظ الباحث القديم «ميدندورف» مثل هذا النوع من القوارب في الأنهار السيبيرية التي تصب في بحر الجليد، وأكد أنها صنعت في جنوب الدائرة القطبية، ومن ثم انتقلت إلى الشعوب التي تعيش في الشمال.

وربما كانت قوارب الشعوب البدائية، المصنوعة بكل بساطة من قشور الأشجار، قديمة قدم القوارب المصنوعة من جذع شجرة واحدة، إن لم تكن أقدم منها.

تصنع قبائل «یامانا» في أرض النار والقبائل المجاورة لها، هذه المطايا المائية - كما ذكر الباحث «غوزيده» - من ثلاث قطع من قشور الشجر، مخاطة مع بعضها البعض بشعر من شوارب الحيتان، وغالباً ما تقوم النساء بعملية التجذيف، بينما يمسك الرجل بالرمح أو بالحربة ويقف متأهباً لقتل أية طريدة تظهر له مندفعة بسرعة فائقة. أما الأطفال فيجلسون القرفصاء وسط القارب يقومون على ايقاد النار والحرص على الابقاء عليها مشتعلة وينزحون الماء المتسرب إلى القارب المصنوع بطريقة بدائية سيئة.

تصنع بعض القبائل الافريقية، وبخاصة في السودان الأوسط والشرقي، مطية مائية، ليست الأنواع آنفة الذكر بأحدث منها، تصنع هذه المطية من البابيروس أو من حزم من خشب الفلين. ويتواجد هذان النوعان من القوارب بكثرة في منطقة النيل العليا. ولها نظير في أميركا الجنوبية يستخدمه السكان الأصليون في منطقة بحيرة «تيتيكاكا» يسمى «بالزا».

وما يزال النوع السابق يشكل وسيلة نقل مفضلة على شاطئ «كوروماندل». ويصنع الهنود الحمر في كاليفورنيا وخاصة قبيلة «كاميا» قوارب من هذا النوع من نبات حلفا المستنقعات يتجاوز طول الواحد منها أربعة أمتار ونصف المتر، يمكنها أن تحمل سبعة أشخاص بكل سهولة.

وهناك نوع آخر غريب من هذه القوارب يستخدم للعبور في نهر كولورادو الأسفل ويسمى «كوريتا» وهو عبارة عن سلة مجدولة غير نفاذة للماء مطلية بالقار. وقارب آخر فريد من نوعه أيضاً، يستخدم في منطقة آسام عبارة عن قدر كبير من الفخار دائري الشكل يستخدم للمسافات القصيرة.

كما تعتبر الجلود المخاطة والمملوءة بالهواء أو المشدودة على هيكل من العظام أو الخشب من أقدم المطايا المائية. مثل هذه الجلود المنفوخة كانت - وما تزال إلى حد ما -

مستخدمة في أنهار بلاد ما بين النهرين، وفي النوبة وبابل والهند. وكان ما يسمى «بالقارب الثور» الذي يستخدمه الهنود الحمر في منطقة البراري عبارة عن جلد جاموس مخاط بشكل دائري ومشدود على قاعدة خشبية يبدو كمظلة مفتوحة.

وقد كان القارب الجلدي الكبير، الذي استخدمته شعوب شمال آسيا، بأشرعته المجدولة وعواماته المصنوعة من جلود كلاب البحر المنفوخة، وسيلة مواصلات مفضلة في أوربا في عصر ما قبل التاريخ. وتعتبر القوارب الجلدية التي يستخدمها اللاب آخر بقايا هذا النوع من القوارب. كما اشتهرت من هذه القوارب أنواع معينة يستخدمها الاسكيمو.

أما القارب المصنوع من قشور شجر البتولا لدى الشعوب القطبية فيتميز بالصلابة والمتانة، بحيث لا يقارن به قارب سكان أرض النار البدائي، رغم أنه مصنوع من القشور أيضاً. فالهنود الحمر يصنعونه من قشور شجرة البتولا الكندية أو «بتولا الورق» بمنتهى المهارة. ويعتبر القارب ذو الذراعين انجازاً متميزاً للفن اليدوي البدائي، وبخاصة لأنه مصنوع دون الاستعانة بأية أدوات معدنية أو مسامير.

ويلعب القارب ذو الذراعين «كانو» دوراً هاماً عند الهنود الحمر. لا يقل عن أهمية الدور الذي تلعبه الزحافات، باعتباره وسيلة المواصلات الوحيدة التي تمكنهم من السفر إلى مناطق الصيد البعيدة عبر الممرات المائية الضيقة في المناطق الداخلية من لابرادور.

وغالباً ما يكون لدى الأسرة الواحدة أكثر من قارب من هذا النوع لنقل الفراء في الشتاء والربيع من مناطق الصيد إلى أماكن التجمع والبيع الصيفية، والعودة بها في الخريف إلى أماكن الصيد محملة بالمؤونة.

ولا يمكن إلا لمن رأى عملية صنع واستخدام مثل هذه القوارب بأم عينيه، أن يتصور مدى جمال هذه المطايا المائية، التي يوجهها الهنود الحمر في البحيرات والممرات المائية في منطقة لابرادور.

وربما كانت القوارب ذات الأذرع، التي تصنع بشكل خاص في جزر المحيط الهادي، أشهر المركبات المائية لدى الشعوب البدائية. ففيها يصل فن المصممين البدائيين ذروته.

وبينما يصنع القارب العادي - أي دون أذرع - في جزر سالومون، إلا أن جميع قوارب بقية الجزر في المنطقة نفسها مجهزة بهذه الأذرع، والأذرع هذه عبارة عن «تراكيب» مثبتة بشكل عرضاني على جسم القارب وظيفتها حفظ توازنه.

أما قوارب السفر في بولينيزيا فهي مجهزة من الجانبين بقارب صغير خاص، مركّب على القارب الكبير عوضاً عن أذرع التوازن. وقد جاء هذا النمط من القوارب بالأصل من اندونيسيا. يحمل القارب الصغير عادة كوخاً قائماً بذاته وتاماً من حيث تركيبه ومحتوياته. فيه - من أجل راحة الركاب - جوز هند وأدوات صيد وعدد من اليقطينات المملوءة بالماء، وفيه الموقد بناره المشتعلة. أما القارب الرئيسي فمجهز بأشرعة من ورق «الباندانوس» المجدول، يتخذ في جنوب شرق غينيا الجديدة وفي جزيرة «سانتا كروس» شكل ذيل السنونو المعروف، بينما الأشرعة البولينيزية المثبتة على صارية أو صاريتين فغالباً ما تكون ذات شكل رباعي أو بيضوي. وكمرساة تستخدم اما حجارة كبيرة أو سلال مليئة بالحجارة، كما أن دفة التوجيه معقودة على طرف القارب.

وقد طور سكان هذه الجزر معارف غاية في الأهمية في مجال الملاحة، فلديهم خرائط بحرية يمكن الاعتماد عليها في تحديد اتجاه الرحلات بدقة، كما مكنتهم معرفتهم العجيبة بقضايا أطوار البحر وبخاصة بمسألتي المد والجذر، وبالكواكب والأبراج، من التوغل مبحرين في أعماق البحر بكل أمان. وفي جزر كارولين وجزر مارشال هناك مدارس رسمية للملاحة البحرية أنشأها السكان الأصليون. فالنجم القطبي يحدد الجهة الشمالية والصليب الجنوبي يحدد الجنوب أما الشرق والغرب فيتم تحديدهما بدقة من خلال مجموعة كبيرة من نجوم تحمل أسماء معينة، كما أثبت ذلك الباحث «هامبروخ» في دراساته التي كرسها لفن الملاحة عند سكان جزر المحيط الهادي.

وهكذا أوجدت الشعوب البدائية طرقاً ووسائل لقطع وعبور البر والبحر باستخدام المعطيات الجغرافية والمواد الأولية المتوفرة لها. ونحن المستفيدين من معطيات الحضارة، ونعتبر أنفسنا سادة الطرق والبحار والأنهار ما زلنا - رغم وسائل مواصلاتنا

الحديثة - بعيدين كل البعد عن امكانية الانتقال أو نقل أحمالنا بأنفسنا، ولا يستطيع المسافر المرفه في قطاراتنا وسفننا أن يوجه أو يسيطر حتى على «المعجزة التقنية» التي تحمله.

ومع بداية عصر المواصلات الجوية فقط، بدأت الطرق البرية والبحرية القديمة تفقد شيئاً فشيئاً من أهميتها البالغة. وبطيراننا في السماء اخترعنا البساط السحري، الذي ظل حلماً بالنسبة للمسافر في البراري والقفار.

الهوامش:

١ - أعمدة هرقل عبارة عن جبلين عند مضيق جبل طارق . (المترجم) .

٢- الموكاسين عبارة عن حذاء جلدي خاص بالهنود الحمر في أميركا الشمالية .

٣ - جمع : مفردها نير .

٤ - ويسمى الدرباني : وهو حيوان ثديي من الفصيلة البقرية على غاربه سنام . (قاموس المورد) .

الفصل الثامن

من النقود الصدفيّة حتى دفتر الشيكات

- أقدم أنواع العملات المتداولة. مادتها، والحصول عليها.
تطور وتنوع العملات أو ما أعتبر عملات عند الشعوب.

عندما تهدد الأزمات النقدية - سواء أكانت أزمات تضخم مالي أو نقصاً في كمية العملة المتداولة - أمن الحياة الاقتصادية الرأسمالية، قد يتبادر إلى ذهن رجل عصري أحياناً أن يطرح قناعته، بأن النقود مقياس لقيمة الأشياء، جانباً، ويرغب، من بين ما يرغبه، أن يهجر هذا العالم إلى جزيرة هادئة ومعزولة من جزر المحيط الهادي، ليريح نفسه من عناء المشاكل المالية التي تضغط على حياتنا المعاصرة.

لكن حتى ولو تحققت له هذه الأمنية، علينا أن ندرك أيضاً أن «الشعوب البدائية غير المعقدة» ليست في منأى عن مواجهة مشكلات جمة في مجال القضايا المالية. فمن حيث الاستعمال قلما يوجد فرق بين ورقة نقدية وبين «بيت محارة» جرى العرف على اعتباره معادلاً نقدياً تقاس به قيمة الأشياء. وعندما نكتب شيكاً لدفع حساب معين، قلما نفعل شيئاً يختلف عما يفعله رجل من قبيلة «هوبا» الهندية الحمراء عندما يتناول من حقيبته الجلدية محفظة نقود من الخشب المحفور ليأخذ منها قطعة نقدية، عبارة عن رأس طائر نقار الخشب.

قد تختلف وسائل الدفع في مكان ما عنها في مكان آخر. ولكن الهموم المرتبطة بملكية، أو عدم ملكية المال، تظل واحدة لدى جميع الشعوب. وتأتي بيوت الحلزون وقشور الصدف في طليعة المعادلات النقدية التي تستخدمها الشعوب البدائية في علاقات التبادل والتجارة. ومنذ قرون عديدة تشكل المحارات الملساء، ذات الشكل

الدائري «العملة» الأوسع انتشاراً في العالم كله تقريباً. ويتم الحصول على هذا المحار بالقاء أوراق شجر جوز الهند في الماء ثم اخراجها منه بعد أن تكون المحارات قد تجمعت عليها وتشبثت بها. وما يزال تجار من أمم مختلفة يجمعون وسيلة التداول القديمة هذه، التي تمتد منطقة انتشارها حتى الصين واليابان والهند. وقد جاءت معظم المحارات التي وصلت إلى أوربا من جزر المالديف الواقعة في المحيط الهندي، التي كانت تحت الاحتلال البريطاني، ومن جزيرة «مافيا» الواقعة شرقي افريقيا. فقد وجد ماركو بولو منذ القرن الثالث عشر نقوداً من هذا النوع في مقاطعة «بولومان» الصينية ووصفها بأنها: «قواقع بورسلانية من ذلك النوع الذي كان يستخدم سابقاً في تزيين قلائد الكلاب». ومع مرور الوقت ظهرت معادلات مالية أخرى في موطن الحضارات الراقية. ففي الصين حلّت النقود الفضية والنحاسية، وفي التيبت الفضية، محل القواقع. أما في مناطق أخرى، وخاصة في افريقيا، فما تزال القواقع واسعة الانتشار كمعادل نقدي[1]، تزداد قيمتها كلما ابتعدنا عن الساحل. ففي المناطق الداخلية يمكن للمرء أن يسدد ثمن كافة البضائع والمواد بهذه القواقع، لدرجة أن المبشرين يجمعون التبرعات بهذه «العملات». كما وجد ابن بطوطة، الذي زار مملكة ميله Melle (شمال غرب افريقيا)، نقوداً متداولة عبارة عن قواقع، وقد كانت هذه «العملة» معروفة أيضاً في «الداهومي». كما عثر عليها الرحالة الايطالي «كوداموستو» عام ١٤٥٥ في مملكة «سونغاي» الزنجية الواقعة إلى الجنوب من «تمبوكتو».

كانت القواقع عملة متداولة في غرب افريقيا أيضاً قبل وصول الأوربيين إليها. فقد صاغت قبائل «ايبو»، وهي قبائل سودانية زنجية، نظاماً شيقاً للمدفوعات يقوم على القواقع، يتم بموجبه تسديد قيمة البضائع بالقواقع حسب النظام العشري. بينما أوجدت نظاما اثني عشريا خاصاً لاحصاء القواقع في «وحدات» تضم الواحدة منها ست قواقع. يبلغ ثمن الفأس لدى قبائل «بوبوكا» مائة وخمسين قوقعة. وثمن قطعة من القماش القطني الهندي حوالي ستمائة قوقعة، بينما تباع قطعتان من الصابون الأوربي أو رزمة من الجراد المجفف بمبلغ مائة قوقعة. أما لدى قبائل «باساري» فيبلغ ثمن المرأة خمسة عشر ألف قوقعة بالإضافة إلى بقرة. وهذا ترف مكلف للزوج.

ويمكن الحصول على وعاء فخاري، مصنوع بطريقة فنية، لقاء ثلاثمائة قوقعة، أي ما يعادل خمسين قرشاً. كما يتم تسديد الضرائب والغرامات المالية وثمن المواد الغذائية

وشواهد القبور بهذه العملة. ويمكن أيضاً أن يتعرض المرء للافلاس، كما هو الحال بالنسبة للدولار أو المارك أو الجنيه.

نوع آخر من القواقع اسمه باللاتينية Dentaliun Edulis كان أيضاً وسيلة للتداول عند الهنود الحمر القدماء. كانت النساء تحفر على ضفتي نهر «فانكوفر» بحثاً عن هذه القواقع، التي كان اللون الأبيض اللماع والشكل المتناظر الشبيه بناب الفيل الصغير، يحدد قيمتها.

أما في جزر المحيط الهادي فلم تكن النقود عبارة عن مجرد قواقع فقط، بل كانت أنواع الصدف المتعارف عليها كمعادلات نقدية تتطلب تصنيعاً خاصاً وجمعاً على حبال، بشكل قلادات، تقوم بانتاجها «هيئات مالية» خاصة ومخولة قانونياً.

في دراسته المتميزة حول «أشكال النقود في جزر المحيط الهادي» عالج «هـ. بتري» أشكال النقود هذه معالجة مستفيضة. في ميلانيزيا كانت نقود «الناسا» المشهورة والمعروفة باسم «ديوارا» أو «تامبو» تصنع من قواقع خاصة اسمها Nassa Camelus، ولها حدبة طولها حوالي السنتيمتر.

يقوم السكان الأصليون المنتشرون على ساحل «ناكاناي» بجمع هذه القواقع النفيسة من قاع البحر بواسطة الشباك ثم حفظها في أكواخهم غير عابئين برائحة تعفن القسم اللحمي منها. ويتطلب انتاج نقود «الناسا» هذه مهارة عالية، وهو في الوقت نفسه امتياز لزعيم القبيلة ومحرم على بقية الناس.

وحالما ينقضي موسم رياح المونسوم الجنوبية الغربية، تغادر بعثات جامعي المال بزوارقها ذات الأذرع، شبه جزيرة الغزال وخليج تاليلي والجزر المجاورة، لصيد القواقع الحية التي يطلق عليها السكان الأصليون اسم «بالاتامبو». تبدأ الرحلة باقامة احتفالات دينية لأنهم يعتبرون أن قواقع «ديوارا» أو «تامبو» مقدسة. فعبارة التبريك الأولى التي تقال عندهم عند ولادة طفل هي: «لعلك تصبح كبيراً وقوياً لتتمكن دائماً من السفر إلى «ناكاناي» وتجمع قدراً من «التامبو» وقد تستمر مثل هذه الرحلة شهراً.

وتعتبر ملكية «التامبو»، بالنسبة للسكان الأصليين، أهم حتى من الحياة نفسها ومن الصحة. فكلمة «تامبو» بحد ذاتها تعني «كبير ومقدس» ويمكن للمرء حتى أن يشتري بها الخلود، حيث لا يمكن إلا لأرواح الأغنياء فقط أن تنتقل بعد الموت إلى «ناكاناي» أرض التامبو المقدسة.

ويتم إنتاج النقود بكبس غلاف القوقعة من الجانب السفلي ليدخل في ثقب محفور في قشرة ثمرة جوز هند. أما «حدبة» القوقعة فتبرد بواسطة أداةٍ صدفية حادة، ثم تثقب. وبمرور خيط عبر ثقوب القواقع تتحول هذه إلى قلائد. بعد ذلك ينظف بيت القوقعة جيداً ثم يخضع لعملية تبييض للحصول على اللون الأبيض المنشود. وأخيراً توضع «التامبو» على شكل صفوف فوق قطع من لحاء الشجر لإزالة بقايا البقع الصفراء العالقة عليها، ثم ينتهي بها المطاف على شكل أغصان تعتبر «حبالاً نقدية».

ولأسباب أمنية، لا يكدس من هذا «المال المنقول» في البيوت إلا بمقدار ما يلزم لتسديد النفقات اليومية. فالأغنياء «يودعون» رؤوس أموالهم النقدية في بيت التامبو التابع للمجموعة، وهذا موجود غالباً في أحد الأدغال وتحت حراسة مستمرة، فهو بالتالي عبارة عن خزينة متعارف عليها.

يتم فتل «حبال النقد» هذه على شكل حلقات، تبلغ الواحدة منها حجم اطار السيارة، تغلف بأوراق النخيل وتحزم بخيطان من شجر الروتانغ.

وتضم مثل هذه الحلقة، أو هذا الاكليل الذي يبدو مثل اطار السيارة، حوالي خمسمائة «حبلٍ نقديٍ» طول كل منها ١٨٠ سم.

وتماماً كما هي الحال لدى محبي المال في عصر الحضارة فان شعوب الجزر تحب أيضاً أن تحصي ثرواتها بين حين وآخر. وكثيراً ما يمكن رؤية أصحاب رؤوس الأموال وهم في بيوتهم يحصون ما يملكونه من «حبال النقد» - التي يصعب عليهم الافتراق عنها - قبل أن يودعوها «الخزينة». وتلعب «الديوارا» دوراً هاماً في حياتهم، بحيث قلما يمكن القيام بأي عمل في الحياة دون تبادلها. فبها تسدد ليس فقط قيمة البضائع، بل أيضاً قيمة الأطفال والزوجات (يتراوح سعر الزوجة من عشرة حتى خمسة عشر حبلاً نقدياً). ويقع على كاهل الزوجات عمل دؤوب ومضن ليُكسِبْنَ أزواجَهن أكبر قدر ممكن من الديوارا، وبالتالي ليتمكنوا من زيادة سلطتهم ونفوذهم. وفي أوقات الحروب يتم دفن حبال «التامبو» الثمينة. ويطلق على الغني الذي يملك معظم «حبال النقد» اسم «لولو اوي» أو «باتوان» أي «الزعيم» أو «السيد العظيم» بينما يطلق على الفقراء اسم «لوديان» أي «الشيطان الفقير»، كما ويمكن تسديد القيم المعنوية بالديوارا. فكل جريمة يمكن أن تسوى بدفعة نقدية تتم بها المصالحة، مثلاً «تكلف»

الخيانة الزوجية ثلاثة إلى خمسة حبال نقدية، والسرقة عشرين والقتل خمسين. أما الجريمة العظمى التي قلما يمكن أن تغتفر فهي سرقة «الديوارا» نفسها والتي يُعاقب عليها بغرامة مالية مرتفعة جداً، وقد تسيء جمعيات السكان الأصليين السرية أحياناً استخدام المشاعر الدينية لدى المؤمنين لابتزاز الديوارا منهم. وإذا ما وقعت الحرب فعلى الزعيم أن يدفع للقبائل المجاورة التي تهب للنجدة أيضاً بالديوارا. وقد ارتفعت قيمة المال هنا إلى حد لا يمكن بلوغه حتى في عالمنا المتحضر هذا.

هناك نوع آخر من النقود الصدفية، وهو انتاج آلاف الأقراص المصنوعة من الصدف المعلقة غالباً على حبال يبلغ طول الواحد منها عدة أمتار. وقد كان هذا النوع من النقود يشكل لدى الهنود الحمر في منطقة كاليفورنيا وسيلة دفع ثمن الزوجات. كما استخدم في حالات التبني والدفن واللعب، وحتى في عقد معاهدات السلام، كنقود. وكما هو الأمر لدى سكان جزر المحيط الهادي، يضع الهنود الحمر أيضاً «حبالهم النقدية» على مقاسات جسم الإنسان، مثلاً من طرف الاصبع حتى الكوع، ومن حملة الثدي إلى حملة الثدي الآخر، أو من الكتف إلى الكتف.

ويلبس الهنود الحمر في أميركا الشمالية نقود «الفامبوم» المصنوعة على شكل أقراص بيضاء وبنفسجية صغيرة غالباً على شكل حزام. وتعتبر هذه وثيقة قانونية وبخاصة عند عقد الاتفاقات.

وخلافاً لنقود الديوارا «المقدسة» تقوم غالباً النساء في جزر المحيط الهادي بانتاج «نقود» من أقراص منبسطة من الصدف. وتوجد أشهر «المكاتب النقدية» لوسيلة التداول هذه في جزر «سالومون» وجزر مضيق «بوغينفيل» وجزر «البانكس» وما حولها. وغالباً ما تستبدل حبال أقراص الصدف هذه التي يطلق عليها سكان جزيرة الغزال اسم «بيله»، بحلزون «الناسا» المستخدم في صناعة الديوارا. وعلى شاطئ «بوين» في «بوغينفيل»، كما ذكر «تورنفالد»، يبلغ ثمن الخنزير أو الأرملة من عشرة إلى عشرين «خيطا» (يبلغ طول الخيط حوالي ١,٨٣ متراً) بينما قد يصل ثمن فتاة شابة حتى مائة وخمسين خيطاً من الأقراص الصدفية.

توجد هذه الأقراص بألوان شتى وخاصة الأبيض والأسود والبنفسجي أو - خاصة في جزيرة «بونابه» - الأحمر. ويتم تفتيت الصدف الكبيرة التي تعتبر مادة أولية، إلى

قطع صغيرة تضغط على لوح من الخشب وتصقل من الوجهين بواسطة حجر. بعد ذلك تثقب بمثقب بدائي في حبال صغيرة وتجلخ حوافها لتبدو جميعها بحجم واحد.

وفي جزيرتي «تروك» و«مورتلوك» تصنع هذه الأقراص أحياناً من قشور الفاكهة. كما يصنع سكان جزر «ماريان» حبالاً نقدية جميلة من دروع السلاحف.

وتدل الموجودات الأثرية المكتشفة في قبور تعود إلى عصر ما قبل التاريخ على أن النقود المصنوعة من أقراص الصدف كانت من أقدم العملات، لأن «ممتلكات» برمتها من هذا النوع كانت تدفن مع الميت في قبره. نوع آخر من النقود القيمة يسمى «نقود الخنازير» عبارة عن مركب من أقراص صدفية ومواد أخرى نفيسة كانت تعتبر مقياساً لقيمة الأشياء، خاصة في منطقة «نوي مكلنبورغ». مثل هذه النقود مؤلفة عادة من أقراص صدفية يصل عددها حتى عشرين ألفاً، مربوط بعضها ببعض وبينها خرز بللوري وأسنان الكلاب ويعلق في طرفها السفلي ذيل خنزير أو أكثر. وغالباً ما يستخدم هذا النوع من النقود لشراء الخنازير والنساء. ولكن عند شراء النساء يجب على المشتري أن يدفع علاوة على ذلك حبلين من أسنان الكلاب. وقد خلف لنا الباحث «بيتري» وصفاً لواحدة من هذه القطع يبلغ طولها اثني عشر متراً مؤلفة من حبل مصنوع من أقراص صدفية سوداء وبيضاء ومزينة بقطع «نقدية» كبيرة من قشور الفاكهة معلقة عليه بمسافات منتظمة تفصل بين الواحدة والأخرى، القسم الأوسط منها عبارة عن مربع من شرائط سعف النخيل المجدول، سوداء أم ملونة بالبرتقالي، ومزين على الزوايا بأقراص من الصدف وأسنان الخنزير. وقد علقت على هذا المربع الأشياء التالية: حبل أبيض من الأقراص الصدفية، حبلان متوازيان من الصدف المصفوف بشكل أفقي، حبل أبيض آخر من الأقراص البيضاء أو البرتقالية، درر مصنوعة من قشور جوز الهند، أربعة أسنان كلاب ثم ثمانية حبال أخرى من الصدف، وفي طرفها السفلي علقت صدفة كبيرة وثلاثة أسنان خنزير.

كما تشكل أساور الزند الثمينة المصنوعة في جزر مكرونيزيا وميلانيزيا من قشور القواقع، نوعاً آخر من العملات الصدفية. وقد كتب «بيتري» حول المعادل النقدي لهذه الأساور فقال: ان عشرين اسواراً منها يكفي لشراء كوخ أو قارب. ويدفع سكان جزر «تومليو» اسواراً واحداً لقاء حمولة من طحين لب النخيل أو لقاء طائر كبير من الطيور

المسماة «عصفور الجنة» واسوارين لقاء كلب حراسة، وعشرة أساور لقاء خنزير. وتعتبر الأساور المنقطة بالأصفر أغلى هذه الأنواع. ويتم تصنيعها من الصدف بواسطة آلة تشبه المنشار مؤلفة من قوس خشبي ووتر من قشر الشجر.

أما في جزر كارولين الغربية والوسطى، وبخاصة في جزيرة «بونابة» فتصنع هذه الأساور من قشور الحلزون. وقد عرفت قطع مشابهة لهذه منذ عصور ما قبل التاريخ.

نوع آخر من النقود، انتشر بشكل خاص في جزر الكارولين، يطلق عليه اسم «جار» Jar، مصنوع من الصدف أيضاً. تُجلخ الصدف لتتخذ شكل «المعول» ثم تصقل وتعلق على حبل من ألياف جوز الهند. يعتبر هذا النوع من النقود عملة خاصة بالنساء فقط ويطلق عليه أيضاً اسم «نقود النساء» إذ هناك عملة أخرى خاصة بالرجال، تختلف كلياً عن هذه، مصنوعة من الحجر. تتألف هذه النقود الحجرية المشهورة في جزيرة «ياب»، والمسماة «فاي» من أقراص من مادة الاراغونيت Arago-nit، تشبه حجر الطاحون، وهي نوع من الحجر الكلسي يتم الحصول عليه من جزيرة «بالوا». وللحصول على هذه الأحجار يقوم رجال جزيرة «ياب» برحلات يقطعون بها مئات الأميال. وكما هو الحال بالنسبة لعملة «الديوارا». لا ينظر سكان المناطق التي تتوفر فيها هذه المادة إليها كعملة، بل تتداولها القبائل التي تسكن بعيداً عن مكان توفرها. ويتطلب تكسير قطع «الاراغونيت» الكبيرة عملاً شاقاً ومضنياً، لأنه يتم دون الاستعانة بالأدوات المعدنية. وبعد تكسيرها تشحن قطع الاراغونيت على ألواح خشبية تجرها القوارب إلى جزيرة «ياب».

تصل أبعاد هذه الأقراص الحجرية المستديرة والمسطحة والمثقوبة في الوسط إلى مقاسات هائلة. وتزداد قيمتها كلما كانت كبيرة ورقيقة. من هذه الأحجار ما يبلغ قطره خمسة أمتار!. وربما كان هذا النوع من أضخم العملات المتداولة على سطح الأرض، وتقاس بالشبر.

كان يمكن للمرء عام ١٩٠٠ أن يشتري بحجر من هذا النوع عرضه ثلاثة أشبار كيساً من ليف جوز الهند المجفف Corpe، أو بضائع أخرى بقيمة عشرة دولارات. أما الحجر الأكبر منه فيكفي لتسديد قيمة امرأة أو قارب أو خنزير أو حمولة قارب كبير من مختلف أنواع الفاكهة.

ومما لا شك فيه أن حجم هذه «العملة» الهائل يجعل من الصعب تداولها في المعاملات التجارية اليومية. ولهذا السبب يُنصب حجر «الفاي» بكل بساطة أمام كوخ صاحبه. فإذا ما أراد أن يبيع شيئاً لشخص آخر يعيش بعيداً عنه، يأتي هذا لمجرد التعرف على طبيعة وحالة «قطعة النقد» لأنه يتركها في مكانها. وبذلك يصبح الشخص مالكاً لثروة من هذا النوع موزعة في كافة أنحاء الجزيرة.

وإذا ما كان على أحد سكان جزيرة «ياب» الأصليين أن يدفع ضريبة أو غرامة مالية، يقوم موظفو الدولة بوضع خاتمهم على «ماله» أو يمهرونه بالأحرف الأولى من أسمائهم. وإذا ما انتقلت ملكية هذا «المال» إلى شخص آخر، تُمحى هذه العلامات وتوضع عليها علامات أخرى.

وقد وجدت في الصين والهند الصينية «أحجار مالية» مشابهة تعود للعصر الحجري الحديث، وهذا ما يمدنا بمعلومات عن قدم هذا المعادل النقدي. في جزر أخرى مثل جزيرة «ايزابيل» وجزر هبريد الجديدة كانت النقود على شكل أساور من رخام، يعادل الواحد منها، في نظر السكان الأصليين، رأس إنسان أو خنزير «جيد جداً»، أو شاباً ذا قامة متوسطة.

وفي جنوبي غينيا الجديدة كانت البلطات المصنوعة من الصخور البركانية، تستخدم غالباً في الاحتفالات، عبارة عن معادل نقدي معترف به. وكان التعامل بهذا «النقد» منتشراً من «موروا» غرباً حتى خليج «بابوا»، ويستخدم في شراء الخنازير والمواد الغذائية والقوارب والأراضي، حتى أن الأطباء والسحرة كانوا يتلقون أجورهم بهذه العملة.

وتعتبر «القطع النقدية» المصنوعة من الأحجار الكريمة ونصف الكريمة، من وجهة نظرنا، أثمن الأحجار النقدية. فهي - بسبب ندرتها - تعتبر أكثر من ثمينة، فتستخدم كعملة متعارف عليها، رغم أنها تعتبر في الكثير من بقاع العالم «قطعاً نادراً».

في الصين القديمة استُخدم «اليشب» كنقود في المعاملات التجارية. وفي جزيرة بورنيو شاع استخدام العقيق Achat كنوع من النقود. وفي منطقة البحر الكاريبي - في أميركا الوسطى - استُخدم الحجر الكريم المسمى «نفريت» Nephrit في شراء

العبيد. أما في منطقتي كردفان ودارفور السودانيتين، وفي الهند، فقد لعبت اللآلئ دور العملة المتداولة.

وقد تحدث الباحث «براون» عام ١٦٢٤ عن «لآلئ أسطورية» كان يستخدمها سكان هضبة «أمبوسي» في الكاميرون، يطلقون عليها اسم «أبوغ» ويتداولونها كعملة. وقد بلغت هذه اللآلئ من القيمة بمكان، بحيث كان يمكن شراء إنسان لقاء حفنة أو ثلاث حفنات منها. وتروي أساطير السكان الأصليين أن هذه اللآلئ جاءت من منجم في أرض «بونيا» وأن المنجم قد انهار فيما بعد، فلم يعد بالامكان الحصول على المزيد منها. ففي ذلك تفسير لقيمتها المرتفعة. ولم يكن يُسمح إلا لزعماء القبائل ونسائهم بملكية هذه النقود.

أدخل الباحثون البيض والتجار، اللآلئ الزجاجية الأوربية إلى جميع أنحاء العالم، كعملة متداولة، فأصبحت عملة معترفاً بها بشكل عام في بعض المناطق، بحيث أن أي تغير في الموضة أو الذوق كان يهدد بأزمة حادة في «البورصة». فمن الممكن أن يتحول هندي أحمر من أميركا الجنوبية، جمع ثروته بلآلئ زرقاء، فجأة إلى متسول، إذا ما تحولت الموضة إلى اللآلئ الحمراء، وبالتالي تفقد ثروته قيمتها كلياً، كما حدث لأسهم الشركات حوالي عام ١٩٣٠.

أما أوسع انتشار حققته «نقود» الخرز البللوري فقد كان في افريقيا. وكانت تخضع خضوعاً كبيراً لتغير الموضة، بحيث قامت محاولات عديدة «لاستقرار العملة». ولكن هذه المحاولات اصطدمت بعقبات لا يمكن التغلب عليها نتيجة الادخال المستمر لأنواع جديدة من هذا الخرز. وقد حاول الملك «سونا» ملك أوغندا أن يحرر بلاده من البضاعة الأوربية المستوردة، فأمر ببذر هذه اللآلئ في الحقول، ولكن خيبة أمله بمحصول وفير كانت كبيرة. أما على ساحل ليبريا فقد اعتقد السكان الأصليون أن العملة المتداولة بينهم (خرزات بللورية) قد استخرجها أسلافهم من مناجم خاصة وأنها نبتت في التربة.

وفي جزيرة «بالاو» هناك نوع «مقدس» من التربة معروف باسم «أودوت» كان يعتبر نقداً. وتحفظ هذه العملة فجأة بكل عناية نظراً لندرتها. ومنذ حوالي ستين عاماً[٢] قدر التجار الأجانب قيمة قطعة من هذه العملة بمبلغ أربعة آلاف دولار. ولكن، بسبب ثمنها المرتفع، لم تدخل مجال التداول. وقلما أمكن لغريب أن يطلع عليها، وأكد

«بيتري» أنه كان لهذه العملة «تأثير كبير على مجمل الحياة القبلية للسكان الأصليين».

وهناك نوع آخر من العملات حقق انتشاراً واسعاً، وهو ما يسمى «بالنقد السني» والمؤلف عادة من أسنان الحيوانات النادرة. ولكي تتحول هذه الأسنان إلى نقود يجب أحياناً التدخل في مسار نموها لتتخذ شكلاً معيناً كما هو الحال مثلاً في قواطع الخنزير التي يتداولها الناس كعملة. فعندما تنمو هذه القواطع نمواً جيداً لتؤلف حلقة تامة، تعتبر عملة لها قيمة عالية. وللحصول على هذا الشكل «المثالي» يتم خلع القواطع العليا لصغار الخنازير، فتنمو القواطع السفلى خلال بضع سنوات ورؤوسها نحو الأسفل فيتحقق لهم بذلك الشكل الدائري المطلوب. ولهذا النوع من العملة قيمة عالية خاصة لدى شعوب «البابوا» التي تلبس هذه الحلقات على شكل أساور في المعصم.

أما منطقة انتشار أسنان الكلاب - التي لا يقتصر استخدامها كعملة على غينيا الجديدة، بل يمتد أيضاً إلى الجزء الشمالي من جزر ميلانيزيا - فهي أوسع بكثير. وأنياب الكلاب فقط هي التي تعتبر صالحة كوسيلة تداول نقدي. تصنع حبال من هذه الأنياب وتستخدم لشراء الخنازير والمواد الغذائية والأدوات الفخارية. ويبلغ ثمن المرأة أو الشاب حوالي مائة سن كلب. وفي غينيا الجديدة يشكل هذا النوع من النقود وسيلة تبادل هامة بين مختلف القبائل. وقد ذكر «شميت» أن سكان «نور - بابوا» يصنعون منها أساور يبادلونها في ميناء «دلمان» بالتبغ الذي يبيعونه ثانية لقاء كمية وفيرة من أسنان الكلاب. وبهذه الأنياب يشترون في «فاتام» التربة الحمراء الثمينة التي يشترون بها في «فاسكولين» طحين «الساغو» وسلال الحمل. «ويدفعون» هذه البضائع مرة أخرى ثمن أدوات فخارية تشتريها قبائل «نور - بابوا» بقلادات طويلة مصنوعة من أسنان الكلاب.

وهناك في غينيا الجديدة نوع آخر من النقود مصنوع من أسنان الكنغورو والأوبوسوم[٣]. بينما تُعتبر أسنان الوطواط والدلفين عملة قيمة في «بوغنفيل الشمالية» وغيرها من الجزر. وفي «سان كريستوبال» و«مالانتا» تعتبر أسنان الدلفين عملة شائعة. ويفضل سكان جزر «بانكس» الأصليون الأساور المصنوعة من قواطع الخنزير، بينما يصنع سكان جزر «فيشي» و«جيلبرت» عملتهم من أسنان الحيتان.

وقد اقتنع أحد الباحثين الأوربيين بالقيمة النسبية لهذه النقود المصنوعة من الأسنان عندما عرضت عليه قبيلة «الهوسا» الافريقية طناً من العاج لقاء بضعة مناديل قطنية قيمتها خمسون سنتاً.

ولا تقتصر هذه العملات «الحيوانية» على الأسنان. فالريش أيضاً من أهم أنواع النقود المنتشرة بشكل خاص في جزر المحيط الهادي. ففي جزيرة «سانتا كروس» يُستخدم الريش المثبت على قطع من الشريط النسيجي، كقطع نقدية صغيرة، بينما الثروات الضخمة مكدسة على شكل لفافات كبيرة من المال. وكل لفافة من هذا النوع تضم حوالي ألفي قطعة «نقدية» من الريش، قيمة كل منها تعادل ثمن فتاة أو خنزيرين. وتُلف هذه اللفافات عادة بكل عناية بقماش مصنوع من لحاء الشجر ومعلقة فوق الموقد لوقايتها من الحشرات. ومن باب المباهاة تعرض هذه اللفائف أمام الزائرين الكبار. وتورث هذه اللفائف من جيل إلى جيل لكنها تفقد قيمتها إذا ما استُهلك الريش الأحمر الموجود فيها. ويقوم أغنياء القبيلة المتميزون ببناء «خزائن مالية» خاصة لحفظ لفافات المال الثمينة. وغالباً ما تُشاد هذه «الخزائن» في مكان خفي في الاحراج. أما في المناسبات الاحتفالية فتعلق ثروات القبيلة كلها على أعمدة من الخيزران وسط مظاهر احتفالية خاصة. ويتطلب صنع لفافة واحدة من هذه اللفافات قتل عدة مئات من الطيور، وهذا يفسر القيمة العالية لمثل هذا المال. وفي هذه الحالة يفضل ريش الحمام وعصافير الجنة وبشكل خاص الريش الناعم الذي يحيط بعيون الدجاج الذي يحظى بقيمة عالية. أما صنع هذا «المال» فيقع على عاتق النساء.

وفي جزر «بانكس» يقوم السكان بصناعة قلائد من الريش المستخدم كعملة مؤلفة غالباً من خصل من الريش الناعم الأحمر والأبيض. وفي «سانتا كروس» يتمنطق الناس بأحزمة مصنوعة من هذا الريش النقدي.

أما استخدام الريش كنقود وكزينة فقد بلغ ذروته في جزر بولينيزيا. وقد أكد «كوك» منذ عام ١٧٧٧ أن ريش الببغاء الأصفر والأحمر يعتبر في هذه المنطقة عملة قيمة جداً. ويقوم سكان هذه الجزر بتزيين أصنامهم وصور آلهتهم بكميات وافرة من الريش. وتعتبر معاطف زعمائهم المشهورة والمنسوجة بشكل فني من الريش الملون، من أثمن المقتنيات الموجودة في المتاحف. وينظر السكان الأصليون في جزر «ويلومز»

والجزر الفرنسية، إلى الريش وعظام أرداف حيوان «الكاسوار» على أنها نقود ذات قيمة عالية، نظراً لعدم وجود هذا الحيوان في هذه الجزر.

حتى الجماجم تعتبرها بعض الشعوب عملة نفيسة. فجماجم البقر في «أسام» والجماجم الآدمية للقناصين في بورنيو - أندونيسيا - تعتبر «نقوداً» نفيسة إلى أبعد الحدود.

من أغرب أنواع العملات، وبالتالي أكثرها انتشاراً عند الشعوب البدائية تأتي «النقود» التي يمكن تناولها. فالملح، وغالباً الملح الصخري الذي يتداوله الناس على شكل قوالب، يعتبر في افريقيا أكثر العملات انتشاراً. وتستخدم قبيلة «بانغفة» أيضاً نقوداً تعرف باسم «كانك» مؤلفة من لفافات من نبات الماديوك المفروم. وليس هناك من سلطة صحية تمنع سكان «نياس» الأصليين من تداول لحم الخنزير المجفف كقطع نقدية. وفي المكسيك القديمة استُخدم حب الكاكاو كأصغر الوحدات النقدية، بينما عرفت عدة مقاطعات صينية عملة مصنوعة من ورق الشاي عبارة عن أوراق نبات الشاي ملفوفة ومضغوطة على شكل قوالب. كما كانت حبات الأرز عبارة عن وحدات نقدية صغيرة، وبخاصة في سومطرة - اندونيسيا - حتى آن الرواتب والضرائب كانت تُدفع بحبات الأرز في الكثير من المناطق الآسيوية. في بعض المناطق الشرقية من الهند انتشر نبات «زاغو»، وفي جزر «نيكوبار» استُخدم الجوز الصغير، المرتب على شكل زوجي، وفي التيبت استخدم الجوز العادي، وكلها كانت أنواعاً متداولة من العملات. حتى أن قشور الموز الجافة استخدمت كنقود في بعض مناطق العالم، وبشكل خاص في جزر «كارولين». أما القبائل الرعوية الاسكندينافية «اللاب» فقد جعلت من الجبنة عملة للتبادل، مرغوباً فيها.

كما كان للمواد المنبهة قيمة العملة. ففي «نياس» ولدى سكان شرقي سيبيريا الأصليين شاع تداول أوراق التبغ. وفي غرب افريقيا أيضاً كان التجار يسددون قيمة ما يشترونه بهذه المادة. وقد روى الباحث «ألبرت شفايتسر» أن ورقة تبغ في «لامبرانس» تعادل قيمة موزتين، وأن معظم الأعمال والخدمات تُدفع بالتبغ. سبع ورقات منه تشكل «رأساً من التبغ» تعادل قيمته حوالي سبعة فرنكات فرنسية. وبناء على هذه التقاليد التجارية أسدى «ألبرت شفايتسر» نصائح مفيدة لجميع الرحالة الذين يريدون التوجه نحو افريقيا بقوله:

«عندما يقوم أحد برحلة، عليه أن لا يصطحب معه نقوداً لتأمين طعام الجذافين، انما يكفيه صندوق من ورق التبغ، ولكي لا يقوم الزنوج بنهب هذا الصندوق القيم أثناء الرحلة، يجب أن يجلس عليه طيلة الرحلة بالقارب.

وهذا التبغ المستخدم في التجارة القائمة على التبادل، أقوى بكثير من ذلك التبغ الذي يستخدمه الأوربيون. فأثناء رحلة القارب ينتقل الغليون من فم إلى فم. ومن يريد أن يكون سفره مريحاً، يجب أن يعِد طاقم قاربه بورقتي تبغ لكل منهم. وبذلك يضمن وصوله مبكراً ساعة أو ساعتين».

أما الأخطر من ذلك فهو: الأفيون الذي كان ذات مرة متداولاً كعملة في مقاطعة «هاي نان» الصينية، ثم المشروبات الكحولية، التي لا تقل عنه ضرراً، كانت رائجة أيضاً كعملة على ساحل «لوانغو» حيث يتم الدفع بالكأس أو بالزجاجة، حسب طبيعة ومقدار المبلغ. خلال موسم الامطار يبلغ ثمن البيضة هناك نصف كأس من مشروب «الروم». يرتفع هذا السعر إلى كأس خلال موسم الجفاف. ويمكن لقاء ثلاث زجاجات من «الروم» الحصول على عنزة أو قطعة من النسيج القطني. وتسدد قبائل «أينو» أثمان بضائعها بمشروب مستخرج من الأرز، تستورده من اليابان.

أما خطورة تداول هذا النوع من «النقد» الكحولي فهي أنه يدفع المالك - بكل معنى الكلمة - إلى تبديد ثروته في السكر.

عندما بدأت تجارة المطاط بالازدهار، اتخذت مجموعة من الشعوب البدائية من الكرات المطاطية عملة لها. وقد بلغ الأمر أحياناً في «توغو» ان استطاعت هذه العملة الجديدة أن تحل محل العملات المصنوعة من الأصداف. أما مفهومنا المعاصر عن النقود، فهو أقرب إلى أنواع العملات المعدنية لدى الشعوب البدائية، وبخاصة في افريقيا التي امتزجت على أرضها ثقافات مختلفة، فأدى هذا المزج إلى إدخال أنواع عديدة من العملات. ولكن هذه العملات المعدنية لم تتخذ الشكل الذي تتخذه عملاتنا المعدنية المعاصرة، بل كانت غالباً عبارة عن أسلحة ومعدات مختلفة.

وقد أطلق السكان المحليون على منطقة «تابورا» في شرق افريقيا اسم: «أونيا نيميه» أي «أرض الفأس» لأن سكان منطقة «أوسينديا» سلموا - قبل حوالي ستين عاماً ١٥٠ ألف فأس حديدية كانوا يستخدمونها كعملة. يضاف إلى هذه العملة أيضاً

السكاكين والبنادق. وفي عام ١٩٠٦ ثبتت قبيلة «بانغفة» أسعار جميع موادها الأساسية. ورغم أن الرمح الحديدي ظل عملتها الرئيسية، فقد دخلت عليها عملات أخرى، نتيجة دخول عناصر ثقافية واقتصادية، مما جعل تحويل أثمان بضائعها من عملتنا إلى عملتهم أمراً في غاية الصعوبة.

وذكر «تيسمان» عام ١٩٢٦ أنه كان على الرجل الراغب بالزواج من قبيلة «بانغفة» أن يدفع لعروسه ثمن المواد التالية:

العدد	المادة	السعر	
٦٠٠٠	رمح	٤٢٠	مارك
١٢	بندقية	١٢٠	مارك
٢	برميل بارود	٤	مارك
٧٠	أنياب	٧٠	مارك
٢	غنم	٥٠	مارك
٢	طنجرة حديد	٨	مارك
١٠	منديل	٤٠	مارك
٥	قبعة	١٠	مارك
١٣	قدراً من الملح	٢٦	مارك
٢	سكين	٢	مارك
٢	رزمة خرز	٢	مارك
٢	غليون تبغ	٠,٥٠	مارك
٢	حجر صوان	٠,٥٠	مارك
١	قبعة مليئة بالأزرار	٠,٥٠	مارك
المجموع		٧٥٣,٥٠	مارك

وهذا مبلغ يُحكم بموجبه على بعض شباب القبيلة بعزوبية طويلة. ولم يكن سكان افريقيا الأصليون يوماً مرتبطين بالاستيراد من أوربا لصناعة نقودهم المعدنية، لأنهم عرفوا صهر الحديد والتعدين قبل دخول الأوربيين إلى مناطقهم بوقت طويل. أما الشكل المحبب للعملة الحديدية فهو الأسلحة والأدوات التقليدية الأصلية التي تصنع نماذج مصغرة عنها كعملة للتداول، فعلى سبيل المثال اتخذ شكل العملة الحديدية لدى قبيلة «بانغفه» شكل الفؤوس الصغيرة التي تثبت بشكل أدراج على حبال من الليف، حزمتان من هذا النوع يبلغ ثمنها حوالي ربع دولار. ولكن هذا النوع من العملة أصبح نادراً عندما حلت محله فيما بعد عملة عبارة عن رؤوس رماح حديدية تتعلق قيمتها بحجمها ونوعيتها. ويبلغ ثمن واحدة من هذه الرماح حوالي سنتين أمريكيين. أما الكبيرة منها فقد يصل ثمنها إلى ٢٥ سنتاً ويستخدم هذا المال بالدرجة الأولى لشراء الزوجات. ويبلغ سعر سن فيل حوالي ٢٠٠ رأس رمح، وسعر ما يسمى بعصفور الكركدن عشرة، وجرذ كبير عشرة أيضاً، وسعر الغليون سنتاً واحداً فقط، وملعقة حساء سنتين، وبندقية أوربية من مائة إلى مائتي سنتاً. وشاربا الفهد الأرقط Leopard عشرة سنتات.

كما تجري قبائل «أوسانداي» في شرق افريقيا حساباتها بهذه العملة. وتفضل قبائل البانتو الغربية رؤوس الرماح والفؤوس. وتفضل قبائل «باسونغو» سكاكين القذف كعملة لها، وتشتري قبائل «البغمين» الافريقية بضائعها وحاجاتها من الشعوب المجاورة بالسكاكين الحديدية ورؤوس الرماح. ومن الجدير بالذكر أن هذه القبائل تمارس ما يسمى بالتجارة الصامتة، حيث يتفق البائع والشاري على مكان معين يضعان فيه البضائع وأثمانها دون أن يلتقي أحدهما بالآخر.

وكذلك استخدمت بعض القبائل أنواعاً من المسامير والابر كوسائل تداول نقدي. كما استخدمت قبائل من الهنود الحمر في كاليفورنيا كرات الدولوميت والماغينزيت كعملات.

واستخدم سكان أفريقيا الأصليون أيضاً عملة أوربية قديمة، وهي ما يطلق عليها اسم «ماريا تيريزا» كوسيلة دفع ذات قيمة عالية. جاءت هذه العملة من الشرق الأوسط والسودان إلى أعماق القارة السوداء وانتشرت في شمال أفريقيا وغرب الجزيرة العربية، ثم انتقلت إلى ما وراء خط الاستواء جنوباً، وأصبحت مرغوبة جداً عند الأفارقة، لأن تمثالاً نصفياً للامبراطورة النمساوية نقش على أجد وجهيها. وهذا ما أثار

بشكل خاص إعجاب السكان الأصليين، فالنحافة - كتعبير عن الجمال - لا تنسجم أبداً مع المثل الافريقية.

وهناك عملات أجنبية أخرى لاقت تقبلاً لدى الشعوب البدائية، من أهمها الدولار الفضي المكسيكي الذي لاقى انتشاراً واسعاً في جميع أنحاء الشرق الأقصى كمعادل نقدي. وكذلك الروبية الهندية التي كانت قيمتها مرتفعة في شرق افريقيا وفي منطقة التيبت. وفي الحبشة استخدمت فوارغ الطلقات النارية كقطع عملة صغيرة.

أما العملة النفيسة التي انتشرت في الكونغو فقد كانت سبائك نحاسية على شكل صلبان اندرياس. وفي بحيرة ستانلي انتشر تداول الحلقات النحاسية الثقيلة ذات الشكل نصف الدائري. فكانت نصف الدوائر النحاسية هذه تحمل زخارف جميلة جداً، وبخاصة في غرب افريقيا. وكانت هذه أهم عملة متداولة في مملكة «بنين» حيث عُرضت غالباً كـ «مانيلات»، أو كرسوم زخرفية على اللوحات البرونزية الشهيرة التي تعود إلى القرنين السادس عشر أو السابع عشر.

وفي الصين القديمة عُرفت أيضاً أنواع من العملات المعدنية من مختلف الأشكال والمواد. فقد كان لأقدم عملة معدنية صينية شكل المعول البرونزي الرقيق بتجويف داخلي. ومنذ حوالي القرن الثالث قبل الميلاد أنتجت الصين عملة برونزية لها شكل الجرس. وقد تميزت العملات «الرنانة» أو كما تسمى «كياو تسين» بصنعة جيدة وزخرفة جميلة، وأطلق عليها احياناً اسم «عملة القمر» أو «الجسور». وتذكرنا الكلمة الصينية «تسين»، التي تعبر عن المال، وتعني حرفياً «الفأس»، بأقدم أشكال النقود المعدنية التي درج تداولها هناك.

في جنوب شرق آسيا كان للصحون المعدنية ذات الحواف السميكة قيمة النقد. فقد كانت الغرامات النقدية الخاصة تسدد بها، وكذلك ثمن الزوجات، كما استخدمت بعض قبائل غرب الهند الطبول بدلاً من تلك كعملة.

وكانت خواتم من النحاس الأصفر عملة رائجة لدى سكان جزيرة سيليبس الأصليين. والخرز الحديدي لدى قبائل البانتو في أفريقيا، كما اتخذت قبائل «باسونغو» من قطع الزينة المصنوعة من النحاس الأحمر والخلائط النحاسية الأخرى عملة لها.

وكانت ألواح النحاس الأحمر المزينة، ذات الأشكال الفريدة، عملة تتداولها قبائل «الهايدا» في أميركا الشمالية، وتحيطها بهالة من القدسية الدينية، كما هو الحال بالنسبة «للديوارا» في جزر المحيط الهادي.

كذلك الأمر كانت الصفائح النحاسية تلك عملة متداولة لدى قبائل الهنود الحمر المسماة «كواكيوتل».

أما فيما يخص بريق الذهب فقلما استطاع شعب من شعوب الأرض أن يتنصل منه. ورغم أن الشعوب البدائية لم تصنع عملة ذهبية بمفهومنا الحالي، إلا أن السبائك الذهبية ووحدات من غبار الذهب كانت معروفة جيداً كوسيلة للتداول لدى شعوب كبيرة. ويخضع تقدير قيمة الذهب لتقلبات حادة. ففي بعض المناطق تفضل الفضة في العلاقات اليومية، بينما يقتصر استخدام الذهب على شراء الأشياء النفيسة بشكل خاص أو الفخمة، وعلى ساحل الذهب الافريقي وعند شعب الاشانتي في السودان، يوزن غبار الذهب، المنتشر هناك كوسيلة تداول بواسطة أوزان الذهب المشهورة هناك على هيئة حيوانات غريبة ومواد مستخدمة في الاستعمال اليومي.

وكذلك في الصين والهند الصينية لاقت العملات المصنوعة من غبار الذهب، تداولاً، وهذه كانت مستخدمة بالدرجة الأولى في المكسيك القديمة - أرض الذهب المشهورة - كوسيلة دفع.

ولم تعد الحضارات الحديثة تستخدم السبائك الذهبية عادة كمعادل نقدي منتشر، بل تستخدم قطعاً نقدية مصكوكة. وحتى هذه فقد اختفت من التداول. وحيث يمكن أن تظهر واحدة من القطع الذهبية المفقودة، سواء أكان ذلك في مدننا الحديثة أم في الصحراء الافريقية، فان قيمتها معترف بها وتحظى بالاعجاب. وقد يتساءل المرء أين ذهبت قطع الذهب الأوربية والأمريكية، لكنه يجدها الآن في واحات الصحراء الغربية حيث تقوم فتيات الرقص في قبيلة «ولدنايل» بعرض قطعها الذهبية على بدو الصحراء. ففي أكواخهن الضيقة والمبنية في اللبن المجفف تعزف تلك الراقصات على أوتار أعوادهن، وعندما يرفعن أذرعهن تظهر عليها سلاسل كاملة من القطع الذهبية من جميع البلدان، حصلن عليها من أصدقائهن وزبائنهن.

وكما هو الحال لدى الأمم «المتحضرة» التي لا تسمح بضرب عملة البلاد إلا كعملة حكومية، لم تسمح الشعوب البدائية غالباً إلا لمجموعة مختارة من الرجال أو

النساء بانتاج عملاتها. ففي افريقيا يكون الحداد غالباً هو الشخص الوحيد المخول بضرب النقود، وهذا ما يفسر مركزه القوي والسامي في العديد من القبائل. وفي «كورنتجي» (جزيرة سومطرة) يعطى تفويض لرجلين بصك النقود على شكل حلقات من النحاس الأحمر والأصفر. وهؤلاء يحصلون على لقبي الشرف «غافاي شانانغ» و«باغافاي راشا» يورثانهما لابنائهما. أما العملة الورقية التي تستخدمها الأمم المتحضرة بالإضافة إلى العملة المعدنية، فلها أيضاً ما يوازيها في العالم البدائي. فبينما يعود أصل النقود المعدنية الحديثة إلى أدوات وسبائك معدنية، كانت تستخدمها الشعوب البدائية كنقود، تطورت النقود الورقية عن نقود من المنسوجات والحصر والجلد سبق أن تداولها كثير من الشعوب البدائية، ففي جزر «ساموا» وجنوب شرق ميلانيزيا كانت الحصر المنسوجة نسجاً ناعماً تستخدم كمعادل نقدي.

كما عُرفت في جزيرة «ياب» نقود من الحصر. لكنها كانت أكثر خشونة من تلك التي في ميلانيزيا. وكانت هذه النقود - الحصر - تطوى وتحزم بحبال من الليف.

أما لدى الهنود الحمر في أميركا الشمالية فقد كان للنقود، المصنوعة على شكل أغطية للنوم، قيمة شرائية كبيرة. وما تزال حتى الآن تستخدم كنقود في مناسبات معينة مثل «رقصات الهدايا» لدى قبائل «شيبيقا» وعند دفع الرسوم المطلوب تسديدها عند القبول في الجمعيات الطبية.

كما كانت جلود كلاب الماء تشكل وحدات نقدية معترفاً بها لدى العديد من قبائل الهنود الحمر في أميركا الشمالية، بينما كانت القبائل الجنوبية تستخدم غالباً فرو الدب الاميركي «راكون» وفرو الوعل كمعادل نقدي، وفي المناطق التي تستخدم فيها مثل هذه النقود كانت غالباً تقبل مختلف أنواع الأقمشة كوسيلة للدفع.

كما يمكن اعتبار بيع الفرو السنوي، الذي يتم مصحوباً بطقوس مقدسة عند هنود منطقة لابرادور تقليداً من تقاليد تداول «نقود الفرو» حيث يقوم هؤلاء السكان صيفاً بتقديم فرو الحيوانات التي اصطادوها في الشتاء لفرع شركة «هيدسونزبي» ويأخذون بدلاً منها المؤونة اللازمة للشتاء القادم. وحتى وقت قريب نسبياً كانت قيمة حزمات الفرو التي يأتي بها الهنود الحمر تقدر بما يسمى بـ «فرو القندس» أو «فرو كلاب البحر»، وهذا من بقايا عصر «نقود فرو كلاب البحر» التي استخدمتها الشركة آنفة الذكر في تجارتها مع الهنود الحمر. ومثل هذه النقود تمثل قيمة قطعة فرو ممتازة من هذا النوع.

كما كانت عملات من الكتان أو القطن متداولة ومعترفاً بها في مناطق السودان وغينيا العليا. أما في التيبت فقد كان الـ «تشاداك» وهو نسيج من الحرير، العملة الوحيدة التي يتم بها تسديد الحسابات. وكذلك في اليابان القديمة كان القضاة، بشكل خاص، يتقاضون أجورهم بالقماش. وهذه العادة معروفة أيضاً لجميع قراء ألف ليلة وليلة. وكما هو الحال بالنسبة للخرزات الزجاجية، كانت الأقمشة، التي لها قيمة النقد، تخضع لتقلبات الموضة، وبالتالي لتقلبات القيمة. وبينما يكون هناك إقبال على نوع معين يُعرض الناس عن نوع آخر. ويعرف سكان «شمال سينيغاميا» مناديلهم (ذات اللون الأزرق الغامق، والمصنوعة من القطن الهندي ويستخدمونها كعملة) من رائحتها ويرفضون كل تقليد لها ويعتبرونه تزويراً.

خطوة أخرى على طريق تطوير العملات الورقية تتمثل في الأختام الرسمية المهورة على «الحصر» التي تقبلها الدوائر الإدارية الأوربية كنوع من العملة، كما حدث مثلاً في أنغولا من قبل البرتغاليين الذين قبلوا هذه الحصر المهورة بالأختام كعملة قانونية وجمعوها عند جباية الضرائب كعملة لها كامل القيمة.

ولم يكن بين هذا النقد المصنوع من الألياف المجدولة، والعملات الورقية الحقيقية التي تعتبر العملة الرئيسية في العالم المتحضر سوى خطوة قصيرة. فمنذ القرن الثالث عشر عثر «ماركوبولو» على عملة ورقية متداولة لدى الخان الكبير. وهذه العملة مؤلفة من ألياف شجر التوت. وقد ذكر عنها ما يلي:

«تصنع وتعامل جميع هذه الأوراق علناً وبعناية فائقة وكأنها فضة أو ذهب ذائب، لأن كل قطعة ورقية منها يجب أن تمهر، وليس فقط بالاسم، وإنما أيضاً بالخاتم الرسمي لهيئة من الموظفين المعينين خصيصاً لهذا الغرض. وبعد أن يوضع الاسم والتوقيع الرسميان على ورقة النقد يأتي المسؤول الأعلى عن النقد، والمكلف من قبل صاحب الجلالة، ويغمس خاتمه باللون الأحمر ويمهر به أوراق النقد. وبذلك تتحول هذه الأوراق إلى نقود قانونية. وكل مزور يحاول تقليدها يعاقب معاقبة المجرم الخطير».

صكت في الصين عملات غريبة الشكل من الجلد أثناء عصر «هان» لكنها سرعان ما استبدلت فيما بعد بـ «بونات» على شكل نقود تشبه إلى حد ما بونات اللعب التي يستخدمها اللاعبون ويبدلونها بنقود حقيقية. وما يزال في الصين مثل هذه العملة

البديلة مصنوعة من الفخار، والبورسلان. وفي احتفالات الدفن الصينية كانت تحرق هذه النقود رمزياً لخداع الأرواح الساعية نحو المال، وكأنهم بذلك أحرقوا أوراق النقد الحقيقية. وقد أصدرت شركات حافلات النقل الداخلي الأوربية في أميركا الجنوبية نماذج لأوراق نقدية تستخدم كبطاقات ركوب. لكن السكان الأصليين استخدموها كعملة. وككل شيء هام للحياة، كانت أنواع النقد القديمة محاطة بهالة من الأسطورة تخلق علاقة بين المعادل وبين الآلهة والأسلاف وأرواح الطبيعة. ويساهم هذا الاعتقاد في رفع قيمة العملة ويحميها في الوقت نفسه من قبضة اللصوص.

وبينما لا تتعدى عقوبة اللص «العصري»، الذي يرتكب جريمة السطو على بنك، مجرد ايداعه السجن، كانت اللعنة وسطوة الالهة تحلان على زميله البدائي. فنتيجة لهذه العقوبة «الأبدية» كانت سرقة الأموال عند معظم الشعوب البدائية تكاد تكون غير واردة على الإطلاق.

اعتقد سكان جزر «باباو» - مثلهم مثل قبائل أخرى عديدة - ان عملتهم جاءت من أصل سماوي، خلقتها طيور وأسماك خرافية، ووضعتها على شطآن جزر محاطة بالأسرار. ولذلك فكلما انتقلت قطعة من النقد من ملكية شخص إلى ملكية شخص آخر يترتب على ذلك دفع ضريبة صغيرة وذلك «لتهدئة مشاعر القطعة النقدية».

وكانت بعض العملات، سواء المعدنية منها أم الورقية، تعتبر تمائم. فكثير من النساء اللواتي يَحْجُجْنَ إلى مكة - كعبة المسلمين - يحملن تمائم لجلب الحظ، عبارة عن قطعة ذهبية قديمة تحمل على وجهيها صورة المسيح والقديس مرقص.

وفي التيبت استخدمت الروبيات الهندية على الشاكلة نفسها، مما ساهم في زيادة شهرة هذه النقود، لأن صورة الملكة فكتوريا - المنقوشة عليها - بدت تشبه صورة الدالاي لاما.

وقد أطلق على ألواح النقود النحاسية «المقدسة» التي سبق ذكرها لدى بعض الهنود الحمر في أميركا الشمالية أسماء خاصة، وكانت تحفظ في «بيت مخصص لها»، حيث يقدم الغذاء لها يومياً وبصورة منتظمة. وقد حرم على النساء تحريماً قطعياً دخول هذه «البنوك» المقدسة. ويعتقد السكان الأصليون أن الرجل الذي يسكن القمر قد أرسل هذه النقود النحاسية هدية لبني قومه.

وترى قبائل أخرى أن هذا المال هبة من زعيم قوي يسكن قصراً في قاع البحر.

ولا يقتصر وجود المقترين والمبذرين على العالم المتحضر، بل كان هناك مثل هؤلاء أيضاً في العالم البدائي. فإما أن يبدد رجل من «ميلانيزيا» مثلاً ثروته بكل حماقة وتهور، وإما أن يودعها بكل حرص في بيت المال المحروس في مجتمع القرية. ويصعب على مالك «الديوارا» التخلي ببساطة عن ماله الذي جمعه بشق النفس، كما هو الحال في مجتمعنا المعاصر. فالحرص على المال واحد في جميع بقاع العالم، سواء أكان رجلاً من قبائل (سالاغا) يحمل معه عشرين ألف قوقعة من «الكاوري» كقطع نقدية صغيرة في كيسه المصنوع من الألياف، أو رجلاً من «بانغفه» يعلق بزنده نقوده الحديدية في حقائب مجدولة، أو رجلاً من الحبشة يسحب «نقوده»، وهي عبارة عن طلقات فارغة من حزام طلقات أوربي. وكذلك من السهل جداً لرجل افريقي من قبائل «باساري» أن يخسر ثروته وممتلكاته في لعب الحظ عندما تسقط قطعة الكاوري التي يلقي بها في الهواء على الوجه الذي لا يريده، كما هو الحال في أندية القمار في مونت كارلو عندما تقوم جرافة عامل القمار بتحويل المبالغ إلى البنك.

حتى الأموات في قبورهم ليسوا بعيدين عن متناول دائنيهم. إذ يقوم أقرباء المتوفى لدى قبائل «ايفه» الافريقية بتغطية جثمانه «بالكاوري» ويطلبون من الدائنين أن يأخذ كل منهم المبلغ المدين به للمتوفى. وبشكل خاص تنهش الضرائب ملكية الأشخاص أينما كانوا وحيثا حلوا. ففي «بورنو» يجب على كل ذكر من السكان أن يدفع ألف صدفة كضريبة وعن كل ثور من ثيران النتل يجب دفع ضريبة مقدارها ألف صدفة. وعن كل عبد يجب دفع ضريبة رفاهية مقدارها ألفا صدفة.

ويمكن القول بأن لكل منطقة تقريباً عبقريتها المالية الخاصة. فملك «ناساكاما» الافريقي باع أرضه لقاء معاش سنوي مقداره ٣٠٠ ألف كاوري للشركة الافريقية المحدودة. أما أذكى المضاربين فيضاربون بعملات مختلفة، وهكذا فقد وجدت أيضاً في العالم البدائي عملات صعبة ورجال مال في غاية الدهاء والمكر. ففي عام ١٨٦٠ بلغ الذكاء بأحد رجال قبائل الاشانتي (في جنوب السودان) أن باع جميع ممتلكاته من «الكاوري» واشترى بها الدولار، بما يعادل ٨٥ حبلاً من المال لقاء الدولار الواحد. انتظر رجل المال هذا مدة ست وثلاثين سنة حتى أصبح ثمن شراء ٢٦٠ حبلاً من

الكاوري دولاراً واحداً، فاستبدل دولاراته ثانية فأصبح بهذه العملية أغنى رجل في قبيلته. وفي منطقة كوردفان في السودان اعتمدت عام ١٨٢٠ قطعة النقد الحديدية التي كانت تعرف باسم «حشاش» كعملة رسمية، فأصبح بعض المضاربين الماليين بذلك من كبار الأغنياء.

وفي منطقة بحيرة «سولو» ثبت السلطان المحلي القيمة المالية للأقمشة القطنية التي كانت متداولة تداول العملة، فظلت قيمتها ثابتة بغض النظر عن زيادة الواردات أو نقصها.

وإذا ما هدد تغير الموضة أو ادخال معادلات جديدة بشكل مفرط، الاستقرار الاقتصادي لقبيلة من القبائل، فلا يمكن انقاذ ممتلكات السكان إلا بسياسة نقدية حكيمة. وقد حدث ذلك مثلاً عام ١٨٤٠ عندما أعلن سلطان «بورنو» عمر، عن تبني الدرهم الذي يحمل صورة ماريا تيريزا والدولار الاسباني كعملات رسمية من الفئات ذات القيمة العالية، واعتبر الكاوري قطعاً نقدية صغيرة - وبالتالي حد من أخطار التضخم التي أفضت إليها «أنواع النقود الثانوية».

كما ويمكن للانكماش المالي (قلة النقد) أن يشكل خطراً جدياً على التوازن الاقتصادي لشعب من الشعوب. وهناك مثال واضح وشيق على ذلك من الحرب العالمية الثانية مأخوذ من التقارير الهولندية الرسمية جاء فيه: «بدأ الاندونيسيون في هذه المنطقة المترامية يعتبرون أن لا قيمة للذهب والفضة، لأن الصدف البحرية الملونة الجميلة التي تستورد من ممرات جبلية خطرة، هي العملة المعترف بها من قبلهم. وبما أن هذه الصدف قابلة للكسر، فمن المفروض أن يعبأ المخزون المالي من هذه المادة بين فترة وأخرى. وكانت الشواطئ التي تتوفر عليها هذه الصدف الخاصة في أيدي اليابانيين. ومن هنا نشأت وتطورت حالة خطيرة. فالمنطقة كلها مهددة بقلة النقد، وقد بدأت قلة النقد الحادة هذه تودي بالحياة الاقتصادية للسكان. ولكي يتمكنوا من إحضار المساعدة توجه موظفو الحكومة الهولندية في المنطقة إلى استراليا بأمل ايجاد مخرج من الأزمة. وهكذا أرسلت «لجنة شرق الهند الهولندية» العديد من الرجال للبحث عن الصدف النقدية المطلوبة على شواطئ استراليا، ولكن مع الأسف دون جدوى. وفي أحد الأيام دخل أحد هؤلاء المكلفين مقر اللجنة وصاح بصوت مفعم بالسرور «لقد انتهت الأزمة

المالية فقد عثرت على النقود الصدفية» وقاد الموظفين المندهشين إلى صالة البيع الرئيسية في «ملبورن» حيث تباع هذه الصدف المصقولة كألعاب للأطفال الاستراليين.

وهكذا استطاع موظف الإدارة الهولندية الرجوع إلى منطقة عمله بأكياس مليئة بالصدف «ليعيد السرور والرفاه للشعب». ونحب أن نشير بهذا الصدد إلى أن الأمر يتعلق هنا بتقرير حكومي رسمي. أما التطورات التي طرأت في أندونيسيا منذ ذلك الوقت فقد كان لها منحاها الخاص من خلال تحرر الشعب من نير الاستعمار.

وقليلة هي الشعوب التي ما تزال حتى الآن دون تصور محدد عن المال وقيمة النقود. من هذه الشعوب القليلة تأتي مجموعات الجمع والصيد في استراليا التي لا تعرف الفقر أو الغنى. ولكن حالما تنحلُّ علاقات الإنتاج البدائية سينشأ التصور حول المال. وسواء أكان هذا المال من الصدف أو الأحجار أو الفرو أو المعدن، فهذا من شأن التطور ومن شأن الموقع الجغرافي. ففي كل مكان يمارس فيه الإنسان الشراء والبيع بمفهوم الربح الشخصي، سيقع العوز والفقر، وسيبرز أيضاً جبروت الغنى.

الهوامش:

١ – ظهرت أول طبعة من هذا الكتاب عام ١٩٤٦ .

٢ – يجب الأخذ بعين الاعتبار سنة صدور هذا الكتاب لأول مرة .

٣ – حيوان من ذوات الجراب يتظاهر بالموت عندما يحدق بها الخطر . (قاموس المورد) .

الفصل التاسع

من الطبلة حتى الصحيفة

قصة الاعلام عبر التاريخ - الاعلام البدائي

المسموع والمرئي - نظام البرق البدائي

كيف خلقت الشعوب البدائية نظاماً متكاملاً

لتبادل المعلومات ونقل الأخبار دون استخدام اللغة؟

كثيراً ما عبر الباحثون خلال جولاتهم عبر المناطق غير المكتشفة عن دهشتهم الشديدة عندما تستقبلهم شعوب الصحاري والبراري والغابات وكأنها على علم بقدومهم، إذ لم يلحظوا أن هذه الشعوب كانت تفاجأ بمثل هذه الزيارات، بل كانت في أغلب الأحيان تكون قد أعدت الطعام والمبيت لأعضاء بعثة الاستكشاف، مسبقاً.

وعندما كان المكتشفون يسألون هذه الشعوب كيف عرفت بقدومهم مسبقاً كان الجواب بكل بساطة «لقد عرفنا ذلك» أو «لقد قيل لنا ذلك». إذن لابد من التساؤل التالي: كيف كان من الممكن لهؤلاء الناس الذين يعيشون في أدنى درجة من الوحشة أن يتلقوا مسبقاً خبر قدوم الباحثين دون أية وسيلة من وسائل التفاهم الحديثة؟

كان مربو الأغنام الاستراليون البيض يدهشون عندما يختفي بعض أخلص العاملين معهم من السكان الأصليين فجأة لبضعة أيام ثم يعودون فجأة أيضاً لاستئناف عملهم. فإذا ما سئلوا عن أسباب اختفائهم المفاجئ، أجابوا بعد تردد طويل: «لقد استدعينا من قبل عشيرتنا، ولو رفضنا تلبية الاستدعاء لكان عقابنا الموت» ولكن أي استدعاء هذا؟ وكيف وصلهم هذا الاستدعاء إلى غياهب الاحراج الاسترالية المقفرة؟

على الرحالة الذي يجرؤ على التجوال في مناطق الشعوب البدائية أن يأخذ بالحسبان أن القبائل المحيطة به من الشعوب التي لا لغة مكتوبة لها، قد اخترعت

واستخدمت منذ قرون، نظاماً متكاملاً «للبرق اللاسلكي»، وأن الطرق التي تستخدمها في نقل الأخبار لا تخطئ. فلا التماس الكهربائي ولا سوء الأحوال الجوية يمكن أن يؤثر على عمل هذا النظام. لأن الصراع على البقاء في القفار، صراع مر، والسرعة التي تستقبل فيها الأخبار تقرر مسألة حياة أو موت.

وقلما يمكن للباحث أن يطمح إلى معرفة جميع أسرار أنظمة الإشارات البدائية، ولكن قد يتسنى له في أسفاره أن يقتنع بتعقيدها وفعاليتها، لأن ما سيلاحظه في هذا المجال، جدير بأن يثير دهشته.

ولا شك بأن أبسط وسيلة للتفاهم بين الناس هي اللغة التي قاد استخدامها إلى نشوء طرق توصيل سمعية أخرى. وبخلاف هذه الطرق السمعية هناك الطرق المرئية في توصيل الأخبار والتي بلغت قمة تطورها مع بدايات نشوء الكتابة. أما الإذاعة والصحيفة - أي التقاط الأخبار عن طريق الأذن والعين - فتشكلان الوسيلتين الرئيسيتين للاعلام في عالم الحضارة. ورغم أن امكانات التعبير بواسطتها قد تشعبت كثيراً في عالمنا هذا، إلا أنها تشكل المبدأين نفسيهما اللذين يخدمان الهدف نفسه منذ تكوين العالم.

فلدى الشعوب البدائية نجد أن الطرق السمعية - الأصوات واللغة - تستخدم من قبل القبائل التي تسكن في مناطق محدودة نسبياً، بينما تفضل الشعوب التي تسكن مناطق مترامية الأطراف، استخدام الوسائل البصرية.

وقد طورت المجتمعات الضيقة عند الشعوب التي تمارس الزراعة - حيث تشكل القرية أكبر وحدة سياسية - طرقاً للتفاهم تعتمد بالدرجة الأولى على الأصوات. وبعكس هؤلاء، تعتمد الشعوب الرعوية والقبائل الشبيهة بها، والتي تفصل بينها عادة مسافات طويلة، بالدرجة الأولى على اشارات اخبارية بصرية. وقد تكثفت مثل هذه الطرق البصرية في نقل الأخبار فيما بعد على يد الحضارات القديمة الراقية انطلاقاً من الرسوم التصويرية التي تطورت إلى اختراع الكتابة.

فمع قيام الحضارات الراقية أصبح من الممكن اتمام المبدأ السمعي أو البصري الذي أتاح فيما بعد، أي في عصر العالم المتمدن، نشوء الطرق المألوفة للاعلام. وربما جاء اختراع فن الكتابة على يد الكهنة كوسيلة من الوسائل السرية التي تخدم مآربهم. ولكن ذلك لا يعني مطلقاً أن جميع طرق نقل المعلومات نشأت من أصل ديني. فمنذ

أقدم العصور يمكن التمييز، وبوضوح، بين فكرتين أساسيتين لنقل المعلومات سارتا جنباً إلى جنب بشكل متواز، وهما: طريقة عقلانية ذات هدف واضح، وأخرى ضاربة جذورها في التصورات الدينية.

وبشكل مبدئي فان التفريق بين طرقنا الحديثة في نقل المعلومات وتلك التي كانت لدى الشعوب البدائية ليس أساسياً كما يبدو للمرء. فرغم تأثيرها الهائل لم يصل البرق أو الصحيفة أو الراديو فوراً إلى جميع السكان. وحتى الآن ما تزال بعض المناطق الريفية تستخدم وسائل أعلام تشبه إلى حد بعيد تلك التي كانت تستخدمها الشعوب البدائية. ففي بعض المناطق يستخدم جرس المنادي في جميع سكان القرى لتبليغهم آخر قرارات الزعيم أو عمدة المنطقة. وهذه الطريقة منقولة أصلاً عن طبلة القرية في غينيا الجديدة وافريقيا وأميركا الجنوبية، وبالأسلوب نفسه.

ولا تختلف «الساعية» في قرية نائية، تميز بين البضائع على قائمة الطلبات باستخدام رسوم أولية للفجل وأكياس الطحين أو لمختلف الأدوات المنزلية، عن فناني الكتابة لدى بعض قبائل الهنود الحمر في أميركا الشمالية، الذين يثبتون بها تواريخ قبيلتهم وحروبهم وأغانيهم وأنسابهم على شكل صور متعاقبة. ولكن هذه التشابهات تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، فللعادات المغرقة في القدم (مثل تذكر شيء أو تعهد معين من خلال عقدة تربط في منديل الجيب، أو ربط شريط الحداد على الذراع كدليل على أن حادث وفاة قد وقع في العائلة، أو وضع دليل فَي نقطة تصالب عدة طرق، أو قرع جرس كدعوة للطعام، أو كسر عصا على من صدر بحقه حكم، أو ايقاد نار يوحنا فوق قمم الجبال) ما يعادلها من حيث الوظيفة من العادات المشابهة لدى الشعوب البدائية، كعادة حمل الاستراليين لعصي الاخبار المحفورة، أو عادة التسمانيين بصبغ وجوههم بلون الحزن، أو عادة القبائل السيبيرية بوضع أغصان الأشجار، كنقاط علام، لتحديد الاتجاهات عند مفارق الطرق، أو عندما يقوم القاضي في قبيلة «لوانغو» بتفتيت حزمة من العشب عندما يعلن صدور الحكم، أو عندما تعلن الاشارات النارية والدخانية لدى الهنود الحمر في منطقة البراري أو بولتشه، أو الاستراليين والبابوا أحداثاً هامة لأفراد القبيلة. كل هذه الإشارات تعتبر حاملة للأخبار، ويمكن للناس القاطنين في منطقة معينة، فهمها وتفسيرها بكل دقة.

لقد رأينا أن اللغة هي أقدم وسيلة تفاهم إنسانية، فما من شعب على سطح الأرض دون لغة. ولكن لا يشترط أن تتخذ - كوسيلة إشارة - أية صيغة من صيغ التعبير الممكنة التي يمكن لحنجرة الإنسان أن تؤديها. فعلى سبيل المثال يتناقل أفراد قبيلة «فيدا» في جزيرة سيلان، والأقزام في وسط افريقيا، الأخبار بواسطة غناء غريب يؤدى همساً.

وقد سمعت «مارغريت هاستينفس» التي كانت تخدم أثناء الحرب العالمية الثانية في صفوف الجيش الاميركي وسقطت نتيجة حادث تحطم طائرة في أحد وديان غينيا الجديدة فجأة: «موجة صوتية غريبة تقوى شيئاً فشيئاً، تناهت إلى سمعها مثل لهاث مجموعة كبيرة من كلاب الصيد». وقد كان ذلك، كما علمت السيدة فيما بعد، عبارة عن اشارة من السكان الأصليين تقضي باستدعاء مجموعة من أفراد القبيلة، مستعدة لتقديم المساعدة، إلى مكان الحادث. وتستخدم قبائل غينيا الجديدة هذه الإشارات الصوتية بأساليب متنوعة جداً. وتتناقل الأخبار بواسطتها من قمة جبل إلى قمة جبل آخر، وهذه تنقلها بدورها إلى محطات فرعية أخرى تنقلها إلى أماكن بعيدة.

وقد حدد الباحث «فانوفر برغ» عند زنوج «لوزون الشمالية» خمسة أنواع مختلفة «للمناداة الاخبارية» وصفها على الشكل التالي:

١ - صرخة حادة قوية جداً وطويلة دون تغيير في النبرة. وهذه تعني: «أين أنت؟». وغالباً ما تستخدم في الغابة.

٢ - صرخة مشابهة للنوع الأول ولكن أشد عمقاً بقليل وتعني: «ما الأمر؟» «ماذا تحتاج؟» وهذه غالباً ما تكون جواباً على الصراخ الأول.

٣ - صرخة مشابهة للنوع السابق ولكنها أقصر بقليل، تتبعها - بعد توقف قصير - صرخة أخرى قصيرة جداً وأكثر عمقاً. وهذه تعني: تعال! تعال إلى هنا! وهذه الإشارة مستخدمة عادة في الغابة، كما يستخدمها أيضاً الناس الذين يقتربون من موقع سكني أو مكان تجمع.

٤ - صرخة حادة وطويلة جداً تبدأ بطبقة صوتية عالية ثم تنخفض تدريجياً. وهذه الصرخة يطلقها جميع الحاضرين إذا ما قصف الرعد فجأة أو هبت الريح فجائية هوجاء.

٥ - الصرخة الخامسة ذات «طبيعة انفعالية».

وقد بلغت قبائل «الهورون» و«ايروكيز» من مسافة بعيدة، ومن خلال صرخات طويلة وممدودة، عن عدد الاعداء الذين قتلوا أثناء المعركة.

كما ذكر «سوانتون» عن قبائل «كريك» الهندية الحمراء انها تستخدم «نوعاً من السعال كاحدى الاشارات»، واستطاع أن يفرق بين «سعال الوفاة» و«سعال المحارب الظافر العائد إلى موطنه من المعركة ومعه فروة رأس». وقد لاحظ «كوربت» أن القبائل البدائية في الهند تستخدم صرخة اشارة تحذر بها القرى المجاورة من الحيوانات التي تهدد بافتراس الإنسان والحيوان:

«يطلق رجل يقف في مركز خاص لاعطاء الأوامر (صخرة أو سطح أحد البيوت) صرخات قوية، محذراً القرى المجاورة، ثم ينقل لهم بصوت جهوري الخبر الذي يريد تبليغه. وينتقل هذا الخبر بسرعة لا تصدق من قرية إلى أخرى، بحيث تحاط كامل المنطقة علماً بهجمات الوحش المفترس بعد وقوعها بوقت قصير». ولذلك يجب أن يكون مركز تبليغ الاشارات منتقى بشكل جيد، لأن المدى الذي يصله الصوت الآدمي يظل قصيراً نسبياً. ولذا كان من الضروري والمنطقي تضخيم هذه الأصوات بواسطة آلات صنعت خصيصاً لهذا الغرض، ليتمكن جميع المعنيين بأمر ما من سماع الخبر بوضوح. وقد اخترعت قبائل البانتو الغربية، من أجل هذا الغرض، نظاماً معقداً لنقل الاشارات.

كما تعتبر الاشارات التي تطلق بواسطة الشبابة من الوسائل المألوفة لنشر الأخبار في شرق السودان وشمال الكاميرون. وهناك قرون لنقل الاشارات وأبواق مصنوعة من الصدف للغرض نفسه، وخاصة لدى قبائل «فوته» في الكاميرون وكذلك لدى «تسوافا» و«كارابين» في أميركا الجنوبية ولدى سكان جزر «أدميراليتي» و«كارولينا». ويعود أصل الأبواق التي تعطي الإشارات في الجيوش المعاصرة إلى هذه الوسائل القديمة لنقل الأخبار. ولكن أهم آلة لاعطاء الاشارات في مجال نقل الأخبار بالطريقة السمعية هي دون شك الطبل، وخاصة ذلك النوع المسمى بـ «الطبل المشقوق» أو «طبل الطابور» الذي يمثل واحداً من العناصر الثقافية التقليدية لدى المزارعين البدائيين في غرب افريقيا وجنوب أميركا وغينيا الجديدة. وهذا الطبل عبارة عن جذع شجرة - أو جزء منه - مفرغ في جوفه كلياً حتى طرفيه الدائريين. وفي منتصف جزئه العلوي يوجد شق طويل وضيق نسبياً، تدخل فيه مطرقة أو مطرقتان وتحدثان أصواتاً مختلفة الطبقات، حسب حجمها وحسب

قوة الشخص الذي يقرع الطبل. فمن خلال ضربات الطبل المتدرجة في قوتها أصبح من الممكن إضافة نظام كامل للاشارات في غاية التنوع.

أما الطبول ذات الشكل الاسطواني فهي أحياناً أصغر حجماً، أو قد تتخذ أشكالاً أخرى، مثل الطبول التي لها شكل الصندوق وتستخدمها بعض القبائل الافريقية، فقبائل مثل «باندا» في افريقيا الاستوائية تعرف نموذجين محددين بدقة للطبول؛ «لينغا» و«أوكبورو».

فالنموذج الأول، أي «لينغا» هو جذع شجرة كبير ومفرغ، مركب على أربع قوائم. يقرع بمطرقتين كبيرتين ومختلفتين، في نهايتيهما كرتان من المطاط. أما النوع الآخر، أي «أوكبورو» فهو أصغر حجماً وله شكل المخروط ويقرع باليد أو بعصا خفيفة، ويستخدم هذا النوع من الطبول بشكل خاص في الاحتفالات الجنائزية.

يتم بواسطة هذه الطبول نقل ونشر جميع الأخبار، سواء أكانت هذه الأخبار ذات صفة رسمية أو احتفالية. وبهذا الأسلوب أيضاً يتم التبليغ عن حملات الصيد المزمع القيام بها.

وعندما اقترب الباحثان «هيفس» و«لوملي» من قرية من قرى النيجر سبقتهم قرعات الطبول لتسمع كل ذي أذنين وتبلغ الرسالة:

«هلموا دون خوف إلى ساحة السوق! فالرجل الأبيض هنا ويريد التحديث إليكم! لا تعقدوا أية اجتماعات حربية! هلموا!» وقد تكررت هذه الإشارة المسموعة على مسافة عدة كيلو مترات، من وقت لآخر بحيث كان باستطاعة كل فرد من السكان الأصليين أن يفهمها جيداً.

وغالباً ما تنصب هذه الطبول الكبيرة وسط السوق وتصبح بمثابة مركز للبرق تبث منه جميع الأخبار الهامة الجديدة، لكافة الأفراد.

وهناك طبول مشابهة لدى الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية، لها غالباً لسان خاص يصل حتى الفتحة. مثل هذه الطبول مصممة على الطراز المكسيكي القديم ومعروفة في أميركا الوسطى وشائعة الاستخدام في كولومبيا. وهي معروفة باسم «تيبو ناتزلي» وبخاصة في اكوادور ومنطقة الأمازون. ويمكن سماع قرعها على مسافات بعيدة جداً، ويقرع عليها بمطارق ذات أغلفة مطاطية. بواسطتها يتم التبليغ عن اقتراب الاعداء،

والدعوة إلى بناء الحصون الدفاعية. كما تجمع سكان القرية لإقامة الاحتفالات الجماعية. وهذه غالباً ما تكون مزخرفة بحفر فني على الخشب.

كما صنع السكان الأصليون في شبه جزيرة الغزال أنظمة إشارة متنوعة جداً يمكن بواسطتها التعبير، وبصورة مفصلة، عن جميع المستجدات، سواء أكانت هذه المستجدات وصول سفن أو قدوم غرباء، أو الاعلان عن حصيلة صيد خنزير وفيرة. ففي كل بيت تقريباً يوجد طبل يستخدمه سكانه للاتصال مع الجيران. ومما يثير الاهتمام بشكل خاص هي لغة الطبل لدى قبائل «نور - بابوا» في غينيا الجديدة، التي تطلق اشاراتها بواسطة طبل كبير ذي فتحة، يطلق عليه محلياً اسم «دوبون»، وآخر يدوي أصغر من النوع الأول يطلق عليه اسم «فواغون». وهذا النوع الأخير غني بالزخارف الفنية وله شكل الساعة الرملية وملبس من أحد طرفيه بجلد سنجاب، يترافق قرعه عادة بالرقص والغناء، بينما يستخدم النوع الأول لنشر الأخبار الهامة. وقد أولى العارف الممتاز بقبائل «نور - بابوا» الأب «جوزيف شميث» لغة الطبل عند هذه القبائل جل اهتمامه، فاستطاع باستخدام نظام تنقيط خاص، ميز به تموجات الأصوات، أن يدون الكثير من اشارات «نور - بابوا». والنماذج التالية منقولة عن مجموعته:

فعلى سبيل المثال عندما يعود زوج جائع مساء إلى بيته، ويفترض أن زوجته ما تزال تصطاد السمك في البحيرة، يناديها أن تعود إلى البيت بواسطة نقرات طبل على الشكل التالي:

...... / ...... / ...... / ....

أي خمس نقرات منتظمة تليها خمس نقرات ثم خمس أخرى ثم ست نقرات.

وفي هذه الحالة تمثل النقرات الست الأخيرة «التوقيع الشخصي» للزوج واسمه «سايجام».

ولا تقتصر إشارة الإنذار على الفرد فقط، فلمجموع القبيلة أيضاً إشارات أو «موتيفات» خاصة ومميزة للانذار بحيث يمكن للسامع أن يتأكد فوراً فيما إذ كان شخصان فقط «يقومان بالاتصال» أو أن مجموع القبيلة تتوجه بالإشارة إلى جميع سكان القرية ويطلق على توقيع مجموع القبيلة اسم «مورروب». وإذا لم تكن زوجة هذا الـ «سايجام» فقط هي التي تخلفت على غير عادتها، بل جميع نساء القرية، فلا

يتوجه الرجال المعنيون بالأمر، كل إلى مناداة زوجته فقط، بل تنادي القبيلة جميع سكان القرية من الاناث، باستخدام إشارة «مورروب» واحدة وهي:

. . . . / . . . . / . . . .

. . . . / . . . .

ولكنْ نداء فردي أو جماعي برمز خاص «مورروب»، يسهل على ثرثارات القرية التحدث بآخر الأخبار.

فعلى سبيل المثال إذا ما سمعت بعض النسوة العجائز إشارة معينة، يعرفن مباشرة أن البضائع المطلوبة قد وضعت في بيت معين وأن الرسول لم يجد أحداً في البيت، ولذلك قام بتبليغ ذلك للزبائن الحاضرين عن طريق الإشارة التالية:

. . . . / . . . . / . . . . / . . . . / . . . . / .

يجعل هذا النظام الاعلامي العلني حياة اللصوص غير مريحة أبداً، إذ يعلم اللص لدى سماعه إشارة «نابواروم» انه قد طلب من جميع أفراد مجتمع القرية أن يُشبعوه ضرباً. فهو وان استطاع أن يجد مخبأ أميناً لفترة من الوقت، لكن نداء «نابورام» يحذره مسبقاً من الأشياء التي لا تحمد عقباها والآتية لا محالة:

. . . . / . . . . . . / . . . . / . . . . . .

بهذه الطريقة تحاط كل القبيلة علماً بكافة الأحداث اليومية، المفرحة منها والمحزنة. ومن الأخبار المفرحة تأتي قبل كل شيء الدعوة إلى «بيت المجموعة» بإشارة تعطى بواسطة «طبل التبغ» أو «ساكاين دوبون».

وكما هو واضح من شكل النقاط، تعطى هذه الإشارة بأربعة طبقات صوتية:

. . . // . . . // . . . // . . . . / . . . . / . . . / . . . . . . /

أما الصوت الحزين والرتيب لإشارة «براج أتان» التي تعني «الروح تتكلم» فهو عبارة عن اخبارية حزينة تنعى أحد البالغين:

. . . . / . . . . / . . . .

وتتطلب الطبيعة المعقدة لهذه الإشارات إصغاءً دقيقاً. ومن أجل تسهيل ذلك تسبق الخبر عادة إشارة خاصة مميزة كما هو الحال في محطات الإذاعة حالياً، بحيث تسبق كل «مورروب» أو إعلام عام يخص القبيلة، الإشارة التالية:

. . . . / . . . . / . . //

أما تنوع الإشارات التي تعطى بواسطة الطبل لدى هذه القبائل فهو غير محدود تقريباً. ومن النداءات الإخبارية الثابتة يأتي بالدرجة الأولى نداء التحذير ونداء الدعوة إلى اجتماع عام، ونداء جوز «البيتل» (على جميع الرجال أن يتوجهوا عقب هذا النداء إلى بيت المجموعة ومعهم جوز البيتل) ونداء أسنان الخنزير أو الكلب (أنواع العملات هذه يجب احضارها لأغراض تجارية، مثل شراء قارب «كانو») ونداءات أخرى عديدة...

وبينما يتم استدعاء الناس بواسطة الطبل، تتطلب كرامة الأرواح وجود وسيلة أخرى من وسائل الدعوة، ألا وهي: صوت المزمار المسمى «براج» وهي آلة مقدسة لا يُسمح إلا للرجال فقط بالعزف عليها. ويعتبر فن العزف على هذا المزمار من أهم المواد التي يتعلمها الفتيان أثناء احتفالات التعميد. ولا يمكن لرجل لا يُحسن العزف على هذه الآلة أن يصبح يوماً ذا نفوذ. ويعتقد السكان الأصليون أن صوت هذا النوع من المزامير هو صوت روح قدسية مسجونة حيث يصدر صوت العزف، فإذا ما أعجبتها براعة العازف تنتقل روح «براج» نفسها إلى المزمار ليحملها معه إلى احتفالات أخرى في البيت المبني خصيصاً لها.

أما الأنظمة الإخبارية الأوسع انتشاراً من النظام السمعي فهي الأنظمة البصرية التي تبدأ أيضاً بحركات الجسد الإنساني كوسيلة من وسائل التفاهم. فكما أن اللغة هي أبسط وسائل التعبير السمعية، فكذلك تعتبر الحركات أيضاً الشكل البدائي لنظام الإشارات البصري. وغالباً ما تعبر الإيماءة عن مفاتيح شيفرة محددة مثل: الاعداد والأشياء والأمزجة أو الجهات الأربع بل يمكنها أحياناً أن تصبح بديلاً لغوياً مناسباً، حيث يمكن لسلسلة من أشكال التعبير الايمائية، أو للحركات، أن تُستخدم لتشكل جملاً كاملة.

وكأمثلة على النوع الأول نأخذ الأرقام التي يُعبر عنها بحركات ايمائية لدى قبائل «توكار» في الكاميرون، أو رموز الكلمات المستخدمة لدى الهنود الحمر في منطقة البراري الذين يعبرون مثلاً عن كلمة «سيدة» أو «امرأة» بحركة تمشيط الشعر، وعن «الخيمة» بحركة الأصابع بشكل دائري، وعن «الموت» بحركة دفاعية بكلتا اليدين، وعن «الشمس» بحركة ترسم دائرة، وعن «الشجرة» بحركة ترسم أغصاناً وغيرها من الاصطلاحات التي تعبر عنها حركات مناسبة.

أما النوع الثاني للغة الحركات - أي العرض الايمائي الصرف كجمل كاملة - فيسمح بكلام مستمر دون استخدام الصوت كلياً. ويقدم لنا المكتشف القديم «أدير» Adair وصفاً جيداً لهذا النظام اللغوي:

«يعتبر الهنود الحمر، سكان أميركا الأصليون، من الايمائيين الجيدين في عصرنا هذا. ولا تقل براعتهم في هذا المجال عن اليونانيين والرومان القدماء أو عن براعة الصم والبكم في استخدام اللغة الخاصة بهم في عصر الحضارة. فهم قادرون على التعبير عن مختلف الأشياء بالحركات والسلوك وتعابير الوجه. ويمكن لقبيلتين هنديتين تعيشان متباعدتين، لا تفهم إحداهما من لغة الأخرى شيئاً، أن تتحادثا بهذا الأسلوب - ودون الاستعانة بمترجم - بكل سهولة ووضوح. ويمكنهما حتى أن تعقدا اتفاقات فيما بينهما. ويتم كل ذلك بدقة متناهية لا يمكن تصديقها».

إذن استطاعت الشعوب البدائية من خلال هذه المعرفة بلغة الحركات أن تحل معضلة جعلت المباحثات الدولية التي أجرتها الشعوب على مر التاريخ في غاية الصعوبة. من برج بابل حتى مناورات الترجمة المعقدة والمتشعبة في الأمم المتحدة، والتي لم تستطع الإنسانية - حتى الآن - حلها بهذا الأسلوب البسيط.

ولا تزال لغة الإشارة، أو «الاسبيرانتو» البدائية تُستخدم من قبل شعوب عديدة في أميركا وأفريقيا. ولم يمض وقت طويل نسبياً على اكتشاف البث الاذاعي الذي ألغى الحقيقة القديمة ان الاشارات البصرية أبعد مدى من الاشارات السمعية. فقبل ذلك كان مدى الإشارات المنظورة أكبر بكثير من مدى الإشارات المسموعة. ونتيجة لذلك اكتشفت طرق أخرى أكثر تطوراً لجعل الحركات الإنسانية مرئية من مسافات بعيدة بإضافة أشكال أخرى من الإشارات المرئية، يأتي في مقدمتها الدخان والنار.

فعلى سبيل المثال إذا ما لاحظ أحد الهنود أن قطيعاً من الجاموس يقترب نحوه، سارع إلى نقطة مرتفعة، يستطيع منها أن يرى أبناء قبيلته ورفع شرشفا بكلتا يديه فوق رأسه ثم أنزله ببطئ. وهذه الإشارة كفيلة باستنفار القبيلة برمتها. وقد تُستكمل إشارة «المورس» هذه - رفع وإنزال غطاء النوم بحركات دقيقة وموزونة - بعملية أخرى متممة لها وهي: اضرام نار يصدر عنها دخان. ثم حجب هذه النار وإظهارها بالتناوب عدة مرات. وهذه العملية تضمن نقل الخبر إلى أمكنة بعيدة. وإذا ما تعذر الحصور

على النار، وبالتالي على الدخان، يقوم الشخص بارسال الإشارة باستخدام الغبار على الطريقة نفسها. وإذا ما خرج رجال قبائل «سيمونول» على شكل مجموعات مبعثرة في حملة صيد، يظلون على اتصال دائم مع بعضهم البعض بواسطة إشارات دخانية. وقد ذكرت «سوانتون» أنهم أوقدوا النار في نقاط استراتيجية وصاروا يحجبون الدخان بواسطة أغطية لفترات متقطعة ومنتظمة بحيث أمكن فهم واستيعاب الإشارات المطلوبة من مسافة بعيدة.

وكذلك تستخدم الإشارات النارية والدخانية من قبل قبائل في أميركا الجنوبية وبشكل خاص في أوقات الحرب لنقل الأوامر العسكرية. وهذه الطرق نفسها استخدمتها قبائل «غالير» أثناء حروبها ضد «قيصر».

وتتبع الإشارات الضوئية الهدف نفسه، فقد استخدمتها مثلاً قبائل الهنود الحمر المسماة «سيبيكو» عندما نزل المدير الذي عينته الحكومة عام ١٩٠٢ من خلف الجبل في الطريق المؤدية إلى واديها وبرفقته هيئة من أعيان القبيلة. فقد بدأ الهنود الحمر المرافقون له، كما ذكر الباحث «ريغان»، بارسال عدة إشارات إلى رجال قبيلتهم. وقد استخدموا في ذلك مرآة صغيرة، بثوا بواسطتها وعلى فترات منتظمة أشعة الشمس المعكوسة إلى الوادي، فسرعان ما جاء الجواب من الوادي وترجمته: «كلنا بخير، ولدينا ما يكفي من الطعام». وعندما وصلت المجموعة إلى موطن القبيلة «وجدت جميع أفرادها مجتمعين، لأن الإشارات استدعتهم إلى المكان».

وللحيلولة دون التكرار المستمر لبعض الإشارات الأساسية، أوجدت الشعوب البدائية وسائل وطرقاً لمنح مثل هذه الاخباريات استمرارية معينة، من خلال نقاط علام وتحذير ونداءات استغاثة، أو إلى حد ما من خلال علامات الملكية. فقد أقامت قبائل «شوشون» نقاط علام على كومات من الحجارة تشير إلى اتجاه الموارد المائية. أما قبائل «كياتيكساموت - اسكيمو» فتدل على خط سيرها أثناء الترحال بعصي مغروزة بالأرض تفصل بينها مسافات منتظمة وعليها حزم من العشب.

وفي أفريقيا يعتبر أفراد «ايفه» في توغو خبراء في تحديد معالم الطرق والمسالك في الغابات. فالطريق «الصحيح» يترك مفتوحاً، أما الطريق «الخطأ» فيغطى بورق الشجر والأعشاب. أما قبائل «تونغيز» فتحذر المسافر من الفخاخ المنصوبة، وذلك

بقطع شجرة فتية وتثبيت سهم عليها رأسه نحو الأسفل. وإذا ما كان رأس السهم موجهاً نحو الأعلى فهذا يعني أن ناصب الفخ قد غادر المنطقة.

ولا يقتصر مهمة نقاط العلام على تسهيل التنقل فقط، بل لها أيضاً أهميتها كاشارات تحذير، تحظر الدخول إلى منطقة معينة. فإذا ما انتشر مرض سار في منطقة، تضع قبيلة «أباخي» بومة ميتة، أو صورة تمثل بومة ميتة من الخشب المحفور «كإشارة للموت» على الطريق المؤدية إلى المنطقة الموبوءة.

وعندما تفشى وباء الجدري بين أفراد قبيلة «أباخي» وضعت جثث بومات نافقة على جميع الطرق المؤدية إلى منطقة سكناهم، فلم يجرؤ أحد من الهنود على الدخول في هذه المنطقة، فظل المرض محصوراً في منطقة محدودة وضيقة. والهدف من مثل هذه الإشارات هو وقاية المارة من المرض أو الأذى.

هناك أيضاً إشارات أخرى توضع بقصد معين، كطلب النجدة والانقاذ وإرشاد المنقذ بدقة إلى المكان الذي يجب أن يتوجه إليه.

وقد لاحظت بنفسي مثل هذه الإشارات بشكل خاص لدى قبائل «ناسكابي» الهندية الحمراء في لابرادور التي يعيش بعض أفرادها في ظروف المناخ شبه القطبي، عيشة قاسية ومنعزلة تتطلبها حياة الصيد، بعيدين عن أبناء جنسهم. وبما أن ظروف حياتهم في غاية الصعوبة فقد أوجد هؤلاء الهنود الحمر نظام إشارات متكاملاً من أجل المساعدة المتبادلة. ويجب على من يرى نداء مساعدة موجه إلى عابر سبيل مجهول أن يسارع فوراً لتلبية النداء، لأن كل تقاعس أو إهمال يعتبر جريمة لا تغتفر. فقانون الشرف لدى البدائيين يتطلب من المرء أن يهب لتلبية نداء النجدة حتى ولو كان طالب النجدة عدواً، الأمر الذي يحدث باستمرار. وتتألف نداءات النجدة من أعمدة ذات شقوق، منصوبة في مواقع استراتيجية من الطريق تشير بدقة إلى اتجاه خيمة المريض أو من يحتاج إلى المساعدة.

وفي معظم الحالات يكون طالب النجدة مهدداً بالموت جوعاً، فيسرع عابر السبيل الذي يرى مثل هذه الإشارات إلى «موقع المأساة». أما عندما لا تتوفر لديه امكانية المساعدة أو تقديم الطعام فيعلق إشارة إخبارية أيضاً - يحملها معه على سبيل الاحتراز - على الأعمدة المنصوبة، إما ليشير بها إلى أنه ذهب ليحضر المطلوب، أو لطلب هذه المساعدة من العابرين الآخرين.

ويمكن الاستدلال من هذه «الأعمدة الاخبارية» على كافة التفاصيل المطلوبة، إذ يمكن الاستدلال ليس على موقع الخيمة المنكوبة فقط، بل أيضاً على عدد الأشخاص المرضى فيها وعلى نوع معاناتهم. كل ذلك يدل عليه شكل وعمق الشقوق المحفورة على هذه الأعمدة. ويمكن للمسافر العابر أن يضيف معلومات أخرى على العمود، إذ يتناول أغصاناً ويصنع منها اكليلاً يعلقه على العمود. وإذا ما طليت الشقوق باللون الأسود، باستخدام الفحم الخشبي، أو إذا ما علقت عصا مطلية باللون الأسود على «أعمدة الإشارة» فيمكن لعابر السبيل أن يدرك أن المساعدة قد تأتي متأخرة، وأن المرضى قد انتقلوا إلى العالم الآخر.

كما تنتشر إشارات الملكية عند العديد من الشعوب البدائية. وهذه ليست سوى اعلانات للرأي العام بأن هذا الغرض يخص هذا الشخص أو هذه المجموعة، وتعني في الوقت نفسه تحذيراً للصوص. فقوارب الاسكيمو وقطعان الرنة لدى «اللاب» و«توتغوز»، التي تعتبر ملكاً للمجموعة، تحمل عادة إشارات ملكية. ويقوم «اللاب» و«التونغوز» بحفر اشارة الملكية في آذان حيواناتهم، بينما تحفر قبيلة «ساموجد» هذا الوسم في أفخاذ حيوان الرنه بواسطة الكي بالنار، ولا يجوز لغير المالك استخدام مثل هذه الإشارات، سواء أكان هذا المالك فرداً أم أسرة أم قبيلة. ويقوم العرب بوسم قطعانهم مستخدمين طريقة الكي بالنار كإشارة على الملكية. فكل جمالهم وأغنامهم وأحصنتهم تحمل هذا الوسم.

وكذلك تعرف قبائل الهنود الحمر في كندا وشمال الولايات المتحدة اشارات الملكية. رغم أن قبائل أخرى مثل «مبايا» و«أشلوزلي» و«تشيريغوانو» تضع علامة الملكية على الحيوانات والعبيد والأدوات وحتى أيضاً على النساء.

وقد أخذ مربو الحيوانات الحديثون في الدول المتحضرة هذا التقليد القديم في وسم حيواناتهم معتبرين أنه الطريقة العملية الأنجع في هذا المجال، إذ تحمل خيول السباق اعلام حظائرها الموسومة على أجسامها. وما تطريز الأحرف الأولى من الاسم Mono-gramme على قطع ملابسنا وحقائبنا ومحافظنا، إلا نوع من هذا القبيل.

وهناك مجموعة أخرى من وسائل الاخبار، ليست موجهة إلى الرأي العام بقدر ما هي موجهة إلى فرد معين أو إلى مجموعة معينة، فمثل هذه الاخباريات يمكن أن تكون

لها طبيعة خاصة، كأن تكون متعلقة بأمور تجارية أو أن تكون لها أهمية سياسية أو دبلوماسية. وفي عداد هذه المجموعة تدخل «عصي الاخبار» الاسترالية، التي تقتصر أهميتها الفنية على مجرد تقوية الذاكرة، لأن ما تتضمنه يتطلب من حاملها شرحاً وتفسيراً. وما النص المحفور على عصا من هذا النوع سوى أسلوب من أساليب تقوية ذاكرة حاملها، ويتضمن اما دعوة للاعياد أو لحفلات التعميد أو طلباً تجارياً. فمثل هذه العصا المحفورة المرسلة من «شركة ساندي» إلى «شركة كونغورو» قد تكون ارسالية من نبات مخدر مرفقة بطلب ما يعادلها في القيمة الشرائية من الرماح وأدوات الصيد التي يطلق عليها اسم «بوميرانغ»(١).

أما ما يسمى «بالحزم الدبلوماسية» أو «العصي الدبلوماسية» التي ترسل من قبيلة إلى أخرى فلها صفة عالمية. فعلى سبيل المثال أرسل الهنود الحمر في أميركا الشمالية حزمة معينة من عرانيس الذرة، مزينة بالريش ومحشوة في داخلها بالتبغ، لحكومة الولايات المتحدة الأميركية (وهذه طريقتهم في عرض السلام وتسمى «غليون السلام»، وفي وسط هذه الحزمة شد حبل صوفي مزين بالريش الأصفر. وخلاصة الخبر تعني: «نحن مستعدون لتدخين غليون السلام مع الرئيس». وبعبارة أخرى كان ذلك عرضا للسلام. وإذا ما أرادت قبيلة «لوتسو» شرق التيبت اعلان الحرب على أعدائها، أرسلت إليهم عصا محفورة مغروز فيها ريش. وهذا يعني أن مئات من المحاربين هم الآن في الطريق للدخول في المنطقة المعادية وبسرعة الطير. أما قبائل «نجام - نجام» الافريقية فتعبر عن اعلان الحرب بوضع عرنوس ذرة وريشة دجاج على طريق الأعداء. عليهما غصن شجرة مثبت عليه سهم. وهذا يعني أن كل من يستخف بهذه العلامة سيموت بهذا السهم، وخاصة إذا ما حاول سرقة الحقول أو ذبح الدجاج.

أحياناً قد تحمل مثل هذه الرسائل، الكتابية منها والشفهية، مضموناً يتعلق بقضية خصوصية جداً، كأن يتعلق الأمر برسالة غرامية مثلاً.

ومن هذا القبيل نذكر الرسالة المشهورة التي نقشتها إحدى فتيات قبيلة «جوكاغير» على قطعة من قشور الصفصاف (ربما لم تكن تخلو من التأثير الأوربي). وقد حاول بعض الباحثين ترجمتها ومنهم «فويلة». تتضمن هذه الرسالة خبراً محزناً عن فتاة فشلت في حبها.

فالفتاة التي خانها حبيبها - كاتبة الرسالة - (C) تجلس في بيتها (A و B) الخطوط المتصالبة تعني الأسى. والنقاط في أعلى الرسالة على يمين (C) تمثل ضفائر الفتاة. غريمتها (F) روسية ذات ضفائر وثوب، أما (G) فهو الحبيب الخائن. وقد عبرت عن علاقاته مع الروسية بالخطوط المتصالبة في الجزء الأعلى من الرسم. والخط (J) الممتد من الغريمة إلى (A) يقطع خطوط الحب الواصلة بين الحبيب (G) وكاتبة الرسالة. أما الحرف (M) فيرمز إلى الأفكار المخلصة لدى من هجرها الحبيب. أما (O) فهو عاشق من القبيلة يحاول خطب ودها. والحرفان p و q يرمزان إلى طفلي الزوجين الخائنين G و F.

وبناء على ذلك يمكن ترجمة نص الرسالة تقريباً على الشكل التالي: «لقد هجرتني كرمى لعيني هذه الروسية التي منعتك من العودة إلي. ربما أنجبتما أطفالاً. سأظل محتفظة باخلاصي لك، ولن أدع أحداً يعزيني رغم وجود رجل آخر يحبني».

(صورة الرسالة رقم ٧).

وهناك شكل آخر لنقل الأخبار، الشخصية منها والموجهة إلى المجموعة، يعتمد على تقوية الذاكرة باستخدام وسائل مساعدة في هذا المجال مثل علب العد أو الحبال المعقودة المسماة «حزام الغامبوم». وهو عقد من أصداف يتزين به هنود اميركا الشمالية الحمر أو يتعاملون به بوصفه عملة.

ولكي يتذكر المرء الاعداء أو الاحداث تستعين قبائل «كارا» في اكوادور بحصى ملونة مختلفة تحفظ في صناديق خشبية صغيرة. كما يستخدم سكان المناطق الساحلية في جمهورية «بيرو» في أميركا الجنوبية صناديق مشابهة لتلك، وتستخدم لأغراض احصائية، والأكثر شهرة من كل هذا وذاك هي الحبال ذات العقد التي وجدت في قبور سكان «بيرو» القدماء والمسماة «خيبوس» أو «كويبوس». وهذه تستخدم بالدرجة الأولى «لتسجيل» الأرقام الرسمية واحصاء جبايات الضرائب وغير ذلك من السجلات الرسمية. وهي مؤلفة من مجموعة من الحبال ذات العقد، مرتبة ترتيباً معقداً ومثبتة على عصا من الخشب المحفور. حتى الاشعار وبقية الأعمال الأدبية «مدونة» بواسطة «الكتابة العقدية» هذه. والغاية الرئيسية منها هي كونها طريقة لتقوية الذاكرة بالإضافة إلى الكلمة المنطوقة.

أما اختلاف ألوان هذه الحبال فالغاية منه هي الدلالة على نوعية التصنيف (مقاطعة، قبيلة، نوع الجماعة المعنية بالأمر وغير ذلك) بينما تعبر أشكال العقد عن الأرقام وقيم الأعداد.

حتى الملاحظات والشروحات الملحقة، لاقت التعبير عنها بإضافة حبال ثانوية إلى الحبال الرئيسية. ويقوم على حراسة هذا «الأرشيف» موظف حكومي خاص يطلق عليه اسم «خيبوكامايوكس».

ولم يكن استخدام مثل هذه الطريقة من «الأرشفة» مقتصراً على «بيرو» فقط، فقد عرفت الصين القديمة والمناطق التابعة لها والمتأثرة فيها، هذا النوع من «الكتابة»، وما تزال مستخدمة حتى الآن لدى بعض قبائل الهنود الحمر في أميركا الجنوبية، ولو بصيغة مبسطة.

وكانت ما تسمى «بأحزمة الغامبوم»، عند الهنود الحمر في أميركا الشمالية، والمرتبطة أحياناً برسومات معينة عبارة عن وثائق رسمية واتفاقات. ورغم أن نصوصها لم تكن بالأصل مفهومة بدقة إلا من قبل الأطراف التي عقدتها، إلا أنها تطورت فيما بعد إلى وسيلة اخبار عامة، بعد أن أصبح تنظيم وترتيب الصدف الداخلة في اعدادها، والمعاني الرمزية للونيها، الأبيض والبنفسجي مفهومة، حتى لدى الغرباء. وقد كان للصدفة البنفسجية قيمة تفوق قيمة الصدفة البيضاء. وكان «لأحزمة الغامبوم» المنسوجة قيمة مالية عالية لدى السكان الأصليين.

عقد «وليام بن» عام ١٦٨٢ في «شاكا ماكسون» اتفاقه الحدودي المشهور مع قبائل «ليني - لينابه» الهندية الحمراء باستخدام «حزام فامبوم»، وهو لا يزال موجوداً لدى الجمعية التاريخية في ولاية بنسلفانيا الاميركية.

وإذا ما قارنا بين وسائل تقوية الذاكرة هذه وبين الاشارات الصوتية و«اللاسلكية» عند الثقافات الأقدم، لرأينا أنها تختلف عنها كلياً، لأنها ذات طبيعة دائمة، وتمثل وثائق حقيقية بكل معنى الكلمة. ولكن الرموز المستخدمة في صياغتها تتطلب الشرح والتفسير. ولا يمكن أن يقوم بهذا التفسير بشكل دقيق إلا مطلع خبير في هذا النظام.

أما الأسلوب الأكثر واقعية والأيسر فهماً فهو اعتماد صور الأشياء المعنية بالموضوع كوسيلة أخرى من وسائل الأخبار، إذ تحكي هذه الصور بنفسها عن نفسها.

فقد تطور عن وسائل الاخبار البصرية اتجاه واضح نحو الصورة المرسومة كوسيلة للتعبير عن «النص» الذي يجب كتابته.

وقد خلفت لنا التصاوير والرسوم المتعلقة بالأحداث، وكذلك الرسوم الجدارية لدى القبائل القطبية، ولدى الهنود الحمر في منطقة البراري، والسكان الأصليين في جزر كارولينا الغربية، وجزر «بالوا» نماذج ممتازة لهذا النمط من وسائل نقل الأخبار. فعن طريق هذه الرسوم سجلت هذه الشعوب أحداثها اليومية والأحداث الهامة في حياتها وتاريخ مجتمعاتها، وتقوم المجموعة بالإشراف على دقة وصحة هذه النصوص المدونة بالرسم. وهناك عقوبات صارمة تهدد «المؤرخ» الذي يحاول تضليل الرأي العام من خلال عرض خاطئ للحقائق بصورة متعمدة.

ومن أشهر هذه النماذج بالكتابات الصويرية تأتي التواريخ أو «احصاءات الشتاء» عند الهنود الحمر في أميركا الشمالية التي تمثل وصفاً دقيقاً لأهم الأحداث التي مرت في تاريخ القبيلة. لاقت التعبير عنها برسوم لأشخاص وحيوانات ومشاهد. ومن أطرف هذه التواريخ تأتي القصة التي تحكي عن قبائل «ديلاواره» وكان ذلك في فترة ما قبل وصول الأوربيين إلى أميركا الشمالية. يتضمن هذا التاريخ رسوماً تمثل مصير ومغامرات العديد من القبائل، مثبتة - بتقنية عالية - على جلود الجاموس والمعاطف والخيام، وتتضمن استعراضات لحوادث فيضان وحروب وأوقات رخاء ثم عوز ومرض، وجميع الأحداث الهامة في الحياة.

ويمكن للمتمرس في قراءة هذه المخطوطات التصويرية أن يحل رموزها بكل سهولة وكأنها مقال شيق في صحيفة. وإذا ما أمعنا النظر في أحد ريبورتاجات الاسكيمو، وليكن حول صيد كلب البحر مثلاً، لرأينا في الاثني عشر رسماً التي يتألف منها «التقرير» وصفاً للحقائق في منتهى الحيوية.

(الصورة رقم ٩).

على اليسار يقف «كاتب المقال»، يبدو وكأنه يقوم بدور منظم الاحتفال، يشير بيده اليمنى إلى نفسه، بينما يشير بيده اليسرى إلى الجهة التي حدثت فيها وقائع القصة. أما الرجل الذي يقف إلى جواره فيشير بمجذافه إلى طريق قارب الصيد. يقوم جاره من جهة اليمين بشرح مدة الوقت الذي استغرقته رحلة الصيادين حتى وصلوا إلى

المنطقة الأولى التي يقصدونها (اليد اليمنى على الرأس: نوم، أما الاصبع المرفوع من اليد اليسرى: واحد، اذن ليلة واحدة).

الدائرة وفي داخلها نقطتان تعني مكان التوقف الأول: جزيرة وعليها كوخان. بجانب الجزيرة يظهر المؤلف ثانية ليشرح بأن الصيادين قد توجهوا الآن إلى جزيرة أخرى (لا توجد عليها أية مساكن) حيث باتوا فيها ليلتين، كما يدل على ذلك الاصبعان المرفوعان. وهنا تبدأ الأحداث المشوقة في القصة. فكما تدل ايماءة الرجل الثاني، ظهر اثنان من كلاب البحر (الإصبعان الممدودان يشيران إلى كلب البحر). أما الصيادون فقد جهزوا حراب الصيد. وأصبحت جاهزة للاطلاق. تشير صورة كلب البحر - بصورة رمزية - إلى كلا الطريدتين، لكن صيد الطريدتين لم يتم بالحربة، بل بالسهم والقوس.

بعد أن تحقق الهدف من رحلة الصيد، تمكن الصيادون من الاستعداد لرحلة العودة (قارب مع راكبين والمجذافان يتجهان نحو الأسفل)، وأخيراً ينام الصيادون ثانية في بيوتهم الشتوية الدائمة، وهذا ما عبرت عنه الصورة الأخيرة.

وبذلك تنتهي قصة صيد كلب البحر التي «كتبها» صحفي موهوب.

وإذا ما بدت مثل هذه «التقارير» بهذه الصيغة الحيوية، فانها بشكل أو بآخر، ليست سوى عنصر مساعد لتقوية الذاكرة، لا يمكن للمرء فهمه إلا إذا قام أحد المشاركين بصنع الحدث، أو آخر وثيق الصلة بفن الاسكيمو، وعلى معرفة جيدة به، بشرح سلسلة الصور هذه.

فإذا ما نظرنا إلى الصور هكذا بكل بساطة دون أية شروحات، فان تأويلها متروك في هذه الحالة للخيال. فلا يمكن نقل أكثر من تصور عام عن «النص» الذي أراده الرسام.

استغل القادمون البيض مواهب السكان الأصليين الذين ألفوا قراءة وكتابة مثل هذه المجموعات الصورية، لاطلاعهم على تعاليمهم، وبخاصة تعاليم الدين المسيحي، عن طريق مثل هذه الرسوم من قبل فنانين محليين.

فقد عمل الكهنة الكاثوليكيون في المكسيك مثلاً على رسم مجمل كتاب تعاليم الدين المسيحي على شرائط قماشية ضخمة كانوا يفرشونها أمام المصلين أثناء أداء الطقوس الدينية.

وقـد أدى مـسـار التطور الطويل من عـرض فكرة أو حـادثة عن طريق الرسـوم الطبيعية، إلى نشوء الرمز التجريدي المستقيم، وهو ما نطق عليه اسم حروف. ولم يكن من الممكن أن يتم الانتقال من الصورة المرسومة إلى الأبجدية بقفزة سريعة وانما – ومن خلال عملية تطور بطيء – تشكلت الجملة الرمزية ثم الكلمة المرسومة ثم المقطع المرسوم ثم مجموعة أصوات واضحة المعالم جمعت ورتبت لتصبح أبجدية.

ولكن لا يمكن الحديث عن كتابة إلا حيث يكون للرموز معان ودلالات ثابتة لا تتغير، ويمكن لكل خبير في القراءة نقلها مباشرة إلى اللغة المنطوقة. وتعتبر الكتابة من الخصائص الأساسية المميزة للحضارة الراقية. فقد بدأ اتجاه تطوير الكتابة من الصورة الطبيعية المرسومة إلى الرمز المجرد، ومن الصورة الافرادية إلى الاشارة المتعارف عليها بشكل عام، والتي لم يعد المرء يستطيع إدراك صورتها الأساسية بسبب طول وتعقيد مسار التطور.

وقد خلفت لنا بشكل خاص الرموز الكتابية للحضارات الصينية والبابلية والسومرية والآشورية والمصرية الراقية نماذج ممتازة لمتخلف مراحل التطور.

(رسم يوضع رموز تقويم مكسيكي قديم رقم ١١)

وقد كان لهذه الرموز معنى أبجدي أيضاً. وهذه تمثل تسعة من أصل عشرين يوماً من أيام الأسبوع:

الأول: يعني أفعى. والثاني أيضاً أفعى. والثالث: الموت، الرابع: الأرنب، الخامس: السنجاب، السادس: الصقر، السابع: القرد، الثامن: النمر، التاسع: الوعل.

ويمكن ارجاع معظم الكتابات الهيروغليفية المصرية، وبدقة – إلى رسوم تصويرية أصيلة للأشياء التي تدور حولها هذه الكتابات، تطورت فيما بعد إلى رموز كتابية مجردة.

كما تحولت الجرة الحجرية التي رسمت حوالي ٢٩٠٠ قبل الميلاد بشكلها الطبيعي بثمانية أشكال، أخيراً عام ٤٠٠ قبل الميلاد إلى الرمز "hum" كما تطور الرسم الذي يستخدم التعبير عن مفاهيم مجردة، عن عرض طبيعي للفافة من البابيروس:

تطور الكتابة الهيروغليفية من الصورة إلى الحرف:

(رسوم توضيحية رقم ١٣)

وحتى في الكتابة الشجرية الصينية الحديثة تبرز الصورة الأصلية المبسطة للشيء أو للفكرة التي يتعلق بها موضوع الكتابة.

(رسم لنموذج من الكتابة الصينية رقم ١٤)

أما الكتابة المسمارية الآشورية فقد تحررت في وقت مبكر من أسلوب الرسم الطبيعي، فلا يستطيع سوى الخبير أن يرى في الرموز المسمارية المتأخرة الصورة الأساسية التي تطورت عنها هذه الكتابة.

(رسم توضيحي رقم ١٥)

وتعود الأبجدية التي نستخدمها حالياً إلى الصوتيات. فقد استطاعت هذه الأبجدية أن تستمر على مر القرون دون تغير يذكر، فأعلن بعض المتزمتين المحدثين من أمثال جورج برناردشو أن هذه الأبجدية غير عملية ومسهبة جداً. وقد قدم السيد برناردشو عدة عرائض للحكومة البريطانية يحثها فيها على اتباع أبجدية انكليزية جديدة تعتمد على الصوتيات بحيث يكون فيها لكل نبرة صوتية كتابة واحدة تعبر عنها. فقد أجرى حساباته أثناء الحرب العالمية الثانية وتوصل إلى نتيجة أن كل حرف «نوفره» من الاستعمال اليومي سوف لن ندخره مرة واحدة في اليوم وإنما ملايين المرات وأن «نفقات الحرب كلها سوف تعوض إذا ما تم تحديث الأبجدية الصوتية واختصارها إلى سبعة عشر حرفاً من الأبجدية اليونانية». ولكن تعاقب آلاف السنين أثبت أن هذه الأبجدية مفيدة.

ولو افترضنا أن الإنسانية تريد الآن أن تقيم تمثالاً للرجُلِ العبقري الذي اخترع الكتابة، لكان ذلك في الواقع من حكم المستحيل. فما من شخص معين يمكن أن ينسب لنفسه هذا الفضل، وكل ما يمكن أن يقال هو أن الدوائر الكهنوتية في ظل الحضارات الراقية القديمة لعبت دوراً هاماً في بلورة واستكمال الرموز الكتابية عند شعوبها، فمعرفة فن الكتابة والقدرة على تدوين الكلمة المنطوقة أو المحفوظة في الذاكرة بصيغة ثابتة، كانت تعني السلطة، وهذه السلطة كانت منذ بداية التاريخ تحت رعاية أصحاب النفوذ السياسي والروحي.

بهذه المعرفة بدأ عصر جديد، عصر التاريخ المدون. ومنذ ذلك الحين صار من الممكن كتابة التقاليد والقوانين والمعتقدات وحفظها في المعابد وفي مكتبات الحكام، حفظاً جيداً.

أمّا الرعيّة من البسطاء فلم يكن لها أن ترقى إلى معرفة الكتابة التي كانت الامتياز الوحيد للكهنة وبعض كبار موظفي الدولة.

لعبت أدوات الكتابة المتوفرة آنذاك دوراً هاماً في تدوين الكتب. وتعتبر ألواح الكتابة التي استخدمها البابليون والآشوريون والمصنوعة من الطين المشوي في عداد أقدم «الكتب». أما المصريون القدماء فقد استخدموا بالدرجة الأولى «البابيروس» الذي وجد شبيهاً له في الهند من أوراق النخيل المحزمة. فمنذ الألف الثالثة قبل الميلاد كان المصريون يقطعون جذوع نبات «البابيروس» ويلصقونها معاً ليحولوها إلى «كتب» على شكل لفائف. ومنذ ١٤٠٠ قبل الميلاد حل الرق محل البابيروس. والرق مؤلف من جلود الحيوانات الناعمة والملساء نتيجة معالجتها كيميائياً. وبذلك تم الاستغناء عن «كتب» البابيروس الموجودة بشكل لفائف ليحل محلها الشكل الجديد للكتاب ذي الزوايا المستقيمة.

ولكن نظراً لتكلفته الكبيرة اضطر المرء أن يكون تعامله مع الرق تعاملاً اقتصادياً. فكثيراً ما كانت تمحى النصوص القديمة عن قطع الجلد بواسطة الحك لتستخدم هذه القطع ثانية في تدوين نصوص جديدة.

وبفضل اجراءات التوفير في استخدام مادة الرق تمكن العلم الحديث - في العديد من الحالات - من اكتشاف مخطوطات يدوية قديمة بين المخطوطات الأحدث منها، ومن ثم حل رموزها واطلاعنا عليها.

ومن أشهر الكتابات القديمة التي فكت رموزها، هناك اللوح الثمين المحفوظ في المتحف البريطاني وعليه نص سوري كتب في القرن الحادي عشر فوق نص آخر روماني يعود للقرن التاسع، وهذا بدوره يغطي مخطوطة يدوية ثالثة كتبت في القرن السابع بخط التدوين الروماني - اليوناني.

وتأتي أهمية هذه المادة لتطور الكتاب الحديث أيضاً من الحقيقة اللسانية بأن كلمة Liber اللاتينية، أي «كتاب» تعني حرفياً «قشرة داخلية» أو «لحاء»، وأن كلمة بيبلوس biblos اليونانية مأخوذة أصلاً عن كلمة «بابيروس» وهي المادة التي كتبت عليها أقدم الكتب.

ونتيجة للقيمة العالية للمادة المستخدمة وللعملية المرهقة في كتابة ونسخ المخطوطات القديمة، أصبح امتلاك الكتاب امتيازاً لقلة مختارة من الناس. ولم يتم ذلك الانتشار الواسع للنصوص المكتوبة، إلا بعد اختراع الورق وفن طباعة الكتب.

وربما جاء اختراع الورق في القرن الثاني الميلادي على يد الصينيين، ففي هذه الحالة يصبح اسم المخترع معروفاً لدينا. كان اسم هذا الرجل «تساي لون». وهو الذي قام بأولى المحاولات لإنتاج الورق باستخدام لحاء الشجر والخرق والقنب وشباك صيد السمك.

وقد انتقلت معرفة الورقة في القرن الثامن الميلادي إلى تركستان من خلال أسرى الحرب الصينيين.

وفي بغداد أقامت الحكومة عام ٧٩٤ ميلادية أول معمل للورق. وعن طريق العرب انتقل فن صناعة الورق إلى أوربا حيث تم انتاج الورق بكميات تجارية لأول مرة عام ١٣٤٠ ميلادية في مدينة «فابريانو» الايطالية. وبعد حوالي مائة عام ساهم اختراع فن طباعة الكتب (الذي قام به الحداد الصيني «بي - شينغ» منذ القرن الحادي عشر الميلادي) على يد «يوهان غوتنبرغ» مساهمة كبيرة في فتح الطريق أمام الكتاب الحديث ووضع كنوز الأدب في متناول يد كل من يتطلع إلى المعرفة.

كان - وما يزال - الهدف الأساسي للكتاب هو نشر الأعمال الأدبية. فلا يمكن النظر إليه كوسيلة من وسائل نقل الأخبار. أما استخدام الكلمة المطبوعة في الاعلام عن المستجدات اليومية فلم ينشأ إلا في القرن السادس عشر من خلال «العلاقات» الدينية وكتيبات حركة الاصلاح.

ويعود صدور أولى الصحف بصورة منتظمة إلى عام ١٦٠٩ ميلادية. وقد صدرت هذه الصحف في أوغسبورغ Augsburg و«شتراسبورغ» Strassburg. والمعنى الحرفي لكلمتي Getidan في الانكلوسكسونية القديمة و«تسايتونغ» Zeitung بالألمانية هو الخبر أو «المستجد» Neuigkeit. ومع التطور الصاعد والمستمر للصحف، والحاجة إلى أسرع الوسائل لنقل المستجدات اليومية تطورت فيما بعد مكاتب الأخبار عن ناقل «البريد الأخير» إلى وكالات الأنباء الحديثة ووسائلها الفعالة في الارسال الالكتروني وغيرها.

ومن خلال البث المرئي والمسموع أصبحت الكهرباء وسيلة لنقل الأخبار، إذ تنقل للعين والأذن آخر الأخبار وبأقصر الطرق. ولم تعد المسافات الطويلة التي تفصل بين مناطق العالم تشكل عائقاً أمام تناقل الأخبار. فقد أصبح نقل الأخبار يتم - سواء بالوسيلة السمعية أم بالبصرية - بالسرعة نفسها.

ولكن رغم الأنظمة المعقدة لوسائل الاعلام الحديثة لا تزال الإنسانية تستخدم مجموعة كبيرة من وسائل الإشارة المغرقة في القدم. فالصواريخ التي يطلقها في الهواء ركاب سفينة غارقة، والأنوار التي تنظم سير القطارات، والإشارات المرئية التي تصدرها الأساطيل والجيوش البرية تذكرنا، بشكل أو بآخر، بالإشارات الدخانية والنارية التي استخدمتها الشعوب البدائية. فبوق الضباب وأحرف النقر المستخدمة في اشارات «المورس» تمت بصلة قربى وثيقة للغات الطبول التي تستخدمها المجتمعات غير المتحضرة. صحيح أننا نعيش عصر الراديو، ولكن مجتمعات عديدة في هذا العالم لم تصل بعد إلى هذا العصر.

الهوامش:

١ - آلة تقليدية يستخدمها سكان استراليا الأصليون في الصيد ، يطلقها الصياد وتعود إليه ثانية .

الفصل العاشر
مدارس دون كتب

- بدايات التربية والتعليم - طقوس التعميد البدائي للذكور والاناث، أساليبها وغايتها.
- جماهيرية التعليم عند البدائيين وطبقيته في ظل الحضارات القديمة.
- نماذج من الوصايا التربوية البدائية.

«ثقافة» و«معرفة» كلمتان متداولتان إلى أبعد الحدود في عصرنا هذا. ومن الأحكام التي تطلقها الأنماط الاجتماعية الزائلة على إنسان لا يحمل شهادة أكاديمية، انه أقل منزلة ممن يحملها. أما الإنسانية التقدمية فقد أدركت منذ وقت طويل وجوب توفير سبل التعليم الفكري المنظم لجميع المؤهلين لذلك، بغض النظر عن وضعهم المادي. وبذلك نصل إلى الوضع المثالي «للانطلاقة الموحدة» التي تحاول التربية الحديثة بلوغها، والتي عرفتها الشعوب البدائية منذ القدم. فقد كان القسر على البحث عن العلم التقليدي وتحصيله مفروضاً على جميع أفراد القبيلة. فلم يكن عند هذه الشعوب «أميون» (إن صح استخدام هذه الكلمة على الشعوب التي لم تعرف الكتابة). بينما لم يبدأ تطبيق التعليم الالزامي في الدول المتحضرة إلا في وقت متأخر نسبياً، في ألمانيا مثلاً عام ١٦٤٢، وفي فرنسا عام ١٨٠٦ وفي انكلترا عام ١٨٧٦. ويظهر من هذه التواريخ بوضوح كم من الوقت مضى حتى توصلنا إلى القناعة بضرورة أن يكون العلم - الذي لم تفتح أبوابه سابقاً إلا أمام نخبة من المحظوظين - مسألة عامة تخص الجميع. ففي مرحلة الوحشية لم يكن التعليم والتعلم مرتبطين بالأفراد الذين يملكون

الوسائل المادية اللازمة لذلك فقط، بل كان لكل فرد الحق في تحصيل المعرفة، مثله مثل الآخرين. ولم تعرف مدارس الشعوب البدائية السرعة والتعليمات الآلية الخاصة بعملية التعلم، تلك التي غالباً ما تضر بالتطور الحر للشخصية منذ اليفاعة.

وبما أن كل طفل كان ينمو ويترعرع في ظل رعاية والديه الدائمة، فان اللعنة التي أفرزتها الدول الرأسمالية، أي جرائم الشباب، لم تكن معروفة في الصحاري والبوادي ومناطق السافانا التي عاشت فيها الشعوب البدائية. ففي انطلاقته الفكرية كان الإنسان البدائي يشترك مع الحيوانات في قدرته على تعليم أبنائه المهارات المطلوبة للحفاظ على بقائهم دون أن تحول الضغوط المادية بينه وبين ذلك. ومن خلال ارتباطه الوثيق بالطبيعة لاحظ كيف يعلم الدب صغاره تسلق الشجرة التي تشكل عماد حياتهم. وكيف تعلم أنثى الدب صغيرها، بكل صبر وأناة، تنظيف علفه قبل التهامه، بالماء، وكيف يتولى كلب البحر دور معلم السباحة لتعليم صغاره فن العوم. وعلى هذه الشاكلة أصبح الإنسان البدائي بمثابة المعلم الذكي لأطفاله.

ورغم أننا لا يمكن أن نعتبر «فروع المعرفة» المتعلقة بالسلوك الظاهري «ثقافة» بمفهومنا الحالي، إلا أنها مع ذلك لا تخلو من قيمة فكرية. وليس هناك من شعب في العالم لا يعتبر أن تربية أجياله تقع في صلب واجباته الأساسية.

وتتخذ هذه المثل التربوية دائماً مظهرين: أولاً: توصيل المعرفة التقنية الضرورية للحياة ضمن إطار الثقافة السائدة، ثانياً، وهو الأهم: الوظيفة التي يجب أن لا نتوانى عن القيام بها، وهي: تعريف الطفل واليافع والشاب والفتاة بجذور القيم الأخلاقية والروحية والاجتماعية التي تشكل أساس الحياة الاجتماعية.

ولئن اختلفت الوسائل التي تتحقق عن طريقها هذه الأهداف باختلاف ألوان بشرة الشعوب واختلاف لغاتها ولهجاتها، إلا أن الأهداف تظل واحدة. إنه الشعور الداخلي للمسؤولين تجاه الجيل الصاعد، الذي يميز الإنسان عن الحيوان. ومن هنا لم يكن على هذه الدرجة من الأهمية أن الكلمة المنطوقة كانت تحل لدى الشعوب البدائية مكان الكتاب المطبوع وأن معلم الحرفة بمفهومنا المعاصر لم يكن له وجود آنذاك، لأن الآباء والأمهات، وبشكل خاص المسنين من الرجال، هم الذين كانوا يديرون دفة سفينة التربية بحكمة ووقار فوق تيار تقاليد القبيلة المتوارث.

والآن قد نسأل، على أي نوع من الحياة يقوم مربو الشعوب باعداد تلاميذهم الشباب دون وجود تاريخ مسجل؟ فرغم أن عالمهم لم يعرف معظم الآلات والتجهيزات التي نعتبرها نحن اليوم «لا غنى عنها» إلا أنه كان من جميع جوانبه أغنى وأكثر كمالاً وتعقيداً من عالمنا الحضاري هذا. فكلما كانت تركيبة اجتماعية ما، أقرب إلى مهد البشرية الأولى، كانت أقدم وأكثر عزلة، وبالتالي كانت مفاهيمها أبعد عن عالم التخصص بمفهومنا المعاصر.

وهكذا بشكل خاص قلما توجد حدود تفصل بين العالم المرئي والعالم غير المرئي. فالحجارة والصخور والنباتات والحيوانات والقمر والنجوم هي منافسة الإنسان وحاملة للقوى الصديقة أو المعادية التي يجب ضمان تأثيرها الرحيم من خلال استمرار اليقظة والحذر والسحر.

وحتى استخدام حاجات الحياة اليومية؛ مثل عصا الحفر والعزق ومصيدة الحيوانات وحجر الرحى أو سلال الحمل، كان متعلقاً بتقاليد سحرية ومحرمات «تابو» معينة قد تبدو لنا الآن فائضة عن اللزوم، لكنها كانت بالنسبة للإنسان البدائي حقيقة واقعة كما الليل والنهار والسمكة والطريدة وبذرة الأعشاب البرية. وكان عدم مراعاة مثل هذه القوانين غير المكتوبة - وفي الوقت نفسه ذات الأهمية الحياتية البالغة - يمكن أن يعني، في مجتمع يشعر بأنه مسؤول بمجموعه عن أعمال كل فرد ينتمي إليه، الاختلاف بين الحياة والموت.

فقبائل «زوني» مثلاً تكن تقديراً لجميع الأشياء والمواد باعتبارها «هوي» Hoi أو «أشخاص أحياء». كما أن قبائل «توباتولابال» في كاليفورنيا لا تجرؤ حتى على اقتلاع ولو جذر واحد من «نبتة جيمسون» Datura metelides دون إلقاء خطبة قصيرة إكراماً لهذه النبتة.

كما أن مكروهاً سيصيب قبيلة «كري» إذا ما اختصرت امرأة أو فتاة من القبيلة من أيام العزلة الشهرية المكرسة للقمر، قبل انقضائها كاملة. وبما أن خرق قوانين القبيلة المقدسة يهدد أمن المجموعة ككل - ولو من خلال إهمال فرد واحد منها - فإنّ مهام التربية لدى الشعوب البدائية ترتقي إلى مستوى الضرورة الحياتية للقبيلة بمجموعها.

يضاف إلى ذلك أن أخطار الطبيعة والتعطش الدائم والمتيقظ لدى أشباح لا حصر

لها للأخذ بالثأر والانتقام، تجعل من الضروري تربية النشء بروح الخشوع وبوعي للمسؤولية، تلك التي لا نعرفها في حضارتنا المعاصرة. وبناء على ذلك تبدأ التربية لدى الشعوب البدائية في وقت مبكر جداً نظراً للاهتمام والاحترام الواجبين تجاه القوى التي تتحكم بالعالم. وحالما انتهت الطقوس التي يحافظ عليها بدقة، والتي ترافق الولادة والتسمية، وبدا أن الحياة الطبيعية للمولود قد أصبحت مضمونة، يترك مهده وجسده - بمساعدة التمائم - للصلوات والتمنيات الطيبة ورحمة القوى غير المنظورة. ويكون الاشراف على التطور الروحي أكثر عناية منه إلى التطور الجسدي. وشيئاً فشيئاً تنقل إلى ذهن الطفل حكمة العصورالخالية. وحتى الطفل الرضيع تحمله أمه بصورة متواصلة عندما تذهب لاداء مهامها اليومية في جمع الحطب والحشائش وفي البذار والحصاد وضع الأدوات المنزلية. فسواء ركب الطفل على حوضها كما هو في افريقيا، أو على ظهرها كما هو لدى الهنود الحمر، فانه يشارك في جميع حركاتها وأعمالها وسرعان ما يمد يديه الصغيرتين إلى الأدوات التي تعمل بها.

وبعينيه المفتوحتين المتفحصتين يتابع حركاتها أثناء الرقصات المقدسة وطريقة تعاملها مع المواد اللازمة لأداء الاحتفالات الطقوسية، ويسمع أحاديثها مع الأرواح ومع الموتى.

وفي مراحل نموه الأولى يتبع الطفل البدائي أمه اتباعاً مطلقاً، وهذه تغدق عليه من الأسماء والالقاب المحببة وتظهر له محبتها بشتى الأساليب التي قد تخطر بالذهن.

وعلى سبيل المثال ينام الأطفال الذكور لدى قبيلة «شيكزو» الهندية الحمراء على فراش مصنوع من فراء الفهد لكي ينتقل إليهم ذكاء وقوة هذا الحيوان، بينما تنام الإناث من الأطفال على فرو الغزلان ليكتسبن بالتالي طباع الظباء من «رقة ونعومة».

أما العقاب الجسدي فيمكن القول إنه غير معروف تقريباً لدى الشعوب البدائية، رغم أن لديها عدداً كبيراً من وسائل الردع. ومن هذه الوسائل غير الضارة، وفي الوقت نفسه الفعالة، التي تتبعها قبائل (بانغقه) يأتي «صوت» شبح هائل يسمعونه للطفل أمام البيت. (يقوم باحداث هذا الصوت بعض الفتيان أو الرجال بمساعدة ما يسمى «بشيطان الغابة» من أجل إخافة الأطفال المشاغبين وإيقاظ الاحترام لديهم لل«أوزيبونقو» أي مفترس الأطفال. ولذلك يقوم شخص ما بضرب الأرض بعمود خشبي في الخارج فيقول آخر بصوت خافت «إنه الرجل الشرير... لقد أتى»).

إن مثل طرق التربية هذه توقظ المعرفة لدى أصغر الأطفال بقوة الأشباح غير المرئية أو المعروفة. وهناك تقليد مشابه متبع لدى قبائل «تشيبغا» الهندية الحمراء، إذ يُحذر الأطفال المشاغبون من مخالب الدب التي «تأتي وتأخذهم». وأحياناً يكون هذا التهديد حقيقة عندما يقوم رجل مسن بدفع أفعى سامة مثبتة على خشبة إلى داخل الخيمة، الأمر الذي يُحدث صدمة رعب قاسية عند الأطفال المذنبين.

وأحياناً يُستعمل الضرب الخفيف كوسيلة تأكيد. لكن هذه الوسيلة لم تكن يوماً عقوبة بدنية قاسية. أما العقوبة البدنية الخاصة بقبائل «كري» والتي تقوم فيها الأم بخدش ساقي وفخذي الطفل غير المهذب بفك سمكة كبيرة مسنن إلى أن يسيل منه الدم، فتعود إلى الاعتقاد بأن مثل هذا الفصاد يفيد الطفل. ولا حاجة للتأكيد هنا بأن على أطفال جميع القبائل مراعاة القواعد الصحية النافذة في مجتمعاتهم. وأكثر ما تبرز التربية الصحية لدى الاسكيمو وعدة قبائل هندية حمراء أخرى حيث يشارك حتى أصغر الأطفال عندها في حمامات البخار وحمامات الأنهار، حتى ولو تطلب ذلك كسر طبقة الجليد للحصول على فتحة في النهر من أجل السباحة.

وكما هو الحال عندنا فان لنا في الشعوب البدائية مثالاً جيداً على تربية الأطفال بروح الكياسة والأدب والتهذيب والاتيكيت، إذ لديها تصورات غاية في التعقيد، فالشعور بالحياء لا يولد في الإنسان بصورة فطرية كما تدل على ذلك أشكال التعبير عنه في مختلف أنحاء العالم. فليس هناك من فتاة في قبيلة «نور بابورا» في غينيا الجديدة تشعر بحرج أو حياء من عريها. ولكن الجميلة تحمر من الارتباك الذي لا حد له إذا ما رآها أحد صدفة بدون المنديل الذي تضعه كل أنثى من سكان القرية مراعاة للحشمة.

وكثير من الشعوب الافريقية أو الامريكية الجنوبية التي تتجول عارية بكل حرية ودون أي إحراج، ينتابها أعمق الشعور بالخجل إذا ما شوهدت أثناء تناولها الطعام.

وقد ذكر «تيسمان» عن حرية التفكير غير العادية لدى قبيلة بانعقه في غرب أفريقيا بقوله: إن كلمة «أوسون» أي «الشعور بالحياء» تتردد بلا انقطاع على ألسنتهم وأنهم يحتقرون «قلة أدب» الباحث الأبيض الذي يفهم ألاعيبهم اللفظية الدقيقة مثل «سأذهب للبحث عن قليل من حطب الوقود» أو «سألقي نظرة سريعة على الفخاخ» التي يستعملونها للتعبير بشكل غير مباشر عن قضاء حاجة طبيعية.

وإذا ما قام أحد أفراد قبيلة «بانغفه» بزيارة لقرية غريبة فانه أول ما يسأل بطريقة لبقة ومهذبة عن «مسكن زعيم القرية» أو أنه يطرح السؤال التالي «إلى أين سأتوجه إذا ما تعقبني أحد؟» وما كل هذه العبارات إلا صيغ «مهذبة» لكلمة «ايدوك» المحرجة وتعني «البيت الصغير ذو القلب» التي لا يتلفظ بها رجل مهذب من القبيلة مطلقاً. ويمتد هذا الشعور التهذيبي الضيق حتى إلى عالم الطيور. إذ يعتقد أفراد قبائل «يامانا» في أرض النار أن أسلافهم قد أهانوا منذ سنوات عديدة طير «لاكسوقا» ذا الحساسية المتناهية بصيحاتهم: «لقد جاء الربيع! فها هو عصفور لاكسوقا يطير!» وكان ظهور هذا الطير يبشر بقدوم فصل الربيع.

بعد توجيه تلك «الإهانة» أرسل عليهم العصفور - الذي أصابه المرض بعد ذلك - شتاء ثانياً بدلاً من الربيع، مات بثلجه وصقيعه العديد من أفراد قبيلة «يامانا». ولذلك عندما يرى الآن أحفاد هؤلاء الأجداد المتهورين طيراً من طيور «لاكسوقا» يبدون أمامه نوعاً من الصمت الرهيب ويمتنعون عن إغاظته بالصرخات الفضولية.

كما تتطلب عادات التسليم لدى الشعوب البدائية من المرء أن يكون أكثر حذراً وحيطة، لأن عدم مراعاتها يفضي إلى الشر أو المرض أو الحرب. فبعض الشعوب تستلقي على الأرض بمجرد رؤية غريب، إلى أن يقترب أكثر فأكثر لمعرفة نواياه السليمة. والبعض الآخر يبدي احترامه بالركوع أو بالاستلقاء الكلي على الأرض. وهناك أيضاً نزع القبعة أو خلع الحذاءين أو قطع ملابس أخرى كتعبير عن مظاهر التسليم. وأحياناً يتطلب التسليم على قادم تحاشي نظرته بإدارة الظهر إلى جهته. وكثير من الشعوب ترى أنه ليس من التهذيب حتى مجرد الكلام مع الغريب، بل تدعوه إلى وجبة طعام، ولا تتحدث إليه إلا بعد أن يرتاح.

عندما زار الباحث «ستيفنسون» قبيلة في مقاطعة «ماكنزي» جاءت كل القبيلة للترحيب به تقدم أفرادها فرداً فرداً كل بدوره ليحيي الباحث بعبارة: «اسمي فلان.... وقد جئتك بروح الصداقة. لا أحمل سكيناً. ما اسمك؟»، ومن أكثر صيغ التسليم انتشاراً عادة حك الأنف بين اثنين يسلمان على بعضهما البعض، ففيها إشارة تعاطف وحب.

قبائل «ميسكيتو» في هندوراس «تقبل» أطفالها على الأنوف، ويسمون ذلك «سماع أنفاسهم الطيبة». وقد وجد أحد الباحثين عاش بينهم فترة طويلة «أن طريقتنا في التقبيل مكروهة عندهم ويعتبرونها نوعاً خفيفاً من الكانيباليزم»[(١)].

وطبعاً يراقب الطفل منذ نعومة أظفاره، بكل دقة، كل هذه العادات ويتقبلها بدون أي تلقين، فاذا ما ترعرع بعد ذلك فانه يتمتع خلال السنوات الأولى بكل المزايا والحقوق التي تتناسب مع سنه، لأن فترة ما بين الولادة والنضج الجنسي تعتبرها الكثير من الشعوب البدائية حالة ملائكية من حيث انعدام المسؤولية، فالطفل في هذه المرحلة لا يمكن أن يرتكب إثماً، وجميع تصرفاته الشاذة تغفر له ببساطة وسرعة.

وقد ذكر «تيسمان» أن كثيراً من شعوب غرب افريقيا مثلاً تعتبر الطفولة: «مرحلة أولية للوجود الإنساني تشبه الشرنقة التي تخرج منها الفراشة». وبما أن قبيلة بانغقه تقسم جميع البشر إلى مجموعتين: الصالحين «ديبين» والطالحين «بونغوس» فلا تتردد في جعل جميع الأطفال في صفوف الفئة الأولى، أي الصالحين «ديبين».

وقد ذكر الباحث نفسه أن رجالاً يبلغون من العمر خمسة وعشرين عاماً حاولوا الاعتذار عن خرقهم للاعراف السائدة بقولهم: «ما زلنا أطفالاً» والأطفال بطبيعة الحال في عداد الصالحين.

ومثل هذا التصور موجود أيضاً لدى الهنود الحمر. كما يدل عليه ظهور ما يسمى بمهرجي «كويمسي» أثناء الاحتفالات المقدسة التي يقوم بأدوارها رجال كبار ولكن «كأطفال أسطوريين»(٢).

ولكن عندما ينتهي العصر الذهبي للطفولة الأولى، يترك الأبناء مجلس الامهات الناعم ليلتحقوا بآبائهم ويتعلموا منهم فنون القنص ونصب الفخاخ وصيد السمك والحرب، ويساعدهم الاحترام المتأصل فيهم لآبائهم على اتقان استخدام هذه الأسلحة والأدوات التي سبق أن لعبوا بنماذج عنها وهم صغار، وتعلموا طريقة استخدامها بدقة، كما يفعل الكبار تماماً. فقد سبق لهم أن نصبوا فخاخاً صغيرة اصطادوا بها جراداً وفئراناً، وهذه عبارة عن نماذج صغيرة لتلك التي ينصبها آباؤهم. كما أن أدوات صيد السمك وأدوات زراعة الأرض والجعب التي توضع فيها الطرائد والأقواس والطبول ونماذج مصغرة لأدوات أخرى لا حصر لها، تقوم بوظيفة وسائل تعليمية ممتازة للجيل الجديد. ومن الوارد أيضاً أن يتقن الصبي باشراف والده وأصدقائه، وبسرعة جميع المهارات التقنية الضرورية للحياة. والأمر نفسه ينطبق أيضاً على الفتيات اللواتي يتعلمن (تقليداً أول الأمر، ومن ثم حبا بالطموح والتفوق) فنون الامهات بدءاً من صنع

الأحذية الجلدية الناعمة وجمع ثمار البلوط والحياكة والنسيج، حتى أسرار فن التجميل.

وما من شعب لا يسعى باستمرار لتلقين أطفاله شتى فروع المعرفة، المادية منها والفكرية، في مراحل السن المبكرة. وليس تعليمهم مجرد الصنعة اليدوية والمهارات الفنية وانما اطلاعهم أيضاً، من خلال الرهبة والخشوع تجاه الأسلاف، على معرفة أرواح الحيوانات وبقية أرواح الطبيعة، وعلى جميع الأسس التي تقوم عليها تقاليدهم ومعتقداتهم.

وهكذا يترك الأطفال تدريجياً حياة البراءة، شبه الملائكية، ويدخلون في سن البلوغ المعقد. وهنا عليهم - كما هو الحال في نظامنا الاجتماعي - أن يواجهوا مختلف أنواع المشاكل التي تتجلى في الشقاوات والاختلالات التي تتميز بها هذه المرحلة من العمر. فألاعيبهم لم تعد الآن بريئة، أو لنقل تصبحُ أقل براءة وتصرفاتهم تغدو انعكاساً للمستوى الأخلاقي للقبيلة. وأحياناً يصبحون منغلقين ومنكمشين إلى أبعد الحدود، أو يقلدون تصرفات الكبار في سن يجب أن يعرفوا فيه بعض المسرات التي لا ضرر منها، ويتطور أطفال الكثير من الشعوب الافريقية والميلانيزية وغيرها بسرعة، بينما يفضل أطفال شعوب أخرى البقاء أطول فترة ممكنة في سن البراءة الذي لم يعد يتناسب بأي شكل مع أعمارهم. وغالباً ما يقومون في هذه السن بتقليد الطقوس السرية التي يمارسها الكبار بنوع من السخرية «التجديف» فبينما يقوم الآباء في قبيلة «بانغفة» على سبيل المثال، بحفظ جماجم أسلافهم في براميل خشبية ضخمة بكل وقار وخشية، يقوم أطفالهم بصنع حاويات صغيرة من سعف النخيل، يضعون فيها جماجم قرود ويقلدون بها الكبار في ممارسة رقصات الجماجم المقدسة التي يقومون بأدائها في مناسبات الدفن، ويلتمسون بها العون والمساعدة من المتوفى.

في حالات كهذه يتخذ الأهل موقفاً مغايراً تجاه الأطفال، لأن الأعمال الصبيانية لم تعد تغتفر بكل هذه السرعة، بل يقابلونها بحزم شديد، طالما أن هؤلاء الصبية لم يصبحوا بعد أعضاء في مجلس البالغين، أي لم يخضعوا لامتحان التعميد البدائي الذي يدخلون بعده هذه المرحلة، إذ تسلب منهم امتيازات الطفولة حتى قبل أن يعتبروا في عداد البالغين. وتقوم الأسر عادة باستغلال هذه المرحلة الانتقالية إلى أبعد الحدود، فتلقى فيها على كاهل الفتية واجبات غير مقبولة، إذ يقوم اخواتهم الأكبر سناً منهم

بتكليفهم بأداء مختلف أنواع الخدمات، لأنهم ما يزالون محرومين من الامتيازات التي تقتصر على البالغين، فعلى سبيل المثال لا يسمح لأي صبي من قبيلة - اوهلاي - بايقاذ النار طالما لم تعترف به القبيلة كرجل، لأن ايقاد النار تعبير عن قدرة الرجال فقط. بينما يجب على صبيان قبيلة - كريك - الهندية الحمراء «اشعال الغليون، وجمع الحطب، واعداد شراب المحاربين الأسود، والقيام بجميع الأعمال الشاقة في ساحة القرية». وقد اعتقد الباحث القديم «سوان» بأن العمل العبودي قد «جرح كبرياءهم بحيث انهم تخطوا جميع العقبات لكي يحظوا بفروة رأس، أو كما يسمونه «جلب الشعرة إلى البيت» وهذا عمل ينظر إليهم بعد انجازه كرجال. وحالما يبلغ الفتى أو الفتاة سن البلوغ، تجعل معظم الشعوب من ذلك مناسبة رسمية لقبوله أو لقبولها في مجتمع الكبار بمظاهر احتفالية. أما عدم اجراء احتفالات التعميد البداعي فهو الاستثناء وليس القاعدة. وحتى في الأماكن التي لا تعرف شعوبها مثل هذه الاحتفالات، كما هو الحال لدى الاسكيمو في خليج هدسون، كما ذكر «تورغيتي»، أو لدى قبائل «توباتولابال» في كاليفورنيا كما ذكر «فوغلاين»، نرى مثلاً أن فتيات هنود كاليفورنيا الحمر يتعلمن جميع المسائل الخاصة بجنس النساء من امهاتهن وجداتهن تعليماً منتظماً، وان الرجال المسنين من القبيلة يلقون محاضرات على الفتيان حول عادات القنص والسلوك العام. وذكر عن الاسكيمو بأن زي الفتيات يتغير عند بلوغهم سن النضج وانهن يلبست القبعات «كبقية النساء البالغات». أما مسألة ان كان هناك احتفال رسمي أم لا، فمن المؤكد أن لسن البلوغ لدى جميع الشعوب ارشاداً منظماً وتعليماً لجميع المهارات التقنية للكبار، وتربيةً معينةً على التصورات الاخلاقية والدينية، وأن الفتاة أو الفتى لا يعتبران أعضاء حقيقين في المجتمع يتمتعان بكافة الحقوق والواجبات، إلا عندما يتقنان العمل اليدوي ويتعرفان على المباح والمحظور في عرف الكبار.

وحيث يوجد «تعميد» أو طقوس «تثبيت» تسبق ذلك فترة محددة من التعليم المنظم يتألف برنامجها بالدرجة الأولى من تربية جسدية ومن ثم التعرف على المعتقدات والطقوس الروحية. وتنتهي هذه الفترة الارشادية باجراء طقوس التعميد الاحتفالية.

وقد قيل وكتب الكثير من هذا الاحتفال الهام، الذي يصبح خلاله الشباب أعضاء

رسميين في مجتمع رجال القبيلة. ويعتبر الباحث السويسري «فيلكيس شبايزر» من خيرة العارفين في هذا المجال، إذ يتبنى هذا الباحث وجهة النظر القائلة بأن المغزى الأعمق للتعميد البدائي يمثل قرباناً لأهم المواد الغذائية في القبيلة. لأن هذه النباتات والحيوانات الضرورية لاستمرار الحياة تحرسها قوى اسطورية خارقة، فلا تهب بركاتها إلا لأولئك الذين أصبحوا أهلاً لذلك، من خلال طقوس المعمودية هذه. فهذا الفتى الذي قام أهله بتغذيته مذ كان طفلاً، عليه الآن، وهو على عتبة النضوج، أن يتوصل إلى معرفة نعمة قوى الخصوبة القادرة، قبل أن تمنحه الغذاء الذي لا حياه له بدونه. وخلال فترة تعليمه الواقعة ما بين الطفولة والتعميد لا يسمح للفتى بلمس هذه المواد الغذائية الضرورية التي تعتبر محرمات، «تابو» بالنسبة له. وتعتبر هذه القوى السحرية، التي تشرف على الحيوانات والنباتات التي توفر الغذاء في عرف الثقافات القديمة، عبارة عن أرواح الأسلاف. وهذا ما يفسر إلى حد ما طقوس تقديس الأجداد الاحتفالية التي نقلتها فيما بعد ديانات العديد من الثقافات الراقية. وقد قامت آلهة الخصوبة لدى الشعوب التي تمارس زراعة الأرض بالدور الذي كان يقوم به الأسلاف، رغم أهمية هذا الدور باعتبار أن الأسلاف يشكلون وسيطاً بين آلهة الخصوبة وبين البشر. والأسلاف هم أولئك الذين يساعدون الشاب الفتى، الذي وصل مرحلة البلوغ، في كسب بركة القوى الخارقة. كما أن القدرات الجسدية التي ترافق نمو الفرد، ما هي إلا منحة من الأجداد. ولكي يحصل على هذه المنة يجب على الطفل أن «يموت» أولاً لكي يحيا بعد ذلك بالغاً، ويتم التعبير عن هذا التحول بصورة رمزية أثناء جميع حفلات التعميد البدائية. ومن هذا المنطلق الفكري تطور، وبشكل منطقي، مسار فترة الاعداد التي تسبق حفلة التعميد النهائية. تبدأ هذه الفترة بالمحرمات الغذائية، إذ تقوم أرواح الأسلاف بسرقة «الطفل» لتجري له دورة تثقيفية قاسية بعزله جسدياً عن بقية أفراد قبيلته، ومن ثم تلقينه التعليمات من قبل رجال متقدمين في السن يلبسون أقنعة، يبدون بها كالأشباح. وتحتل التعليمات والارشادات حول الغذاء واعداده مكاناً هاماً في المواد التي يتعلمها الفتى، إذ يخضع الجسد الذي دخل مرحلة البلوغ لنظام قاس إلى أن يصبح بالامكان تناول «القربان» بإشراف أحد «الأشباح» التي تمثل أرواح الأجداد. وبعد اتمام مراسم التعميد الرسمية يرفع حظر تناول المحرمات الغذائية، ويصبح المرشح رجلاً معترفاً برجولته من قبل بقية رجال القبيلة.

ولكن الخضوع لهذه الطقوس لا يقتصر فقط على الصبيان، فالثقافات القديمة بشكل خاص، حيث للصيد (الذي يمارسه الرجال) أهمية في حياة الجماعة كتلك التي تجمع النباتات البرية (الذي تمارسه النساء) تتطلب من كلا الجنسين الخضوع لدورات تثقيفية عند ادراك سن البلوغ ولكن بشكل منفصل. أما لدى الثقافات الزراعية، حيث تفوق أهمية النباتات المزروعة أهمية حيوانات القنص إلى حد بعيد فالسيادة والأهمية فيها لطقوس تعميد الفتيات، وليس لتلك التي للصبيان.

وعند اعداد الفتيان يجب عليهم أن يبرهنوا قبل كل شيء على انهم يمتلكون القوى الجسدية التي يجب توفرها في الرجال. وهناك اختبارات جرأة متنوعة الأشكال يجب أن يؤديها المرشح. كما يأخذ الموت الرمزي للطفل قبل خلقه من جديد كرجل بالغ، شكل «الاستشهاد» الحقيقي. وتنقضي فترة دورة الاعداد الجسدي والفكري للمرشح في مكان منعزل في البرية، بعيد عن ترف المسكن، وبعيد أيضاً عن الجنس الآخر. ويجب على الفتيان الخضوع لتدريب في أقصى درجات الصعوبة، تحت اشراف رجال كبار في السن، يتولون القيام بدور الأشباح. أما نقطة اوج فترة الاعداد هذه فيبلغها المرشح عند الكشف عن حقيقة التعاليم الاسطورية المقدسة للقبيلة التي لا تتطلع النساء على أسرارها أبداً. وبعد التوصل إلى تلك المعرفة يصبح الفتيان جاهزين لتناول القربان المقدس. وليس هناك من سن محدد يتعين على الشخص أن يؤدي فيه مثل هذا الامتحان، إذ يمكن أنْ يكون المرشح في سن التاسعة أو العاشرة أو الخامسة عشرة أو حتى الثامنة عشرة وأحياناً يضطر البعض إلى الانتظار ريثما يصبح عدد «التلاميذ» كافياً لالحاقهم بدورة جماعية. وفي بعض الأحيان قد تلعب عوامل خارجية أخرى في تقديم أو تأخير موعد اجراء طقوس «التعميد» هذه، مثل الطقس أو صعوبات توفر المواد الغذائية.

ولكن كيف تجري هذه الطقوس بالواقع، بما أنها تعتبر من أقدم مظاهر حياة القبيلة ويحافظ عليها بأقصى درجات السرية، فانه في غاية الصعوبة التعرف على المسار الدقيق لمرحلة الاعداد تلك أو لمسألة «القربان»، أي طقوس التعميد النهائية. فهذه الطقوس محظورة على الغريب كلياً تقريباً، بحيث أن وصفها من قبل باحث زائر يعتبر مهمة شبه مستحيلة.

ومن هنا فلا يمكن التوصل إلى معرفة أسرار طقوس «التعميد» البدائية تلك إلا عن طريق بعض الباحثين القلائل الذين عاشوا سنوات عديدة لدى هذه القبيلة أو تلك، ويمتلكون الثقافة الاثنولوجية الضرورية. إذن يجب أن يكون الباحث علامة في مجاله، كالباحث الانكليزي «هوويت» الذي دخل في قبيلة «كورناي» الاسترالية وقبل كفرد عادي فيها، فكان عليه بالتالي أن يخضع لطقوس التعميد تلك كشرط لقبوله في الجماعة، أو الباحث «الأب غوزينده» الذي فعل الشيء نفسه بين قبيلة «سيلكام» في أرض النار، في أقصى جنوب قارة اميركا الجنوبية. وتقدم معايشات هذا الأخير بين أفراد القبيلة التي اندمج فيها، مادة في غاية الأهمية حول جوهر وكنه التعميد البدائي.

فبعد مشاورات طويلة أدى أعضاء مجلس شيوخ القبيلة «الواجب الصعب» الا وهو تحديد موعد الفحص الذي سيتعرف فيه المرشحون الشباب على أدق أسرار القبيلة قبل أن يحق لهم نيل الامتيازات التي تقتصر على الرجال البالغين. ولم يكن هناك تحديد للسن، ولكن يشترط بالمرشح أن يتوفر فيه النضوج العقلي والجسدي الذي يعبر عنه تصرفه الواعي تجاه الجنس الآخر، وقوة الإرادة، وقبل كل شيء القدرة على الاحتفاظ بسر أؤتمن عليه وعدم اساءة استخدامه. وقد ذكر «غوزينده» كلمات الرجال المسنين: «نراقب الصبي فيما إذا كان قادراً على الصمت وترك لعب الأطفال الصغار والتوجه نحو الأعمال التي سيؤديها فيما بعد، فان لم تتوفر فيه هذه المتطلبات، ندعه ينتظر حتى العيد القادم!» فإذا كانت نتيجة هذه المراقبة ايجابية، يؤخذ الصبي كـ «كلوكيت» أو كمرشح. وعندما تتوفر مجموعة كافية من المرشحين يتم تحديد معلم لهم. وغالباً ما يكون هذا المعلم والد أكبر أفراد المجموعة سناً. يقوم بعدها شيوخ القبيلة باختيار المكان المناسب «للمدرسة» يقع في مكان معزول عزلة تامة، ويفضل أن يكون على أطراف غابة، تفصله عن مخيم القبيلة مسافة كبيرة ولكن على مقربة من الشاطئ، بحيث يمكن اصطياد ما يكفي من حيوان «غواناغو»[٣] والوز البري لتأمين المواد الغذائية للتلاميذ. بعدها يودّع الفتيان أسرهم حيث تقوم النساء بالبكاء والعويل.

تُصبغ أجساد المرشحين باللون الأحمر ويتبعون معلمهم إلى الـ «هاين» أو البيت الكبير أو المدرسة وهم «يرتجفون رعباً».

وفور وصولهم يظهر لهم «شبح» يعرفونه منذ وقت الطفولة، يرتدي قناعاً، يتحدى كُلاً منهم بدوره للعراك، انه «شو اورت» الهائل وعندما يُنهك التلميذ، ويصبح غير قادر على مواصلة العراك، وعرق الخوف يغطي جبهته، يطلب منه الرجال المجتمعون ان ينتزع قناع الـ «شو اورت» عن رأسه بيديه شخصياً. وبعد أن يقوم بذلك يتعرف، وهو في غاية الدهشة على وجه أحد أفراد قبيلة قام بدور «الشبح». وتحت التهديد بعقوبة الموت في حالة الاباحة بالسر الذي أؤتمن عليه، يخبره الرجال بأن الـ «شو أورت» الذي درج على إخافة النساء والأطفال بهيئته التي تثير الرعب، ما هو إلا كائن بشري مثله تماماً. أما روتين الدرس اليومي فهو على أقصى درجة من القسوة وحتى التربية البدنية المتبعة في مقر التعليم المقدس تطبق بكل حذافيرها. فلا يسمح للمرشح أن يتكلم أو يضحك أو يرفع نظره عن الأرض. وتقتصر تغذيته على الحد الأدنى ولا يسمح له التلذذ بمتعة النوم سوى لساعات قليلة. ويقضي أيامه ولياليه في الغابات وعلى الجبال في مشاوير بطيئة تحت اشراف رجل مسن.

ولكي يتقن فن استخدام القوس والسهم يجب على المرشح القيام بتدريبات منتظمة على الرمي على أهداف محددة له. وعندما يعود أخيراً منهكاً إلى «الكوخ الكبير» عليه أن يستمع، وهو في الوضعية الجسدية التي سبق وصفها، إلى محاضرات مطولة في السلوك والأخلاق وتاريخ القبيلة. وتدور هذه «المحاضرات» بالدرجة الأولى حول المواضيع التالية:

«النشاط في العمل، الاخلاص للواجب، احترام الكبار، الخضوع للوالدين والأقارب، الايثار والاستعداد للنجدة، حسن العشرة والاخلاص الزوجي».

والهدف من ذلك هو اعداد «رجال كاملين، محافظين ومخلصين لتقاليد القبيلة» وبعد وضع الأساس النظري يتم اطلاع المرشح على الأسرار الميثولوجية (الأسطورية) لدى القبيلة. وهنا يعلم أن ليس «شو أورت» فقط بل جميع «الأشباح» التي يرى فيها النساء والأطفال كائنات اسطورية ويخشعون لها، ما هي إلا رجال، مقنعون، يصبغون أبدانهم بالأحمر والأبيض والأسود ويضعون أقنعة على رؤوسهم. (التي تظهر كامرأة، أما أقوى هذه الأشباح فهما «خالبن» xalpen لإخافة النساء) وزوجها «شو أورت».

وقد تنقضي عدة أشهر حتى تحين نقطة أوج الدورة الدراسية، ويبدأ كشف أسرار

أسطورة الأصل وأقدس أسرار قبيلة «سيلكنام» التي يقصها كبار السن بعبارات: «في قديم الزمان كان هناك ناس كثر في الجزيرة الكبيرة. آنذاك تحولت الشمس والقمر والنجوم والرياح والجبال والأنهار هنا إلى بشر، كما نحن الآن».

وحسب هذه الأسطورة كانت السيطرة في القبيلة سابقاً للنساء، لكنهن خنَّ الرجال فقاموا بثورة عليهن.

وأثناء هذه الثورة اتخذت الحيوانات والشمس والقمر وبقية قوى الطبيعة هيأتها الحالية، وفرّت إلى الأماكن التي تقيم فيها حالياً. عقب ذلك اتخذ الرجال قرارهم باختلاق أسطورة الأشباح المقنّعة وذلك من أجل ضمان أمنهم في المستقبل. إذ يقوم الرجال أنفسهم منذ ذلك الوقت بتمثيل ذلك بين حين وآخر. أما من يفشي هذا السر فسوف يُقتل على الفور. ولكن ذلك لم يكن يوماً ضرورياً، لأن رجال قبيلة «سيلكنام» عرفوا كيف يحافظون على سرهم قروناً عديدة، وما زالوا حافظين له حتى الآن، عندما يخرجون خلال الأيام الأخيرة من فترة الاعداد تحت ضوء القمر ببطئ، وبمظهر احتفالي من «البيت الكبير» ويتجولون في المنطقة لإثارة الرعب لدى النساء وبرفقتهم حاملو الأسرار الجدد، أي المرشحون سابقاً، ثم يعودون إلى الغابة التي بدأوا منها.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن قبيلة «سيلكنام» واحدة من أكثر شعوب الصيد والجمع بدائية، فقد نعجب أشد العجب لعمق جديتهم وتركيزهم التربوي على القيم الخلقية. فإذا ما قورنت تلك، مع تعليمنا المدرسي «المنهجي» وقلة تركيزنا على التقوى الأخلاقية، لبدت هذه الصيغة التربوية «متوحشة».

كما تعطي طرق التعليم التي اطلع عليها الباحث «هو ويت» لدى الشعوب الاسترالية التي تمارس اقتصاد الصيد والجمع، انطباعاً لا يقل عن هذا الذي أعطته قبيلة «سيلكنام» في أقصى جنوب القارة الاميركية.

ويعتبر الاطلاع على أسطورة الأصل المقدسة للقبيلة، نقطة أوج مرحلة التعليم لدى جميع القبائل التي تقيم احتفالات التعميد البدائية. فعلى هذه الشاكلة يتعلم أبناء قبيلة «سوني» الهندية الحمراء التاريخ «الحقيقي» لعلاقاتهم المقدسة مع أقنعة «كاتسينا» التي يرتدونها أثناء موكبهم الاحتفالي الذي يقيمونه سنوياً في عيد الخصوبة.. فهذه الأقنعة «الالهية» تورث من جيل إلى جيل[٤]. وهكذا تحتل الكثير

من الظواهر الأسطورية، التي اعتدنا أن نطلق عليها اسم خرافات أو أساطير، مثل الحكايا حول الأقنعة المقدسة، في تفكير الشعوب البدائية، المكان نفسه الذي يحتله الدين والتاريخ والأخلاق في تفكيرنا نحن.

وتعتبر هذه الأساطير بالنسبة للشعوب البدائية «حقائق» ثابتة كحقيقة وجود «كارل العظيم»، أو كحقيقة قيام الثورة الفرنسية. ولكن في الواقع يفوق تأثيرها على مجمل الحياة الفكرية، ذلك بكثير، لأن أشباح الماضي، وأرواح الأسلاف، والقوى السحرية في الطبيعة، ما تزال شديدة التأثير، حتى على حياة الجيل المعاصر.

فإذا ما عوملت هذه الأرواح بفظاظة فانها تنتقم لنفسها أشد الانتقام. لكنها تغدق بنعمها على أولئك الذين يؤدون لها مظاهر الطاعة والاحترام. فهي تعيش، وهذا ما لا نستطيع قوله حتى عن أبرز عظماء تاريخنا السالف. ولهذا السبب فان للطقوس المكرسة أهمية كبيرة في حياة كل فرد من أفراد القبيلة.

أما حقيقة أن الأقنعة المقدسة لهذه الأشباح يرتديها بشر أحياء فلا تضر أبداً بصفاتها الالهية.

تركز بعض الشعوب تركيزاً قوياً على عامل البعث بعد الموت أثناء أداء طقوس التعميد البدائي. فغالباً ما تصبغ أجساد المرشحين في آخر مرحلة اعدادهم، من قمة الرأس حتى أخمص القدم، باللون الأبيض للدلالة على انهم أثناء تلك الفترة الانتقالية لا يعتبرون في عداد الأحياء، (فطفولتهم أصبحت ميتة) فلم يكونوا قبل تناول القربان مع آلهة الخصوبة بشراً، وإنما مجرد كائنات أشبه بالأشباح. ولا يقتصر الأمر قبل أداء امتحان البلوغ على إثارة تفكيرهم من خلال كشف أسرار في غاية الأهمية، بل يتعدى ذلك إلى تعرضهم أحياناً لتعذيب وحشي شديد، عليهم تحمله.

والفظاعة في هذا المجال تتجلى في طقوس التعميد التي تقيمها قبائل «ماندان» الهندية الحمراء سنوياً والتي كانت في السابق تتميز بشكل خاص بعادة ما يسمى بـ بوك – هونغ "Pohk Hong" أو الكلاليب المتأرجحة إذ تحفر خدوش في أماكن متفرقة من جسم المرشح تسمح بادخال الكلاليب اللحمية. ويقوم بذلك رجل مقنّع غير معروف بالنسبة للشاب الذي تجرى له العملية. وقد وصف الباحث «ماك لويد» هذه العادة على الشكل التالي: «يقوم بيت «الماندان» المقدس على أربعة أعمدة. وتربط الكلاليب اللحمية التي ستثبت في جلد الضحية بحبال مربوطة بأحد الأعمدة الأربعة وتشد نحو الأعلى.

يكون الفتى عارياً لكنه يحمل في يده كيساً طبياً. ودرعه يتدلى على أحد الكلاليب المغروزة في جلده. وحالما وصل إلى قمة العمود يتركه مساعده ليتأرجح بحركة دائرية حول العمود يغيب أثناءها عن الوعي. وحالما غاب عن الوعي يصرخ الحاضرون: «مات»، فيقومون بانزاله ويسجونه على الأرض. ومن غير المسموح به أبداً تقديم أية مساعدة لمتأرجح غائب عن الوعي، إذ يُترك مستلقياً خارج البيت المقدس حيث سقط إلى أن يموت (وهذا ما يندر حدوثه) أو يعود بنفسه إلى وعيه. ويعتقد المشاركون في هذا الاحتفال أن الروح العظيمة اما أن «تأخذه» (أي يموت) أو توقظه ليعيش حياة جديدة».

بعد أن يتعرض المرشح لهذا التعذيب، اكراماً للروح العظيمة، يضحي لها أيضاً بصغرى أصابع يده اليسرى.

والفظاعة نفسها تقريباً سبق للباحث «تيسمان» أن وصفها عند الحديث عن التعذيب الذي يتعرض له الشاب في قبيلة «بانغقه»، إذ يُؤتى بمائتي عش من أعشاش نوع خبيث جداً من أنواع النمل إلى «البيت المقدس». وبالإضافة إلى قرصات هذا النمل يجب على المرشح أن يتحمل ملامسة نوع من النبات السام ينتج عنها ظهور فقاعات على جلده. ويتصاحب ذلك باطلاق صيحات: «نقتلك». وقبل أن يبدأ المرشحون مرحلة العزلة تصبغ أجسادهم العارية بلون الموت الأبيض.

وتغطى أعضاؤهم التناسلية بأغطية مزينة بالريش ويحملون معهم «اوكسيلوفونا» يستخدمونه بشكل خاص لهذا الغرض، تطرد الأصوات الصادرة عنه جميع أفراد قبيلتهم من قربهم. وعندما يحققون أخيراً الاعتراف بهم كرجال في القبيلة يعودون إلى ذويهم مصبوغين باللون الأحمر، لون الحياة والسرور.

إذا ما فكرنا بطرق التعذيب المتبعة هذه لتأديب مرشحي التعميد البدائي، لرأينا أن خيال الشعوب البدائية في هذا المجال لا ينضب.

فقبائل «النوير» في منطقة النيل تقوم بشق جبهة الفتى بشكل عرضاني، وقبائل «نور بابوا» في غينيا الجديدة تخدش الجلد بحشائش حادة وتضرب الفتيان بعيدان لها أشواك. وليست عادة اجراء الختان أثناء التعميد البدائي، التي وصفها عدد من الباحثين بأنها «خصي رمزي»، بالأصل سوى شكل آخر من صيغ الموت الرمزي.

فبعد أن يؤدي الشاب هذه الامتحانات العسيرة يشعر بالفعل بأنه أصبح إنساناً جديداً. فالصيام الطويل الذي يجب أن يقوم به، والتعليمات التي يتلقاها، وتحطيم تصورات طفولته من خلال اطلاعه على أسرار قبيلته الأسطورية، وكذلك الشعور بأنه قد اجتاز مرحلة التعميد وكل العذاب الذي رافقها، يمنحه فخراً بكرامة الرجولة، التي لن تفارقه طيلة حياته المقبلة كلها. وفي روح هذا الفخر يربي هو أيضاً أبناءه، ويفعل جل ما يستطيع، ليصلوا إلى التعليم الضروري لهم ليعدّهم إلى الحدث الكبير في حياتهم، الذي هو التعميد.

وكما تشير هذه الحقائق، فقلما يستطيع المرء الحديث عن تعليم مختلط أو تربية جماعية تضم كلا الجنسين. فالنظام القاسي في أداء تمارين الجرأة، والاختلاف الكامل بين المواد التي تدرّس للفتيان وتلك التي تعطى للفتيات، والتنظيم الصارم للعلاقات الجنسية، وقبل كل شيء الأهمية السحرية «للمحاضرات» التي تلقى في البراري «الجامعات»، تمنع منعاً باتاً مشاركة كلا الجنسين في الدورات الدراسية. ففي هذا الوقت يتلقى كل من الشباب والفتيات أسراراً معينة ينبغي الالتزام بالحفاظ عليها مدى الحياة، لأن الحفاظ عليها مسألة تهم مجمل الحياة الفكرية للقبيلة. وتتطلب هذه الأسرار عزلاً تاماً للجنسين وخاصة أثناء طقوس التعميد التي تعيد تكوين الجسد والروح.

وبما أن البلوغ الجنسي لدى الفتيات يفصح عن نفسه من خلال عملية فيزيائية واضحة ومحددة فان كثيراً من الشعوب ترى في الحيض الأول تعبيراً عن بلوغ سن النضج.

وهناك عرف منتشر في جميع أنحاء العالم، وهو عزل الفتيات والنساء شهرياً، أثناء حدوث الدورة الشهرية، في أكواخ صغيرة، عن بقية أفراد القبيلة، حيث يترتب عليهن في هذه الحالة أن يعشن في عزلة تامة، يتناولن الطعام أثناء هذه الفترة من صحون خاصة ويستعملن أدوات وآلات خاصة (غالباً ما تحرق بعد استخدامها) ثم يعدن بعد اغتسال التطهير إلى قبيلتهن بثياب نظيفة.

أيضاً يمكن هنا تفسير هذا العرف بأنه سلسلة رمزية من «حالات الموت» والانبعاث من جديد، لا تنقطع خلال سنوات النضوج الجنسي. وأثناء فترة الحيض

تفرض العزلة التامة عن الجنس الآخر. وأي خرق لهذا القانون سوف يسبب المرض أو الموت للفاعل أو حتى للقبيلة كلها.

ويُعتبر بلوغ النضج الجنسي حدثاً مفرحاً. ففي افريقيا يُستقبل هذا الحدث بالغناء والرقص. وقد قدم الباحث «برايتكويف» وصفاً لاحتفال من هذا النوع أقامته قبيلة «كباندو» في توغو، غنت فيه الأغنية التالية اكراماً لفتاة اسمها «زود زيفيكو»:

أيتها الخضار الطازجة

أيتها الخضار الطازجة

زود زيفيكو تحتفل بسن بلوغها

ذهبت إلى هناك لأراها

أبوها وأمها غنيان

فقد طبخا - اكراماً لها - دجاجة وحساء.

أما في غينيا الجديدة، فتنهال الهدايا على الفتاة بمناسبة حيضها الأول، كالملابس والأساور والقلائد النفيسة المصنوعة من أسنان الكلاب. ولكن قبل أن تتلقى هذه الهدايا عليها أن تجتاز دورة تدريبية معقدة تتعلق بالدرجة الأولى بالمهارات البيتية وتاريخ القبيلة. وبعد فترة الإرشاد هذه يحزون في ثدييها الرموز المقدسة للهلال. وعليها بعد ذلك أن تتوجه إلى البحيرة الشاطئية حيث تقبع جميع المرشحات في ماء ضحل لتمشي نساء مسنات فوق أجسادهن الممددة.

أما الدروس النظرية فغالباً ما تستمر لفترة تزيد عن الشهر. وفي قبائل «مبايا» الهندية الحمراء (في باراغواي) تقوم الأم بتلقين ابنتها هذه الدروس.

وكذلك ينظر الهنود الحمر في أميركا الشمالية إلى بلوغ الفتيات على أنه مرحلة هامة من مراحل العمر. فعند قبائل «أباخن» مثلاً نرى أن طقوس تعميد الفتيات أشد تعقيداً بكثير منها في تعميد الصبيان. إذ تقوم بنات القبيلة بملاحقة وضرب «أختهن». وعلى المرشحة كذلك أن تخضع لامتحان صعب، فعليها أن ترقص فوق غطاء نوم جديد وعلى ايقاع الطبل يلاحقها أثناء ذلك المهرجون والشياطين المقنّعون.

ومع تأثير النفوذ المزايد للجنس الأنثوي لدى ما يسمى بالثقافات الزراعية، التي تتبع نظام حق الأمومة، اتخذت مظاهر الاحتفال ببلوغ سن الرشد لدى الفتيات صيغاً

أكثر أهمية، ويتجلى ذلك بشكل خاص في غرب افريقيا حيث تقام احتفالات في غاية الفخامة اكباراً لبلوغ الفتيات.

تطورت عادة عزل الفتاة خلال فترة تعليمها واعدادها، المتبعة لدى الثقافات القديمة، عادة ملازمتها الدائمة لمجتمعات النساء السرية التي تتولى التشريع أحياناً، وتكون مصدر خوف ورعب لسكان المنطقة من الذكور. وكلما عظمت سلطة هذه المنظمات، كانت التعليمات المطلوبة للقبول النهائي في فحوص التعميد، مشددة.

وفي مدارس «جيقة» الداخلية في ساحل الذهب وساحل العبيد، يجب على الفتاة أن تحلق شعر جسدها كله، ثم تستحم بالماء البارد وتدهن جسدها عقب ذلك بما يسمى «بالزيت المقدس»، وتتخلى عن جميع ملابسها القديمة، وترتدي بدلاً منها أزراراً من القماش القطني تتلقاه من الكاهنة العليا. وكإشارة أخرى على «موت» ماضيها السابق تعطى اسماً جديداً (هناك عقوبات قاسية عند استعمال الاسم القديم). كما يجب عليها حتى أن تتعلم لغة جديدة عبارة عن اصطلاحات لغوية سرية لجميع الأعضاء، وأن تتبع قواعد سلوكية جديدة تماماً. وإذا ما قابلت احدى الرئيسات عليها أن تجثو على ركبتيها وأن تصفق بكلتا يديها على ايقاع خاص. وتقوم المسنات باعطائها دروساً يومية في الغناء. كما تتعلم بالإضافة إلى ذلك فنون الغزل واجادة صنع السلال والبسط وغيرها من المهارات العديدة إلى أن تبلغ أخيراً درجة من النضج تتعرف فيها على طرق تركيب السموم السرية. والهدف من هذه التربية هو السعي نحو «قتل جميع المشاعر الطبيعية لدى الفتاة». وبعد أن تبلغ أعلى درجات السيطرة على النفس يُسمح لها بمغادرة المدرسة لفترات قصيرة، لتزود البيت بالماء والحطب. فإذا ما قابلت أثناء هذه الفترات، صدفة أحد أفراد أسرتها، عليها أن تتصرف حياله وكأنه غريب عنها كلياً.

ويتم التوصل إلى هذا التحول في شخصيتها عادة عن طريق التهديدات والعقوبات الصارمة. وإذا ما بلغت أعلى درجات البلوغ من منظور الرئيسة العليا لقبيلتها، يُسمح لها بمغادرة المجتمع السري والعودة إلى أسرتها كإنسان جديد. ويعتبر الافراج عنها محور الاحتفال المسمى باسم احتفال «التسريح من جيقه» أو «التسريح من الزيت» والذي تقوم عليه إحدى الكاهنات، إذ ترش المتخرجة بدم دجاجة ذُبحت

حديثاً وتزينها بالريش الملون والأزهار وتعيدها إلى أهلها. هناك في البيت تستقبل بأبهج مظاهر الفرح، ولكن عليها أن لا تستعمل لغتها الأم لمدة أربعة أشهر أخرى، بل يجب عليها أن تعبر باللغة السرية المسماة «أغبيجب» Agbuigbe.

رغم أن اقامة الفتاة في «المدرسة الداخلية» للمجتمع السري مؤقتة وعابرة، إلا أن لحقيقة دخولها، من هذا الاعداد، في عداد «المنوّرين» تأثيراً قوياً على جميع مراحل حياتها المقبلة. وقد يكون هذا التأثير من الأهمية بمكان، بحيث تتخذ الفتاة قراراً بالالتحاق إلى الأبد بهذه المجتمعات السرية. ففي هذه الحالة تعود الفتاة إلى أخواتها في «المدرسة» التي تلقت فيها اعدادها، وتؤدي بضعة امتحانات أخرى، يمكنها بنتيجتها أن تتبوأ منزلة رفيعة وذات نفوذ واسع ضمن المجموعة. حتى ولو غادرت بعدها الرابطة السرية لتتزوج، يمكنها الاستعانة بنفوذ هذه الرابطة لدعمها في حال وقوع خلافات زوجية. ويؤمن لها بيت المجموعة في كل وقت حماية وملجأ، إذ تتدخل الكاهنات في جميع حالات الخلاف ويمكنهن اجبار زوج اختهن المهانة على دفع فدية كبيرة إذا ما طالب بعودتها.

إذن لا تقام هذه المدارس النسائية السرية بصورة عابرة ولمجرد التعميد لتحل بعدها - كما هو الحال لدى الثقافات القديمة - بل تستمر طويلاً بعد اختتام الدورة التعليمية. فمن خلال الحماية التي توفرها للطالبات، حتى بعد تخرجهن، تساهم هذه المدارس مساهمة كبيرة في رفع منزلة النساء وزيادة نفوذهن ضمن الأسرة وضمن المجتمع.

في افريقيا توجد المئات من هذه الروابط النسائية السرية، مثل جمعية نينغو، في جنوب الكاميرون (وهذه الكلمة تعني حواري الماء) ثم «جمعية ليسيمو» لدى قبائل «باكوكو» «وجمعية ساندي» لدى قبائل «قي». ويحق للعضوات أثناء أداء الوظيفة اخفاء هويتهن تحت قناع خشبي أسود خاص. ولابراز «القوى الخارقة» لحاملة هذا القناع تضاف إلى القناع فنون تزيينية معينة ولباس فاخر. وتوجد لدى قبائل «بوندو» في مينديلاند (نيجيريا) أشهر هذه الروابط النسائية السرية. ويحتل أعضاؤها ثلاث مراتب:

مرتبة «نوفيزين» أو «ديغبا» الخادمة: التي تؤدي أيضاً دور المساعدة عند احياء الطقوس الدينية. تتلوها «نورمه» أو شيطانة بوندو التي تنفذ أوامر الرئيسة العيا «سوقه».

وبينما تحتل «ديغبا» مرتبة متدنية بشكل أو بآخر، إلا أن الرئيسات الأعلى يمارسن سلطة محكمة نسائية معترف بها. وتختفي جميع الملامح المميزة للشخصية تحت الازار الاسود المصنوع على شكل قناع مدرع، فالوجه واليديان مطلية بالصباغ الأبيض. والقناع الأسود المصنوع من الخشب المحفور يغطي كل الرأس، ولدى تلك النسوة سلطة معاقبة، وحتى قتل، كل رجل يدخل إلى منطقتهن المقدسة. إذ يقف هذا الرجل وقد عقد الخوف لسانه أمام شخصية «سوڤه» «السحرية». فإذا ما رفض رغم ذلك، دفع مبلغ التعويض المطلوب منه فيمكن: اما بيعه كعبد خارج نطاق القبيلة، أو يحكم عليه صولجان «سوڤه» الموجه نحوه بصمت، بالقتل فوراً.

وحتى عندما تجتاز الـ «ديغبا» امتحانها، وتعود إلى ذويها، يظل مفعول الخبرات التي حصلت عليها في «مجتمع بوندو» قائماً، إذ تساهم هذه الخبرات في وصول المرأة إلى مراكز رفيعة المستوى في المجتمع.

ولكي يحمي الرجال أنفسهم من «الجنس غير الضعيف»، يتخذون اجراءات دفاع معينة، إذ يتجمعون بدورهم أيضاً في مجتمعات سرية، يتلقى فيها الفتيان الاعداد اللازم لهم لحماية أنفسهم من التهديدات التي يتعرضون لها من جانب النساء. وهذه الجمعيات السرئة التي يؤسسها الرجال عبارة عن أندية عادية ترحب بكل عضو، وفي كل وقت.

ولم ينحسر تأثير هذه الأندية والمدارس الداخلية وجامعات الأحراج إلا بعد نشوء التنظيمات المختلفة التي أوجدتها الثقافات الراقية. فالدولة تتولى السلطة التنفيذية، بينما يقتصر دور الكهنة على تربية الفتيان والفتيات وخاصة في مجال الدين. فالطابع المعقد للجمعيات السرية ينهار وتتوزع العناصر المختلفة التي تتكون منها سلطة الروابط أو التجمعات على مختلف المجالات المتخصصة. ويمكن أن نعتبر الروابط والاتحادات الطلابية والتجمعات والأندية التي لا حصر لها، والمنتشرة في جميع أنحاء العالم المتمدن، بقايا هذه التجمعات السرية.

وقلما يوجد اختلاف بين معاهد التربية التي أنشأتها الحضارات الراقية القديمة، وبين تلك التي عندنا الآن، رغم أن تنوع المواد الدراسية والالتزام الشديد بهذه الديانة أو تلك، والنظام الصارم المتبع في تلك المعاهد، يؤديان إلى ثقافة أكثر شمولاً من تلك التي تؤدي إليها معاهدنا المعاصرة. وبما أن الثقافة كانت بالنسبة لحضارات «الانكا»

أو «أزتيك» أو «المصريين القدماء» امتيازاً تتمتع به الطبقات والفئات العليا فقط، فقد استطاعت أن تبلغ مستوى عالياً جداً. وهذا القول ينطبق أيضاً على «الجامعات» الدينية الإسلامية، والبوذية واللامية. أما السعي الرأسمالي الحديث لكسب أكبر قدر من المال وبأسرع ما يمكن بعد اجتياز الامتحان فلم يكن ليلعب أي دور لدى الصفوة المختارة من الأغنياء التي تستطيع بلوغ أعلى درجات الثقافة. بالإضافة إلى ذلك كانت مهتمة بالابقاء على انتشار الجهل التام لدى بقية الشعب.

وقد ذكر «هولتكر» أن كميات كبيرة من المخطوطات المقدسة قد أحرقت علناً في عهد «اتسكواتلس» ملك المكسيك الرابع الذي حكم ما بين عامي ١٤٢٧ و ١٤٤٠ وذلك لمجرد أن كان هناك «مزيد من النسخ» فرأى أنه من الخطر إذا ما حاز «ناس كثيرون، وخاصة الأُجراء على معرفة الأسود والأحمر» والمقصود هنا (المخطوطات المكتوبة باللونين الأسود والأحمر).

وهكذا كانت معرفة الكلمة المكتوبة واختراع الكتابة اغناء للقِلّة التي تتألف منها الطبقة المسيطرة، إلا أنها في الوقت نفسه لم تكن نعمة لعامة الشعب. فخلال القرون التي سبقت نشوء فن طباعة الكتب، كان العلم والثقافة امتيازاً لفئة صغيرة تحافظ عليه بشتى الوسائل. وكانت هذه المجموعة تنظر نظرة استعلاء وتكبر إلى الفئة التي تتفوق عليها عدداً، والتي كانت مستبعدة كل استبعاد عن الحكمة المكتوبة على ألواح من الحجر أو البابيروس، أو على جلود الرق، وموضوعة تحت الحراسة. فالكتاب السري لشعوب «التيبت» يتضمن الوصية التقليدية التي يجب حجبها عن عامة الشعب. من منطلق: «ما الشيء الجيد الذي يمكن أن يأتي من إنسان عادي؟» في طرق التعليم الديموقراطية لدى الشعوب البدائية. فالمعرفة التي يحصل عليها رجل تعتبر ملكاً للجميع، وحكمة الجماعة موضوعة تحت تصرف أي فرد فيها.

ولكن هذه النظرة المثالية انتهت بشكل الطبقات والفئات في مجتمعات الثقافات الراقية، إذ أصبحت التربية والتعليم امتيازاً محصوراً ضمن فئة الأغنياء. فتبعثرت القوة الموحدة للرأي العام، وأصبح لكل طبقة أو فئة، مستوى ثقافي خاصٌ بها، ونظم وسلوك واتيكيت. فما أن يشب الفتى قليلاً حتى يلفتوا نظره منذ وقت مبكر إلى الفروق بين مختلف الطبقات، ويلقنوه أصول السلوك وقواعد المعرفة التي غدت مقدسة بحكم التقاليد، عليه أن يرعاها ويتقيد بها. فمن خلال هذا الظلم الاجتماعي الذي

أوجدته طرق التعليم لدى الحضارات الراقية، والتي قلصت عدد المتعلمين ليقتصر على مجموعة صغيرة تقف أمام أكثرية الجماهير الجاهلة، استطاع مستوى المعرفة لدى هذه الفئة بلوغ مستويات رفيعة جداً.

لم تكن هذه الفئة تمارس أي عمل يدوي، فاستطاعت الأسرة من هؤلاء نتيجة وجود بيت مزود بالعدد الكافي من الخدم، أن تصبح وحدة ثقافية رفيعة المستوى. فقد كان في وسع الوالدين اعداد أطفالهم بأسلوب متميز للمناصب التي سيتولونها ضمن المجتمع في حياتهم المقبلة.

ولكن ذلك لا يعني أن طرق التربية المتبعة ضمن تلك الأوساط كانت تؤدي إلى فساد ودلع هؤلاء الناشئة. بل على العكس، فكبقايا لطقوس التعميد القديمة القاسية، لعبت هنا العقوبات الجسدية والنظم الحديدية الصارمة، التي تهدف إلى قتل الجسد، دوراً هاماً. فقد قام الأهل والأبناء بثقب ألسنتهم بالأشواك وقطع آذانهم، وتعرضوا لمختلف أنواع التعذيب النفسي اكراماً للآلهة، مثل الكلمة التي استخدمها «الازتيك» «نيتيتيكويتبان» أي منتصف الليل «الوقت الذي يميت المرء فيه رغباته». وقد اعتبر «الازتيك» أن الكذب هو أكبر الآثام، فكانوا يقومون بثقب شفتي الطفل الكذوب بالأشواك ويجلدون الأطفال غير المهذبين بنبات «القراص» ويقيدون أقدام الفتيات الصغيرات اللواتي يمكثن غالباً مدة طويلة خارج البيت.

وتظهر التعاليم الأخلاقية، التي يلقنها الأهل لأطفالهم، سمواً أخلاقياً جديراً بالاعتبار، تفوق بالواقع تلك التي يتلقاها أبناؤنا نحن الآن، مثلا تعتبر الوصايا التالية التي يلقنها الآباء المكسيكيون لأبنائهم نموذجاً رائعاً للتربية الجيدة. وقد نقلها لنا الباحث «هولتكر» عن «كلافيغيرو» وهذا نصها:

«احترم كل من هو أكبر منك سناً ولا تحتقر أحداً. لا تكن أخرس تجاه الفقراء والمعذبين، بل واسهم. احترم كل الناس وبخاصة والديك اللذين أنت مدين لهما بالطاعة والاحترام والخدمة الطوعية. لا تتبع خطا الأطفال الذين لا رب لهم، الذين لا يحترمون أهلهم، مثلهم مثل البهائم، لا يصغون لتعاليمهم ولا يمتثلون لتحذيراتهم وعقوباتهم.... لا تهزأ يا بني بالعجزة وذوي العاهات. لا تحتقر ذلك الذي يرتكب حماقة أو خطيئة، لا توجه إليه الاتهامات، واحفظ نفسك أنت بالدرجة الأولى من الوقوع بالخطأ الذي لا ترضاه عن الآخرين. لا تذهب إلى حيث لا تكون مرغوباً ولا

تحشر نفسك فيما لا يعنيك. احرص على اظهار تربيتك الصالحة في جميع أقوالك وأفعالك، سواء بينك وبين نفسك، أم بينك وبين الآخرين. لا تكن شرهاً على الطعام، وان لم تستسغ شيئاً فلا تدع أحداً يلحظ ذلك. إذا قدم لك شيء فخذه شاكراً. فان كانت الهدية كبيرة فلا تغترّ بها وان كانت صغيرة فلا تحتقرها. ولئن أصبحت غنياً فلا تبطر. تغذَّ بأعمالك ليكون طعم الغذاء أطيب مذاقاً.... لا تقل كذباً، ولا تغتب أحداً، ولا تكن فضولياً. لا توقع عداوة... إذ ما عرض عليك منصب، ففكر أولاً بأن ذلك قد يكون اختباراً لك، فلا تتقبله فوراً، حتى ولو كنت تعرف أنك أجدر من غيرك به. تقبله إذا وجدت نفسك مرغماً على ذلك، بذلك تكسب لنفسك الاحترام. لا تكن مبذراً. لا تسرق ولا تستسلم للعبث كيما تجلب العار لأهلك.. أرجو بهذه التعليمات الصالحة أن أنعش قلبك، فلا تتردد بقبولها بمحض ارادتك. لأن حياتك وسعادتك متعلقان بها».

كما لا يغيب عن الأمهات أيضاً تزويد بناتهم بنصائح مفيدة - كتلك للحياة:

«كوني نشيطة في الغزل والنسج والخياطة والتطريز. لا تستسلمي للنوم طويلاً ولا تبحثي دوماً عن الظل، بل اذهبي في الهواء الطلق وهناك خذي قسطك من الراحة، فالحساسية الأنثوية الشديدة تجر معها البطالة والكسل وأعباء أخرى، ابعدي عنك الأفكار السيئة وأنت تقومين بعملك. إذا ما ناداك أهلك مرة فلا تنتظري حتى يرددوا النداء ثانية، بل قومي فوراً لتلبية رغباتهم، لا تعطي جواباً غاضباً. لا تدعي أحداً يلحظ أنك تؤدين عملاً لا ترغبين القيام به. لا تخوني أحداً. عيشي بسلام مع الجميع. أحبي الجميع حتى يحبك الجميع. لا تغتري بما تملكين.... لا تخالطي النسوة الفاسقات والكاذبات والكسولات. اعتني بأسرتك في البيت. لا تخرجي من البيت لأتفه الأسباب، ولا تكثري من السير في الشوارع والأسواق لأنك تجدين في تلك الأماكن هلاكك. لا تدخلي بيتاً غريباً عنك إلا في الحالات الاضطرارية، لكي لا يمس الناس شرفك بظنونهم أو بأقوالهم. إذا ما دخلت بيت أقرباء لك فبادري فوراً لتكوني مفيدة، أمسكي بالمغزل أو افعلي أي شيء آخر. كفى يا ابنتي، لتباركك الآلهة».

بعد هذا الاعداد الذي تتلقاه الفتاة في بيت والديها يغدو بامكان الفتاة أن تلتحق بإحدى المدرستين المقررتين لها: اما «المدرسة الثانوية» المخصصة للفتيات، وفي هذه الحالة تظل قاطنة مع أهلها، أو مدرسة المعبد حيث يخضع مكوثها هناك لحراسة مشددة، ويكون اما مؤقتاً كمدرسة داخلية، أو بصورة دائمة تصبح بعده كاهنة.

إلا ان اعداد الفتيان لدى «الازتيك» كان أكثر تنوعاً بالنسبة لاعداد الفتيات. فعندما يبلغ أطفال العائلات الحاكمة سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، ينتقلون تحت إشراف الكاهن إلى بيت الكهنة يتلقون فيها دروساً في الدين وفي جميع فروع التدريبات الجسدية وفي علوم الفلك والتاريخ. وبعد أن يجتازوا الامتحان المقرر، يأتون إلى بيت الغناء والرقص الذي ليس مكاناً للمتعة كما يدل على ذلك اسمه، وانما هو معهد للتربية الحربية. وعلى الشاكلة نفسها كان يتم اعداد الشاب لدى جميع شعوب الحضارات الراقية، وصولاً إلى نظم اعداد الملاكمين، المتميزة بنظام وكبح الرغبات والتقشف.

وقد تطلب ذلك قروناً أخرى عديدة إلى أن ترسخت أخيراً وببطئ مثل اتاحة فرص التعلم للجميع. وقد ساهم ظهور الكتاب المطبوع وانشاء المدارس العامة وتطور نظم التعليم المتحررة من سيطرة الكهنة في السعي البطيء نحو طرق التربية الحديثة وتحقيق ذلك إلى حد معين.

ورغم أن عدد فروع المعرفة المكتسبة حالياً أكبر بكثير منها في العصور السالفة، إلا أن نظم بناء الشخصية والروح في العالم الرأسمالي لا يمكن مقارنتها مع تلك التي كانت سائدة في الثقافات القديمة. وقد قاد التركيز الشديد على التدريبات الحرفية ضمن النظم الاجتماعية الناقصة للرأسمالية إلى ضرورة كسب المال بأسرع وقت ممكن، وهذا ما أدى بالتالي إلى اصابة القيم الأخلاقية والمعنوية بالكساح. ومع تجاوز «خرافة» العصر الحجري فقد بعض الناس العصريين قربهم من الطبيعة، الذي كان للبدائيين، وفقدوا أيضاً احترامهم سواء لاخوتهم من بني البشر أو للمخلوقات الأخرى من المملكة الحيوانية. فمع تطور مثلنا التربوية كان يجب أيضاً أن يتعمق مفهومنا عن افضال ومصائر ومهارات وأعمال أولئك الذين عاشوا وعملوا وماتوا قبلنا على هذه الأرض.

الهوامش:

١ – أكل لحوم البشر .
٢ – المزيد حول ذلك في الفصل القادم .
٣ – حيوان ثديي أميركي من فصيلة الجمل .
٤– انظر الفصل القادم «المسرح الأول» .

الفصل الحادي عشر

المسرح الأوّل

- المســرح والفنان المســرحي عند البــدائيين -
البدايات المسرحية قبل التاريخ المكتوب للمسرح

«عندما أعطى «تو ماركاني» البطل، اشارة البدء بالاحتفال، اصطفت أزواج الطيور واتخذت أماكنها استعداداً للرقص. وقفت في الخلف بومتان وأمامهما زوج من الغربان وآخر من الزرازير. وأمام هذه المجموعة اصطفت مجموعة أخرى مؤلفة من: زوج من النسور ذات الذيل الأبيض، زوج من الصقور، زوج من الحمام، زوج من الوقواق، زوج من أقزام الببغاء، وزوج من الببغاوات المعروفة باسم «كاكادوس» وأمام الجميع وقف زوج من ببغاوات أخرى جميلة.

افتتحت البومتان حفلة الرقص. كانتا تتمايلان بحركات رشيقة، وهما تمران قرب بقية العارضين نحو الجمهور. وعندما مرتا قرب النساء اللواتي يقرعن طبول الايقاع قالت النسوة: «انظروا إلى هاتين البومتين! من ذا الذي يستطيع تحمل منظرهما بتلك العينين الغائرتين بأهدابهما البيضاء قبيحة الشكل؟» كانتا بالفعل بومتين جميلتين كأي طائر آخر من بني جنسهما. وعندما بدأ الغرابان بالرقص. قالت النسوة: «يا الهي ما أحلك منظرهما. انهما في غاية القبح!». وكانا في الواقع على قدر كبير من الجمال. ثم جاء دور الزرزورين. ولكن النسوة اللواتي لا شيء يعجبهن بدأن بالهمس: «ما أقبح شكلهما بهذه المناقير الصفراء واللطخات البيضاء على ريشهما». وعندما مر النسران بذيليهما الأبيضين يختالان في رقصهما عادت النسوة أيضاً إلى الهمس واللغو: «من ذا الذي يستطيع حتى مجرد النظر إلى لونهما الأصفر القذر؟. وعندما

بدأ الصقران بالرقص سمع الناس صوت النساء يقول: «انظروا إليهما بعنقيهما الأبيضين وريشهما البني المائل للحمرة! انهما في غاية القبح».

بعد ذلك جاء دور الحمامتين الجميلتين فبادرت النسوة صائحات: «عديمتا الخبرة. هل تعتقدان حقاً انهما ترقصان؟ ومن ذا الذي سيعجبه هذا الرقص؟» وجاء دور طائري الوقواق فلم يكن استقبال النسوة لهما بأفضلَ مما كان لمن سبقهما: «ما أكره ريشكما الملطخ! قلما يستطيع المرء حتى مجرد النظر إليكما». قدمت بعد ذلك أنواع الببغاوات رقصاتها، ولكن النسوة تمادين في السخرية من حركات الطيور الرشيقة ومن ألوان ريشها، إذ اقتصرت متعتهن الوحيدة بالعرض على تلك التعليقات الخبيثة التي يهذرن بها.

وانتهى الاحتفال برقصة الببغاوين الجميلين. ولكن النسوة امطرتهما بوابل من عبارات الشتم والتحريض. وفجأة رفع الببغاوان أجنحتهما وظهر ريشهما القرمزي البديع. كان ذلك اللون رائعاً لدرجة أنه حتى هؤلاء النسوة نسين ما كن يطلقانه من شتيمة وسخرية، لأن الريش القرمزي كان يلمع في أشعة الشمس كالحجارة الكريمة. وكل من رأى ذلك ود لو يمسك بهما ليتأكد فيما إذا كانا ذلك حقاً.

ولفرط تهافتهن على الوصول إلى هذين الطيرين ألقت النسوة بطبولهن وركضن خلف الراقصين. أثار هذا التصرف الرعب لدى الممثلين، وبهبة قوية نشرا أجنحتهما وانطلقا في الجو لينجوا من خبث بني البشر».

ليس هذا الوصف مأخوذاً عن برنامج عرض باليه، وليس شرحاً لحركاته الفنية منقولاً عن كتاب «الدجاجة الذهبية». انه مقطع من كتاب جدي يتضمن نصوصاً تصف حفلة راقصة لدى قبائل «بابوا» Papua البدائية في المحيط الهادي.

ويتضمن هذا النص جميع عناصر العرض المسرحي لدى الشعوب البدائية من رقص وأقنعة وموسيقى وأحداث. يبدو فيه وبوضوح الاحساس الفني العميق لدى هذه الشعوب، ومعرفتها الجميلة بدور المسرح وفهمها غير العادي للشخصية وأذواقها فيما يتعلق بالألوان وبالمفاهيم الفردية الفنية. فرغم التطور الذي طرأ خلال آلاف السنين ورغم الخدع المسرحية المتقنة لعروضنا المسرحية المعاصرة، والبرامج التي يقوم عشرات المساعدين والفنيين غير المنظورين باعدادها خلف الكواليس، قلما تغيرت المفاهيم الأساسية للمسرح ووسائله التعبيرية وكذلك للدراما - عن تلك. فجميع الظواهر

الأساسية للمسرح الحديث كانت موجودة سابقاً في مسرح الشعوب البدائية، على الأقل في مراحل بداياتها.

إذا ما بحثنا في المكتبات الكبرى عن مراجع مناسبة حول بدايات المسرح، استطعنا أن نجد فيها معلومات وافرة حول المسرحيات الصوفية في العصور الوسطى مثلاً. وإذا ما غصنا في أعماق التاريخ، وجدنا التراجيديات اليونانية وما سبقها من فرق التمثيل الهزلي.

وغالباً ما ينتهي هنا على الأقل التاريخ المكتوب للمسرح. أما أولى العروض الدرامية في تاريخ الإنسانية فما تزال متخفية في ضباب الشك.

لكننا نعلم من خلال المراجع ان الأدب الكلاسيكي اليوناني قد عرف شكلين للتمثيل مختلفين عن بعضهما البعض كليا، سواء من حيث الشكل أم من حيث المضمون، وفي الوقت نفسه متواجدين جنباً إلى جنب منذ البدايات الأولى وهما: الدراما الفخمة المقدسة، ثم كوميديا التسلية الساخرة، القائمة قبل كل شيء على الارتجال المثير للضحك أو ما يسمى «بالمحاكاة» Mimus. فمقدمة، أو فواصل تمثيلية، أو ملاحق، دخل فن التمثيل بالمحاكاة ليقطع السير الرهيب لتسلسل أحداث التراجيديات كفترات استراحة بين الخطب التي تلقى. وقد وصل هذا الشكل الفني للكوميديا الصغيرة، بتندرها الساخر بالأحداث اليومية والأحداث البارزة في الحياة العامة إلى مرتبة رفيعة، من خلال عدد من المؤلفين مثل هيرونداس Herondas اليوناني (القرن الثالث قبل الميلاد)، الذي ما زالت بعض أعماله محفوظة على ورق البردي في المتحف البريطاني، ثم الروماني ديسيموس لابيريوس Decimus Laberi-us الذي أكرمه القيصر بنفسه.

أما في فرنسا فقد شهد هذا التراث الكلاسيكي من التراجيديا والكوميديا ازدهارا جيداً في العصور الوسطى، عندما قدمت مجموعات الاخوة المسيحية، مثل ممثلي «جمعية الرحمة»، مسرحياتها الصوفية الدينية، في الوقت الذي قدم فيه «الأطفال الذين لا هم لهم» Enfants Sans Souci مسرحيات مسلية، مفعمة بروح المرح والدعابة تدور حول أمور دنيوية.

وقد تمثل هذان الشكلان للمسرح - عناصر الجد وعناصر المرح - فيما بعد في انكلترا من خلال صبيان الكورال التابعين للفرقة الموسيقية الملكية، وكذلك من خلال فرق «الممثلين الجوالين».

ويستمر تأثير السخرية المرحة واضحاً كالخيط الأحمر، وخاصة من خلال مسرحيات الأدب العالمي الخالدة، من مهرجي شكسبير حتى خدم موليير المرحين وساحرات «ليلة فالبورغيس» عند غوته، الذين ظهروا كسلالة متأخرة لمهرجي اليونان القدامى، في المسرحيات التراجيدية.

وكان الهدف من هذه الشخصيات هو اظهار السمتين الأساسيتين للمسرح، أي التراجيديا والكوميديا، من خلال أثر التناقض. ولكن عندما منعت الكنيسة ظهور هذه الشخصيات المرحة واعتبرتها شيطانية، ومنعت المحرمات الدينية المسرح بشكل عام، خاصة في العالم الإسلامي، استأنف مسرح خيال الظل - الذي اشتهر به أهل جاوا والأتراك - التقليد القديم في التسلية الخفيفة، وذلك من أجل احياء روح التمثيل بالمحاكاة من جديد. وما مسرح العرائس في أيامنا هذه إلا من بقايا هذا التطور.

ولكن من أية مصادر استقى اليونانيون مسرحياتهم الهزلية؟ ومن أين نشأت الشخصية الساخرة المرحة التي تقفز بأقدام رشيقة بين كوثورن[١] Kothurnen الشخصيات التراجيدية؟ كيف كانت بدايات المسرح؟ ماذا كان مضمون أولى المسرحيات التي قدمت على خشبة المسرح؟ ما هي الأدوار التي عرفتها وكيف كان شكل المسرح؟ من كان يجلس في قاعة المشاهدين؟ ومن كان الأبطال؟

إن دراسة لمسرح الشعوب البدائية فقط هي وحدها القادرة على اعطائنا الجواب على هذه التساؤلات. وبامكاننا الآن أيضاً ارجاع فن المحاكاة اليوناني، وكذلك المسرح الحديث، إلى أقدم جذورهما.

بين لنا «كونراد تيودور بروميس» الذي قارن بشكل خاص ما بين المسرح اليوناني والمكسيكي القديم، بأن أصلهما يعود إلى آلهة الخصوبة في الاحتفالات المكرسة لعبادة قضيب الرجل لدى الشعوب البدائية. أما أقدم أشكال المسرحيات التي عرفت فيما بعد باسم Mimen أو المحاكاة، فلم تكن دائماً مجرد كوميديات ساخرة وهزلية، فالمهرجون أو الظرفاء فقط هم الذين كانوا يمثلون هذا العنصر.

فالرقصات التي كانت تقام تكريماً لـ «ديونيسوس»[٢] Dionysos وفرق الغناء المقنعة في التمثيليات الهزلية والمرحة، يمكن مقارنتها مثلاً بآلهة الخصب التي ترتدي لباساً تنكرياً في حضارة المكسيك القديمة والتي تظهر بأعداد كبيرة في الاعياد الدينية لتشجيع نمو النباتات الهامة لحياة الإنسان.

ومهما يكن، فقد كان الارتباط بين فن المحاكاة والدراما الدينية لدى الحضارات القديمة الراقية، والتي تدخل الحضارة المكسيكية في عدادها، قوياً لدرجة أن الأهمية السحرية للمحاكاة قد ضمرت لصالح العنصر الهزلي الساخر، وبدأت تنحدر باستمرار لتصبح مجرد مسرحية ترفيهية هزلية خليعة.

وقد اعتبرت احتفالات الخصوبة التي تتميز بمظاهر التعظيم لقضيب الرجل طقوساً لا غنى عنها. فمهمتها كانت الاحتفال بالتجديد السنوي للطبيعة واستجلاب المطر وبالتالي زيادة خصوبة الحقول وحث آلهة الخصوبة لتنبت ثماراً حقلية جديدة، إذ كانت احتفالات شعوب الحضارات الراقية عبارة عن تمجيد واكبار «لموت» الطبيعة ثم بعثها من جديد. وما تلك الاسماء مثل أوزيريس، أدونيس، تموز، أتيس - ديميتر وديونيس، الا اسماء لآلهة الخصوبة التي يحتفل بموتها وبعثها من جديد.

كانت مهمة الممثلين الذين كانوا يرتدون أقنعة تلك الآلهة أثناء أداء رقصاتهم التعبيرية، هي طلب الخصوبة من الحقول ومن الحيوانات البرية والبيتية. وتعتبر هذه الرقصات التعبيرية أصل الدراما، وهي قديمة قدم تاريخ الإنسانية نفسه. وفي مغائر وكهوف العصر الحجري نجد رسوماً جدارية، كان الهدف منها اثارة خصوبة حيوانات الصيد مثل البيزون والخنزير البري والدب والوعل... وهذه الرسوم طبيعية إلى أبعد الحدود، يظهر فيها الطبيب أو الساحر الذي يرتدي - وكأنه ممثل - مختلف أنواع الأقنعة التي تمثل حيوانات الصيد.

مثل هذه الرقصات التعبيرية تمارسها حتى الآن بعض الشعوب البدائية التي ما تزال تعيش المستوى الثقافي الذي كان يعيشه إنسان العصر الحجري، مثل شعوب اوستراليا الأصليين و«الفيدا» في جزيرة سيلان (سيرلانكا) وسكان منطقة أرض النار (أقصى جنوب أميركا الجنوبية) وقبائل «بوشمن» في صحراء كالاهاري الافريقية، الذين «يضمنون» بهذا الأسلوب خصوبة النباتات التي يجمعونها والحيوانات التي

يصطادونها. وبوسائل مسرحية تقوم هذه الشعوب بالاتصال مع القوى المسؤولة عن انتاج أهم المواد الغذائية بأسلوب رمزي وهنا يقوم الممثلون بدراسة في منتهى الدقة لسلوك وحركات وقفزات الحيوانات التي يمثلونها ويقلدونها بحذافيرها.

وطالما نوّه الباحثون البيض، الذين راقبوا مثلاً رقص الكانغورو عند الاوستراليين، إلى دهشتهم من دقة محاكاة الطبيعة في العروض ومن القدرات التعبيرية الفائقة عند الراقصين.

وبالإضافة إلى المشاهد التمثيلية التي تدور حول الخصوبة، تقدم الشعوب القديمة أيضاً مسرحيات تاريخية تدور حول قصص مستقاة من التقاليد المتوارثة عن ترحال أسلافها إلى أرض القبيلة الحالية. ويقوم الأصدقاء والأقرباء بتزيين الممثلين بمختلف الزينات والألوان ويعلقون عليهم الريش لتنشأ أقنعة تنكرية متقنة الصنع.

وهناك رقصات رمزية وتعبيرية عند الاستراليين تدور حول الموت والانبعاث والحب والغيرة والصداقة والعداوة. ولكل من هذه الرقصات فكرة أساسية ترتكز عليها.

بينما جميع هذه الرقصات مرتبطة بشكل أو بآخر بسلوك جدي أو طقوسي معين، فإنَّ هناك مجموعة أخرى من أقدم المشاهد التمثيلية تقتصر معالجتها على مواضيع لا تتعدى التسلية الصرفة، وبذلك يمكن اعتبارها أوبرا راقصة. ورغم أن هذا الشكل الدرامي قديم قدم التمثيليات التي تدور حول الطقوس الدينية، إلا أنها لا علاقة لها بمضمونها الفكري والروحي، لأن هذه المسرحيات المسلية ليست مكرسة إلا للمتعة الجمالية وإثارة الأحاسيس، وبالتالي تختلف في مضمونها كل الاختلاف عن الجلال الديني للدراما المقدسة.

وتعتبر الـ «كوروبوري»(٢) الاسترالية من أشهر عروض هذا النوع.

وكثيرة هي المناسبات التي تقام فيها مثل هذه الاحتفالات، إذ تقام مثلاً: عندما تنضج احدى الثمار البرية، وقبل ذهاب المحاربين إلى القتال، وللاحتفال بصيد وفير، وأثناء اللقاء مع قبيلة مجاورة مدعوة. وتقام بشكل خاص عند التوقيع على اتفاقية سلام معقودة.

وبينما تلتزم الاحتفالات بتقديم أغان ونصوص محددة، تتميز حفلات «كروبوري» بتقديم الكلمة المنطوقة والغناء بأسلوب ارتجالي لا يتقيد بنص مُتفق عليه مسبقاً. وكل لقطة ذكية مضحكة تتحول إلى طرفة أو مشهد ايمائي ترددها فرقة الكورال المشاركة

بالاحتفال كـ «لازمة» من أجل امتاع جمهور المشاهدين. ورغم التركيب المخلخل، فان لكل مشهد أو مقطع من هذه المشاهد نقطة أوج معدة إعداداً متقناً، إذ يقوم الممثلون - بمكياجهم المتميز بتعدد الألوان - بالظهور والاختفاء بأسلوب فني شيق ومؤثر في ضوء القمر، حيث تقوم فرقة موسيقى ايقاعية غير مرئية بإثارة أعصاب الجمهور.

وتصل احتفالات «كوروبوري» الاسترالية هذه أحياناً إلى مستوى فني رفيع، وتكون متنوعة الطابع حسب المناسبة التي تقام من أجلها، فقد تكون ضاحكة أو شاعرية أو درامية.

سبق أن رأينا ان فن المحاكاة اليوناني لم يتطور عن مسرحيات التسلية الصرفة هذه، وانما كان مظهراً من مظاهر العروض الطقوسية الدينية، ولذلك فان أولى بدايات فن المحاكاة كانت موجودة سابقاً لدى أقدم الثقافات.

فعندما تبدأ العروض التي لا نهاية لها، للمسرحيات الدينية بتكثيف الضغط على نفوس المشاهدين تبدو الرغبة ملحة جداً للتغيير، ومن هذه الرغبة نشأت شخصية درامية مهمتها قطع هذا الجو الضاغط، الذي خلقته المشاهد الدينية السحرية، من خلال ظهورها المفاجئ بشكل هزلي، بحيث تتيح الفرصة للمشاهدين باطلاق ضحكاتهم بكل حرية لتخرجهم من رهبة الجو السابق، إذ يتناقض هذا الظهور تناقضاً كلياً مع جدية الدراما الدينية. ويمكن اعتبار أن البطل، الذي يقدم هذه المسحات الضاحكة والمتغيرة، هو السلف القديم للممثل خفيف الظل في فن المحاكاة اليوناني، وللمهرجين وغيرهم من الشخصيات الهزلية. ومثل هذه الشخصيات لا تخضع للرقابة، تنط وتقفز راقصة حول الشخصيات المقدسة في المسرحية الدينية لتدخل البهجة إلى نفوس المشاهدين باسترسالاتها في الارتجال.

فعندما يظهر هذا الممثل الكوميدي المصبوغ بالألوان والمزين بالريش يتخلى حتى كبار السن، في محافلهم في الأحراش الاسترالية، عن جديتهم ووقارهم. إذ يذرفون دموع الضحك ويزعمون أن «بطونهم ستنشق من السرور» لأنهم يعتبرون أن الحجاب الحاجز هو مقر التمتع.

ولا يقتصر عمل المهرجين على السخرية من الإنسان فقط، بل يتعداه أيضاً ليشمل خصوصيات بعض طباع وعادات الحيوانات. فعند اداء رقصة «الكنغورو» التسمانية،

يقلد المهرج أيضاً قفزات هذا الحيوان الثقيلة تقليداً متقناً غاية الاتقان. فباليه حيوان الايمو[٤] تقلد حركات هذا الطائر القوية التي يمتاز بها ويؤديها عندما يتناول علفه. كما يقلدون حركات وأصوات عربة وحصان الأوربي وصوت اللجام والسوط متراخية حول خشبة المسرح، إذ يقوم الراقصون بتحريك أعناقهم كالأحصنة ويطلقون أصوات صهيل بين فينة وأخرى.

ويدخل عنصر التسلية الهزلي هذا حتى في احتفالات التعميد البدائي التي غالباً ما تقام بكل مظاهر الجدية، وذلك لايجاد فترة استراحة للمرشحين الخاضعين لامتحان قاس. من تلك المشاهد التمثيلية الهزلية الترفيهية نذكر على سبيل المثال «رقصة كلب البحر» عند سكان أرض النار التي تتمايل أجساد الرجال المقرفصين على ايقاع أغانيها. ويستلقي الصيادون المهرة المتواجدون في «صالة المتفرجين» من الضحك عندما تتدحرج «كلاب البحر» هذه بصعوبة نحو الأمام وتقوم بحك صدورها وأذرعها «بزعانفها» وتحيي بعضها البعض بنباح متبادل. ويقابل الجمهور الفنانين المتميزين بعاصفة من التصفيق الحاد. والنجاح نفسه يلقاه تقليد الطائر البحري المسمى «كارابو». وقد بلغ تقليد ظهوره البطيء ورفع وخفض جناحيه ثم الصراخ الخاص الذي يطلقه السرب من هذه الطيور عندما يحط، درجة من الاتقان يحاكي الطبيعة بدقة، لدرجة أن الأوروبيين أنفسهم يتابعون هذه العروض ببالغ الاهتمام والمتعة. فقد قوبل المشهد المحبب لصراع بين صقرين على قطعة من اللحم، قام به مهرّجان من قبيلة «ياغان»، بموجات من الضحك.

ومَنْ قُيِّض له أن يطلع على امكانات الخيال والفطنة والأصالة التي يمتلكها مسرح البدائيين، فلابد له أن يعرف بأن أعمق الآثار التي يخلفها المسرح لا علاقة لها مطلقاً بالانجازات التقنية المعقدة أو بالمؤلفين المشهورين أو «النجوم».

فالجذر الساحر والأخاذ للمتعة الدرامية الصرفة يعني الخيال أي الفانتازيا. فحيث لا يتوفر هذا الشرط، تغدو أروع المسرحيات عاجزة، وحيث يتوفر يصبح المسرح مملكة للابداع.

كانت شعوب الثقافات القديمة، الشعوب التي تعتمد حياتها الاقتصادية على الجمع والقنص، هي التي تقدم تلك العروض الاستعراضية والغنائية التي تحدثنا عنها

حتى الآن. ولكن مع نشوء زراعة الأرض وتربية الحيوان أصبحت القوى الغيبية التي بيدها الأمطار والجفاف ووفرة المحصول ورداءته، وكذلك مرض وسلامة الحيوانات الأهلية، أكثر أهمية بالنسبة للإنسان. ولذلك يرتبط مجمل وجود الفلاح البدائي وحياته بقدرته على ارضاء هذه القوى التي توفر له الغذاء، عن طريق الاستعراضات والرقصات التي يكسب نعمها ومساعدتها من خلالها.

ونحن عندما نتحدث عن ثقافات هذه الشعوب البدائية التي هي أول ما مارست زراعة الأرض، وبخاصة عند الحديث عن الشعوب الافريقية وشعوب جزر المحيط الهادي، فانما نتحدث غالباً عن ثقافات أقنعة، إذ تُعتبر الأقنعة التي تلبس أثناء أداء هذه الشعوب لطقوسها، وخلال الاستعراضات الفنية، من أهم العناصر الثقافية. فالقناع بحد ذاته هو بطل مسرحياتهم وليس الممثل الذي يضعه عن طريق الصدفة. فالقناع هو الشخصية التي يريدون تقديمها وليس الصورة التي تمثلها. وفي الحقيقة يمثل القناع في هذه الثقافات روح المتوفى أو حتى الحيوان الذي يمثله. وهو ليس رمزاً لهذه القوى، بل هو القوى نفسها تسكن في القناع. ويفسر هذا المفهوم المهابة الدينية التي تبعثها رقصات الأقنعة في نفوس هذه الشعوب.

وإلى جانب الدراما الدينية هناك أيضاً مسرحيات للتسلية والترويح تدور حول الأحداث اليومية وحول تاريخ وميثولوجيا القبيلة، وتقدم لنا مسرحيات «دوكوالي» لدى قبائل «ماكاه» الهندية الحمراء مثالاً شيقاً على هذا النمط من مسرحيات التسلية. إذ يعتقد هؤلاء الهنود الحمر أن كل الكائنات الحية التي تدب اليوم على الأرض كانت في الماضي من بني البشر، وأنها أجبرت على اتخاد هيئتها الحالية نتيجة مصيبة أو تهاون أو أعمال شريرة.

وتعرض مسرحيات «دوكوالي» هذه «الأحداث» بشكل درامي، والأقنعة المستخدمة في هذه العروض مزودة ببوابات صغيرة تفتح أثناء قمة الأحداث الدرامية للمسرحية لتكشف للجمهور الذي أخذه الذهول عن عيني أو فم أو أنف الممثل.

كما يستخدم الاسكيمو تقنية مشابهة لادخال السرور والبهجة إلى قلوب المشاهدين أو لاخافتهم في لحظات غير متوقعة، فيكون رد الفعل عندهما تماماً كما هو عندنا الآن! فالحماس يكون من نصيب المسرحية الناجحة، وهذا ما يدفع بالممثلين أو

بالقائمين على العرض إلى إعادته بين حين وآخر. أما المسرحيات التي لا تنال استحسان الجمهور ورضاه فتقابل بالصفير أي بالاستنكار، فيتم حذفها من الموسم المسرحي.

ولكن بالإضافة إلى هذه المسرحيات الترفيهية الصرفة، تركز، وخاصة الدينية منها، ذات الطابع الجدي، على القوة المطلقة لآلهة الخصوبة. والغاية من هذه العروض هي تذكير الممثلين أنفسهم - وكذلك الجمهور - دائماً وأبداً من جديد بمغزى هذه المسرحيات، الذي هو الإفادة من القوى السحرية الخفية من أجل خير القبيلة.

ولكن بما أن العروض الدرامية الدينية غالباً ما تستمر طيلة أسابيع، فقد كانت تتخللها أحياناً مقاطع مسرحية عارضة، تتعلق بأمور دنيوية كوميدية، تكون بطبيعة الأمر مسلية أكثر بكثير من الطقوس الشعائرية المتعبة.

فقد كان هذا التناوب في عرض المسرحيات الطقوسية والمشاهد الترفيهية شائعاً بصورة خاصة لدى قبائل «بويبلو» و«ماندان» و«ايروكيز».

فطقس قبيلة «زوني» وهي فرع من «بويبلو» (هنود حمر) مؤلف من ستة احتفالات دينية رئيسية، أهمها الطقوس المسماة «كاتسينا». وهذه عبارة عن كائنات فوق طبيعية تتميز بصور وأقنعة معينة. ولكل قناع من تلك الأقنعة مميزاته الفردية الخاصة التي يعرف بها. وهو عبارة عن صورة طبق الأصل عن الاله الذي تمثله، ويعتبرها أفراد قبيلة «زوني» مرتبطة به.

وتلبس هذه الأقنعة تكريماً لـ «كوكو» أو لآلهة المطر ذات القوة والبأس الشديدين، التي «لو رآها البشر لماتوا».

وقد ذكر الباحث «بونتسل» بأن الـ «كوكو» قد أعطوا أصدقاءهم الهنود الحمر تفويضاً «بإقامة رقصات الأقنعة» ووعدوا بأن يقفوا قريبين من الأقنعة على شكل مطر».

ويعتبر جميع رجال القرية أعضاء في جمعية «كاتسينا» وبالتالي لهم الحق جميعاً بارتداء الأقنعة القديمة الفخمة التي يحمل كل منها اسماً معيناً ويتميز بتفاصيله وألوانه.

وهناك احتفال طقوسي هام آخر لدى قبائل «بويبلو» وهو «عيد باموتري» الذي تقيمه قبيلة «هوبي» الهندية الحمراء، ويبدأ هذا الاحتفال بظهور «باوتيفا» اله الشمس

الذي يرتدي قناعاً وجهياً مزيناً برموز المطر، وهو منظم الاحتفال وفي الوقت نفسه البطل الرئيسي الذي يعلن بداية العروض وينادي على الممثلين، كل بدوره، ويدخل في عدادهم اله النار والصقر والنسر الرمادي والبطة والشاهين. يتجمع القائمون بهذه الأدوار في مكان منعزل بعيد عن القرية، يرتدون فيه أقنعتهم ثم يتوجهون من هناك بموكب احتفالي يقوده الـ «باوتيڤا» إلى خشبة المسرح. وعند المساء يصلون إلى الهدف الذي يقصدونه حيث تتلألأ ألوان أقنعتهم الزاهية تحت أشعة الشمس الغاربة.

يقوم الممثلون الذين يرتدون أقنعة الطيور بتحريك أذرعهم صعوداً وهبوطاً مبدين ريش أقنعتهم الملونة للجمهور بطريقة أخاذة. وفي الوقت نفسه يقوم زملاؤهم بالغناء تحت أقنعة الوجه التي يرتدونها والتي تشبه الخوذة، ويطلقون العنان لخشخشة الزينة التي يحملونها، ثم تبدأ اللعبة. يقومون ببناء المذابح التي يقدم عليها طعام الكاتسينا. وكخلفية للمسرح هناك كواليس مرسومة رسماً. كما تزين أرض خشبة المسرح أيضاً برسوم رملية بديعة الألوان.

وكذلك أيضاً أثناء عيد «بوڤامو» أو عيد زراعة البقول تظهر الكاتسينا بأعداد كبيرة وتمثل بشكل رمزي عودة ولادة الأرض وطهارتها، حيث تشكل الفكرة الرئيسية «عودة الكاتسينا» محور الموضوع.

ويتخلل هذه الطقوس الاحتفالية ظهور ما يسمى بـ «كويمسي» وهم الممثلون الذين يؤدون مشاهد تمثيلية دنيوية تقطع العرض الرئيسي. عشرة من هؤلاء «الكويمسي» يرتدون اللباس المناسب ويظهرون على شكل مجموعة أثناء احتفالات الكاتسينا. ويمكن التمييز بين هؤلاء وبين الكاتسينا حتى عن بعد من خلال الألبسة الخفيفة التي يرتدونها، خلافاً لأولئك. ويتبع هؤلاء العشرة قائدهم أو «أباهم» الذي عينته لهم الكهنة. أجسادهم مصبوغة باللون الزهري ووجوههم متخفية تحت أقنعة على شكل خوذات تحمل تعابير وجه هزلية. وقطعة اللباس الوحيد التي يرتدونها عبارة عن إزار أسود قد يخلعونه أحياناً في مواقف هزلية معينة أثناء العرض فتظهر أعضاؤهم الجسدية المثبتة بخيوط. ولكن ذلك لا يثير أية اساءة أو استنكار، لانه - كما يقول الهنود الحمر - «يمكن للكويمسي الظهور عراة دون أي احراج لأنهم أطفال». وهذا حق ميثولوجي لهم، إذ يعتبرون في هذه الحالة أطفالاً متخلفين.

تمشي هذه المجموعة خلف لابسي الأقنعة المقدسة وتقلد حركاتهم بطريقة هزلية، الأمر الذي يؤدي أحياناً إلى أعمال خليعة. ورغم أن هؤلاء يعتبرون مهرجين معترفاً بهم، إلا أنهم يتمتعون ببالغ التقدير، وقد وصفهم الباحث القديم «كوشينغ» بالعبارات التالية:

«قد يظهرون ببلاهة، لكنهم رغم ذلك يحظون بحكمة الآلهة وكبار الكهنة، لأنهم - مثلهم مثل «المتخلفين عقلياً» والمجانين - ينطقون بالعبث إلى جانب الحكمة النبوئية، وهم في الوقت نفسه خدم ومشجعون لـ «كوكو» أي الدرامات الراقصة، نعم، فهم مفسروها ومترجموها. أسماؤهم ليست أسماء بشر بل يبدو أن لهم تسميات لا معنى لها».

وبمجرد أن يدخلوا يدخلون معهم المتعة والسرور إلى العروض، إذ يقفز أحد هؤلاء «الكويمسي» فجأة بين الراقصين الجديين ويسلي الجمهور عندما يصرخ بعبارة: «لقد هربت زوجتي مع رجل آخر.. هذه الليلة سأقوم أنا أيضاً بنزهة قصيرة» بالإضافة إلى ذلك يظهرون كبهلوانيين ماهرين وكفنانين سحرة. يحرقون الريش ثم يخرجونه بعد تنفس عميق من أفواههم. ولإضحاك الجمهور يقومون أيضاً باخفاء أشياء ثم اظهارها من جديد بخفة عجيبة.

ويقوم مساعدوهم بالقاء كرات من الطين أو التراب على الجمهور أو يقذفونه بأسهم صغيرة معتبرين ذلك لسع نحل، أو يستخدمون أغصان الشجر كأدوات للتهريج، وهو مظهر آخر للمهرجين استمر آلاف السنين.

وعندما يتوجه هؤلاء المهرجون البدائيون نحو الجمهور فإنما ينتزعون بذلك الشؤم منهم.

ولدى قبائل أخرى مثل «نافاهو» ما يسمى «ببالعي السيوف» الذين يدخلون عصي مزينة بالريش في حلوقهم.

أما في احتفالات شعوب «البويبلو» فان «كويمسي» هم الممثلون فقط، بينما يقتصر دور لابسي أقنعة «كاتسينا» على أداء رقصات جدية محددة سلفاً. وهكذا يجب النظر إلى كلا هذين النوعين من الأقنعة، أي «الكاتسينا» الدينية من جهة و«كويمسي» الدنيوية من جهة أخرى على أنهما مختلفان كل الاختلاف عن بعضهما البعض. ورغم أن كليهما من أصل شعائري، إلا أن كلاً منهما يلتزم بالأدوار المقررة له.

ويطلق عادة اسم «الاكول» على أعضاء فرقة «كويمسي» لأنهم يفضلون جمع التبرعات والهبات التي تؤكل. ولذلك فان الفقراء فقط من الهنود الحمر هم الذين ينتسبون إلى فرقة المهرجين، إذ ليس بمقدورهم الحصول على أقنعة نفيسة وجدية تشبه صورة الآلهة. ونتيجة لذلك ينظر الآخرون إليهم نظرة استعلاء. فلا نجد أحداً من ذوي النفوذ في القبيلة أو الموسرين يرضى القيام بدور «كويمسي».

وتشبه المشاهد التمثيلية الدنيوية التي يؤديها هنود منطقة البراري خلال رقصات الشمس، في كثير من الوجوه - المشاهد الارتجالية التي يؤديها هؤلاء «الكويمسي»، إذ يقوم الشيطان «اوكيهيدي» الذي يظهر في احتفالات «أوكيبا» المقدسة، بدور المهرج الساخر.

يضع هذا المهرج على رأسه قبعة مزينة بعرف ديك أسود، بينما يخفي وجهه تحت قناع من الصوف عليه فتحات بيضاء للعينين و«أسنان» من القطن. على بطنه رسمت الشمس وعلى ظهره القمر. يسير هذا المهرج بذيل جاموس يتدلى على مؤخرته، بين هضاب منطقة البراري ليبعث ظهوره المفاجئ الخوف في قلوب سكان القرى الذين يطلب منهم الصدقات. يقوم بتفتيش أكواخهم ويعرض عليهم قيامه بابادة الحشرات المنزلية.

مثل هؤلاء الكوميديين الهزليين موجود أيضاً في افريقيا. ومن أشهرهم «موكيش» مهرج حوض الكونغو. ولكي يطرد الأشباح الوهمية يحشر نفسه بين لابسي الأقنعة الجديين أثناء احتفالات التعميد البدائية. وهو محبوب جداً باعتباره - بالدرجة الأولى - فناناً يقوم بأعمال السحر. وأحياناً يظهر هذا الشخص بعكازين على شكل ساق اصطناعية يقفز بها هنا وهناك بكل مرونة ورشاقة. وعندما لا تكون لديه رغبة بالتمثيل، يفوض صديقه بارتداء قناعه.

أما مواصفاته الرئيسية ورشاقته وتنوع امكاناته الفنية فيملكها غالباً جميع المهرجين لدى كل شعوب الأرض. فأمثاله يتواجدون في كل مكان درجت فيه العادة على قطع المسرحيات الجادة بمشاهد هزلية ارتجالية مسلية.

أما الصفة التي يتميز بها المهرج فهي حبه الزائد لكل ما يؤكل، وذوقه المتجه كلياً نحو كل ما لذ وطاب. وقد بقيت هذه الصفة تلازم المهرج منذ القدم مروراً بالحضارات الراقية، فظل الماجن معروفاً بشراهته منذ العصور الوسطى حتى العملاق وفالستاف(٥).

وحتى أسماؤهم الحديثة لدى مختلف الشعوب تدل على شراهتهم للطعام. فالمهرج الفرنسي اسمه شوكولاته والألماني «هانس فورست»[٦]. والانكليزي «جاك بودينغ»[٧]، والإيطالي «معكرونة» والهولندي «السردين المعلب» وغيرها... أما أقنعة المهرجين وعدتهم الأخرى فهي متنوعة بتنوع خيال القبائل والأمم التي نشأوا فيها. وعندما يظهر المهرج لا يشك أحد بأن لعبة مسلية ستبدأ، سواء أكان في استراليا مصبوغاً بالألوان ومزيناً بالريش أو يحمل زينة معقدة على رأسه، وقناعاً مصنوعاً بغاية الاتقان الفني، أم قدم دعاباته باستخدام أغصان الشجر وكرات الطين فقط، أو استخدم كل المستلزمات التي يتطلبها فن السحر.

وأحياناً يستقي مهرج الشعوب البدائية دعاباته من عادات وتقاليد البيض «السخيفة» إذ يقوم مهرجو «الايروكيز» بتقليد المتزلجين على الثلج والقاطرات. ويقوم مهرجو غينيا الجديدة منذ الحرب العالمية الثانية بالقفز «كالمظليين» وأذرعهم ممدودة من على قمم الأشجار.

كما أن رسما كاريكاتوريا لدى قبيلة «هوبي» يمثل مثقفاً أبيض يكتب «مواده» على طبق من الورق، يعتبر غاية في الاتقان. وكذلك في أفريقيا يحقق المهرجون (في يوروبا مثلاً) أفضل النجاح في تقليدهم وتندرهم على «التقاليد المتوحشة» للأوربيين.

ويرث المهرج مهنته عن أبيه لدى العديد من قبائل الهنود الحمر في كاليفورنيا. وتعتبر هذه المهنة مجالاً للتفاخر. ولا تقوم هذه القبائل بدفن الميت إلا بعد أن يقام له غسيل طقوسي بحضور المهرج. أما لدى قبائل «أباخن» التي تداوي مرضاها برقصات مقدسة، فيظهر غالباً إلى جانب «الشياطين الإلهية» مهرجو الشياطين الذين لا غنى عن حضورهم.

وكذلك في عصر حضارة التيبت الراقية - يظهر أثناء الرقصات المقدسة التي يؤديها آلهة وشياطين مثقلين بالرموز - مهرجون يقلدون الحركات البطيئة لراقصي الأقنعة المقدسة، بشكل هزلي، فيثيرون موجات من القهقهة. وعلى النقيض من هؤلاء الذين يمثلون دور الآلهة، والمزينين بالشرائط المذهبة والجماجم المعلقة، يرتدي المهرجون أقنعة هياكل عظمية مرسوم عليها عظام.

أما أصل هذه الأشكال فيتضح من خلال طرفة ممتعة، وهي أن بضعة أشخاص من قبيلة «أسكيت» غرقوا في تأملاتهم الروحية بحيث لم يشعروا باقتراب لص منهم قام

بسلخ جلودهم عن أبدانهم. ومنذ ذلك الوقت أصبح المهرجون الذين يظهرون للتذكير بهؤلاء الأشخاص أعداء ألداء للصوص، وحتى أن لديهم القدرة على اكتشافهم وتحديد هويتهم، هذه الصفة التي يقال إن «كويمسي» قبائل «بويبول» يتصفون بها أيضاً.

في المفهوم الشعبي يعتبر المهرج ماجنا أو مجرد شخصية هزلية، لكنه يسيطر أيضاً على قوى روحية معينة لا تمت لعالم الإضحاك بصلة. ولذلك فعلى المرء أن لا يتمادى في السخرية منهم، إذ يقول أفراد قبيلة «زوني» إن «الكويمسي خطرون».

وقد ظل فن الارتجال المبدع عند المهرجين حيا في منفاه الحديث، أي في السيرك فهم الوحيدون الذين ما زالوا يحتفظون بالتلوين الزاهي لماضيهم البدائي، وهم الوحيدون الذين يسمح لهم بالهزل والسخرية بمطلق الحرية، حتى من الوجهاء وذوي الشأن والجاه.

ولكن حتى حركاتهم البهلوانية أيضاً، غالباً ما تتسم بعبارة فلسفية أو بمشهد تراجيدي تذكرنا بماضيهم الجليل كشركاء للشياطين المقدسة. ومن شخصية المهرج القديم وفرقته، ومن دعاباته، تطور فيما بعد لدى الحضارات الراقية في العالمين القديم والجديد، فن المحاكاة الهزلي. ويعود تاريخ تطوره إلى الرقصات التعبيرية للشعوب التي تمارس اقتصاد الجمع والقنص، وإلى طقوس الخصوبة ورقصات تقديس أعضاء الذكورة لدى الشعوب التي تمارس زراعة الأرض. وتصل إلى أوج تطورها في المسرح الشعبي وفي فن المحاكاة اليوناني الذي انطلق منه المسرح العالمي الكبير، مسرح عصرنا هذا.

ولكن الشكل الأصلي للمهرج تغير من حيث أهميته مع مرور الزمن. فقد ضاعت وظيفته الأساسية كشخصية مناقضة لشخوص الشياطين المقدسة، مثل آلهة الخصوبة والمطر والنباتات والحيوانات، أو في أحسن الأحوال قد استهلكت وأسيئ فهمها. وهذا القول ينطبق بشكل خاص على واقع الحضارات الراقية القديمة حيث تبنت ديانات الدولة (الديانات الكبرى) الناشئة بعض الشعائر القديمة المقدسة المنحدرة منذ القدم، لكنها حرصت على إلغاء بعض البقايا الوثنية لمصلحة رجال الدين وتوجيه النزعة الدينية للمؤمنين نحو اتجاهات جديدة. إذ حلت بشكل خاص التمثيليات المعتمدة رسمياً وذات الطبيعة الصوفية الغامضة، التي لا تتضمن إلا بعض العناصر القديمة المتفرقة - كما هو الحال مثلاً في الاحتفالات الطقوسية التي تقام في اليونان إكراماً لربة الخصوبة

«ديميتر» ولا يسمح بحضورها إلا للمعمدين - محل الأهمية الأساسية لطقوس الخصوبة القديمة.

وبذلك لم يعد ممكناً للمهرج الذي يظهر ليقدم وصلات من المشاهد الساخرة، أثناء تقديم احتفالات الخصوبة المقدسة، أن يظهر بدوره الحقيقي أثناء التمثيليات الجادة، وأن يحظى بالاعجاب وبالفهم لطبيعة دوره. فقد غدا في هذه الحالة يجسد مجمل المركب «الوثني» الذي كان قبلاً مجرد جزء منه. وأصبح يُنظر إليه - من قبيل الخطأ - على أنه شيطان الخصوبة بعينه.

ومع التطور اللاحق لفن التمثيل وللمسرح بشكل عام، عاد المهرج ليستعيد غايته الأساسية كمهرج لمجرد المتعة الخالصة. وكما كان يفعل جمهور مشاهدي الطقوس الدينية القديمة تماماً، يطالب جمهور مشاهدي العروض الدرامية الحديثة بقطع أحداث المسرحية بمشاهد هزلية.

فحالما كانت المسرحية مغرقة في الجدية والمأساوية، يُدخل الكاتب المسرحي الذكي - حتى في أيامنا هذه - مشهداً مناقضاً مفرحاً يؤديه مهرج رسمي، أو يأتي ذلك بفكرة يضيفها المخرج إلى عمله.

«غوته» مثلاً كان يدخل أثناء الاستراحات الفاصلة بين عرض مشاهد «فاوست» كلابا مدربة إلى المسرح. أما «ليسينغ» فقد حرص على الاستعانة ببهلوانات الرقص على الحبال لتوفير عنصر التسلية في مسرحياته.

وقد أدرك المرء منذ أقدم العصور أهمية دور المخرج، سواء أقام المؤلف نفسه بالاشراف على حركات شخوصه أم كان هناك موظف خاص يشرف على إخراج الرقصات، منعاً لظهور أي خلل في التنفيذ، كما هو الحال مثلاً لدى قبائل «زوني» و«هوبي» ومعظم قبائل الهنود الحمر في منطقة كاليفورنيا.

ويعتبر هذا الشخص «سيد الألعاب». وقد يقوم بنفسه أحياناً بدور المهرج. فعندما يرتدي قناعه تصبح لديه امكانية انتقاد الزعيم الذي يهمل أداء مهامه وانذاره. فأثناء رقصه بحركات تراجعية «وهذيه باللغو» يعرف كيف يقنع كبار السن من رجال القبيلة بعدم كفاءة زعيمهم، بحيث يقررون انتخاب زعيم جديد أفضل من الزعيم الحالي.

كانت أقدم المسارح تقام في مكان مكشوف في البرية. ولكن حتى قبائل في غاية البدائية، مثل سكان أرض النار، كانت لديها حسابات دقيقة جداً حول اختيار أفضل المواقع وحول المسافة التي تفصل بين الممثلين والجمهور، بحيث تكون مناسبة. وقد تطور عن الكوخ المقدس، الذي تُحفظ فيه الأقنعة، بيت الرقص المبني خصيصاً لهذه الغاية، كما هي العادة عند الاسكيمو وشعوب أخرى. أما قبائل «بويبلو» وبقية الهنود الحمر، قريبو الشبه بهم، فيقدمون عروضهم المسرحية على مسارح تقليدية مكشوفة في الهواء الطلق.

وفي ظل الحضارات الراقية غدت السوق التجارية أو قاعة مدخل المعبد، بهوا لتقديم العروض المسرحية أو حتى القصر الملكي نفسه. وقد ذكر كل من «ساهاغون» والأب «أكوستا» اللذان وصفا مسرح الازتيك في المكسيك بأنه «منصة مربعة الشكل ومفتوحة تقام عادة وسط السوق التجاري أو قرب سُرادق. وكانت هذه المنصة عالية بحيث تؤمن رؤية واضحة للمسرح الازتيكي في «تلالتيلولكو» المبني من الحجر والكلس «ارتفاعه ثلاثون قدماً وطوله ثلاثون خطوة في كل جهة. أما المدخل المؤدي إلى خشبة المسرح فيقتصر استخدامه منذ عهد أقدم الحضارات على الممثلين. ومجرد الأمر «ممنوع الدخول» يمنع الفضوليين من تخطي العتبة المؤدية إلى أرض العجائب، فلم يكن هنالك باب ولا إعلان.

من الممكن أن تكون الأقنعة ملكاً شخصياً لمن يرتديها. وقد لا يجوز للشخص أن يمتلك إلا نوعاً واحداً محدداً من الأقنعة. فإذا ما رفض المشاركة في أداء مسرحية، فإنه قد يهدد بذلك العرضَ بمجمله إذا لم يكن هناك شخص آخر بديلٌ عنه يمتلك حق ارتداء القناع المخصص له. ولكن أقنعة الطقوس الاحتفالية المقدسة تعتبر غالباً ملكاً لمجموع القبيلة. وأحياناً تُطلب هذه الأقنعة والأزياء من اختصاصيي أزياء من قبائل أخرى، كما هو الحال مثلاً لدى قبائل «ماكاه» الذين يصنعون أفخر أزيائهم عند قبائل «نيتينات» إذ بينهم صناع مهرة في فن الأقنعة وخياطة الملابس التابعة لها.

وتقسم قبائل «زوني» أقنعة «الكاتسينا» عندها إلى مجموعتين:

«كهنة الكاتسينا» وهي الأزياء القديمة التي لا تتبدل، ويرتديها «الآلهة» وتعود ملكيتها لمجموع القبيلة، ثم «الكاتسينا الراقصة» التي تلبس أثناء أداء الرقصات

الجماعية، ويمكن لكل فرد من الهنود الحمر أن يملك واحدة منها، إذا ما كانت حالته المادية تسمح بذلك.

فقد ذكر الباحث «بونتسيل» ان أزياء الكاتسينا المخصصة للكهنة: «تعامل بكل وقار وهيبة، فهي خطرة». ومن الجدير بالذكر أن أقنعة «الكويمسي» تدخل أيضاً في عداد «كهنة الكاتسينا».

وبعد تقديم العروض توضع الأزياء والأقنعة في بيت الحارس المؤتمن عليها. وكل قناع يجب «أن يلف في جلد الغزال أو القماش لوقايته من الغبار، ثم يعلق في الداخل على عوارض السقف الخشبية أو يحفظ في أوعية كبيرة من الطين. أما الأقنعة الخطرة فتوضع جميعها في أوعية طينية ولا يجوز في كل الأحوال حفظ أي قناع بوضعه على أرض البيت مباشرةً. ويتم «اطعام» كل قناع عند حلول موعد تناول الوجبات اليومية. يتوجه شخص موثوق به يحمل بعض الطعام إلى غرفة الأقنعة ويقدم لها الطعام ويقال له قبل ذلك: «ادخل واطعم الأجداد!» ويعتقد الهنود الحمر أن أقنعة الكاتسينا الخطرة جاءتهم كهدايا من الآلهة نفسها، ولذلك يتوارثونها جيلاً عن جيل.

وجميع هذه الأقنعة والأزياء، التي تجسد قوى الطبيعة، تخالف الشكل الطبيعي كلياً ولا يمكن لأحد، إلا للهنود الحمر أنفسهم أن يحسن تأويل رموز الغيوم والمطر والحيوانات والنباتات المرسومة على هذه الأزياء، لأن فن «قراءتها» يتطلب دراسة خاصة.

وهكذا فان علم المسرح يشكل واحدة من أهم المواد الدراسية أثناء ممارسة طقوس التعميد البدائي.

وما ينطبق على مسألة حق الملكية الشخصية للأقنعة، يمتد أيضاً ليشمل النصوص والأغاني التي تعود ملكيتها للممثلين، بحيث يمكن في هذه الحالة الحديث عن شكل بدائي من أشكال «حقوق الطبع»؛ ففي منطقة «موريك» في غينيا الجديدة مثلاً لا يسمح بانتاج الأقنعة المسماة «فايم - نور» إلا في قرية واحدة اسمها «جاناين» كما ذكر الباحث «شميت»؛ وعلى جميع القرى أن تأخذ حاجتها من هذه الأقنعة من هناك. كما لا يسمح بانتاج قناع «لاون» إلا في قرية اسمها «كاراو».

والشيء نفسه ينطبق على الأغاني والنصوص التي تعتبر كلها ملكاً خاصاً بقبائل معينة. وقد كان «حق الطبع» القاطع والواضح موجوداً لدى الثقافات القديمة، وبشكل

خاص لدى القبائل التي تقطن في شاطئ شمال غرب استراليا حيث ذكر الباحث «أ. ب. أ الكين» «عند الحصول على قطعة زينة من الصدف يجب أداء أغنية خاصة ولا يسمح لأي غريب أن ينقش رسمها، بل يقتصر هذا الحق على من يعرف هذه الأغنية، أي على من يملكها» وفي المنطقة نفسها تحمل الرقصات والأغاني اسم مبدعها، وهي محفوظة بموجب حقوق ثابتة من سوء استخدامها من قبل غير المخولين بذلك.

ويمكن «لمالك» أغنية أن يفوض «مساعدا» يؤديها معه، كما هي الحال مثلاً لدى قبائل «كاميا» جنوب شرق كاليفورنيا، حيث تقتصر «ملكية» الأغاني على الرجال فقط. ويمكن توارث «حق الطبع» هذا من جيل إلى جيل.

ويمكن أن تباع الأغاني والنصوص أو أن تورث، وتعتبر في هذه الحالة مصدراً معتبراً للدخل، لأن كل من يود أن «يستعيرها» عليه أن يدفع مكافأة مجزية لمالكها.

أما الفكرة المتأصلة حول وجوب أن يدفع كل من يستخدم نصاً مبلغاً أو مكافأة معينة للمالك، فهي متطورة جداً لدى قبائل معينة مثل «زوني» بحيث لم يكن من السهل عليهم أن يفهموا لماذا كان المبشرون المسيحيون يوزعون عليهم الكتاب المقدس مجاناً لنشر الدين الجديد. فقد خالجهم الشعور بأن ما يتضمنه هذا الكتاب من قصص «ليس بذي قيمة كبيرة».

وإذا ما قص شخص غير مفوض أو غير مخول قصة «وطبعاً كل شخص ما عدا المؤلف أو المالك يعتبر غير مفوض» ليست «ملكاً» له، يعتبر هذا «الخائن» لصاً وكاذباً. وتعتبر القصة التي رواها أو الأغنية التي غناها «مزيفة» حتى ولو انطبقت كلماتها حرفياً على النص الأصلي.

وقد ذكر الباحث «مونتفورد» عن منطقة أواسط استراليا ان «ملكية» القصص والمسرحيات السائدة في منطقة معينة ما، تقتصر حصراً على القبائل القاطنة في هذه المنطقة.

ورغم أن هناك رقصات وأغاني معينة تتردد على «ريبرتوار» مسارح الشعوب البدائية، إلا أن العروض نفسها تخضع لبعض التعديل.

فبعض المشاهد تخضع لتغيير دائم، فإما أن يقتطع منها أجزاء أو تقدم كاملة. ويتم إغناء الموسم المسرحي بالتجديد المستمر.

كما يمكن أيضاً تقديم مسرحيات ورقصات الشعوب المجاورة. ولكن بما أنها تخضع أيضاً لقانون «حق الطبع» فلا يمكن أن يتم ذلك إلا لقاء ثمن.

ويُشترى حق الاقتباس والعرض من المالك، الذي قد يكون فرداً أو قبيلة بمجموعها. ولا يجرؤ أي «مخرج» زار منطقة غريبة عنه وحضر فيها عرض مسرحية ما وحفظ مشاهدها ونصوصها عن ظهر قلب، أن يدرجها في برنامجه المسرحي دون أن يدفع مسبقاً ثمن حق اقتباسها وتقديمها. ويمكن في المناسبات الاحتفالية أن تقدم الرقصات والأغاني كهدايا. فقد رأيت[٨] عندما حضرت الاحتفالات في «بيت المجموعة» لدى قبيلة «تشيبغا» التي تقام في بداية جني محصول رز الماء البري، بأن الاحتفال قد بدأ برقصة الحرب التي ترقصها عادة قبيلة «سيوكس». وهذه قدمتها كهدية لقبيلة «تشيبغا» مع الطبل الذي تؤدى على ايقاعه عندما وقّع هذان العدوّان التقليديان على معاهدة سلام.

أما أهم عامل من عوامل مسرح الشعوب البدائية فهو - وكما هي الحال في أيامنا هذه - الجمهور. والجمهور بالنسبة لها كان يعني جميع أفراد القبيلة والقبائل المجاورة المدعوة. والمسرح هو قضية كل فرد من أفراد القبيلة يبدي اهتماماً كبيراً بالعروض التي يقدمها. وبذلك كان مسرح الشعوب البدائية وسيلة تأثير فعالة للرأي العام. ولم يكن شباك التذاكر معروفاً آنذاك كما لم تكن أيضاً الأجور المرتفعة ولا رواتب المخرجين معروفة.

وعلى عكس مسرحياتنا المعاصرة، التي قد يودي بها نقد أو مديح أو رفض بقلم مختص، إما إلى النجاح أو الفشل، فان الجمهور نفسه لدى مسرح الشعوب البدائية هو الذي يقرر بصورة لا لبس فيها ولا غموض استحسانه أو رفضه للعمل المسرحي.

ولم تكن العروض المسرحية لدى الشعوب البدائية، دون استخدام الموسيقى واردة على الاطلاق، حتى ولو كانت المسرحية نفسها لا تتضمن مشاهد غنائية. إلا أن نقاط التوتر فيها كانت تتصاعد بمساعدة مؤثرات موسيقية تصدر عن مجموعة كبيرة من الآلات تدخل فيها الخشخيشات، وعصي الطنين والطبول والقيثارات وأقواس الموسيقى والجنوك والجيتارات والأبواق.

وعلى النقيض من ثقافتنا أيضاً تركز الموسيقى البدائية بالدرجة الأولى على الايقاع. وهكذا كان الايقاع أكثر تعقيداً وتنوعاً وغنى من الناحية الفنية حتى من

سمفونياتنا المعاصرة. وقد بلغ الفن البدائي اتقاناً مدهشاً في نسج عدة مواضيع ايقاعية مع بعضها البعض بحيث يبدو من المستحيل لموسيقيينا «أن يفهموا التعقيدات الايقاعية للموسيقى البدائية بسماعها مرة واحدة» كما عبر عن ذلك الباحث «هورنبو ستل». ولا تعني الثورة على المحط المنسجم في الموسيقى التشكلية إلا عودة إلى الايقاع، كما تضعه موسيقى الشعوب البدائية فوق اللحن. ولم تكن الموسيقى البدائية متناغمة، تتبع السلم الموسيقي كموسيقانا الآن، بل كانت لحنية ايقاعية. وتظل نظرية «ديموقريط» القائلة بأن الرغبة في تقليد أصوات الطيور هي التي دفعت بالإنسان إلى «اختراع الموسيقى» صحيحة إلى حد ما. فهناك أغان من هذا النوع لدى الشعوب البدائية. ولكن فن الموسيقى بحد ذاته لم ينشأ عن هذه الرغبة. فليست «نغمات» أغاني الطيور هي التي دفعت للتقليد، بل زغردتها المرحة وتأخير النبرات فيها هي التي اقتبستها أغاني البشر.

فالصوت الآدمي هو أقدم آلة موسيقية. لكنه يظل في أغاني الشعوب البدائية دائماً ذا نغم واحد، حتى عندما يعطي أحياناً الانطباع بالتعددية نتيجة استخدام أوكتافات متقابلة، الأمر الذي يغدو ضرورياً من خلال الطبقات الصوتية المختلفة للمغنين.

وتتألف أقدم «نصوص الأوبرا» من نص يغنيه قائد الكورال ومعه لازمة مؤلفة من جزئيات Motives – وغالباً لا معنى لها – يرددها الكورال.

وحالما يتخذ النص الذي يغنيه قائد الكورال شكل الأسئلة التي يجيب عليها بقية المغنين، يتطور الغناء المتناوب أو الحواري مع مرافقة العديد من الآلات الموسيقية، إلى حوار أوبرالي، رغم أن النوتة الموسيقية غير مطبوعة، بل مجرد راسخة في ذاكرة المشاركين بالعمل.

وقد قسم «هورنبوستل» الآلات الموسيقية التي يستخدمها مصمم «الأوبرا» البدائية إلى أربعة مجموعات، وهي: الآلات الجامدة، الآلات ذات الغشاء المشدود، الآلات ذات الأوتار المشدودة، وأخيراً آلات النفخ.

والمقصود بالآلات الصلبة أو الجامدة هنا، آلات الضرب، التي يعتبر التصفيق بالأيدي المرافق للرقصات والأغاني أبسط أشكالها.

ومنذ أقدم الثقافات البدائية، كالثقافات الاسترالية مثلاً، كانت تُستخدم أيضاً عصي الطنين «والخشخيشات» وما شابهها من آلات، من أجل زيادة فاعلية الايقاع، إذ يساعد استخدام علب الطنين مثل اليقطين وجذوع الأشجار المجوفة وغيرها.. على ذلك..

وتستخدم قبائل «يوما» و«باباغو» الهندية الحمراء زوجاً من عصي الطنين تصدر عنه أصوات من خلال حركات احتكاك معينة. وتزداد قوة هذه الأصوات باستخدام سلال منزلية مقلوبة وملتصقة بأطراف العصي.

وبالأسلوب نفسه تستخدم الشعوب البدائية في شبه جزيرة «مالاقا» الحصر الملفوفة، إذ يصبح الصوت الايقاعي الصادر عنها مسموعاً على مسافات بعيدة. وقد أدت معرفة أن الجسم الخشبي المجوّف هو مصدر للأصوات إلى اختراع الطبل الخشبي، الذي توفر امكانات استخدامه المتعددة أثناء الاستعراضات الراقصة وطقوس السحر «الغيبية»، المؤثرات المطلوبة.

وتُعتبر أجهزة الطنين في عداد الآلات الايقاعية المنتشرة في جميع مناطق العالم. وهذه مصنوعة من اليقطين المجفف وحوافر الوعل والشرانق والعصي الجوفاء والخشب والطين والحديد والبرونز وكذلك الأجراس المعدنية المنتشرة بشكل خاص في غرب افريقيا.

وهناك خط تطور مستقيم يقود من عصي الطنين المعلقة متدلية على شجرة حتى المثلث وحوض الطنين اللذين استخدمتهما الثقافات الراقية.

أما المجموعة الثانية من الآلات الموسيقية البدائية فهي تلك التي يدخل الجلد المشدود في صنعها. وأقدم شكل لها هو ما يسمى بـ «شيطان الغابة» (ما يزال مستخدماً في عصر الحضارات الراقية كلعب للأطفال) الذي يلعب دوراً هاماً «كصوت» الكائنات الالهية، وبخاصة أثناء أداء مراسم الطقوس الغيبية لدى سكان استراليا. فلا يجوز لأية امرأة أو لأي شاب لم يجتز امتحان التعميد البدائي حتى أن يلمحه. وله معادل في افريقيا يسمى «ميرليتون» يستخدم في مناسبات احتفالية مشابهة لتغيير نبرة وقوة صوت الإنسان، كما أن رؤيته محرّمة أيضاً على النساء والأطفال تحريماً مطلقاً. والغاية الأساسية منه هي جعل صوت المغني أثناء أداء الطقوس المقدسة، غير معروف. وتبين لنا آلة الـ «كاسو» Kasu بشكل واضح، الأصل القديم لهذه الآلة.

ويعتبر الطبل الملبّس بالجلد والمستخدم في جميع المناطق الزراعية من العالم، أهم آلة موسيقية ضمن هذه المجموعة.

أما الصوت المديد للآلات الوترية فلم يكن من الممكن أن يرافق مسرحيات الشعوب البدائية إلا بعد اختراع القوس الذي انحدرت منه هذه الآلات.

ويعود القوس إلى أقدم «إنسان آلي» اخترعه البشر، أي إلى شرك الحيوانات.

ويعتبر القوس ذو الجانب الواحد أو ما يسمى بـ «كوردوفون» أقدم آلة وترية. ومن خلال اضافة أوتار أخرى وعلب الطنين، تطور مع الزمن إلى: الهارب والعود والليرا والربابة والجيتار والكمان والتشيللو بجميع أشكالها وأنواعها.

أما الصوت الذي يصدر عن نفخ الهواء في الآلات النفخية فيتنوع من أرق الأصوات الانسيابية ومن صوت الناي حتى دوي الأبواق. ولذلك فان أصوات الآلات النفخية محببة إلى أبعد الحدود عند الشعوب البدائية أثناء تقديم المسرحيات الغنائية.

توجد قيثارات ومزامير متنوعة الأشكال، بدءاً من قيثارة الريش المصنوعة من أنواع ريش بعض الطيور الكبيرة، حتى القيثارات والمزامير المصنوعة من الخشب والخيرزان والمعدن ذات الانتشار الواسع.

في شبه جزيرة الملايو هناك نوع معروف من الأورغ هو عبارة عن مزامير معلقة على شجرة. وهذه تصدر لحناً شجياً عندما تداعبها الريح.

أدى استخدام مجموعة مزامير مربوطة مع بعضها البعض إلى تطوير المزمار المركّب، الذي تطور عند الشعوب البدائية من المزمار اليدوي الصغير إلى المزمار الضخم الذي يصل طوله إلى مترين، ويعتبر أحد الأشكال الأولى التي تطور عنها الأورغ الحديث.

وتدخل القيثارات والمزامير في عداد أحب الآلات الموسيقية وبخاصة لدى الشعوب البدائية في افريقيا وغينيا الجديدة. ففي غينيا الجديدة تعتبر القيثارة المقدسة المسماة «براغ» صوت روح «براغ» ذي الجبروت المطلق الذي يمثل وجهه قناع خاص يحظى بكافة مظاهر الاحترام والتبجيل. وهناك أنواع أخرى من القيثارات في غينيا الجديدة منها «قيثارة الأنف» و«قيثارة الفم» وكذلك القيثارة المتصالبة. أما الأنواع الافريقية لهذه الآلات الموسيقية فمصنوعة من الخيزران أو الحديد أو الخشب. وقد تطور البوق فيما بعد عن أنواع القيثارات المعدنية.

ولكي يضفي زعماء القبائل الافريقية الأبهة على مواكبهم وعروضهم الفنية العامة، فإنهم يحتفظون في بلاطهم بجوقة من البواقين مؤلفة غالباً من أكثر من ثلاثين بواقاً. وقد تطور قرن الكبش الذي يُنفخ فيه في عيد «الباساه» Passah عند اليهود، عن القرن المستخدم في بوق الشعوب الافريقية. وهو غالباً عبارة عن قرن ظبي.

حوالي عام ١٤٠٠ قبل الميلاد كانت أوربا تستخدم آلة نفخ هامة من البرونز المسكوب عند أداء الطقوس الشعائرية في اسكندينافيا وشمال ألمانيا.

ومن قيّض له أن يحضر عروض الشعوب البدائية، فسوف يأخذ بلبّه الاستخدام الرائع والمتقن لمختلف الآلات الموسيقية، أو الجمع الذكي بين مختلف الآلات والأصوات، وبخاصة أن معظم المؤثرات الصوتية توظف لتشير إلى وجود كائنات اسطورية.

يضاف إلى ذلك امكانات التأثير التي وفرتها هذه الآلات البسيطة، فهي عديدة إلى أبعد الحدود ويتم استغلالها بأقصى درجات الاتقان.

ومن عصي الطنين الاسترالية حتى جنون الطبول، ومن فرق الغناء في غرب افريقيا التي يرافقها «الاكسيلوفون» حتى القيثارات القديمة في اسكندينافيا واليونان، خلعت الموسيقى منذ القديم نفحة الهيبة على عروض الإنسان الفنية، ونقلت الفنانين والجمهور على خشبات المسارح القديمة - كما تفعل الآن في دور الاوبرا الحديثة - إلى جو أفضل.

ولكن الكلمة المنطوقة تظل أقدم من اللحن والموسيقى. وما الترتيب اللفظي التقليدي المستخدم في العروض المسرحية وفي الغناء سوى «النصوص». ومثل هذه النصوص قديمة قدم المعرفة بالموسيقى ان لم نقل أقدم. وقد رأينا أن كثيراً من الشعوب تستخدم مقاطع من صيحات ايقاعية أثناء استعراضاتها الراقصة كوسيلة من وسائل التصعيد الدرامي. وكذلك الأمر فان للجمل المكررة بصورة منتظمة - كصيحات الحمالين أثناء رحلات الصيد الافريقية - المفعول نفسه. منها مثلاً النص التالي:

«يأتي إلى هنا الرجل الأبيض، قوياً ومعه أشياء كثيرة، له لحية ويرتدي خوذة، وجهه أحمر وقدماه ضعيفان. ها ها ها...» فمثل هذه الحواريات الايقاعية المتبادلة بين الحمالين تحول شقاء حمل الأثقال إلى «تقديم استعراضي» عادي.

ويدخل أيضاً في عداد هذا اللعب المسلي نوع من الغناء معروف في «هاواي» يكثر ترديده وتدخل في صلبه أسماء جميع الحاضرين مثل:

فلان الفلاني	الرجل
وفلانة	المرأة

ثم يأتي اسم رجل آخر مع كلمة «رجل» أو «زوج» وبعده يأتي اسم امرأة مع عبارة «امرأة» أو «زوجة»... الخ إلى أن يأتي المردد على أسماء جميع الحاضرين.

وهناك نوع من الانسجام بين النص الجاري والاستخدام الدرامي للصيحات الايقاعية يعرضه لنا مثلاً «الغناء القصصي» الذي يؤديه قادة فرق الكورال الاستراليون. وهذا النوع مستخدم أيضاً في افريقيا ومناطق أخرى غيرها. في هذه الحالة يسرد قائد فرقة الكورال الحادثة، بينما يقتصر دور بقية مساعديه على ترديد صيحات أو مقاطع أو حتى جملة محددة بذاتها.

وقد تشعب هذا التوحد الأصلي للثقافات القديمة فيما بعد لدى الحضارات الزراعية وتطور لدى الحضارات الراقية إلى الأشكال الأدبية الرئيسية الثلاثة للأدب: الشعر والنثر والمسرح. وقد أصبحت هذه الأشكال الفنية هي الأدب المكتوب في دراما «أولانتا» لدى سكان بيرو القدماء وفي المسرحيات الكلاسيكية الهندية المكتوبة بلغة «براكريس» حوالي عام ٥٠٠ قبل الميلاد، وفي روائع المسرحيات الصينية من القرن الثاني عشر بشكل خاص، التي لا يفوقها شيء، سواء من حيث الشكل أم من حيث المضمون الفكري.

ولكن كم هي معقدة بالفعل النظم الأدبية الفنية التي نشأت في مراحل التطور اللاحقة. فكل عمل أدبي يعتمد على الربط الموفق بين الاحساس والأفكار بالشكل الأمثل. من هذه الرؤية فانه حتى أشهر الكوميديات والتراجيديات في مختارات المسرح العالمي لا تتفوق أبداً على بعض النصوص الشعرية عند الشعوب البدائية، والبرهان على ذلك نستعرضه مثلاً مع حوارية غنائية صغيرة من استراليا تغنى اكراماً «للجندب» الذي يسكن بين أوراق الشجر، وهو في الوقت نفسه «طوطم» احدى القبائل الاسترالية:

ففي احتفال سنوي يقام في أمسية جميلة، تجتمع القبيلة التي يعتقد أفرادها انهم انحدروا من هذا الجندب. وأثناء الاحتفال يؤدون الأغنية التالية:

تبدأ الجنادب الصغيرة بالعزف
عندما يحل المساء في الغرب
تغني، فتسكت الطيور على الغصون
تسقط الجناب الصغيرة على العشب كأنها ميتة
ولهيب الشمس يصبغ كل الأجنحة الصغيرة بالحمرة
وتغني الجنادب الصغيرة أغنيتها على شجرة «ايلومبا»
التي تعج بهم، وتتأرجح كما في الحلم
تغني الجنادب الصغيرة، وتعزف أيضاً
بعد قليل يغطي جناح الليل الأسود، الأرض

* * *

الهوامش:

١ – حذاء خاص بكعب عال كان ينتعله الممثلون عند تقديم مسرحيات تراجيدية على المسرح اليوناني (معجم المورد) .

٢ – إله الخصوبة والخمر عند اليونان . وهو ابن الاله زيوس . يقابله باخوس عند الرومان .

٣ – مهرجان ليلي يشتمل على أغان ورقصات رمزية ، يحتفل فيه سكان اوستراليا الأصليون بالأحداث الهامة في القبيلة (قاموس المورد) .

٤ – ايمو Emu ، طائر يشبه النعامة لكنه أصغر حجماً منها . (قاموس المورد) .

٥ – شخصية مسرحية هزلية عند شكسبير .

٦ – فورست تعني بالألمانية أنواع اللحوم المقددة .

٧ – البودينغ بالانكليزية حلوى يدخل الدقيق واللبن والبيض والفاكهة والسكر في تحضيرها .

٨– أي المؤلف .

الفصل الثاني عشر

من القبيلة إلى الدولة

تطور التركيب الاجتماعي - المؤسسات القانونية البدائية ودورها - الديموقراطية البدائية ودور الرأي العام.

غنية ومتنوعة هي الأشياء المادية والروحية التي تشكل الملكية الثقافية للشعوب البدائية إذا ما أخذنا ظروف حياتها بعين الاعتبار. فلأكواخها ومساكنها مسحة من الهدوء والراحة. كما أن مهاراتها في مجال الحرف اليدوية والفنون هامة في معظمها. فهي ترحل وتمارس التجارة وتعرف أنظمة عملية لنقل الأخبار وتربي أطفالها وتستمتع في ساعات فراغها بمجموعة من الألعاب والتسليات.

ويتبين من عاداتها وتقاليدها بوضوح أن هناك قوانين تقليدية للسلوك معترفاً بها بشكل عام تنظم حياتها. ولكن هل من الممكن أن نتساءل فيما إذا كانت هذه الشعوب تعرف الحقوق والقوانين بالمفهوم المتعارف عليه حالياً؟. وبما أنهم بشر لا ملائكة، فإنه تحدث عندهم عمليات سطو وجرائم من أنواع أخرى. فكيف يكون القصاص في مثل هذه الأحوال، طالما لم يكن عندهم جهاز شرطة؟ ومن ذا الذي كان يحرص على الحفاظ على النظام العام؟ هل وجدت عندهم سلطة مسؤولة عن الحفاظ على مقاييس السلوك السائدة لمصلحة المجموعة؟

كانت الحيرة العامة بخصوص الاجابة على هذه الأسئلة كبيرة. ولم يمض وقت طويل حتى غدا التوصل إلى الوضوح المتعلق بالمؤسسات السياسية والقانونية للشعوب البدائية ممكناً. وقد أساء علماء الأجناس فهم العلاقات القانونية عند هذه الشعوب أيما اساءة.

وكذلك فسر بعض العلماء اليمينيين علاقاتها الاتنولوجية تفسيراً خاطئاً.

فعدم وجود علم نفس مختص يمكن أن يجزم في هذه المسائل، وعدم معرفة الحقائق الواقعية، أوديا إلى اطلاق تعميمات غير مسؤولة، وبالتالي إلى تحريف لحقيقة العلاقات الواقعية، وان كانت غير مقصودة، إلا انها في الوقت نفسه غير عادلة.

فعلى مدى قرون عديدة، منذ العصر الكلاسيكي القديم حتى عصر الاكتشافات الكبرى، بل وحتى العصر الحاضر، كان الحديث عن «البدائيين» وكأنه حديث عن نوع من الكائنات الخرافية التي عاشت إما «كملائكة» في جنة لطيفة، أو كمخلوقات نصف حيوانية تثير اشمئزاز الحضارة.

وقلما دار في خلد معظم المراقبين المتحضرين أنهم بشر أيضاً، وأنهم مثلنا جميعاً يطمحون إلى تحقيق الأهداف نفسها، أي إلى امكانية قضاء حياتهم بحرية وتحت أفضل الشروط التي يمكن خلقها مهما كان تصورهم عن «الحياة السعيدة». وقد كان للمنظمات الاجتماعية عند البدائيين - وهي عديدة كما سنرى - الأهداف نفسها التي لمثيلاتها في عصرنا الحاضر وهي: ضمان أمن وسلامة الأسرة والمجموعة المحلية والمجموعة بشكل عام والقبيلة والشعب بمجموعه. وكانت مهام الدوائر المكلفة بالحفاظ على النظام العام، سواء أكان ذلك من الناحية القانونية أو الاجتماعية، كتلك التي تناط بالدوائر المختصة في عصرنا هذا، وهو السعي نحو تنظيم الحياة داخل وخارج المجموعة والحفاظ على تماسكها وتأمين معاشها والمحافظة على الأمن داخلياً وخارجياً.

ولم يكن الفرد عند أقدم الشعوب، كالاستراليين والتسمانيين والبوشمن والفيدا وسكان أقصى جنوب أميركا اللاتينية يشكل وحدة قانونية، وانما المجموعة المحلية ككل. ويمكن أن تشمل المنطقة التابعة لإحدى هذه المجموعات المحلية - كما هو الحال في استراليا مثلاً - من أربعة إلى عشرة آلاف ميل مربع يعيش فوقها ما بين عشرين إلى مائة فرد. وحدود هذه المنطقة، التي تعتبرها هذه المجموعة «أرضها» معروفة بدقة، ليس فقط لدى أصحابها، وإنما أيضاً لدى جيرانها من القبائل الأخرى. فاذا ما خُرقت حقوق ملكية هذه الأرض من قبل دخيل أو غازٍ، يجابه الخرق برد فعل مباشر وسريع من قبل المجموعة كلها، وليس من قبل فرد أو أسرة منفردة. وقد كان خرق الحدود عند التسمانيين بمثابة اعلان الحرب.

والشيء نفسه ينطبق أيضاً على قبائل الالتقاط والقنص الاسترالية، حيث يؤدي أي خرق للحدود عندهم إلى حرب فورية. وبغض النظر عن قضايا تجاوز الحدود، فلا تزحف القبيلة كلها للحرب إلا في حالات القتل أو اختطاف امرأة. وتظل مهمة المجموعة عند تجاوز الحدود أو خرقها هي القصاص من المجموعة المعتدية. فهذه المهمة لا تقع إذن على الفرد أو على أسرته فقط.

ومن دواعي حكمة سكان البراري والاحترام الكبير الذي تكنه الشعوب البدائية لقيمة حياة الإنسان، حتى في حال حدوث خرق للحدود، أن لا تنشب حروب تكون الغاية منها ابادة المجموعة المعادية حتى آخر رجل. بل غالباً ما يتم الاتفاق مع الجهة المقابلة حول عدد المحاربين الذين يجب أن يمثلوا طرفي النزاع. وفي أغلب الأحيان يحسم النزاع عن طريق صراع بين رجلين يدافع كل منهما بتكليف من مجموعته عن حقوقها. وحتى هذا الصراع بين زوج من المحاربين لا ينتهي بموت احدهما بل لا يتطلب الحسم أكثر من وقوع احدهما على الأرض. وفي مثل هذه الصراعات يترك أفراد قبيلة «بوتوكود» سهامهم وأقواسهم في البيت ولا يتسلحون بأكثر من عصا صغيرة. وقد ينتهي أحياناً هذا الصراع بعراك عام تشارك فيه حتى النساء اللواتي يتبادلن نتف الشعر.

وقد يحدث أيضاً أن نرى مجموعة محلية، ازداد عدد أفراد أعضائها زيادة كبيرة ولم تعد بالتالي قادرة على تأمين ما يكفيها من المواد الغذائية، مضطرة للقيام بتنظيم حملات غزو في منطقة تخص مجموعة محلية أخرى مجاورة. وقد لاحظ «فريزر» مثل هذه الحالة لدى مجموعة محلية تابعة لقبيلة «والاراي» الاسترالية فكتب عن هذه الحادثة ما يلي:

«أرسلوا رسولهم الرسمي إلى احدى القبائل المجاورة لهم ليطلب منهم قطعة أرض. وبما أن هذا الالتماس يتناقض مع نظم القبيلة فقد رفض. بالإضافة إلى ذلك كانت القبيلة المعنية صغيرة لدرجة لا تستطيع معها تلبية مثل هذا الطلب. بعدها أخبرت القبيلة التي رد طلبها القبيلة الأخرى أنها ستأتي بنفسها لتأخذ عنوة ما منع عنها، فتلقت الرد بأن المعتدى عليهم يحق لهم في هذه الحالة باسم العدالة أن يطلبوا المساعدة من جيرانهم. بعدها قام الفريقان باتخاذ الاستعدادات اللازمة للحرب. وقبل ذلك عقد اجتماع مشترك للجانبين ألقيت فيه كالعادة كلمات طويلة وغاضبة. وفي النهاية تم

الاتفاق على أن يقوم عدد متساو من المحاربين من كل طرف بحسم النزاع من اليوم التالي. وعندما حان الموعد المضروب تقدم كلٌ طرف رجل وأخذا يتعاركان. وسوي الخلاف بالطريقة المتبعة التي سبق أن رأيناها. وهذه هي الطريقة المتبعة لحسم الخلافات بين القبائل».

وكذلك في النظم الاجتماعية الرأسمالية في عصرنا الحاضر يكون الحديث عن مسائل مختلف عليها تخص الشعب ككل. ولكن الغزاة الحديثين لا يضيعون الوقت في التفاوض. ولذلك فان تسوية الخلافات الدولية في عصرنا الحاضر أخطر وأشد رعباً منها في استراليا، فعند الشعوب البدائية تحارب الأقلية من أجل الأكثرية. أما في المجتمع الطبقي فغالباً ما تحارب الأكثرية من أجل مصلحة الأقلية.

ورغم أن تخطي الحدود يعاقب عليه بشكل عام بعقوبة الموت، إلا أن أشخاصاً متميزين في القبيلة أو «دبلوماسيين» - يسمح لهم من خلال امتياز خاص - معروفين كمراسلين، دخول منطقة قبيلة مجاورة لغايات مختلفة، كالبيع والتبادل، أو اجراء مفاوضات.

وهذا متعارف عليه بشكل خاص في المناطق التي تتوفر فيها كميات كبيرة من حاجة مرغوبة من قبل القبائل الأخرى، مثل الحجارة الصالحة لصنع البلطات، أو بعض الألوان المعينة، وحيث ينمو نبات الـ «بيتوري» المخدر.

فإذا ما كان الأمر يتعلق بقضية تبادل مثل هذه الحاجات مع المجموعة التي تملك الأرض التي تتوفر فيها الحاجة، فان ذلك يتطلب اخبار المجموعة المعينة قبل ذلك بصورة رسمية، لأن التوغل دون أخذ اذن مسبق في أرض الغير تترتب عليه عقوبة الموت. وهناك حادثة واحدة ذكرتها المراجع نجا فيها من الموت متسلل غريب بطريقة غير شرعية إلى أراضي الغير، وذلك نتيجة للمقدرة الدبلوماسية الفائقة التي بذلها أعيان احدى القبائل الاسترالية.

وقد ذكر الباحث «هوفيت» هذه الحادثة. وهي أن رجلاً من قبيلة «فود تاوورونغ» في جنوب شرق استراليا تسلل خلسة إلى أرض قبيلة أخرى مجاورة وبدأ بقطع الحجارة منها دون الحصول على اذن مسبق من مالكيها. بعدها التقت القبيلتان على الحدود الفاصلة بين منطقتي الصيد التابعتين لهما للبت في هذا الأمر.

«عند المفاوضات جلس الرجل الذي تسبب بالمشكلة من جهة وخصمه من القبيلة الأخرى من الجهة الثانية. وكانا قريبين من بعضهما البعض بحيث يسمع كل منهما كلام الآخر. وجلس شيوخ القبيلتين معاً ووقف شبابها خلفهم. نهض زعيم القبيلة التي خُرقت حرمة أرضها وخاطب جماعة المتهم قائلاً:

«هل أرسلتم هذا الشاب ليقطع الحجارة في أرضنا؟» فأجابه زعيم قبيلة المتهم: «لم نكلف أحداً بذلك مطلقاً» وهنا استدار مخاطباً ابن قبيلته: «قل للشيوخ إنَّ عليهم أن يمنعوا الشاب عن تكرار فعلته تلك» فعندما تريدون قطع الحجارة فعلى شيوخكم ابلاغنا بذلك مسبقاً. وكرر هذا القول ثانية بصوت عال. فأجاب شيوخ قبيلة المتهم: «هذا حق، وسوف نفعل ذلك مستقبلاً». وبعد أن وجه اللوم العنيف للرجل الذي سرق الحجارة، عادت الصداقة مجدداً بين القبيلتين».

تظهر لنا هذه الحادثة بوضوح رد الفعل الطبيعي لمجموعة محلية تجاه مسائل موضوع خلافات تنشأ نتيجة تخطي الحدود. فتضامن المجموعة في جميع الحالات المتعلقة بتوريطات من هذا النوع ثابت لا يتزعزع. ولكن ذلك يساهم في وحدة المجموعة المحلية ويلقي على كاهل كل عضو من أعضائها واجباً أخلاقياً سامياً. ولا يعتبر هذا الموقف منطقياً إلا عندما نتذكر أن كل عضو في قبيلة يتخطى حدود قبيلته يكون مهدداً بالموت. فالقبيلة هي التي تضمن السلام الخارجي والداخلي، لأن جميع مظاهر الحياة ضمن المجموعة تقوم على المساعدة المتبادلة، وخاصة فيما يتعلق بتأمين الغذاء. فتأمين الغذاء، كما نقول الآن، يحدده التأمين المتبادل، ويضمنه ويوافق عليه الرأي العام. وكل فرد يعرف النظم المرعية في مجتمعه. فتوزيع الغنائم يتم وفق أسس دقيقة ومنظمة، ولذلك فان النصيب الذي يحصل عليه رجل في القبيلة لم يحالفه الحظ في الصيد، من حصيلة القنص، لا يعتبر منة أو هدية، وانما مجرد القيام بواجب حقوقي.

وعندما يصطاد أحدهم حيوان «كونغورو» مثلا فان فخذه من نصيب والد الصياد، والفخذ الآخر لعمه، والذيل لأخته، والكتفين لأخيه، والكبد له شخصياً. أما قبيلة «نجاريجو» فتعطى رأس الطريدة فقط للصياد، كما روى ذلك الباحث «بالمر».

أما بقية الطريدة فتوزع بين أفراد أسرته وخارجها. وهناك قبائل استرالية عديدة

تتبع هذه القواعد في توزيع الغنائم. ولا يقف الضمان الاجتماعي الغذائي عند حدود العائلة بل عند حدود المجموعة. وهذا ما ينطبق أيضاً على شعوب أخرى تعتمد الالتقاط والقنص مثل «البوشمن» في افريقيا وال «فيدا» في سيلان، الذين روى عنهم أبناء العم «ساراسين» أن أقراص العسل التي تستخرج من الصخور التي يسكنها النحل توزع توزيعاً عادلاً بين جميع أفراد الأسرة.

فإذا ما كانت الأرض وتنظيم توزيع الغذاء من أمور القبيلة أو المجموعة ككل، فإنه يحق لنا أن نسأل فيما إذا كانت هناك ملكية شخصية على الاطلاق بالمفهوم الذي نتداوله، وكيف تنظَّمُ هذه الملكية فيما لو وجدت؟. ان الجواب على هذا السؤال ليس بالأمر السهل. ولكن يمكن أن نقول إنه لم تكن هناك ملكية خاصة بمفهومنا الحديث حول مصطلح الملكية الذي يعني عندنا «السيطرة المطلقة لشخص ما على شيء ما».

وإذا ما ذكرت لنا المراجع عن وجود ملكية خاصة، كملكية المواد التي يقوم الفرد بصنعها كالأسلحة، وأدوات العمل، والزينة والملابس، أو حتى عن ملكية مقالع الحجارة، ومصادر الحصول على الألوان، فان هذه الملكية تحددها معوقات أخرى عديدة، بحيث لا يمكن الحديث إلا عن مجرد حق يشبه حق الملكية، كالتوكيل أو حق الاستمتاع، ولكن ليس السيطرة الكاملة. وعلى أية حال فلا يمكن أن تكون المنقولات الضرورية أو ذات القيمة بالنسبة للمجموعة، ملكاً شخصياً. وقد كتب الباحثان «فيسون» و«هوقيت»: «ان مفهوم الفرد ليس معروفاً. فليس له حقوق مستقلة». فوعي الملكية الشخصية بمفهومنا الحديث غير موجود عندهم نهائياً. والهدايا التي يقدمها البيض إلى شخص ما سرعان ما تظهر بعد وقت قصير عند آخرين من أفراد القبيلة، سواء أخذت منه عنوة أو قدمها طوعاً.

وهكذا فان مجمل الحياة اليومية للفرد تتوضح في الرابطة الاجتماعية والحقوقية للمجموعة التي يشكل الرأي العام فيها أقوى سلاح لفرض الأمن الداخلي. فلها دور وقائي، إذ تجبر الفرد بمجرد وجودها البسيط على التقيد بالنظم القانونية المرعية، وكذلك لها دور فعال عند التكفير في مسألة فيها خرق القانون، ولا يمكن للفرد أن ينحو منحى مخالفاً للرأي العام، لأنه لا يستطيع ترك القبيلة وتخطي حدود منطقة قبيلة أخرى، ففي ذلك الموت المحتم. ولهذا السبب فان الرأي العام يعتبر عملياً

الضابط الأقوى عند شعوب الالتقاط والقنص. فالجهات المسؤولة على التسيير لا تحتاج في مثل هذا الوضع القانوني والاقتصادي الذي عرضناه سوى إلى القليل من الثقافة، كما أن وجودها هامشي.

أما مبدأ ضرورة تحقيق السلام داخل المجموعة فلا يسمح بحق القصاص بالمثل، حتى ولو في أصعب حالات الاجرام، كحادثة قتل داخل المجموعة مثلاً. فهناك عقوبات محددة لكل نوع من مخالفة النظم القانونية. فالخيانة الزوجية يعاقب عليها لدى «التسمانيين» بالضرب وثقب الساق بنصلة رمح. أما عند الـ «بوتوكود» فيقوم الزوج بمعاقبة الزوجة الخائنة اما بالضرب أو بالحرق. أما في استراليا فتتم تسوية الجريمة هذه بالمصارعة بين المعنيين بالأمر، لكنها قطعاً لا تنتهي بالموت.

أما القائمون على تطبيق النظم التي أقرها الرأي العام فهم عادة الرجال المتقدمون في السن، الخبيرون في شؤون الحياة وقوانين القبيلة، والذين لا يقتصر عملهم على ايضاح حدود منطقة المجموعة المحلية، بل يتعدى ذلك أيضاً إلى تعليمهم كل ما يتعلق بقوانين الزواج، وطقوس البلوغ وتوزيع الطعام، وقوانين أخرى قائمة منذ غابر الأزمنة لجعلهم أعضاء نافعين في القبيلة. وفي أيدي هؤلاء المسنين يقع أيضاً القضاء الذي يخص المجموعة، أو الحكم في مسائل متنازع عليها بين أطراف. وبغض النظر عن مسائل تخطي الحدود فهم يصدرون أحكاماً حول جرائم قتل ارتكبها شخص من خارج المجموعة المحلية ضد أحد أفراد القبيلة، الأمر الذي يؤدي كما سبق أن رأينا إلى اعلان الحرب.

وقد تقع حوادث ضمن البطن أو القبيلة، كالقتل وممارسة السحر، أو خرق تقاليد الزواج، أو كشف أسرار طقوس البلوغ. وهذه توضع أمام «مجلس الشيوخ» للبت فيها. وغالباً ما يتم تنفيذ العقوبة برمح المذنب نفسه، ولكن دون أن تصل إلى حد القضاء عليه.

قد يحوز الزعيم على شيء من الثقافة، وقد لا يحوز عليها مطلقاً. إذ يستطيع فرد من القبيلة يتمتع بكفاءة ومرونة جسدية أو عقلية أن يمارس نفوذاً كبيراً على القبيلة، ولكنه أيضاً مرتبط آخر الأمر بالرأي العام. وحيث كتب عن الزعماء في هذه المرحلة من التطور الثقافي وعن مهامهم، فان البيض قد جعلوا منهم هكذا بشكل اصطناعي، وذلك لتسهيل التفاهم مع القبيلة. وهناك مثال واضح يمكن أن نستخلص منه الكثير ذكره «درسون» في صورة طبق الأصل لعقد وقعه بعض البيض الذين كانوا

من أوائل المستوطنين في استراليا مع بعض ما يسمّى بالزعماء، حول التنازل عن مساحة من الأرض مقدارها مائة ألف «ايكر»[1]. ففيه تنظيمات الحياة القانونية لشعوب الالتقاط والقنص بخطوطها العريضة. فالحقيقة تظهر لنا أنه من الخطأ وصف الوضع القانوني لهذه الشعوب «بالفوضوي» كما فعل بعض الباحثين. بل على العكس فالنظم والتشريعات القانونية وتركيبها وتطبيقها مدهشة في وضوحها. والشيء المميز عند ثقافات الجمع والقنص هو مبدأ تنظيم الأراضي الذي ترتبط به أيضاً مجموعة معقدة من النظم الضابطة. والشيء المميز لهذه الشعوب أيضاً هو الوقفة المتضامنة التي تقفها القبيلة نحو الخارج في حالة تخطي الحدود وحالة الحرب، ونحو الداخل فيما يتعلق بالأمن الغذائي.

وقلما توجدُ امكانية لتطوير الملكية الفردية بمعنى الكلمة، ولو ان هناك أحياناً حقوقاً فردية متفرقة تشبه حقوق الملكية، ولكن ملكية الأراضي وبقية الأشياء الثمينة الأخرى التي تخص القبيلة ككل، لا تدخل ضمن هذا النطاق. وتشكل الضغوط الخارجية، التي تتطلب الوقوف سداً منيعاً للدفاع عن أرض القبيلة، احدى أقوى دعائم الرأي العام والجهات القائمة عليه، لتطبيق النظم القانونية ضمن القبيلة.

إذا ما توجهنا إلى ما اصطلحنا على تسميتهم «بشعوب الجني» وهم مجموعة أخرى كبيرة من القبائل ذات نمط اقتصادي خاص، لوجدنا أن حياتهم الاقتصادية الخاصة قد أدت إلى قيام أشكال قانونية وحكومية خاصة جداً، تختلف كل الاختلاف عن تلك التي لدى شعوب الالتقاط والجمع، ورغم أن المجموعة المحلية عندهم تشعر أنها مالكة لمنطقة محددة بحدود معروفة، إلا أن تجاوزات لحقوق ملكية الأرض تحصل أحياناً. ويمكن أن نعبر عن ذلك باستخدام مقارنات حديثة بقولنا: ان القيمة المطلقة للأرض تتحول إلى جزء من منطقة المجموعة، وهو الجزء الأساسي في حصول المجموعة على غذائها، أي حقل المحصول. وهنا يجب التنويه ثانية إلى أن الأمر في قضية حقول المحاصيل لا يتعلق بأرض استصلحتها يد الإنسان وانما «بحقل» أوجدته الطبيعة. فجزء من أرض القبيلة الذي هو «حقل المحصول» قد اختص هنا بالقيمة دون غيره. فباعتباره المصدر الرئيسي لغذاء المجموعة المحلية، يشكل محور الوضع الاقتصادي والقانوني للمجموعة. وقد تصل مساحة حقل المحصول أحياناً إلى أرقام كبيرة جداً قد

تمتد إلى سبعين ميلاً. ويعتبر حقل المحصول عادة هو المنطقة التي تتوضع فيها المجموعة المحلية، لأن نمط الاقتصاد هنا يتطلب - كما سبق أن رأينا في موقع آخر - نوعاً من الاستقرار، وبخاصة يتطلب مخازن غلال ثابتة. وبذلك يصبح حقل المحصول العامل الرئيسي لتجمع السكان، ويكون بالتالي عدد أعضاء المجموعة المحلية لدى هذه القبائل يزيد بكثير عنه لدى قبائل الالتقاط والقنص.

وهذا ما يؤدي بدوره إلى رد فعل مختلف لدى المجموعة المحلية نحو الخارج وإلى موقف قانوني خاص نشأ لدى هذه الشعوب في سلوكها تجاه المجموعات المجاورة. وقد رأينا أن تخطي الحدود لدى قبائل الجمع والقنص كان يعني الموت المحتم، بينما ليس الأمر كذلك عند شعوب المحاصيل. فليس هناك عقوبة لمجرد تخطي الحدود. فالتساهل في قضية الحدود يمكن أن يصل إلى حد الغائها نهائياً. وقد ذكر الباحث «كور» أن قبيلة «بانغيرانغ» الاسترالية والقبائل القريبة منها يمكن أن تبحث عن ملاذ على أراضي بعضها البعض. وقد يحدث أحياناً أن تتقاسم قبيلتان مختلفتان حقلاً واحداً. وتدعى القبائل والمجموعات المجاورة أثناء جني المحصول لتصيب من فائض خيراته. ولا يقتصر ذلك على استراليا، فالحال كذلك في أميركا الشمالية. وقد «لاحظتُ ذلك شخصياً لدى قبائل «أوجيبغا» الهندية الحمراء»[٢].

كان لهذه اللقاءات نتائج في الميدان الثقافي وكذلك أيضاً في مجال السياسة الخارجية ان صحت التسمية، تشكل مصدر المؤسسات القانونية سواء في مجال القانون الدولي البدائي والقانون التجاري أو قانون حقوق المؤلفين. والشيء الهام في مثل هذه اللقاءات كان بالدرجة الأولى التجارة والتبادل المشترك لمنتجات مجموعة محلية لقاء منتجات مجموعة أخرى. بالإضافة إلى ذلك تخدم هذه اللقاءات قضية البحث عن أمور حفلات وطقوس سن البلوغ، التي غالباً ما تؤجل إلى قيام عدة قبائل بهذه الطقوس مرة واحدة بمناسبة الاحتفال بعيد الجني. ولهذه اللقاءات أهمية كبيرة في نشر العناصر الثقافية، حيث تقام احتفالات وألعاب مشتركة كما وصفها لنا الباحث «كور».

«أطلع المؤلف القبائل المجاورة على مسرحيته، فقامت هذه بدورها بدعوة أصدقائها كمتفرجين أو حتى كمشاركين فيها. وعلى هذه الطريقة ينتشر عنصر ثقافي معين فوق مناطق شاسعة، حيث يقدم تمثيلاً وغناء بحماس بالغ، حتى في المناطق التي

لا تفهم أية كلمة من اللهجة المحلية التي كتب فيها هذا العنصر الثقافي. وكان التأثير الدرامي لمثل هذه العروض في بعض الأحيان كبيراً إلى أبعد الحدود. فقد سبق أن رأينا في الفصل المتعلق ببدايات المسرح أن حق التأليف كان معروفاً لدى شعوب الجني وأنهم يحفظون هذا الحق بدقة. وقد ذكر العديد من الباحثين الذين تناولوا بحث ثقافة «شعوب الجني» - ولم يتوصلوا إلى فهم دقيق لما تعنيه هذه التسمية - أن هناك ما يسمى «بمناطق محايدة». ولكن يجب عدم الخلط بين هذه وبين مناطق الحدود التي توجد أحياناً لدى قبائل الجمع والقنص التي تترك خوفاً من القبيلة المجاورة المعادية. بل على العكس، فان هذه المناطق تحدد بدقة من خلال ما يمكن أن نقول عنه حالياً اتفاقات دولية بين قبائل متجاورة. اذن يمكن التأكيد إلى حد ما على قيام مؤسسة قانونية للقانون الدولي لدى شعوب الجني. وقد ذكر «كور» عن القبائل الساكنة على ضفاف نهر جريجوري أنهم خصصوا من خلال التفاهم المتبادل، منطقة محايدة مساحتها ٥٠ × ١٠٠ ميل لعقد اجتماعاتهم فيها. وأن سبب تخصيص هذه المناطق مشروط بقضايا اقتصادية وقانونية. فمن الناحية الاقتصادية يترك محصول هذه المنطقة - بموجب اتفاق مسبق - سواء النباتي أو الحيواني لاستهلاكه خلال اجتماعات القبائل التي تتم فيها. ومن الناحية القانونية تشير هذه المؤسسة على أن خلق مناطق محايدة ممكن فقط لدى القبائل المحلية التي تؤمن عماد حياتها الاقتصادية ضمن منطقتها من خلال حقل المحصول.

وليس هناك شك أن حقل المحصول وكذلك منطقة القبيلة بمجموعها كانت ملكاً للقبيلة المحلية لدى شعوب الجني في استراليا.

ويمكن أثناء موسم الجني أن يسمح للاسر باقتطاع قطعة معينة من الحقل واستغلالها بشكل مستقل، ولكن الأرض بحد ذاتها تظل مع ذلك ملكاً جماعياً. والشيء نفسه ينطبق أيضاً على قبائل عديدة في مناطق أخرى من العالم وخاصة سكان مناطق «شاكو» في أميركا الجنوبية الذين يجنون محصول البطاطا البرية. لكن حقل المحصول يبقى في كل الأحوال ملكاً مشتركاً للمجموعة المحلية ككل، وبالنسبة لقبائل «أوجيف» في أميركا الشمالية، فقد أكد مؤلفون قدماء أن حقول المحاصيل كانت ملكاً للمجموعة المحلية، ولكن الحقل نفسه كان يقسم على الاسر مجدداً قبيل موسم الجني. واثناء اقامتي لدى هذه القبائل عام ١٩٤٧ وجدت أن القوانين القديمة المتعلقة

بهذا الموضوع ما تزال متبعة. فجميع المسائل المتعلقة بالمحصول والحقل تنظم بشكل عام وشامل من قبل «لجنة الرز» المنتخبة من قبل المجموعة المحلية التي يجب على كل فرد أن ينصاع لها، بدءاً من تحديد موعد أول أيام الجني، مروراً بعدد القوارب المشاركة في عملية الجني، حتى تحديد اليوم الذي يجب على الحصادين أن يغادروا فيه البحيرة. وكل مخالفة لهذه القوانين (وهذا ما كان نادراً جداً) يعاقب عليها بمصادرة القارب والرز المجني والمحمل على سطحه. كما أن النباتات التي يجمعونها والحيوانات التي يصطادونها بالإضافة إلى محصول الأرض لا تعتبر - كما هو الحال لدى قبائل الجمع والقنص - ملكاً فردياً لمن حصل عليها، بل توزع ضمن المجموعة، وخاصة إذا ما كانت بكميات وافرة. وكان لشعوب الجني الاستراليين قوانين توزيع ولوائح قانونية دقيقة يتم بموجبها تقاسم الغنائم.

أحياناً قد لا يكون للصياد نفسه حق في طريدته، بل يخص هذا الحق أشخاصاً آخرين. ويجب أن ننوه هنا على أن حق التصرف بالطريدة لا يخص المجموعة المحلية ككل، بل مجموعة أصغر، وهي المجموعة الطوطمية التي غالباً ما تشكل وحدة اقتصادية. هذه الوحدة الاقتصادية مسؤولة أيضاً عن الفرد في حالات العوز فيما يخص تأمين الغذاء، وقد كتب «جينكز» عن حصادي الرز في أميركا الشمالية: «إذا ما أصاب الجوع عائلة ما، توضع مؤونة المجموع كلها تحت تصرفها» كما صرح زعيم القبيلة «بوكاغون» قائلاً: «إذا مادنا الجوع فان شعبنا يقتسم جميع ما لديه فيما بينه». وإذا ما كانت المجموعة الطموطمية تشكل وحدة اقتصادية فيما يخص قضايا تأمين الغذاء، فان المجموعة المحلية - كوحدة اجتماعية - تحل محلها، بل أيضاً فيما يخص المواد التي يتطلب الحصول عليها القيام برحلات تجارية.

وقد توضع أيضاً مبادئ حقوقية مفصلة للملكية الفردية تحميها القبيلة وتعاقب كل من يخرق القانون، ولكن بشكل عام قلما يحدث أي خرق لحق الملكية.

فالأشجار المثمرة على سبيل المثال يمكن أن تكون ملكية فردية، وهذه الملكية محترمة ومصانة. ولتحديد ملكية هذه الأشجار لدى قبيلة «آراندا» توضع حزمة من الحشيش بين أغصانها. أو عندما يعثر رجل على عش نحل فوق شجرة، يقتلع الحشائش النابتة حول جذعها ويسند عليها بعض العصي كعلامة ملكية. فإذا ما أقدم

أحد على تجاهل هذه العلامة واستولى على الثمار أو على العسل فان لصاحبها الحق «أن يطعن اللص بالرمح حتى يقتله» والعقوبة نفسها تتخذ بحق من يستولي على حيوان مقتول دون اذن من الصياد، أو من يسرق حيواناً قام آخر بجرحه. أما إذا استأذن هذا الدخيل صاحب الحيوان فله الحق أن يصيب قسماً منه، والعقوبة أخف بحق السارق الذي يسرق من جاره أشياء ليست ضرورية لحياته. فإذا ما أعاد الأشياء المسروقة فان الأمر يعتبر قد سوي، أما إذا ما رفض ذلك فان للضحية الحق بطعن الفاعل بالرمح في ساقه أو يقذفه بالمقذاف «بوميرانغ» كما هو الحال في استراليا.

وتنتقل الملكية الشخصية عادة بموت صاحبها إلى الابن الأكبر، فان لم يكن عنده أبناء تنتقل إلى أقربائه.

يعاقب على الخيانة الزوجية بالنفي من المجموعة المحلية لفترة قد تمتد من شهرين إلى ثلاثة. ويكتسب هذا النفي المؤقت أهميته بشكل خاص إذا ما قارنّا هذا النوع من العقوبة مع ما يماثله لدى شعوب الجمع والقنص، حيث يعني هذا الحكم، الموت، إذ تعتبر هنا عقوبة خفيفة، كانت شعوب الجني أول من وجد لها تفهماً.

ويعطي تنظيم السلطة العامة والدوائر التنفيذية صورة واضحة إلى حد ما عن هذه الشعوب، إذ ليس هناك زعامة منظمة تنظيماً دقيقاً، ولو أن هناك قوانين ونظماً صارمة حتى في مجال الزعامة المتوارثة أكثر منها لدى قبائل الجمع والقنص. وهنا يوجد طريقان مفتوحان للزعامة، أحدهما عن طريق المجموعة الطوطمية، حيث يمكن أن يصبح أحياناً، وليس دائماً، زعيم المجموعة الطوطمية المحلية. أما الطريق الآخر فهو صعود فرد من خلال مواصفات شخصية مميزة يتحلى بها.

أما السلطة الحقيقية فتظل رغم ذلك للرأي العام لدى أعضاء المجموعة المحلية، أي لدى أعضاء المجموعة، يمثلهم مجلس الشيوخ أو مجلس زعماء مختلف العشائر. وقد سبق دائماً التنويه على أن القضاء عند هذه الشعوب الطوطمية يتخذ صبغة دينية قوية مغروسة في صلب الأساطير الطوطمية. ولكن لم أجد دعماً لهذا الرأي، بل على العكس، إذ أن الأسس القانونية لدى قبيلة «أراند» لا تعود إلى أب القبيلة، كما ذكر «شتريلوف»، بل يبدو انها تطورت في مجلس الشيوخ، وهؤلاء ينقلونها لغيرهم أثناء احتفالات تعميد الصبيان.

هناك مؤسسة قانونية أخرى تصادفنا لدى شعوب الجني هذه، وبشكل خاص في مراحل التطور اللاحق لتاريخ الإنسانية، لها أهمية خاصة من وجهة نظر حقوقية، وهي حق اللجوء وقانون المحرمات «التابو» المرتبط به. فحقل المحصول يظل حتى نضجه محرماً «تابو» ولا يمكن لأحد أن يرفع هذه الحرمة الا الزعيم ومجلس الشيوخ. وفي يوم محدد يسمح فيه بجني المحصول من الحقل. وهناك محرمات «تابو» متشابهة في أسبابها، وان اختلفت في فعاليتها، مرتبطة بأمكنة معينة تعتبر مفراً لأرواح الطواطم، أو مخبأ سرياً لأدوات الطوطم المقدسة. وقد ذكر كل من «سبنسر» و«جيلين» عن وجود مؤسسة اسمها «ارتنالولونفا» عند قبيلة «أراندا» تعتبر ملجأ رسمياً، سواء لأفراد القبيلة أو للغرباء. فالمجرم أو الجاني، وكذلك الغريب، يكون أميناً في هذه المؤسسة، فلا يمكن أن يقع عليه اعتداء إذا ما لجأ إلى هذه المناطق المحرمة. ولا تقتصر هذه الحرمة على الإنسان، بل تتعداه أيضاً إلى الحيوانات والنباتات المتواجدة في هذه المناطق. ونجد هذه المؤسسة الخاصة بحق اللجوء والمشروطة بخلفية دينية، والمتحلية بآثار اقتصادية، مثالاً على تغيير اتجاه الغايات في القانون البدائي.

وبعكس المؤسسات القانونية لدى شعوب الجمع والقنص، فان النظم القانونية عند شعوب الجني تخضع لمبدأ أرض القبيلة، فلا تترتب على تخطي حدود القبيلة أو المجموعة اية عقوبة. اذ أن أقساماً معينة من منطقة القبيلة وخاصة حقل المحصول والمناطق التي اعتبرناها مناطق حق لجوء، محمية بقوانين التحريم أو «التابو». ولكن المجموعة المحلية هنا هي التي تشكل الوحدة الاجتماعية، بينما الوحدة الاقتصادية محدودة بحدود أضيق.

أما النمط الاقتصادي الآخر وما يتعلق به من ميل للانفتاح نحو الخارج فله أثران واضحان: تجمع كتل بشرية أكبر، ولا يقتصر الأمر هنا على القبيلة منفردة، بل يشمل مجموعات أخرى. والنتيجة القانونية المترتبة على ذلك نحو الخارج هي التمهيد لإقامة علاقات «دولية» (مناطق محايدة، احتفالات مشتركة) ونحو الداخل: القسر على التمييز الأقوى بين القانون ومقاييسه. أما التعبير الأكثر وضوحاً عن صورة السياسة الخارجية فيبدو من خلال وجود قرى في حقول الرز يعيش سكانها الذين ينتمون إلى أربعة قبائل مختلفة بسلام مع بعضهم البعض. وفي مجال السياسة الداخلية فان

التنظيم أكثر تماسكاً منه لدى شعوب الجمع والقنص. وقد تطور بشكل خاص - وربما كرد فعل على ذلك - تركيز قوي على حق الفرد في الأشياء التي لا علاقة لها بالأمن الغذائي للمجموعة، وهذا ما ينطبق قبل كل شيء على تطور حقوق التأليف.

أما مفهوم الملكية الفردية للأرض والعقارات فقد كان غريباً عن هذه الشعوب.

وإذا ما بحثنا في مجموعة أخرى من شعوب ذات نمط اقتصادي آخر، أي مجموعة الصيادين القطبيين وبقية الثقافات المتأثرة بها، والمؤسسات المختلفة التي تخدم مسألة تماسك الجماعة، وتؤمن غذاءها وتضمن السلام والأمن داخلياً وخارجياً، لحصلنا على صورة مختلفة. فمبدأ الأرض يشبه عند هؤلاء مثيله لدى شعوب الجني في الكثير من المظاهر. وحدود منطقة المجموعة المحلية متغيرة باستمرار. كما أن تخطي حدود منطقة غريبة، بل لا يعاقب عليه أبداً. وقد ذكر الباحث «شرنيك» عن قبائل «تونغوز» على نهر آمور الأسفل بأنهم لا يتقيدون عادة بحدود القبيلة، ويصطادون في منطقة غريبة، وبخاصة في منطقة تابعة لقبائل «جيلياك» دون نشوب أية نزاعات.

أما منطقة القنص - رغم انها أصلاً تعود للمجموعة المحلية - فيمكن أن تقسم بين مجموعات أسرية أو فروع ضمن المجموعة، ولكن ذلك ليس بالضرورة. فالمبدآن موجودان جنباً إلى جنب، بل أحياناً يحل أحدهما محل الآخر.

وغالباً ما تكون الوحدة الاقتصادية هنا أصغر من مثيلتها لدى المجموعة المحلية إذ أن وحدة الصيد لدى قبائل «تشوكتشن - البحر» هي المجموعة التي تعمل على القارب ويتولى زعيمها توزيع الصيد. وهذه الوحدة الاقتصادية سواء أكانت طاقم قارب صيد، أو أسرة صياد، أو مجموعة أسر، تستخدم لدى قطبي آسيا وأسكيمو منطقة الاسكا علامات ملكية منتشرة إلى أبعد الحدود، لضمان الحيوانات التي تصطادها. وليس هناك من شيء يدل على استخدام علامات ملكية فردية، بل إن علامات الملكية تخص دائماً مجموعة من الأشخاص، أي الوحدة الاقتصادية بكاملها.

فتأمين الغذاء هو بالتالي من اختصاص الوحدة الاقتصادية، ومن ثم المجموعة السياسية، والضمان الاقتصادي لكل عضو في المجموعة يشكل محور النظرة القانونية لشعوب المناطق القطبية، بحيث يختفي تجاه ذلك أي حق فردي، ولكن فقط عندما تكون حياة العضو مهددة نتيجة نقص المواد الغذائية.

ويمكن خرق حرمة الحقوق الشخصية تحت ظروف معينة في أي وقت لدى مربي حيوان الرنة في أوربا، وهم قبائل «اللاب»، حيث ينتشر عندهم استعمال علامات الملكية الفردية، ويتوضح الميل إلى تحديد دقيق وحاد لحقوق الملكية الفردية للمواد المنقولة. ويصل ذلك عندهم إلى درجة اعتبار سرقة حيوانات الرنة عملاً شرعياً إذا ما كانت حاجة السارق إليها تشكل مسألة حياة بالنسبة له، كالحصول مثلاً على اللحم ليسد جوعه. ولا تعتبر «اللاب» مثل هذا الفعل سرقة، رغم أن الفاعل ارتكب بذلك خرقاً فاضحاً لحق الملكية الشخصية. وهذا الجانب من القانون لدى اللاب يعتبر قانون صيادين وليس قانون مربي حيوانات.

هناك مثال آخر على المستوى الحقوقي نفسه عايشته لدى قبائل «ناسكابي»، في شبه جزيرة لابرادور، إذ يمكن خرق قانون الصيد المطبق في منطقة الصيد في أي وقت ومن قبل أي شخص يمر بضائقة غذائية. كما يمكن للغريب أيضاً أن يقنص وينصب الفخاخ، ولكن بمقدار حاجته المباشرة فقط، أي بما يكفي لاسكات جوعه والابقاء على حياته. ومسموح له حتى أن يأخذ ما علق بالشراك المنصوبة لكلاب الماء، ولو كانت تحمل علامة ملكية، إذا ما كان يمر بضائقة، ولكن فقط في مثل هذه الحالة. ولا يتعدى تقديم المساعدة مجرد الحفاظ على الحياة، ليس أكثر، حتى في مجال حق الدين، حيث لا يقوم الأب بتسديد ديون ابنه ولا الأرملة بتسديد ديون زوجها المتوفى. فليس هناك أي موقف تضامني بين أفراد الأسرة. وليس تقديم هذه المساعدة المتبادلة مشروطاً بضغوط من الخارج، كما هو الحال لدى شعوب الجمع والقنص، بل يحتمه الرأي العام الذي يفعل فعله في المجتمع البدائي أكثر منه في المجتمع الرأسمالي. ولا ينحصر تأثير هذا الرأي العام عند قبائل «الغونكين الشمالية الشرقية» داخل المجموعة المحلية بل خارجها أيضاً. ويمكن على سبيل المثال أن يحول دون ايجاد مأوى لعضو سيء في الجماعة المحلية لدى جماعة أخرى. وهذا يعني في الكثير من الحالات الموت في الغابات. والسلطة ليست في يد الزعيم، إذا ما وجد مثل هذا الزعيم، بل في يد المسنين. ولكن في نهاية المطاف تكمن في الرأي العام السائد لدى المجموعة المحلية ككل.

ويصف الباحث «بواس» وضع الزعيم الذي لا حول له ولا قوة في مناطق الاسكيمو الوسطى بقوله: «تقتصر سلطته على مجرد تحديد موعد نقل الأكواخ من

منطقة إلى أخرى. ولكن الأسر ليست أيضاً ملزمة باتباع أوامره. وقد يطلب من بعض الرجال الذهاب لصيد الوعل ومن البعض الآخر صيد كلب البحر، ولكن ليس هناك ما يلزمهم بتلبية طلبه».

وقد ذكر «بوغوراس» أيضاً عن حالات مشابهة من فقدان السلطة لدى الزعيم، أن وجد - لدى قبائل تشوكتشن. ويمكن لي أن أتحدث عن المسألة نفسها من خلال تجربتي الشخصية عند قبائل «ناسكابي» حيث لم يعد عندهم منذ عدة سنوات. ورغم مطالبة «وكالة الهنود الحمر» لم تنتخب زعيماً.

يستثنى من ذلك بعض قبائل الاسكيمو في الأسكا، التي عرفت أيضاً، بالإضافة إلى تنظيم القبيلة مع منصب الزعيم، تقسيماً عمودياً للمجتمع، بما فيه وضع العبيد. وربما جاء ذلك من تأثير التقسيم الاجتماعي السائد في منطقة شمال غرب أميركا. وهناك أيضاً بعض مظاهر العبودية لدى سكان «أليوتن» وكذلك لدى قبائل «تشوكتشن» (وربما جاء ذلك من تأثير الشعوب الرعوية التي تغلغلت في الجنوب) الذين حولوا أسرى حروبهم من الاسكيمو الغربيين إلى عبيد، دون أن يكون لذلك أي تأثير على تقسيم المجتمع ككل.

تمتع كبار السن من صيادي الأسماك وقناصي الحيوانات البرية باحترام خاص، كل حسب شخصيته. فكانوا يلعبون دور الوسيط أو المصلح عند فض نزاعات تنشب داخل المجتمع، ولكن دون أن تكون لهم سلطة غير مشروطة. فإذا ما استعصى نزاع ما على الحل، أو لم يسكت أحد الأطراف، فلا حول لهؤلاء «الشيوخ» ولا قوة يمكن أن تغير في الأمر شيئاً. ويظل الحفاظ على السلام هو الدافع الذي يشكل الموقف الأساسي لهذه القبائل، طالما كان ذلك ممكناً، أو طالما أن ذلك لا يزعج المجموعة ككل.

من هذا المنظور فان للرأي العام مهمة مزدوجة: مرة من خلال وسائل غير مباشرة، من خلال مجرد وجوده، نظراً لأثره الوقائي بحيث أن مجرد الخوف من خرقه يجبر الفرد على السلوك الايجابي الذي يراعي النظم المتبعة. وهو من ناحية أخرى يدفع الآخرين للتدخل المباشر عند حدوث خرق للنظم القانونية. وهنا يتطلب الأمر أيضاً تدخل المجموعة المعنية في حالة حدوث ما يهدد - بالفعل - السلام العام.

فلا يحال مثلاً لص الفخاخ أو مسبب القلاقل أو مشاكس إلى الجماعة لمحاسبته على فعلته، بل تترك تسوية هذه المسألة للمتضرر أو للجماعة المعنية.

ويمكن للجماعة، كما هو الحال مثلاً عند نشوب حوارات غنائية وحلقات ملاكمة لدى الاسكيمو، أن تتصرف بشكل أو بآخر كمتفرجين حياديين. وحتى في حالة القتل يترك أخذ الثأر أو القصاص للأطراف المشاركة. لكنها تتدخل عندما يتهدد الأمن الاقتصادي للجماعة من خلال تصرف أحد أعضائها. كما هو الأمر مثلاً في حالة لص غير قابل للاصلاح، أو آخر يصيد بصورة مستمرة على أرض غريبة، أو مشاكس دائم، أو «بلطجي» كما نعبر عنه الآن بعبارة مجرم ذي سوابق. فالعقوبة يمكن أن تكون ربطه إلى جذع شجرة كما لدى «ناسكابي» مثلاً، أو بالضرب، كما لدى اسكيمو منطقة مضيق بيرينغ، أو بالطرد أو بالقتل رمياً بالرصاص، أو شنقاً أو غرقاً أو بطعنه بحربة الصيد.

أما طريقة وأسلوب هذا الرأي العام واللجان التنفيذية فهي ليست موحدة. فعند قبائل «ناسكابي» يأمر الزعيم، بالتعاون مع «مجلس الشيوخ» بجلب فاعل الشر وادانته ومعاقبته بناء على أقوال الشهود دون الحاجة إلى أداء القسم. أما لدى قبائل «تشوكتشن» فتقوم بذلك مجموعة تحددها الجماعة، مؤلفة من رجال محترمين. وقد يطلب فرد معين الحكم بالموت على فاعل الشر دون اجراء محاكمة، أو بناء على موافقة ضمنية من قبل الجماعة. والاثبات غالباً ما يكون مجرد قسم المدعى عليه، وليس قسم الشهود، لإدانة المتهم. إذ يقوم المدعى عليه بمخاطبة الشمس عند أداء القسم، أو يقسم بالدب.

تعتبر هذه الشعوب الثلاثة التي تناولنا بحث علاقاتها القانونية في هذا الفصل، أقدم التشكيلات الاجتماعية في تاريخ البشرية على الاطلاق، من الناحية الثقافية، إذ تشبه إلى حد بعيد قبائل وشعوب العصر الحجري، وتحتفظ بالكثير من المركبات الثقافية منذ أقدم العصور، وقد أنكر على هذه الشعوب دائماً وجود أية مؤسسات قانونية لديها. ولكن وجهة النظر هذه تتعارض كلياً مع الحقائق. فقانون هذه الشعوب ذات النمط الاقتصادي الخاص ليس بالطبع من صنع قاض، كالتشريع في القضاء الانكلو - أميركي بل هو قانون وضع الشعب أساسه، ويقوم الشعب بتنفيذه من أجل الشعب.

ان الاختلاف الذي نحسه غالباً في النظام الاجتماعي الرأسمالي بين الحس القانوني للمواطنين والأحكام التي تصدرها المحاكم - التناقض بين القانون والعدالة - لا يمكن أن يقوم لدى تلك الصيغ القانونية القديمة. وكما هو الحال في الميادين الأخرى، كذلك في ميدان القانون أيضاً، نرى أن الفرد ليس إلا مجرد جزء من الجماعة التي

يعيش ضمنها، كما أن لتصرفات الفرد تأثيراً على الجماعة ككل. فالفرد والمجتمع كل منهما يعرف الصيغ القانونية السارية بكل دقة، ولا يتطلب فهمها التأويل والتفسير من قبل علماء قانونيين.

فليس هناك قانون «نظري» لأن القانون هو عملي بحد ذاته، هدفه ضمان الحياة، وكل تفسيراته مشروطة بالغاية منه، تماماً كما هي أحكامه. وكذلك من غير الممكن في هذه التشكيلة الاجتماعية وجود أية تغييرات قانونية للاحكام أو تغييرات من خلال تأثير هيئات قضائية عليا، لأن هذا القانون ذو سلطة ومبرم (حتمي). ولكن الاختلافات في التفاسير والشروح لبعض القضايا القانونية تكون في بعض الأحيان كبيرة. لكن ذلك لا يعني أبداً أن وظيفة الآلة القضائية فوضوية أو غير موجودة. بل على العكس، فمن المدهش مدى التطور غير العادي لوجهة النظر القانونية لدى هذه الثقافات، ومدى الوضوح في ممارسة القانون في نظم محددة وثابتة، اتخذت صفة التقديس من خلال التقاليد، وأصبحت ملزمة من خلال الرأي العام، الذي يشكل وحدة لا تتجزأ في تلك المجتمعات غير الطبقية.

ومع تطور زراعة الأرض وتربية الماشية لم يطرأ التغير على التركيب الاجتماعي فحسب، بل تعداه أيضاً إلى الناحية القانونية. ولكن هذا التحول لم يطرأ بشكل مفاجئ. إذ نجد بشكل خاص في الصيغ القانونية لدى أقدم الشعوب الزراعية ملامح معينة خاصة بالنمط الاقتصادي السائد لديها، وخاصة ما يتعلق منها بالأمن الاقتصادي للفرد وما يتعلق بذلك من حقوق ملكية الأراضي. فقد كان ما يسمى بـ «القرى المستقلة» - أي أرض محددة من القرية تقوم في وسطها أكواخ عديدة كل منها يخص عائلة مستقلة أو عائلات موسعة أو بيت العشيرة - يشكل محور مبدأ الأراضي لدى الشعوب الزراعية، وخاصة في شرق ماليزيا، والأماكن الوسطى في أمريكا الجنوبية، والشرقية من أميركا الشمالية. ويبدو أن القبائل كانت في كل مكان مقسمة إلى مثل هذه التجمعات المستقلة، حيث يقوم على رأس كل منها زعيم يمارس أحياناً دوراً مستقلاً من علاقات التبعية بالزعيم الأعلى. ولكن مع ذلك تظل أهمية هذا الزعيم ضئيلة جداً. وقد ذكر الباحث «كايسر» عن قبائل «كاي» في غينيا الجديدة، أن دور الزعيم فيها لا يرى إلا من خلال ملكيته لأكبر حقل للمزروعات، وأن عليه أن

يستغل هذه الثروة الكبيرة في استضافة سكان قريته والضيوف الغرباء. أما سلطته فقد كانت شبه معدومة، ولا تتعدى كونها مجرد شكلية، فلم يكن له أي حق في تقرير قضايا تتعلق بالحياة والموت إلا في حالات استثنائية جداً، أثناء الحروب مثلاً، كما هي الحال في أميركا الجنوبية.

فالحسم يظل أولاً وأخيراً في يد «مجلس الشيوخ». وقد كان أصلاً ما يسمى «بحق الأمومة» هو النظام السائد لدى الشعوب الزراعية، سواء فيما يتعلق في نسبة القرابة أم في حق الارث، ولو أن مكونات الخلط المتعددة لم تعد في كل الأمكنة تعطي صورة واضحة عن هذه النقطة. ومع أن الأسرة لدى قبائل مناطق الغابات في الكاميرون منظمة على أساس حق الابوة، لكن يتضح أن هذا النظام عنصر ثقافي حديث، اذ يمكن للنساء أن يتقلدن منصب الزعيم. ومن الممكن حتى الآن التعرف على الأراضي فقد كانت بالأصل جماعية. ولكن مما يدعو للتساؤل هو ما إذا كانت ملكية بمفهومنا المعاصر أم مجرد حق انتفاع.

وهناك معيار آخر للتقويم يتمثل في القيود المفروضة على نقل ملكية الأرض. فقد اعتادت بعض قبائل «ايروكيز» على استعمال تعبير: «لا يمكن للأرض أن تباع وتشترى إلا كما يباع الماء والنار ويشترى». وهناك وجهة نظر في ميلانيزيا وغرب افريقيا تقولُ بأن الأرض ليست مادة للتجارة. فالأراضي المزروعة فقط هي التي أوجدت بدايات الملكية الفردية أو ملكية العشيرة والأسرة. بعكس غرب افريقيا وميلانيزيا وأميركا الجنوبية، حيث أجمعت الدراسات على أن النساء لم يكن يتمتعن بحقوق عامة، فلم يكن لهن أكثر من التمتع بعضوية مجتمع سري، بحيث لا يمكن إذن الحديث عن سيطرة المرأة. أما قبائل «ايروكيز» فقد كان لها وضع آخر، فهناك تقوم النساء بتقسيم الأرض مرة كل سنتين. وهن اللواتي كن ينتخبن الزعماء. وامتدت سلطتهن إلى أبعد من ذلك: فقد كان لهن «حق الفيتو» في مجلس الرجال حتى ولو كان الأمر يتعلق باتخاذ قرار حول الحرب أو السلام. وكان لهن الحق أيضاً بضم غرباء إلى القبيلة عن طريق التبني، واستطعن أيضاً تقرير مصير أسرى الحرب.

وتدل المساعدة المتبادلة عند قطع الأشجار من أرض معينة لاعدادها للزراعة – كما هو غالباً في ميلانيزيا وأميركا الجنوبية ونادراً في افريقيا – على أن تأمين الغذاء

ليس قضية فردية وإنما مسؤولية جماعية. ولا تدعو الحاجة إلى ذلك إلا في أوقات العوز والمجاعة، فتحول دون نشوء تباين حاد في علاقات الملكية.

كانت الملكية الفردية تقتصر بشكل عام على الأشياء المنقولة وليس على الأرض. وقد اتضح ذلك بصورة جلية في غرب افريقيا. وهذا ما يبدو في فرض رسوم الانتساب إلى عضوية الجماعات السرية.

فالأهم من مصنب الزعيم و«مجلس الشيوخ» بالنسبة لأمور القضاء، وبخاصة في ميلانيزيا وأفريقيا، كانت الجماعات السرية القائمة على أساس فئات الاعمار. وقد اتخذت مثل هذه الجماعات عدة تسميات محلية. ففي منطقة أرخبيل بسمارك وشبه جزيرة الغزال كان يطلق عليها اسم «دوك دوك» أو «انجيت» وفي أميركا الجنوبية «يوربباي» وفي الكاميرون، وخاصة في الشمال الغربي «جماعة ايفي - نجبي السرية» Ewi-nghe. فالكلمة الأولى Ewi تعني قانون، والثانية nghe وتعني «مجتمع الفهد». وقد كان لهذه الجمعيات دور مسيطر في الحياة القانونية والاجتماعية لهذه الشعوب.

ففي الكاميرون تتركز السلطتان التشريعية والتنفيذية لدى قبائل «أكوا» في يد المجموعة السرية «ايفي - نجبي» التي سبقت الإشارة إليها. فبامكانها أن تقرر قبول أو رفض القوانين العامة. وهي أيضاً الهيئة الاستئنافية العليا في جميع المحاكمات. ويتعلق القبول في الجماعة السرية والارتقاء إلى مراتب أعلى فيها غالباً بدفع مبلغ من المال. أما الخروج من الجماعة فهو متروك للفرد. ولكن بما أن مزايا العضوية عديدة، فان حالات ترك عضوية الجماعة نادرة جداً أو معدومة كلياً. وغالباً ما يمنح هذه الجماعات المجموعة القضائية الديموقراطية الصغيرة الموجهة نحو الداخل، سلطة قضائية ذات نفوذ، تنتقل في ظل نظم أكثر حداثة، إلى مجلس القرية متمثلاً لدى هذه القبائل بالزعماء ومجالس الشيوخ.

وتلعب هذه الجماعات السرية دوراً كبيراً في القانون الجزائي المدني. ويمكن أن نسوق المثال التالي على ذلك: إذا ما كان على الدائن في قبيلة «باكوزي» أن يطالب بعنزة لم يسدد المدين ثمنها، يذهب هذا الدائن إلى أعضاء «جماعة لوزانغو» ويطلب منهم المساعدة للحصول على عنزته. فيقوم هؤلاء بوضع إشارة الجماعة أمام كوخ

المدين. وغالباً ما يثمر هذا العمل فوراً. وتتقاضى الجماعة عنزة لقاء هذه الخدمة. وإذا لم يسدد الدين في الحال، أي أن تظل شارة الجماعة السرية حتى صباح اليوم التالي، فان ذلك يكلف ليس عنزة بل ثورا يلتهمه أعضاء الجماعة السرية. ولذلك يحرص كل مدين على إرضاء الدائن والجماعة السرية بأسرع ما يمكن. وكذلك تعمد الجماعة السرية إلى هذه الوسيلة إذا ما أغوى أحدهم زوجة الآخر ولم يدفع له شيئاً. وهناك جمعيات سرية أخرى تعقد اجتماعات ليلية وتصدر أوامر وأحكاماً وعقوبات وتأمر بتنفيذها سراً أيضاً، وهنا يتعلق الأمر غالباً بعقوبات الموت. كما يحق لغير الأعضاء في الجماعات السرية التماس المساعدة القضائية عند الجماعة.

أما التجمعات الأخرى التي تتعدى نطاق القرية فلم تكن معروفة عادة عند شعوب العالم «القديم». فالهيئة «الدولية» كانت تمثلها الجماعة السرية، التي لم تقتصر على القرية، أو على القبيلة، بل تمتد إلى مناطق واسعة، وبشكل خاص في غرب افريقيا وميلانيزيا، دون أن يؤدي ذلك إلى انضمام وحدات سياسية أكبر لتشكل نوعاً من الدولة، وهذه صفة أساسية.

فعدم وجود تجمعات سياسية تشكل روابط أكبر، هو من خصائص العالم القديم فقط. أما في أميركا فقد كان العكس تماماً. والمثال البين هنا تعرضه لنا «جماعات» شعوب «ايروكيز». فجماعة نيويورك مثلاً كانت تضم خمس قبائل يمثلها مجلس مركزي يمكنه اتخاذ القرارات بالاجماع فقط، وليس على مبدأ الأكثرية.

وقد كانت هذه السلطة المركزية الموحدة - رغم امكانية انتقال القيادة بالوراثة - متخلخلة إلى حد ما. فقد كان باستطاعة كل قبيلة أن تشن الحرب، أو تعقد الصلح، منفردة، طالما أن مصالح «عصبة الشعوب» لا تتضرر من خلال ذلك، وبخلاف الشعوب الغازية في العالم القديم، وبخاصة في افريقيا وآسيا، فقد كان للقبائل في أميركا، طابع ما قبل الدولة، حيث كان الاتجاه نحو التكتل «الدولي» قوياً جداً عندها. وربما كان لضغط البيض ونفوذهم علاقة ما بالكيفية التي خلقت بها قبائل «تشيروكي» نظام حكومة على غرار نظام الولايات المتحدة الاميركية. ولم يكن غزو قبيلة من قبل قبيلة أخرى وتقسيم المراتب الناتج عن ذلك - كما هو الحال في العالم القديم، وخاصة في افريقيا - يشكل علامة مميزة للكيانات الاميركية التي تشبه كيان الدولة فوق

الأرض التي أصبحت اليوم الولايات المتحدة الاميركية. حالة استنثائية واحدة كانت مملكة «بوهاتان» التي غطت في أوج امتدادها مساحة ثمانية آلاف ميلٍ مربعٍ وكانت تضم أكثر من ١٥٠ مدينة، اعتمد قيامها بالدرجة الأولى على الغزو.

وهناك فرق آخر في المركبات الثقافية التي يمكن مقارنتها بين شعوب أميركا الشمالية وغرب افريقيا يكمن بالدرجة الأولى في الاجراءات القضائية. فقد عرفت شعوب الغابات في غرب افريقيا بالإضافة إلى حق المساعدة الذاتية وطلب العون من الجماعة السرية، أيضاً الاجراءات القضائية أمام محكمة الشيوخ المشكلة من الزعيم وكبار السن. ويتم طلب الاستدعاء بطريقة مختلفة سواء من قبل الفرقاء مباشرة أم من قبل الزعيم. ومن المستندات والحجج المطبقة كان معروفاً: التعذيب، القسم، شرب السم، اثبات الشهود، المظهر الخارجي، أو الاثبات بالوثائق، ويسبق اعلان الحكم مشاورات سرية تقوم بها المحكمة حيث يتخذ الحكم بأكثرية الأصوات. ويسيطر نظام التراضي على الاجراءات القضائية. ويمكن الحيلولة دون حوادث الانتقام أو العقوبة عادة بدفع غرامة نقدية. ولا توجد مثل هذه الاجراءات القضائية ذات التنظيم الدقيق لدى القبائل الأميركية. فما عدا دليلاً واحداً يشبه أسلوب المحاكمة بالتعذيب، وبعض عبارات تأكيد البراءة من قبل الأطراف، ليس هناك أية اثباتات أو حجج معروفة، وخاصة الأشكال المتعددة لأسلوب التعذيب، أو ما كان يطلق عليه في العصور الوسطى تعبير حكم الله.

ولم يكن للأساس الاقتصادي للشعوب الرعوية، وهم المجموعة الثقافية الثانية من حيث الحجم، ما يوازيه في أميركا. ففي بيرو مثلاً كانت هناك فقط تربية حيوانات «اللاما» و«الالباكا». وهذه امتزجت غالباً باقتصاد الجني أو زراعة الأرض، أو تأثرت تأثراً كبيراً بالحضارات الراقية، بحيث لم تعد هناك شعوب رعوية صرفة.

وما يزال هذا النمط الاقتصادي يشكل المصدر الرئيسي لغذاء مجموعة كبيرة من الشعوب امتدت في العالم القديم فوق قطاع يمتد من شمال شرق سيبيريا عبر آسيا الوسطى والعالم العربي وشمال شرق افريقيا حتى الطرف الجنوبي منها.

وتقوم شعوب سيبيرية واوربية (مثل اللاب - تشوكتشن، تونغوز ياكوت) بتربية حيوان الرنة، بينما تربي شعوب آسيا الوسطى والمنغوليون والأتراك البقر والغنم والحصان والجمل. أما الشعوب الافريقية، وبخاصة الشعوب الرعوية في شرق وجنوب

افريقيا فتعتمد على تربية الأبقار بالدرجة الأولى. وتعتبر المراعي دائماً ملكاً لمجموع القبيلة. ولكن هذه الأراضي، شأنها شأن أراضي «شعوب الجني» غير محددة تحديداً دقيقاً. ولا تترتب على رعي الماشية في مراع غريبة أية عقوبة. وقلما تقع على وجود قانوني للقبيلة في مثل هذه الحالات، بل تسود فيها الاسرة الموسعة ذات النظام الأبوي. فالأسرة البطريركية تشكل بالتالي الوحدة الاجتماعية وتضم الاخوة وأبناء الاخوة، والأبناء والأحفاد. كما تطلب أيضاً بالاستقلال السياسي. ويقف على رأس كل قبيلة زعيمها. وهذا الزعيم يتقلد منصبه إما بالانتخاب أو بالوراثة، ولكن نفوذه غالباً ما يتعلق بشخصيته وكرمه، ولكن أولاً وأخيراً بالرأي العام لأبناء قبيلته.

ويعين للزعيم «مجلس للشيوخ» يتخذ تسميات مختلفة لدى الشعوب. ولا يمكن للزعيم اتخاذ قراره إلا بموافقة هذا المجلس وبخاصة في مجال قانون الأراضي. وقد عرضت الحكومة الألمانية حالة عدم حرية الزعيم في التصرف عرضاً واضحاً بمناسبة حرب قبائل «هيريرو» الافريقية. فقد عقدت اتفاقيات تنازل عن الأراضي مع الزعماء، ولكنهم لم يكونوا مخولين بذلك. ونتيجة لتجاهل هذه الناحية القانونية نشبت الحرب.

ليست هناك أية روابط سياسية أكبر، بحيث تتعدى نطاق القبيلة لدى الشعوب الرعوية، وبخاصة لدى مربي الجمال والأحصنة. فالقضاء وبخاصة الثأر للدم، تعتبر مسائل تهم المعنيين بها فقط. فالصلحة ودفع الدية لم تكن معروفة أصلاً، بل تعود إلى تأثيرات ثانوية. ومما يميز مربي الماشية بشكل خاص هو نشوء الملكية الفردية وتراكم الثروات على شكل قطعان حيوانات. وبذلك نشأت المراتب الاجتماعية المختلفة والتقسيم العمودي للمجتمع. ولكن لم يتكون نظام التراتب الاجتماعي الهرمي Hier-archie الذي كانت بداياته عند مربي الماشية – بشكله الكامل إلا بعد لقاء هذه الشعوب مع الشعوب التي تمارس الزراعة. وكان حق الارث عند معظم الشعوب يتميز بحق الابن الأكبر. ولم يصبح هذا الحق متساوياً إلا تحت التأثير الإسلامي.

كان للشعوب الرعوية في العالم القديم – سواء في آسيا أو في افريقيا – دور انقلابي من خلال خلق دول كبرى من وجهة نظر سياسية.

كما شغل موقفها الحربي وقوتها المركزية الطاردة، التي تناقض الموقف الديمقراطي ذا القوة المركزية الجاذبة – علم الاجتماع الحديث، بحيث يبدو ايراد أمثلة على هذا التثقف مسألة جديرة بالنظر فيها من الوجهة القانونية.

ففي عصور تاريخية سابقة، وحتى في مطلع القرن الماضي، كان من الممكن أن نلاحظ غزو منطقة يقطنها فلاحون مستقرون من قبل شعوب رعوية في جميع مراحله: غزوات شعب «فولبه» الافريقي للسيطرة على «اداماوا». ويعزى سبب تحركات «فولبه» لطبيعة اقتصادية. فقد تحركوا يبحثون عن مراع لأبقارهم. عاشوا بادئ الأمر على مضض بين القبائل الزنجية فتعرضوا للاضطهاد. وقد ظلت «فولبه» تعترف لفترة طويلة لزعماء ما يسمى بالقبائل الوثنية، التي كانت مستقرة وتمارس الزراعة، بحق «الليلة الأولى»، ولكن هذا التغلغل الذي بدأ سليماً تحول إلى غزوة حربية في بداية القرن التاسع عشر من خلال دعوة «سوكوتو» الكبرى بين نهري «النيجر» و«شاري» التي غزا منها القائد «موديبو اداما» أرض «اداماوا» التي سميت باسمه، وتمكن خلال سنوات حكمه الذي دام اثنين وأربعين عاماً من الانتصار على القبائل الوثنية ودحرها إلى الجبال. وبعد وفاته عام ١٨٤٧ توسعت الغزوات نحو الجنوب في ظل زعامة ابنه «لاوال» الذي غزا عدة قبائل أخرى وفرض عليها دفع الضرائب. ولم يكن من الممكن القيام بهذه الغزوات إلا نتيجة لحقيقة تكتيكية، وهي استخدام «الفولبة» للخيول في غزواتهم الحربية. وهذا يعني ان ليس فقط مربو الأبقار، بل مربو حيوانات الركوب أيضاً «الجمال والخيول» كانوا في افريقيا، كما في آسيا، شعوباً غازية.

فقد سيطرت قبائل «فولبه» على جميع القبائل الوثنية وفرضت عليها الضرائب وحولتها إلى مماليك. كما قسمت منطقة «اداماوا» إلى عدة دويلات تحكمها أنظمة استبدادية. وبالتالي انقسم الشعب إلى: عبيد «وهم أسرى الحرب بالإضافة إلى المولودين أصلاً في ظل العبودية» ثم المماليك (القبائل الخاضعة) يليهم الأحرار (أبناء شعب فولبه) ثم طبقة النبلاء المؤلفة من نبلاء الموظفين وطبقة اللاميدو.

بالإضافة إلى هذا التقسيم الاجتماعي كان هناك تقسيم آخر قائم على أساس مهني. فعلى رأس هذه الدولة يقوم الأمير أو السلطان وإلى جواره مجموعة من الموظفين، معظمهم من عبيده. وأهم الوظائف الأخرى كانت الوزير الأول، القائد الأعلى للجيش، ثم مدير الطقوس أو المراسم. يضاف إليهم مجموعة من الموظفين من مراتب أدنى. وكان بناء دولة «الفولبه» يشبه إلى حد كبير بناء الدولة الاقطاعية الألمانية في العصور الوسطى. فقد كانت البلاد مقسمة إلى عدد من المقاطعات والمناطق يديرها

أحدا أعوان السلطان، عليه في أوقات الحرب ان يؤمن الجيش، كما انه مطالب بدفع ضريبة سنوية، أما ممثلو الاقليات والأغراب في البلاط فقد أطلق عليهم اسم «غالاميدا»، وكانوا يقومون بدور الوسطاء والقناصل بين أفراد المجموعات التي ينتمون إليها وبين السلطان.

الأراضي كانت في الأصل تابعة للملك الذي استطاع عن طريق بيع مساحات منها أن يزيد من موارد دخله التي شملت أيضاً أنواعاً مختلفة من الضرائب، بعضها كان يحصلها كضريبة سوق تجارية. أما القضاء فقد تولاه قاض معين من قبل الملك كان يعتبر القرآن غالباً مصدر التشريع لدى المسلمين من «الفولبة». وقد لعبت التشويهات والعقوبات بالسجن، دوراً كبيراً في قانون العقوبات. وكانت عقوبة القتل أو سرقة العبيد أو الخيول مع السوابق، هي القتل. أما حالات السرقة البسيطة فكانت عقوبتها قطع اليد اليمنى. وفي قانون المداينات كانت عبودية الدين من الأعراف الجديرة بالاعتبار. وقد حل قانون الفدية أو الصلحة، محل نظام الثأر بالدم حيث يؤول جزء من الفدية إلى الملك أو إلى الدولة. ويعتبر نظام دولة «الفولبه» هذا مثالاً كلاسيكياً واضحاً لشعوب منطقة السودان الذي عاصرته ممالك عدة من دولة «ايفه» في الغرب إلى «كافيتشو» في الشرق حتى نشوء الدول لدى الشعوب المنغولية. وما ينطبق هنا على السودان يمكن أن ينطبق أيضاً على صعود أنظمة ثقافية مركزية راقية في الشرق والغرب. وقد كان لمنطقة «كافيتشو» التي غزاها الأحباش عام ١٨٩٧ بعض الملامح المصرية القديمة.

فالقيصر - الاله، الذي ظل دائماً محجوباً عن الشعب، كان يملك الأرض، وكان أيضاً مصدر التشريع (كانت كلمة «ثاتو» تعني قانون وتعني ملك بآن واحد) والقائد الأعلى للجيش، أي بكلمة أخرى كان الدولة نفسها. فهو الذي يقرر حياة وموت «كافيتشو». ولكن في الواقع كان الحاكم مرتبطاً بأعضاء مجلس الامبراطورية السبعة الذين كان باستطاعتهم حتى عزل الملك. وفي مناطق أخرى في أثيوبيا وشمال افريقيا كان مجلس الامبراطورية هذا مخولاً حتى باتخاذ قرار الحكم بالموت على الامبراطور نفسه، بعد عدد معلوم من سنوات الحكم، أو بمناسبات معينة. وكانت البلاد مقسمة إلى أراض تابعة للتاج وأخرى عبارة عن اقطاعات يمكن توريثها، وهذه تمنح «للكافيتشو»

الأحرار فقط. ولم يكن القتل من الجرائم التي تعاقب عليها الدوائر الرسمية. -إذ كانت حوادث القتل تسوى ضمن العشيرة عن طريق الثأر بالدم - بل التمرد والخيانة والسحر والسرقة والجبن في المعركة والاغتصاب والتشويه بالضرب والجرح. ولم يكن يسمح للأطفال والنساء والكاذبين واللصوص والسارقين والغرباء بأداء الشهادة، وكانت العقوبات تنفذ فور صدور الأحكام، وتتراوح بين دفع الدية النقدية والاعلان عن القلق والتشويه والاعدام بالشنق وقطع الرأس والالقاء من أعالي الصخور والموت جوعاً ثم النفي والتعريض لمختلف أنواع المخاطر.

ومن المفيد أن نورد في هذا السياق مثالاً من أميركا للمقارنة مع التسويات الافريقية المتقدمة التي نشأت من خلال اللقاء بين الشعوب الرعوية والشعوب الزراعية. ففي المنطقة التي قامت عليها الولايات المتحدة تقدم لنا قبائل «ناتشز» البائدة امكانية مثل هذه المقارنة. فقد كان دستور «ناتشز» عبارة عن نظام «ثيوقراطي» بمعنى أن الملك أي «الشمس الكبيرة» كان في الوقت نفسه الكاهن الأعلى. وقد قام مبدأ التنظيم العمودي على تنظيم طبقي حاد يشكل فيه العبيد الفئة الدنيا ويليها عامة الشعب. وعلى رأس هذا الهرم تقف فئة النبلاء التي تنقسم بدورها إلى ثلاث درجات من حيث المراتب: الشموس والنبلاء ثم الرجال المحترمون. ولم تكن قوانين الزواج تسمح بزواج إلا خارج الطبقة، أي من طبقة إلى أخرى. فعلى سبيل المثال لم يكن يسمح «للشموس» حتى الملك وأخته بالزواج إلا من طبقة الشعب. وبشكل عام كان الأطفال لدى «ناتشز» يتبعون طبقة الأم، مع أن الأطفال الناتجين عن زواج أحد النبلاء من امرأة من عامة الشعب يتبعون طبقة النبلاء.

كما كان الارتقاء إلى طبقة اجتماعية أعلى أيضاً ممكناً، سواء أكان هذا الارتقاء من خلال الشجاعة في الحرب، أم من خلال تأدية خدمات دينية قاسية للملك، أو بالأحرى للدولة، لأنهما كانا في الواقع متلازمين. فقد كان من الممكن لفرد من عامة الشعب أن يرقى إلى مرتبة «الرجال المحترمين» وهذا بدوره يمكن أن يرقى إلى صفوف النبلاء. أما دور زعيم الحرب فقد ظل حكراً على النبلاء و«الشموس».

وكذلك يتضح هنا النفور من الاستبداد المجسد في شخص واحد وهو شخص الملك. وقد أدى هذا الشعور الذي يسود جميع قبائل الهنود الحمر إلى تأسيس مجلس من

الزعماء والمحاربين المسنين يتولى الحسم في الأمور الهامة كالحرب والسياسية الخارجية. وقد كانت هذه المجالس ملزمة بدفع الضرائب للملك الذي كان بيده قرار الموت والحياة. كما تقلص نظام ادارة المقاطعات وأصبح مجسداً في شخص الملك.

أدت الأمثلة التي أوردناها مؤخراً إلى تطوير البناء الدستوري والقانوني المشهور لدى الحضارات الراقية، التي كانت لديها جميع القضايا القانونية والحالات والأنظمة والقواعد وغيرها مكتوبة، والتي بالتالي يمكن أن تكون قواعد ومبادئ للناس في الوقت الحاضر وللأجيال القادمة. ولكن في الواقع ليست الشعوب ذات التاريخ المكتوب هي التي تظهر منشأ وتطور المؤسسات القانونية للإنسانية على أوضح صور، وإنما تتكشف لنا هذه الحقائق بالشكل الأفضل عندما نلاحظ قانون العادة لدى أكثر الشعوب بدائية وبالتالي أقدمها ثقافة. فهل يحق لنا الآن حتى عند أقدم قبائل الشعوب البدائية الحديث عن وجود قانون وأنظمة قانونية؟ نعم يحق لنا ذلك بالواقع. فحتى عند هذه الشعوب لم تكن تعم الفوضى، بل كانت حياتها منظمة بموجب قواعد قانونية واضحة. فقد كانت النظم القانونية متغلغلة في جميع نواحي حياة تلك الشعوب. وكان الضغط من الخارج والرأي العام من الداخل من أقوى العوامل التي نظمت سلوك الفرد والمجتمع.

ملكية الأرض كانت كما سبق أن ذكرنا ملكية جماعية لأفراد المجموعة المحلية ككل. ولكن الانتفاع منها كان من حق مجموعة من الأسر أو أسرة معينة.

أما زراعة الأرض فلم تكن بحد ذاتها تعني ملكيتها، وحتى في حالات أخرى - كما هو الحال في دول السودان وأثيوبيا حيث كانت الأرض تابعة للملك - لم تكن تعتبر ملكية خاصة بالمفهوم المعاصر لحق الملكية، لأن الملك - الكاهن كان نصف إله. فقد كان يجسد فكرة، لكن في الوقت نفسه كان يمكن قتله كفرد، إذا ما اقتضت ذلك مصلحة الشعب. فلم تكن الأرض تابعة له إلا باعتباره يجسد الدولة.

كما كانت المواد الغذائية بادئ الأمر أيضاً ملكية جماعية. وبذلك كانت هناك أيضاً مسؤولية جماعية عن تأمين حاجة الفرد من الغذاء.

ويعطي تطور الملكية الشخصية علامات واضحة لدى شعوب الجني التي كان نشوء حق التأليف و«القانون الدولي» من أهم الخصائص التي تميزها. كما نلاحظ وجود

حق طلب اللجوء عند شعوب الجني والشعوب الرعوية وشعوب بولينيزيا. ويمكن متابعة مراحل تشكله اللاحقة حتى المعابد اليونانية والمكسيكية.

وقد شهد التقسيم الاجتماعي لدى الشعوب الرعوية ولدى شعوب بولينيزيا صيغة أكثر حدة، وفي مجال العلاقات الدولية، كما هو مثلاً في حال مختلف الاتحادات التي شكلها شعوب مثل «ايروكيز» أو «ألغونكين» أو «الهورون»، فقد تشكلت كيانات لا يمكن مقارنتها مع تلك التي كانت موجودة في العالم القديم، بل ربما مع أحدث مؤسسات عصبة الأمم أو بالأحرى الأمم المتحدة. فقد كانت على نقيض تام مع الكيانات الحكومية الاستبدادية في افريقيا.

وربما أصبح الآن من الواضح أن علاقات وثيقة كانت بين أشكال الحكومات وملكية الأراضي والنظم الاقتصادية لدى الشعوب البدائية، وأن الأرض ملكٌ للعشيرة أو للقبيلة أو للشعب وليست ملكاً لفرد، وان الجماعة هي محور الاهتمام إذا ما تعلق الأمر بمسألة الأمن الغذائي. فالشعب والأرض والقانون أشياء خالدة بالنسبة للشعوب البدائية، وليس الفرد.

الهوامش:

١ – مقياس للمساحة يعادل حوالي أربعة آلاف متر مربع .

٢ – أي المؤلف .

الفصل الثالث عشر

قوى السحر

دور السحر - ممارسته عند مختلف الشعوب - تطور مفاهيم السحر إلى معتقدات ثابتة، أنواع فنون السحر وأهميتها عند البدائيين واستمرارها عند المتحضرين.

عالم الشعوب البدائية هو عالم السحر. ويقوم مبدؤها الرئيسي في ذلك على الاقتناع. «في البداية كانت القوة»، هذه القوة المرئية حاضرة دائماً ومحسوسة دائماً، وهي حقيقة بالنسبة للبدائيين كحقيقة قساوة الحجر ورطوبة الماء، وكحقيقة الأثير في علم الفيزياء الحديثة.

كانت هذه القوة، التي تبدو خيالية للإنسان الحديث، حقيقة واقعة وملموسة بالنسبة للشعوب البدائية. وقد دلت هذه الشعوب على تلك القوة بمختلف التسميات. إنها «المانا» بالنسبة لشعوب الملايو، و«أوريندا» بالنسبة لقبائل ايروكيزو «كورانيتا» عند شعوب أواسط استراليا، و«فاكان» لهنود سيوكس، و«مانيتو» عند قبائل الفونكين. ولذلك فقد كان سعي البدائيين الدؤوب موجهاً نحو إدراك فعالية هذه القوة والمشاركة فيها بل والسيطرة عليها، إن أمكن ذلك.

ففي عالم الشعوب البدائية ليس هناك من صدفة. فلكل شيء ولكل ظاهرة أسباب ومداخلات، يرى الإنسان البدائي أن من واجبه أن يدركها.

في تصورنا أن العلاقة بين السبب والنتيجة هي محصلة تفكيرنا المنطقي الخاص والقائم على أساس معرفتنا في مجال العلوم الطبيعية. وفي تصور الشعوب البدائية أيضاً فان السبب والنتيجة غير محصورين ضمن المجال الضيق للعالم المرئي، بل هما مشروطان بقوى وظواهر العالم غير المرئي.

ولكن هذا «الغير مرئي» يعتبر بالنسبة لهم طبيعياً وواقعياً لأن «ما فوق الطبيعي» يشكل في نمط تفكيرهم حقيقة ملموسة. وما يمكن أن نسميه ظاهرة من ظواهر الاعتقاد يعتبر بالنسبة للإنسان البدائي وحياً لمعرفته. وهكذا فان جميع أفكاره وتصرفاته موجهة نحو إدراك جميع الأشياء والعناصر التي تربط بين العالمين المرئي والمخفي بروح هذه النظرة السحرية إلى الكون، ومن ثم الولوج فيها. ونحن نطلق على هذه المحاولات الرامية إلى التأثير على هذه القوى الغيبية والاستفادة منها اسم السحر. والاعتقاد بقوى السحر ليس منتشراً في جميع أرجاء العالم فقط، بل يشكل أيضاً أقدم صيغة لفلسفة الحياة والدين، فقد عاش هذا الاعتقاد آلاف السنين، وما نزال نلحظه حتى في حياتنا المعاصرة هذه.

بالنسبة للشعوب البدائية فان لكل شيء أو كائن، سواء أكان مرئياً أم غير مرئي، قوى وصفات سحرية معينة. وبينما نعلم نحن أن الأسباب نفسها، تحت الشروط نفسها، تؤدي إلى النتائج نفسها أو ما يشبهها، لا يعترف البدائي بالقوانين الدائمة للطبيعة. ونتيجة لذلك يعزو بعض الظواهر المعينة التي تظهر دون سبب مرئي، كالمرض مثلاً أو الموت والنجاح والإخفاق والمطر والعاصفة وبزوغ الشمس، إلى أسباب سحرية تحدد سلوك جميع الكائنات والأشياء.

ويعتبر السحر المرتبط بالحصول على الغذاء من أقدم أشكال الممارسات السحرية. ولا يقوم الفرد بممارسة طقوس السحر المطلوبة في هذه الحالات، بل تقوم بها المجموعة المتوجهة إلى الصيد، أي الوحدة الاقتصادية القائمة لدى أقدم الشعوب التي تم التوصل إلى معرفتها، والتي توحد جميع قواها السحرية في قوة واحدة. ويظهر من الرسوم الجدارية على كهوف ما قبل التاريخ أن مثل حفلات الطقوس السحرية هذه كانت تقام حتى في العصر الجليدي. فصورة الطريدة كالدب مثلاً أو الجاموس أو الأيل كانت في تصور هؤلاء الناس تعني ما يعنيه الحيوان المصطاد نفسه. فإذا ما كانت هذه الصورة مطعونة بالرمح فان ذلك يعني أن النجاح في الصيد القادم بات أمراً مؤكداً. ويمكن أن نلاحظ ذلك حتى الآن عند الاستراليين الذين تشكل عندهم الرسوم الرملية بديلاً عن الرسوم بالألوان التي استخدمها إنسان ما قبل التاريخ. كانت رسومهم الرملية هذه تطعن بالرماح في احتفال عام، وذلك لضمان النجاح في رحلة صيد اليوم التالي.

وهناك نتيجة سحرية مشابهة يمكن تحقيقها أيضاً عندما تحل الحركات التعبيرية محل الصورة الرمزية للحيوان، ويستعاض عن طقوس السحر المتمثلة في «قتل الحيوان» بالرسوم التمثيلية وبالتقليد الإيمائي.

مثل هذه الحركات التعبيرية، أي الرقصات الواقعية، معروفة ومتبعة عند الاستراليين وعند الهنود الحمر في أمريكا الشمالية كما رأينا.

تشبه هاتان الطريقتان إلى حد كبير التقليد الذي يأمر بموجبه رجل الطب بصنع دمية بهيئة الحيوان، من العشب أو القماش وغير ذلك من مواد، تعلق في كوخ السحر ثم «تقتل» بالرمح أو بالسهم.

هناك طقوس سحرية مشابهة تستخدم في حماية النباتات الغذائية الرئيسية لدى قبيلة ما وتضمن تكاثرها. ففي استراليا مثلاً تقوم بعض القبائل بعرض تجميع الفواكه أو الجذور بطريقة ايمائية. في هذه الحالة تقوم الحجارة مقام الجذور والدرنات الحقيقية، إذ «تُقلع» من التربة وتوضع في سلال الحمل.

وقد حافظت هذه الطقوس السحرية على استمراريتها حتى عالمنا المعاصر هذا، وتتمثل على سبيل المثال في عادة «شجرة أيار» التي زالت أهميتها الأصلية على مر آلاف السنين. ففي بعض المناطق الريفية الألمانية ما تزال موجودة عادة جلب شجرة بتولا أو صنوبر صغيرة في عيد العنصرة بمظهر احتفالي. فأحياناً يقوم شاب مزين من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بالزهر وورق الشجر بدور «الشجرة» ولكن لم يعد «المفعول السحري» في مثل هذه المناسبات يستخدم لهذه الغرسة أو تلك، بل ان شجرة أيار وأصنافها الأخرى قد أصبحت رمزاً للنمو بشكل عام. أما طقوس التقديس القديمة التي كانت تؤدى لآلهة الخصوبة فقد دخلت طي النسيان.

ولا تقتصر مواضيع الاحتفالات الدينية - السحرية لدى الشعوب البدائية على النباتات والحيوانات، بل تتعداها أيضاً إلى القوى العظمى في الطبيعة. إذ تقوم الشعوب البدائية بحثّ الطبيعة على استمرارية عطائها عن طريق أداء رمزي، كالذي يتجلى في الطقوس الخاصة بطلوع الشمس واستنزال المطر. تعتقد هذه الشعوب أن أي تقاعس عن ممارسة هذه الطقوس سينتج عنه توقف هذه الظواهر عن إسداء بركتها للبشر. فالشمس ستتوقف عن البزوغ والمطر سينحبس إذا ما تقاعس الناس يوماً عن أداء «واجباتهم» التي لا يجوز أن يملوا من أدائها.

ومن أشهر هذه الطقوس السحرية نذكر تلك التي تتجلى فيها النار كقوة محرضة للشمس، ويبدو ذلك بشكل خاص في نهاية العام قبيل الانقلاب الشتوي، إذ يعتقد الناس أن الشمس قد أرهقت وضعفت، ولذلك تبحث عن قوى جديدة من خلال إشعال كومات سحرية من الحطب تعيد لها الحياة والقوة من جديد. ومثل هذه الاحتفالات تكون غالباً ذات جمال أخاذ.

مثال على ذلك ما تقوم به قبيلة «نافاهو» الهندية الحمراء، إذ توقد في بداية الليل كومة هائلة من الحطب وتتركها مشتعلة حتى الفجر. أثناء ذلك يظهر المحتفلون وقد صبغوا أنفسهم باللون الأبيض إكراماً للشمس وأرخو بشعرهم الطويل على أكتافهم. ويطلق على هؤلاء المثلين اسم «الشموس الجوالة». فهم يمسكون بعصي الرقص المزينة بالريش ويرقصون في مواكب مغلقة حول اللهب ويقفزون مقتربين قدر الممكن من النار، وبذلك يقلدون مسار الشمس ويتحركون من الشرق إلى الغرب وبالعكس. ودون أي خوف من حرارة الحطب المحترق، نراهم يقربونه شيئاً فشيئاً ليوقدوا منه الكرات الرئيسية التي تزين رؤوس العصي التي يمسكون بها. وإذا ما تم لهم ذلك واحترقت الكرة الصغيرة ثبتوا مكانها حلقة أو كرة أخرى من الريش وسط صيحات المحتفلين، باعتبارها رمزاً للشمس التي ولدت من جديد.

أما نقطة الاوج في هذا الاحتفال فهي التقليد الرمزي لشروق الشمس الذي يمثله ظهور ستة عشر رجلاً يحملون صورة الشمس في سلة، ويتجمعون حول عمود مرتفع وسط الغناء والرقص ثم يتراجعون فجأة بينما ترفع صورة الشمس ببطء على العمود وتظل عليه بضع دقائق ليتم إنزالها ببطء أيضاً ومن ثم تختفي. وينتهي الاحتفال مع حلول الفجر بعودة الراقصين المصبوغين باللون الأبيض للظهور ليحرقوا قطعة من لحاء الأرز في لهيب النار وهم يتصارعون ويرقصون على الفوز بها ويقفزون حول بقايا كومة الحطب المحترقة. وليس للسياج الذي يحيط بمكان الاحتفال بادئ الأمر سوى منفذ واحد من جهة الشرق، أي الجهة التي تبزغ منها الشمس. ولكن حالما تتخذ الشمس الحقيقية مسارها في السماء تُفتح منافذ أخرى من الغرب والجنوب والشمال للإشارة إلى أن أشعتها ستصل إلى جميع جهات الأرض.

ولذلك فان صورة الشمس المحاطة بسياج من الشجر ذي أربعة «مخارج» - أي بعدد الجهات الأصلية - يعتبر من الزينة المفضلة التي تظهر كثيراً في فن الهنود الحمر.

وعلى سبيل المثال يطلق على إله النار المكسيكي اسم «سيد الجهات الأربع» وإذا ما وصلنا بين الفتحات الأربعة الموجودة في «السياج» الذي يحيط برمز الشمس بخطوط، نتجت لدينا صورة صليب. وما الصلبان الرمزية العديدة التي كثيراً ما تظهر في فن الهنود الحمر سوى تصوير رمزي للشمس.

وهناك أنواع رمزية أخرى مشابهة لطقوس تقديس الشمس هذه التي تؤديها قبائل «نافاهو» عند العديد من الشعوب البدائية الأخرى. فقبائل «بتشوانا» في جنوب افريقيا تدعو الشمس في الصباح الغائم بطريقة احتفالية لتخرق الغيوم. إذ يقوم زعيم «عشيرة الشمس» بإيقاد نار جديدة في كوخه ليقوم كل فرد من العشيرة بنقل عود محترق من هذه النار إلى بيته.

وتعود جميع أنواع الطقوس المتعلقة بالنار إلى قضية تقديس الشمس، ولو أن التعبير الافرادي عن ذلك لدى الثقافات الراقية - كما هو الحال بالنسبة للفرس أو لسكان المكسيك القدماء وغيرهم من الشعوب - قد جاء مختلفاً كل الاختلاف.

وبالأهمية نفسها تحظى أيضاً الأشكال المتعددة التي يتخذها السحر المتعلق باستنزال المطر، لأن البركات التي يجلبها المطر لا تقل أهمية بالنسبة لانتعاش المزروعات عن تلك التي تأتي بها الشمس. وفي هذا المجال يحتل تقليد المطر دائماً مكان الصدارة في مثل هذه الاحتفالات الطقوسية. إذ يُرش الماء أو حتى أحياناً - وكما هو الحال لدى بعض القبائل الاسترالية - يسفح الدم من وريد مفتوح على الأرض. وما الريش الناعم الذي يبعثرونه على الأرض سوى رمز للغيوم. وأحياناً تُرش بللورات الكوارتز على النساء اللواتي يقين أنفسهن من هذا «المطر» بقطع من لحاء الشجر. وتقوم الشعوب التي تعتمد على زراعة الأرض برش الماء على مزروعاتها في أوقات الجفاف أو بتحريك الماء في وعاء وذلك من أجل حث السماء على تقليد هذا الفعل. ولم يقتصر الاعتقاد بوجود رباط سحري بين الشيء وتقليده، بل تعداه إلى الاعتقاد بوجود روابط سحرية مشابهة بين الشيء واسمه. وحتى فلاسفة مثل افلاطون وأرسطو طاليس كانوا يعتقدون أن اسم كائن أو شيء موجود في أعماقه كنواة غير مرئية، وأن الاسم يحدد الجوهر الحقيقي للشيء. وظل الاعتقاد سائداً هكذا حتى قبل ألفي سنة، إذ طورت شعوب وسط أوربا فكرة أن الكلمات ليست أكثر من رموز

للدلالة على الأشياء، وأن الكائنات والأشياء موجودة بصورة غير مرتبطة بالتسميات التي اخترناها لها.

وكلما كانت الثقافة أقدم قوي الاعتقاد بأن الشيء واسمه يكونان وحدة. ومن هذا الاعتقاد تطورت الصيغ والصيحات السحرية. وعلى هذا الأساس فغالباً ما يقترن الاداء التقليدي والايمائي لبعض الأشياء والظواهر المعينة، بالصيحات بأسمائها. وتزيد قبائل استرالية كثيرة من فعالية رقصات الخصوبة من خلال إطلاق صيحات طقوسية بأسماء حيوانات الصيد.

وبينما تظل هذه الطقوس الاحتفالية التي تؤدى اكراماً للمواد الغذائية وقوى الطبيعة إلى حد ما ذات طبيعة إيجابية، فانه يوجد هناك نوع آخر من السحر يهتم بالتأثير على البشر بأسلوب سلبي بشكل أو بآخر. وربما كان هذا الشكل من ممارسة السحر على الأشخاص قد تطور عن الحركة العفوية - الانفعالية. وحتى عندنا يحدث أحياناً أن المرء يكور قبضته بصورة عفوية بمجرد التفكير بعدو غائب أو بشخص نعتبره سيئاً ولا يمكن محاسبته بسبب العادة أو العرف.

وكذلك يكون رد فعل الإنسان البدائي الذي يحمل سلاحه معه دائماً، إذ يقوم على هذه الشاكلة بحركات تهديد رمزية معينة. وإذا ما شاءت الصدفة بعدها أن يمرض الخصم أو يموت، يعتقد المرء أن تلك الحركات كانت سبباً لهذه النتيجة المرغوبة. وقد أصبحت هذه العلاقة السببية بين الحركة المهددة والشر الذي وقع على الخصم «حقيقة» معترفاً بها، وتطورت الحركة نفسها إلى عملية سحرية مستخدمة استخداماً واعياً، الغاية منها تدمير شخص مكروه. وهكذا تعتمد ممارسة السحر ضد الأشخاص على هذه القناعة المتولدة.

وعلى هذا الأساس تعتقد قبائل «أورانغ يينوا» في شبه جزيرة الملايو أن لدى سحرة معينين القدرة على قتل عدو عن بعد بمجرد رفع خنجر أو أي سلاح آخر بحركة تهديدية في الجهة التي يقطن فيها هذا العدو. كما تقذف بعض القبائل الاسترالية - وللغاية نفسها - سهاماً سحرية مصنوعة من عظام البشر في الجهة التي توجد فيها الضحية المختارة. ويعتقد أفراد هذه القبائل أن سهماً من هذا النوع يظل طائراً إلى أن يصل إلى «المحكوم عليه» ليخترق جسده دون أن يترك أي أثر لجرح خارجي يكون من

نتيجته مرض أو حتى موتُ الضحية. وبعض القبائل الأخرى تستخدم نماذج مصغرة للرماح تُقذف ليلاً بينما يقوم الساحر بعملية شهيق وزفير عميقة. وقد يستخدم أحياناً عظماً مدبب الطرف، أو حتى قطعة من الخشب للغاية نفسها، إذ يضفي عليها الغناء أو التمتمة بعبارات مبهمة، قوة سحرية.

أما ما يثير الدهشة في هذه الممارسات فهو حقيقة أن الرجل الذي يشعر بأنه مستهدف من هذه العمليات السحرية غالباً ما يموت منها، لأن اعتقاده الشخصي بقوة فاعليتها لا يقل أبداً عن اعتقاد الشخص الذي يمارسها ضده. فإذا ما عثر أحد سكان استراليا الأصلية فجأة على عظم سحري مدبب له شكل غريب أو نادر بين أمتعته وأدرك فوراً معنى وجوده، سرعان ما يصاب بانهيار عصبي يودي به إلى المرض والامتناع عن تناول الطعام، وأحياناً ينهار بالفعل كلياً، تحت ضغط التهديد، جسدياً وروحياً. إذ يشعر أنه ضحية قوى أكثر قوة منه وحتى من أعدائه: فهو محكوم عليه بالموت إذن. وقد لاحظت شخصياً ما يشبه ذلك لدى قبيلة «أوجيبڤا» الهندية الحمراء حيث يقوم رجل الطب بقذف صدفة سحرية من مسافة بعيدة يوجهها «إلى قلب عدوه».

فجميع الأمراض التي تنتج من خلال السحر، سببها، حسب اعتقاد الشعوب البدائية، دخول جسم غريب في جسد الإنسان، سواء أكان هذا الجسم الغريب عظماً أو قطعة خشب أم حجراً أو صدفة أو ما شابه ذلك. وهناك امكانية واحدة للانقاذ أمام «المستهدف» أو الضحية، وهي «الشفاء» عن طريق المص، والتدليك والغناء وغير ذلك من طرق، حيث يستخدم السحرة العرافون جميع خدعاتهم السرية الخاصة ليأتوا «بالبرهان المنظور» على الشفاء من خلال إظهار الجسم الغريب الذي «أخرجوه بطرقهم السحرية».

وقد تفرع عن أقدم صيغة لممارسة السحر ضد الأشخاص عدد لا حصر له من الصيغ السحرية الأكثر حداثة التي يعتمد مفعولها السحري دائماً على ممارسة ضرب من ضروب التماثل أو التشابه. إذ تعرض جميع الآلام التي يتمنى المرء أن تحل بالضحية بطريقة ايمائية، حتى أدق تفاصيلها، لكي يصاب بها العدو بالأسلوب نفسه.

ففي منطقة «كامتشاتكا» إذا ما أراد المرء أن يتعرف على هوية لص، يلقي بأوتار حيوان في النار لاعتقاده بأن نظير هذه الأوتار في جسم المجرم سوف تتقلص

بنفس الأسلوب وبالتالي سوف ينفضح أمره، وما يزال الاعتقاد سائداً في بعض المناطق الريفية في أوربا أن الفتاة التي خدعها حبيبها تقوم بطعن صورته أو بطعن شمعة قريبة من الصورة مرددة الكلمات التالية: «أطعن هذا النور وبذلك أطعن القلب الذي أحببت» معتقدة في ذلك بأن من خان حبها سيموت من جراء هذا «الجرح».

أما آلام البطن فغالباً ما تعزى إلى الشياطين التي «تضع عقداً» بطريقة الاحتيال في أمعاء المصاب. ولهذا السبب تتحاشى قبائل «اللاب» عقد قطع الملابس لأن ذلك «سيدعو الشياطين» لفعل ذلك في أمعائهم. وحتى في بعض القرى الألمانية ما يزال الاعتقاد سائداً حتى الآن بأن لدى الساحرات الشريرات ميلاً جارفاً لعقد أمعاء البشر وبذلك يدخلون المرض إلى أجوافهم. أما عند العرب فهناك عادة إدانة المذنب من خلال السحر القرائني. إذ يدعو رجل الطب جميع سكان القرية إلى مكان عام ليجتمعوا على شكل دائرة يجلس هو في وسطها. ثم يطلب من الجميع أن يجلسوا بينما يقوم هو بغرز مسمار كبير في الأرض والترنم ببعض الصيغ السحرية السرية الخاصة. وفي الختام يصيح بهم «انهضوا» فينهض الجميع ما عدا الذي يشعر بأنه المذنب، فيعتقد بأن أطرافه «مثبتة» بالمسمار على الأرض، لأن الاعتقاد الراسخ للمذنب نفسه بفعالية طريقة الادانة هذه يجعلها بالفعل مجدية.

كما أن ما يسمى «بشجرة الحياة» ليس سوى مثال آخر على السحر القرائني الذي يمارس على الأشخاص. ففي هذه الحالة يكون الربط بين مستقبل المولود وبين نمو شجرة تغرس بعد ولادته بقليل. فما يصيب هذه الشجرة سيصيب الشخص الذي زرعت من أجله.

ولا يقتصر مفعول مثل هذه الممارسات السحرية الرمزية على مجرد إيقاع الإنسان في شرائك السحر فقط، بل يتعدى ذلك - كما سبق أن رأينا - إلى إبطال مفعول السحر الذي يمارسه الخصوم، أو حتى إلى درئه قبل وقوعه.

وفي بعض قرى أوربا «يعالج» الكسر في الرجل بلف قائمة كرسي برباط. كما أن الكثير من «طقوس الطهارة» ذات الانتشار الواسع ليست الغاية منها سوى طرد جسم غريب «معادٍ» يفترض أنه نفذ إلى جسد الشخص. ففي تونس مثلاً يجهد المرضى وخاصة مرضى الروماتيزم للمرور بين عمودين من أعمدة جامع القيروان وذلك «لمسح» آلامهم من خلال ذلك. كما يقفز اليابانيون أثناء أعياد الطهارة عبر إطارات مصنوعة

من العشب المجدول وذلك «للتخلص» من أية عناصر مرضية قد يحملونها. وكذلك في «كامتشاتكا» يزحف السكان الأصليون عبر عجلات من الخشب لكي «تكشط منهم الجسد والروح». كما أن طقوس التعميد المسيحية ما هي إلا طقوس وقائية «لتطهير روح» الوليد الجديد الذي انضم إلى عضوية المجتمع.

وحيوان الصيد الذي ترسمه شعوب الصيد والجمع، ويعتبر غالباً محور طقوسهم السحرية، نراه ممثلاً لدى شعوب الثقافات اللاحقة من خلال صورة الإنسان نفسه. كما أن اللجوء إلى العرض التصويري لجزء من الجسد، أو من الشيء، يمت إلى ذلك بصلة، حيث يحل بالأصل ما يحل بالصورة. ويدخل في مجال هذا النوع من السحر ما سبق أن ذكرناه عن الفتاة التي «تقتل» الحبيب الذي خانها من خلال السحر القرائني. ولو أنها جرحت قلباً من شمع بدلاً من جرح الشمعة أو الصورة، لكانت قد مارست «سحراً قرائنياً» صرفاً.

وتنتشر الممارسات السحرية باستخدام «القرائن» في جميع أنحاء العالم. في شبه جزيرة الملايو مثلاً تتعرض تماثيل أشخاص صغيرة مصنوعة من شمع النحل لتشويهات يقصد بها أصلاً الأشخاص الذين تمثلهم هذه التماثيل. فإذا ما فقأ المرء عين التمثال فان العمى سيصيب «الشخص الأصلي». كما أن جرحاً يُحدث في الرأس سيصيب «الأصل» بآلام في رأسه ودماغه. وإذا ما بقر البطن فان الضحية المقصودة بالعملية ستعاني من قرحة في الأمعاء وهكذا.. وإذا ما تمنى المرء الموت للشخص الحقيقي الذي يرمز إليه التمثال، فعليه أن يقطع التمثال من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بشكل عمودي، ومن ثم معاملة الدمية كما لو أنها جثة شخص متوفى.

وتعمد كثير من قبائل الهنود الحمر في أمريكا إلى إذابة تمثال شمعي للعدو، وذلك من أجل «قتله»، أو إلى حرق دمية من العشب الجاف تمثل الضحية. ويمارس سكان الملايو نوعاً آخر من السحر، إذ «يدمرون» الحياة الزوجية لشخصين، وذلك بربط تمثالين لرجل وامرأة بشكل متنافر أي ظهر أحدهما يلامس ظهر الآخر بحيث يتوجه نظر كل منهما بعكس نظر الآخر.

ولا تنحصر ممارسة هذا النوع من السحر الذي يعتمد على «القرينة» على الثقافات البدائية بل ظهر أيضاً في عصور تاريخية لاحقة، ويظهر حتى الآن لدى

الشعوب المتحضرة. فقد اعتبر الرومان ممارسة هذا الضرب من السحر من الطرق المنطقية للتخلص من العدو. ويقوم هذا المبدأ في السحر على صنع صورة طبق الأصل للشخص من شمع أو رصاص ثم تدميرها وسط تمتمة عبارات سحرية خاصة. وما يزال التقليد الذي يعود إلى العصور الوسطى وهو الحرق أو الشنق الرمزي لدمية تمثل شخصاً ما، حياً حتى الآن في المظاهرات السياسية. وفي منطقة «شتاير مارك» «يسحر» المرء دمية شمعية عن طريق عبارات سحرية سرية، ثم يشق قلبها ليقتل القرين الذي تمثله. وما يزال سكان المناطق الريفية في شمال انكلترا حتى الآن يعتقدون بقصة تلك المرأة التي بدأت فجأة بالنحول حتى العظم ولم يتمكن أي طبيب من مساعدتها، ولكن عندما توجهت إلى أحد أدعياء الطب اقترح عليها أن تفتش عن الأشياء التي جلبت لها «الشر»، بعد ذلك تمكنت من العثور على قلب شاة مغروز بعدد لا يحصى من الابر في حديقة بيتها، وبعد أن أتلفته استعادت كامل صحتها، وقد استخدم أعداؤها قلب الشاة هذا كوسيلة شريرة من وسائل السحر الذي يقوم على القرينة.

مقابل هذا النوع من السحر المباشر هناك نوع آخر وقائي، يقوم أيضاً على مبدأ السحر باستخدام القرينة. فكما يمكن جلب المرض لشخص ما أو لقلبه أو حتى قتله من خلال التشويهات التي تلحق بصورته أو بتمثاله، يمكن أيضاً، وبالطرق نفسها، درء الشر قبل وقوعه، أو طرده من الجسد الذي يحل فيه. ففي المناطق التي يعتقد فيها أن الأمراض تسببها أرواح شريرة يقوم سكانها عادة بطعن أو حتى تفتيت صور هذه الأرواح التي غالباً ما تتخذ هيئة حيوانات. ويرجع أصل عادة «كبش الفداء» في الكتاب المقدس إلى هذه الممارسة القديمة في طرد الشياطين التي تسبب المرض.

ولم يصبح «كبش الفداء» هذا وسيلة للتحرر من ذنب معنوي إلا بعد تطور مفهوم «الخطيئة». فقد كان اليهود القدماء في «يوم الغفران» يحملون جميع «خطايا شعبهم على عنزة أو على طير ثم يطردون هذا الحيوان باتجاه الصحراء. ويحمل أفراد «بادوغا» في الهند خطايا المتوفى على ظهر ثور فتي، عند إجراء مراسم دفنه، ثم يسوقون هذا الثور وسط ضجة وصخب قويين.

أما الشعوب التي تفسر الأمراض بأنها عقوبات فرضتها الآلهة، فتكرس صورة المريض، أو صورة العضو المصاب للآلهة، آملة أن توجه هذه الآلهة بركتها ورحمتها إلى

الصورة الأصلية. وتعود جذور نذور الكاثوليك إلى هذا الاعتقاد. فأشكال وتماثيل من جميع الأنواع تنذر للقديسين، أو أشكالٌ تمثل قلوباً أو أقداماً وسواعد وغيرها من أعضاء جسم الإنسان توضع على المذبح لتشفي أطراف وأحشاء المريض. وفي قصيدته «الحج إلى كيفلار» وصف الشاعر الألماني «هاينريش هاينه» هذا السحر الايجابي القائم على القرينة بقوله:

ومن يضحي بيد من الشمع
يشفى الجرح الذي في يده
ومن يضحي بقدم من الشمع
تشفى قدمه المريضة

وفي مقاطعة بافاريا الألمانية يقوم الناس الذين يعانون من صداع مزمن بصنع رؤوس من الطين المحروق بحجم الرأس الطبيعي، يملؤنها بالشوفان ويعلقونها على الأشجار لتمر من أمامها مواكب الخاشعين. وفي أماكن العجائب كما هو الحال في «لاوردس» تملأ عكاكيز وضمادات أذرع المعاقين، التي قدموها كنذور للكنائس. وفي كنيسة «نوتردام» دولاغارد، التي تطل على مرفأ مرسيليا في فرنسا هناك مئات من نماذج السفن المعلقة كنذور من قباطنة السفن، الذين، إما انقذت العذراء سفنهم من عاصفة، أو يقدمونها نذوراً لدرء الشر عنهم، كنوع من السحر باستخدام القرينة قبل الشروع برحلة بحرية طويلة. هناك نوع آخر من السحر بالقرينة وهو الاعتقاد بأن ظل كائن حي يمثل هذا الكائن نفسه أو روحه. فقبائل باسوتو الزنجية تعتقد انه إذا ما «اصطاد» تمساح ظل أحدهم فانه سيموت حتماً. وفي جزر «سالمون» يحكم على كل من يدوس على ظل الملك بالموت، ويعتقد سكان الملايو بأن الشخص منهم سيقع مريضاً إذا ما قام أحد بطعن ظله. وقد أجاز قانون شفابي[1] قديم للحر الذي تعرض لاهانة من قبل أحد اقنانه، أن يضرب ظل القن على قفاه. ويعود نفور كثير من الناس من رسم صورهم أو تصويرهم إلى هذا الاعتقاد. ولدى كثير من الشعوب البدائية قناعة تامة بأن من يملك صورة شخص آخر عنده القدرة على ممارسة ضروب السحر ضده من خلال هذه الصورة.

ففي حي القصبة في مدينة الجزائر مثلاً من الخطورة بمكان محاولة التقاط صورة فوتوغرافية لسكانه المحافظين أو حتى لبيوتهم. أما لدى قبائل «شيبغا» الهندية

الحمراء فقد سمح لي السحرة المتقدمون في السن والواثقون بقدراتهم ان التقط لهم الصور بكل رحابة صدر، لكنهم لم يسمحوا لي مطلقاً بالتقاط صور الأطفال والرضع الذين كانوا ما يزالون ضعفاء وغير قادرين «على مجابهة قوة الرجل الأبيض».

وقد استدعي الرسام «كان» الذي رسم صورة وجه أحد زعماء الهنود الحمر إلى تحقيق محرج للتأكيد من أنه لم يدس جرثومة مرض مميت في هذا الزعيم من خلال رسم صورته. وعندما طمأن «الموديل» أخيراً وأرفق طمأنته هذه ببعض التبغ كان الجواب الذي تلقاه بأن الهدية تافهة جداً مقابل مخاطرة الزعيم بحياته. وأخيراً وجد الرسام نفسه مضطراً لصنع نسخة أخرى عن الصورة ومزقها علناً، على انها الصورة الأصلية، وذلك لتهدئة مشاعر القبيلة المثارة.

المساجد حتى الآن خالية من أية صور. كما أن لاسم الشخص أيضاً المواصفات السحرية نفسها التي لظله أو لصورته. وتجبر الأشباح والشياطين أو الأموات على الظهور من خلال ذكر اسمائها بصيغ طقوسية معينة غالباً ما تعتمد على التكرار. وقد ورد في مسرحية غوته الشهيرة «فاوست»: قول: «عليك أن تقول ذلك ثلاث مرات».

ومن دواعي الخوف من أن معرفة اسم الشخص ان تعرضه لسحر شرير، ان بعض القبائل الاسترالية لا تعطي أسماء عامة معروفة إلا للأطفال الصغار جداً. وحالما يبلغ هؤلاء الأطفال سن الرشد تلغى المناداة بالاسم لتطلق عليهم أسماء مثل «أبو» «أخو» «عم» وغيرها. وفي منطقة جنوب شرق استراليا تعتبر أسماء الأشخاص سراً من أسرار القبيلة يحافظ عليه أشد المحافظة لكي لا يستطيع أي غريب الحاق الأذى بحاملها عن طريق ممارسة السحر عليهم. كما ان معظم الهنود الحمر في أميركا يتحاشون التلفظ بالأسماء، بل يكتفون بتحريك شفاههم فقط باتجاه الشخص الذين يتحدثون عنه. وأحياناً تستخدم أيضاً أسماء مستعارة وألقاب من شأنها أن تحمي حامليها. وقد عمد اللصوص والمجرمون في الوقت الحاضر إلى هذا التقليد، وفي أثيوبيا لا يمكن أن يكون لساحر سيطرة على إنسان ما لم يعرف اسمه الحقيقي. وللأسباب الآنفة الذكر نفسها يحرم على بعض القبائل تحريماً كلياً لفظ اسم زعمائها أو حكامها. وفي جزيرة بورنيو الاندونيسية يعمد الأهل إلى تغيير اسم الطفل المريض لاعطائه قوة جديدة على الحياة بمساعدة الاسم الجديد.

هناك علاقة وثيقة بين سحر الاسم وسحر الكلمة بمعناه الواسع، إذ تعزز الحركات الدالة على تهديد خصم غائب غالباً باطلاق الشتائم أو عبارات تهديد أخرى مثل «ستموت» أو «سأقتلك». وهنا تبدو الصورة الجلية لسحر الكلمة عندما تسقط الحركات التهديدية كلياً لتحل محلها الكلمة المنطوقة. ويعود أصل جميع التأكيدات التي تتم في أجواء مراسمية واحتفالية كأداء القسم واحلال اللعنة إلى هذه الجذور. وحتى المحاكم في عصرنا تطلب من الشهود ترديد العبارة الشهيرة «أقسم بالله العظيم» كما أن ما يسمى بقضاء الله يقود إلى الجذور نفسها: فالله أو الكائنات ما فوق الأرضية هي التي تثبت في اجتماع عام فيما إذا كان الشخص قد قال الحقيقة أم لا، وفيما إذا كان بريئاً أو مذنباً. وخلال التحقيق بهذا الأسلوب يجب على المتهم اما أن يقبض على مادة خطرة كقطعة محماة من المعدن، أو يتناول السم، أو أن يمشي فوق النار لاثبات براءته. وفي أغلب الأحيان يكون «السم» المستخدم في مثل هذه الحالات في الواقع عبارة عن مادة غير ضارة. بالتالي فان ضمير المذنب الداخلي وقناعته الراسخة بأن هذه التجربة لا تخيب أبداً، يدفعان بالمذنب لإظهار رد الفعل المنشود. أما عندما يُسقى المشتبه به سماً حقيقياً يعتبر التقيؤ برهاناً على براءته، بينما المذنب الذي يبتلع الشراب القاتل دون أن يتقيأ من تلقاء نفسه، يجب أن يموت. وغالباً ما تعتمد هذه الأحكام على معرفة طبية مدهشة.

كما يستغل الاسم المكتوب للشخص في الممارسات السحرية، مثله مثل صورته المرئية، أو اسمه الملفوظ. وعلى هذا المبدأ يكتب الهندوس اسم الضحية على تمثاله المصوب، وذلك من أجل زيادة فعالية السحر الذي يمارس باستخدام هذا التمثال. وفي جزيرة بالي الاندونيسية يتم «قتل» الشخص بكتابة اسمه على نعش أو كفن يدفن في منطقة سكنه. وكذلك يمكن أن يؤدي اعدام أو حرق اسم شخص مكتوب على قطعة من الورق بشكل رمزي، لتدمير حامل الاسم نفسه بهذه الطريقة.

كما ان الجمع بين كتابة كلمات مقدسة وغير مقدسة باستخدام مواد سحرية قد أدى إلى تطور «التميمة» و«الحرز» و«جالب الحظ» وتنتشر عادة حمل التمائم ذات العبارات الغيبية بشكل خاص في العالم الإسلامي حيث تتألف هذه الحروز عادة من آيات قرآنية أو رموز مرسومة على قطعة من الورق. وقد عرض أحد السكان الأصليين

في غينيا العليا بعظيم الفخر تميمة على أحد الباحثين. وقد كانت عبارة عن قطعة من الورق تتضمن التحذير من حاملها الذي وصف بأنه «أكبر وغد في المنطقة». ومن أجل زيادة فعالية قوة سحر الكلمة المكتوبة يعمد المسلمون أحياناً إلى حل الكتابة في الماء ومن ثم شربه أو يشربون بصحن معدني نقشت عليه الكلمات المقدسة.

وعندما لم يتمكن الطبيب الصيني القديم من احضار دواء معين بالسرعة المطلوبة كان يكتب اسم هذا الدواء على شريط من الورق ثم يغمسه في الماء المقدس. وبعد أن ينحل الحبر يشرب المريض المحلول كبديل عن الدواء. وعلى المبدأ نفسه كثيراً ما كانت تحرق مثل هذه الوصفات الطبية ويقوم المريض ببلع رمادها. أما في اليابان فيقوم الحالف بحرقها ثم أكل رمادها، لأن الاعتقاد السائد هو أنه في حالة اليمين الكاذب سيكون لهذا الرماد فعل السم الذي سيقتل الكاذب.

وتعتبر مخلفات الشخص، أو بقايا مادية من أثره، في طليعة المواد التي تقوي مفعول السحر، يستخدمها من يريد أن يلحق الأذى بالآخرين عن طريق السحر. فالشعر وأظافر اليدين والقدمين، واللعاب وقطع من ملابس الشخص الذي يمارس عليه السحر، تعتبر أجزاء من الشخص نفسه، وتتضمن قطعة من جوهره الروحي يمكن تحميلها بدلاً منه شخصياً بالسباب السحرية. وتنتشر هذه النظرة السحرية في جميع أنحاء العالم. ففي جزر «المالوك» مثلاً يقتل أحدهم عدوه بالطريقة التالية: يجمع قطعة لبان مضغها العدو وبعض شعره وخرقة من إزاره ويضع هذا المزيج في ثلاث اسطوانات من الخيزان، يدفن واحدة منها تحت نعش، ويطمر الثانية تحت الدرجات المؤدية إلى منزل الضحية، ويلقي بالثالثة في البحر، اعتقاداً منه بأن هذه العملية ستؤدي حتماً إلى موت هذا العدو.

وبناء على هذا الاعتقاد تطورت عادة الاتلاف الفوري لجميع بقايا الجسد منعاً من تمكين الخصم من ممارسة أي سحر يراد به الشر، فعندما يبصق «المواتاجامو» وهو زعيم قبيلة قوي في وسط افريقيا يسارع عبده فوراً إلى طمر بصاقه بالتراب، ثم مسح مكانه جيداً بحيث لا يبقى له أثر. أما زعيم القبيلة في جزر المحيط الهادي فيتبعه مرافق بصورة دائمة يحمل في يده وعاء للبصاق ويقوم بتفريغه في مكان سري. وفي جنوب بوهيميا ما يزال الاعتقاد سائداً حتى الآن بأنه من الخطورة بمكان رمي بقايا المطبخ في

مكان قريب من المنزل لأن الساحرات الشريرات يمكنهن من خلال ذلك الاطلاع على ما يجري بداخله وهذا ما يضر بساكنيه. وفي «ميرن» يقوم السكان بحرق الشعر المقصوص فوراً كذلك في سكوتلندا هناك عادة شعبية سائدة، وهي القاء الأظافر المقصوصة أو الشعر المقصوص في النار.

وبما أن مثل مخلفات الجسد «المسحورة» هذه تعبر أسباباً للكثير من الأمراض، يحاول المرضى دائماً استعادة هذه المواد ممن يعتبرونه ساحراً عن طريق شرائها منه. ولذلك فان ادعياء الطب في جزر الهبريد يتقاضون مبالغ لا بأس بها من المال إذ يقومون بجمع مخلفات الأجساد ثم يبيعونها ثانية إلى أصحابها السابقين. وفي جزيرة «تانا» يحمل كل فرد من السكان الأصليين سلة صغيرة أينما ذهب يجمع بها افرازات جسده ثم يقوم «باغراق» محتوياتها حالما مر على ماء جار. أما أفراد قبيلة «نارينيري» الاسترالية فيجمعون العظام التي قام أحد ما بتجريدها من اللحم لاعتقادهم بأن ستكون لهم السيطرة على الآكل الذي يستطيعون بعدها – بمساعدة هذه العظام – «اعدام» هذا الشخص في حال نشوء خلافات معه. كما ان أنواع السحر العديدة المتعلقة بقضايا الحب والمنتشرة في جميع بقاع العالم تقوم في أغلب الأحيان على استخدام مخلفات جسد الحبيب أو قطعة من ممتلكاته من أجل اثارة الحب الضائع أو استمالة الحبيب الصدود من جديد. وغالباً ما تخاط هذه الأشياء معاً في حزمة واحدة وتصبح ذات مفعول سحري بتلاوة عبارات خاصة في عالم السحرة. وقد وصف الباحث «بيغلهولة» مثل هذه العمليات السحرية لدى قبائل «هوبي» الهندية الحمراء: «يقوم الشخص الذي وقع في غرام فتاة معينة بسرقة بعض شعراتها أو لعابها أو قطعة من شالها أو قد يسحب بضعة خيوط من حزامها المنسوج. يربط هذه الأشياء معها بـ «ريشة صلاة» ويصنع منها حزمة صغيرة. ثم يصلي داعياً أن تغرم به الفتاة، ويدس الحزمة تحت حزامه أو في جيبه، بعد ذلك تبدأ الفتاة «بالاشتعال في منطقة ما تحت السرة»، وطالما ظل الشخص يحمل هذه الحزمة فان الفتاة ستزوره كل ليلة».

ولكن هذا السحر المتعلق بقضايا الحب لا يخلو من خطورة، لأن الرجل والفتاة يمكن أن يقعا في جنون الحب ويقتل أحدهما الآخر. وإذا ما فتر حب الرجل للفتاة يقوم بطمر حزمته السحرية ويصنع أخرى جديدة إذا ما افتتن بحبيبة أخرى.

وهناك نوع آخر عجيب من أنواع ممارسة السحر على الأشخاص وهو الاستخدام السحري لآثار أقدام الحبيب أو الحبيبة. يقوم الشخص في هذه الحالة بنزع أثر القدم كما هو من التراب ثم يجفف تربته، ومتى جف «تجف» أيضاً عافية المسحور. ويقوم سكان الملايو بصنع دمى صغيرة من آثار الاقدام تمثل العدو الذي خلف هذه الآثار ثم تشوى في مكان سكناه أو «تقتل» بطريقة أو بأخرى. كما أن المحبين يلجؤون عادة إلى تراب آثار الأقدام لاجبار المحبوب على رد العواطف الملتهبة.

في المناطق السلافية الجنوبية تنتزع الفتيات آثار أقدام الأحبة الصيادين ويزرعن فيها أزهار القطيفة «المتفتحة دائماً» لينمو حب المعشوق كالزهرة بحيث لا يذبل أبداً.

وكلما أغرقت الثقافة في القدم قويت بالتالي فيها مثل هذه التصورات السحرية التي ضعفت لدى الشعوب الزراعية لصالح الاعتقاد الراسخ والمتين بقوة سحر الأموات وأرواحهم. لكنها عادت في ظل الحضارات القديمة الراقية لتزدهر من جديد.

ورغم التنوير العلمي الحديث في عصرنا هذا فما زالت تصورات سحرية قديمة سائدة حتى في ظل الحضارة التي نعيشها الآن. يتجلى ذلك بصورة واضحة ابان أوقات الخطر واثارة الشعور. فأثناء الحرب العالمية الثانية عزا الكثير من الجنود المحاربين على الجبهات رجوعهم سالمين إلى تميمة أو حرز صغير كانوا يحملونه معهم دائماً. وكانت المواد المختارة لهذه الغاية تشبه تلك التي استخدمتها الشعوب البدائية كقرائن لجلب الحظ، ان لم تكن نفسها.

ورغم وجود الاعتقاد بأرواح الموتى والتصور بأن الأموات سيبعثون من جديد بعد موتهم لدى ثقافات الجمع والصيد، إلا أن هذه التصورات لم تكن متطورة عندها إلى الحد الذي يمكن به أن تطغى على عنصر السحر الصرف أو تحل محله. ولم يتم ذلك إلا لدى ثقافات الشعوب الزراعية. فشكل اقتصادها ونمط حياتها المستقرة التي لا تسمح بالهرب الجسدي أو الروحي أمام قوى السحر «المعادية» وضعت تقديس الأموات وقواهم في محور حياتها ومجمل نظرتها الفلسفية للكون. فموت الإنسان في تصور الشعوب البدائية لا يعتبر ظاهرة طبيعية وإنما «مصيبة» تسببت بها قوة سحر معينة، قوة غيبية أقوى من المتوفى نفسه انتصرت عليه وسلبته القدرة على الحياة، والقدرة على الحياة الموجودة في الجسد الحي، والتي تغادر عند حلول الوفاة، هي ما يسمى بروح

الشخص. ورغم أن تصور هذه «الروح» مختلف كل الاختلاف بين شعب بدائي وآخر (إذ يمكن أن «تسكن» في تنفس الإنسان أو حرارة جسده أو قلبه أو دمه أو كبده أو كليته أو ظله أو صورته) إلا أنها مقرونة في كل مرة بإحدى جوارحه، وتعتبر السبب الذي تنتج عنه ظاهرة كون الإنسان حياً. أما كون هذا الشيء السحري، أي هذه الروح غير مرتبط ارتباطاً لا ينفصم بالجسد، فتؤكده أحلام الإنسان. وهل يمكن أن تكون الأحلام سوى مغامرات تقوم بها الروح التي تغادر الجسد، وهو نائم وتقوم بنزهاتها وتجوالها حرة طليقة؟ إذن هناك قناعة بحقيقة ثابتة، وهي أن للروح القدرة على البقاء خارج نطاق الجسد. ولذلك كان الاستنتاج المنطقي بأن الروح تغادر الجسد لحظة حصول الوفاة إلى غير رجعة.

أما الثقافات التي يسود فيها الاعتقاد بوجود ما يسمى بأرض الأرواح، فان أصحابها يجيبون على السؤال المتعلق بسبب حدوث الوفاة بقولهم أن الروح قد ملت الحياة الدنيوية ولذلك انسحبت منها. لكن ذلك يظل على أية حال تفسيراً ثانوياً. أما أقدم الثقافات فقد ألقت مسؤولية فصل الروح عن الجسد على التأثيرات السحرية فقط. وترجع هذه التأثيرات السحرية إلى أفعال سحرية. فهي عبارة عن آثام ارتكبها البشر، ولذلك فقد نشأ وتطور العديد من العادات والتقاليد التي تهدف إلى معرفة الساحر المذنب ومن ثم معاقبته.

ما هي إذن طبيعة هذه الأفعال وما هو جوهر هذه الروح؟ وإلى أين تتجه بعد الوفاة؟

فالاعتقاد بأنها تستقر إلى زمن محدد ومعلوم قرب القبر على شكل ظل، منتشر إلى حد بعيد. وأحياناً يعتقد بأنها تمكث بين الأحياء في منطقة سكن القبيلة. وهناك تصور مواز لهذا التصور حتى في الثقافات القديمة ولدى بعض قبائل وسط استراليا، وهو أن الروح تتجه إلى مكان محدد ومحجوز لها سلفاً. فعندما يولد طفل تغادر هذه الروح مكان إقامتها وتدخل إلى جسد الأم. فإذا ما نما هذا الطفل ثم مات تعود هذه الروح بكل بساطة ثانية إلى أرض الأرواح ثم تعود كما يحلو لها لتؤدي دورها في ولادات أخرى. ويعتبر هذا الاعتقاد القديم بتجديد الولادات على شكل دوران، والسائد لدى الشعوب البدائية، أساس الاعتقاد بالتقمص، الذي بلغ قمة تطوره لدى الحضارة الهندية الراقية.

وتتشابك هذه الفكرة القديمة مع مجموعة من التصورات المرافقة لها، فإذا ما قتل تمساح أو نمر رجلاً، فإن روحه ستتقمص هذا الحيوان، وإذا ما مات غرقاً فانه سيتحول إلى شبح مائي. وإذا ما نمت نبتة على قبر، فان روح المسجى في هذا القبر ستسكن في هذه النبتة. كما تعتبر الديدان والفراشات والجعلان والعصافير، وبخاصة الجراذين، والأفاعي التي تعيش قرب جثة، عبارة عن تقمصات جديدة لروح المتوفى. وأحياناً يستطيع المحتضر نفسه أن يختار الكائن الذي يرغب أن يُخلق فيه من جديد.

وغالباً ما يكون هناك تفريق حاد بين سلوك الروح قبل وبعد دفن الجثة. فطالما لم يتم الدفن تظل الروح محومة حول الجسد بهيئة شبح مخيف، ويمكن أن تظهر للاحياء بهيئة مرعبة. وفي الأماكن التي تتبع نظام الدفن على مرحلتين متعاقبتين تظل الروح قرب الجسد إلى أن يتم الدفن النهائي والأخير. أما الشخص الذي لا يحظى بدفن حسب الطرق المتبعة، لسبب أو لآخر، فهو محكوم عليه أن يبقى إلى الأبد روحاً هائمة لا تعرف الاستقرار والهدوء، ترعب الاحياء. ولا يمكن لهذه الروح أن تبلغ الخلاص إلا بدفنها دفناً أصولياً حسب النظم المرعية. عند ذلك يطلق سراح الروح لتنتقل إلى أرض أرواح الموتى، كما تتصورها القبيلة المعنية. وأحياناً تكون هذه الأرض مقرونة بتلك التي جاء منها الأسلاف. ورغم أن القبيلة لم تعد تذكر الوقت التي هجرت فيه هذه الأرض، إلا أنها لا تزال تعتبرها موطناً روحياً لها.

وغالباً ما يقترن موقع أرض الأرواح اقتراناً مباشراً بمسار الشمس. فإله الشمس هو الدليل الذي يقود أرواح الموتى إلى موطنها الجديد. ففي جزر السلامون تذهب هذه الأرواح مع الشمس الغاربة إلى المحيط. ويقترن هذا التصور اقتراناً وثيقاً بالاعتقاد بأن الشمس تولد من جديد عندما تشرق وتموت مساء عندما تغرب. وهناك اسطورة في بولينيزيا تنتهي بالتأكيد بأنه لو لم يمت «ماوي» أي إله الشمس، لما كان على البشر الذين ولدوا بعده أن يموتوا. في بعض الأحيان تكون الشمس نفسها سبباً بموت الإنسان عندما يصيب إله الشمس - وهو في السماء - البشر على الأرض برمحه (أي أشعة الشمس) ثم يأخذهم إليه. وهناك حيث يتصور المرء الشمس كعنكبوت داخل شبكة من الأشعة، تكون عبارة عن ساحرة توقع الناس في شركها لتبتلعهم. ولهذا السبب فقد تصور سكان المكسيك القدماء إله الأموات دائماً على هيئة عنكبوت.

أما حيث يصعد إله الشمس إلى السماء - على الجبال أو السلالم - (أي الأشعة) فتتبعه أرواح الموتى على الطريق نفسه إلى أرض الراحة السماوية. ومن هذا التصور جاءت فكرة السلم الذي سلكته الملائكة (أي أرواح الموتى المشخصة) صعوداً وهبوطاً في حلم يعقوب.

وفي «نيوزيلاندا» يسود الاعتقاد بوجود أدراج تقود إلى أرض الأموات، وهي الأدراج نفسها التي صعد عليها الأسلاف ذات يوم إلى الأرض.

وفي مملكة الكونغو القديمة لم يكن يُسمح لكاهن الشمس أن يموت ميتة طبيعية، بل كان عليه أن يشنق نفسه ليستطيع الإرتقاء إلى الشمس على الحبل.

ويمكن أن يؤدي جسر إلى الشمس أو تظهر سفينة الأرواح لتنقل أرواح الأموات إلى أرض الشمس. كما يعود أصل «شارون»، البحار اليوناني الذي ينقل الأرواح بقاربه عبر نهر Styx[٢] إلى العالم السفلي، لهذا التصور.

لكن لا تقتصر مهمة نقل الأرواح إلى موطنها الجديد على الجسور والقوارب، بل قد تقوم بذلك الحيوانات أيضاً، وبخاصة الطيور. ومن هذا التصور نشأت فكرة أن للأرواح نفسها أجنحة. وتظهر بشكل خاص على الرسومات المصرية القديمة، وبوضوح، المرحلة الانتقالية لهذا التطور، إذ جمعت بين الهيئة البشرية وهيئة طائر في كائن واحد.

ويُعزى إله الصقور «هوروس» إلى منشأ شمسي واضح، أما اسم «هوروس» فهو لقب يطلق على جميع الملوك المصريين، سواء في عهد السلالات أو ما قبل السلالات. وكانت سلطتهم تتركز في مدينة الشمس هليوبوليس التي كان ملكها يحمل لقب «هاراشته» أو «هوروس». أي الذي يعيش في الأفق. وكان الجمع بين الطائر والشمس يرمز إلى سلطته على البشر وعلى أرواحهم. ثم تطورت فكرة أجنحة طائر الأرواح إلى صفة من صفات الملائكة في العقيدة المسيحية.

وحتى الشمس نفسها يمكن أن تصور على هيئة طائر. فهناك بقايا قديمة لهذا التصور، تمثله القصة التي نرويها للأطفال، بأن طائر النعام هو الذي يجلب الأطفال من بركة ماء. وفي كثير من البلدان يسود الاعتقاد بأن الشمس ترتفع من البحر، وأن طائر النعام ذا القدمين الحمراوين هو أحد أقرباء النار وبالتالي الشمس.

كما أن الأشكال المختلفة للدفن مقرونة جميعاً بتصورات عن تجوال الأرواح. وهذه تعتمد إما على الخوف المتأصل من أرواح الموتى. أو كما هو الأمر عند الشعوب

الزراعية - متأثرة بالرغبة باستغلال قوة أرواح الموتى لصالح الاحياء. ومن خلال إخافة الأرواح باحداث الضجيج وإطلاق التهديدات، يمكن أن تتخلى عن «نواياها الشريرة». كما يمكن استمالتها عن طريق تقديم الغذاء والهدايا لتبقى في أماكنها ولا ترجع للأحياء.

أما لدى الثقافات الأكثر حداثة فقد أدى الخوف من روح الميت ليس فقط إلى دفن ثيابه وأسلحته وقطع زينته معه في القبر، وإنما أيضاً إلى تزويده في رحلته إلى مملكة الأرواح بالحيوانات البيتية وحيوانات الركوب والجر التي تنحر إكراماً للمتوفى، وحتى أيضاً بالعبيد والنساء، كمرافقين له. وما قتل هذا العدد الكبير من البشر والحيوانات إلا عزاء لروح المتوفى حتى لا تشعر بالوحشة وتعود لإخافة الاحياء. وبما أن المرء يفترض بأن جميع الأرواح تتوق إلى التسلية والأنس، فقد بحث لها سلفاً عن مرافقين، لولاهم لعادات تختار بنفسها أصحاباً من بين صفوف الاحياء.

ومن أجل إشباع حاجة أرواح الأموات للتسلية تقوم بعض الشعوب بقتل أسرى الحرب، أو حتى الغرباء الذين يغزونهم غدراً. فقد كان ضحايا هذه العادة غالباً من البسطاء الذين يبحثون عن العسل أو يرتادون أماكن المياه. وكان قتلهم يتم في كمائن بواسطة العصي أو شاعوب الصيد، وتعود جميع هذه التقاليد إلى السعي نحو تلبية رغبة روح المتوفى بوجود رفيق معه في مملكته مملكة الأموات قبل أن يعود الميت نفسه لاختيار رفيق وأنيس له من بين الاحياء. وبما أن أقرباء المتوفى يشعرون بأنهم أكثر قرباً من الخطر الذي يتهددهم من هذه الناحية بشكل خاص، وأنهم قد ينقلون عدوى «الخطر» إلى الآخرين، فقد كان عليهم في بعض الأحيان أن يعيشوا في عزلة تامة لبعض الوقت ثم يخضعون لطقوس تطهير خاصة لحماية المجتمع من «سم الأموات» الذي يلازمهم.

وهناك إجراء احترازي آخر يتمثل في عدم التلفظ باسم المتوفى، لأنه، - وكما سبق أن رأينا - يمكن لمجرد التلفظ باسم الكائن أن يؤدي إلى ظهوره غير المرغوب فيه.

وقد تطور الاعتقاد بقوة أرواح الموتى عن الخوف من الأموات أنفسهم. ولكن هذا الاعتقاد دفع أيضاً بالاحياء إلى الافادة من هذه القوة. تماماً كمحاولة المرء استغلال قدرة قوى الطبيعة لصالح المجتمع. وقد اعتقد المرء أن بالامكان بلوغ ذلك بالإبقاء على أرواح المتوفين قريبة وذلك بمساعدة ما يسمى بتماثيل الاسلاف.

ففي أواسط استراليا مثلاً تُصنع فور ولادة الأطفال قطع مسطحة من الخشب أو الحجارة كرموز لأرواحهم، بحيث يكون لكل وليد «خشبة روحه» أو «حجر روحه» الخاص يعرف باسم «تيورو نغا». ورغم أن روح الميت تذهب بعد الوفاة إلى أرض الأموات إلا أن هناك اعتقاداً بأن حجر أو خشبة روحه يحتفظ بجزء من جوهرها. ولهذا السبب يحتفظ الاحياء بخشب أو حجارة أرواح الموتى لأجيال عديدة ويعتبرونها جزءاً من ممتلكاتهم المقدسة.

وفي منطقة سكن القبيلة تحفظ مجموعات كبيرة من «حجارة الأرواح» هذه في مخابئ مبنية بكل عناية، يخرجها الأفراد من مخابئها عند القيام باحتفالات البلوغ وممارسة طقوس الخصوبة من أجل تسخير قواها السحرية المجمعة لصالح الاحياء. وبالأهمية نفسها تتمتع أيضاً ما تسمى بـ «نورتانيا» أو «فانينغا» في شمال ووسط استراليا، وهي عبارة عن رموز على شكل تروس مؤلفة من بضعة رماح مربوطة مع بعضها البعض بشعرة إنسان وزينة أخرى من الريش الأحمر والأبيض. وتزين نهايتها العلوية ببعض «أحجار الروح»، وذلك أثناء بعض الاحتفالات المقدسة.

وعن أخشاب وحجارة الأرواح المنتشرة لدى قبائل الجمع والصيد الاسترالية تطورت فيما بعد تماثيل الآلهة لدى الثقافات الأكثر حداثة للشعوب الزراعية، التي تدخل في عدادها تماثيل العبادة المعروفة. ولكن تماثيل الأسلاف هذه لا تصنع عند ولادة الشخص المعني ولا حتى في حياته، بل بعد موته. فهي ليست مرتبطة بروح شخص على قيد الحياة، بل تتضمن روحه الثانية أو روحه بعد وفاته.

لكنها مع التطور اللاحق فقدت معناها الديني والسحري الأصلي وتراجعت لتصبح لا تعني أكثر من مجرد نصب تذكاري.

بالإضافة إلى تماثيل الموتى المنحوتة أو المصنوعة من الخشب المحفور كثيراً ما تحظى جماجمهم أيضاً بالتقديس باعتبارها حاملة لقدرة الأرواح. وأحياناً يصنع تمثال للسلف من الخشب المحفور وعليه جمجمة أحد الموتى. وبما أن الجمجمة غالباً ما تعتبر مقر الروح فانها تُحفظ في معظم الأحيان كمعبود، له قدرة سحرية وبخاصة إذا ما كانت جمجمة زعيم أو كاهن أو لأحد أصحاب النفوذ الآخرين. ولا تقتصر طقوس الجماجم على تقديس جماجم الأسلاف فقط، بل يتعدى ذلك إلى أية جمجمة أيا كانت

طريقة الحصول عليها، سواء أكانت جمجمة صديق أم عدو. وعن طقوس الأموات والجماجم تطورت فيما بعد طقوس الأقنعة برقصاتها وعروضها الدرامية. وفي هذا الحالة لم تعد الجمجمة بل القناع المحفور هو الذي يرمز إلى روح الميت وإلى الشبح أو الجني الساحر. ولم تعد قوى الأرواح تقتصر على الكائنات البشرية فقط. ففي عقيدة ما يسمى بالمذهب الروحاني Animismus تظهر النباتات والحيوانات والاجرام السماوية والجبال والأنهار والغيوم وكأنها مزودة بأرواح وقوى سحرية. وفي بعض المناطق الافريقية يقوم المرء قبل قطع الشجرة وبعد الضربة الأولى بصب قليل من زيت النخيل على الأرض بأسلوب طقوسي وذلك لاسترضاء روح الشجرة وصرفها عن الثأر من «المهاجم»، كما أن تلاوة نصوص معينة عند الجذور قبل قلعها، وعادة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية بطلب المغفرة من الطريدة التي يصطادونها، تعود إلى هذه الأصل.

ويعطي الاسكيمو بشكل خاص تفسيرات تفصيلية لاحترامهم لروح الطريدة الميتة، إذ يعتقدون أن كلاب البحر والحيتان التي تعيش في المياه المالحة تعاني من عطش لا ينقطع للمياه الحلوة، ولذلك تسمح للصياد بقتلها إذا ما قدم لها مقابل ذلك شربة من الماء العذب. وإذا ما حدث يوماً أن أهمل واجب صب كوب من الماء العذب في فم الطريدة المقتولة، فان كلاب البحر الحية سوف تدري بذلك ولن تمكن هذا الصياد - غير الموثوق به - من قتلها. أما التصرف حيال دببة الجليد فمختلف. بما أنها تلعق الثلج فلن تعطش أبداً، لكنها تتوق إلى تملك الأدوات التي يصنعها الإنسان، وبخاصة الدببة الذكور الذين يرغبون في الحصول على أدوات معينة مثل سكاكين خاصة بالنساء وعلى مكاشط الفرو والابر العظيمة. وقد كتب الباحث «فيليالمور ستيفانسون» في أبحاثه حول ذلك:

«عندما يقتل صياد واحداً من دببة الجليد فان روحه ترافق جلده المسلوخ إلى بيت الرجل وتمكث هناك بضعة أيام. خلال تلك الفترة يُعلق الفرو خلف البيت إلى جانب الأدوات التي رغب الدب بالحصول عليها، حسب جنسه. وبعد اليوم الرابع أو الخامس تطرد روح الدب باستخدام صيغ وعبارات سحرية وتأخذ معها أرواح الأدوات المقدمة للدب لتستخدمها». ويحرص صياد، الاسكيمو ونساؤهم كل الحرص على إرضاء أرواح حيوانات الصيد باستخدام هذا الأسلوب. وإذا ما تقاعسوا عن واجباتهم فان السمعة

السيئة ستلحق بهم، ليس فقط بين الطرائد، (التي لن يسمح الاحياء من بني جنسها لمثل هؤلاء الصيادين بصيدها بعد الآن)، وإنما أيضاً عند الناس. ويتابع «ستيفانسون»: «ونتيجة لهذه الصفة الشخصية السيئة فان بعض النسوة معروفات في القبيلة كلها، فإذا ما توفي زوج إحداهن يستحيل عليها، بسبب إهمالها وتهاونها في معاملة أرواح الحيوانات، أن تحصل على زوج آخر».

وكما يبرهن هذا الاعتقاد «بأرواح الأدوات» أنَّ للأشياء الميتة أيضاً أرواح، حسب معتقدات أتباع «المذهب الحيوي». ولذلك كثيراً ما يُنظر إلى بعض الحرفيين الذين يصنعون هذه الأدوات نظرة ارتياب، بل يُعتبرون أحياناً خطرين، يملكون قوة التأثير على أرواح الأشياء التي يقومون بصنعها. وحتى الخصال الشخصية، سواء الحميدة منها أو السيئة، مردها إلى وجود أشباح معينة تسكن في روح الإنسان.

وعن الاعتقاد بوجود عفاريت أو جن تسبب المرض، تطور الاعتقاد بأشباح الموتى التي تشبه إلى حد ما الغيلان والعفاريت التي تظهر في حكاياتنا الشعبية، والتي يجب على المرء أن يداهنها بالوسائل نفسها التي كان الإنسان البدائي يتزلف بها إلى أرواح الأموات.

من جميع هذه الأمثلة نتوصل إلى حقيقة أن عالم الشعوب البدائية تسكنه أشباح غير مرئية وكائنات سحرية تعتبر أصدقاء أو أعداء للأحياء. وللحصول على نعمها، يجب على الإنسان أن يعيرها اهتماماً خاصاً. وقد أوتي بعض المتنورين موهبة فهم رغبات هذه الكائنات، ومن ثم تفسيرها لأفراد المجتمع. فتحليق الطيور، وتيارات الماء، وأحشاء الحيوانات، والطريقة التي تسقط بها العصا عندما نلقيها في الجو، أو الطريقة التي يتحرك بها حيوان خرافي، تسر إلى العارفين بأوامر الأشباح الخرساء - والقادرة أيضاً - فيحاول الناس توجيه سلوكهم بما يتناسب مع ذلك.

تطورت عن الاعتقاد بمثل هذه الاشارات والرموز، ألعاب الورق والزهر. كما يعود أصل «قراءة المستقبل» من أوراق اللعب أو أوراق الشاي، أو من بقايا البن المترسب في قعر فنجان القهوة، إلى الاعتقاد بهذه الرموز.

وقد وجد الاعتقاد بقوة الأرواح - الذي انعكس في أقدم الصيغ الاسطورية، التي عُرضت فيها السماء والأرض وقوى الطبيعة الأخرى، بصورة مطابقة تماماً لحقائق من

تجارب الحياة على الأرض - أخيراً أعلى مرحلة من تطوره في الاعتقاد بضرورة وجود كائنات «فوق طبيعية» تفوق قدراتها قدرات الإنسان بقدر كبير. كما أن آلهة الإنسانية المتعددة التي تتربع على عرش البشر، ولها عدة مهام وصفات محددة من صفاتهم، تنبع، بشكل مطلق تقريباً ودون استثناء، من تصورات الثقافات القديمة. فقد كانت أشهر وأهم آلهة الحضارات الراقية القديمة تحتفظ ببعض صفات الحيوانات، من حيث المظهر، والمثال البين يتوضح في هذا المجال من خلال مراتب الآلهة المصرية. فقد كان إله الشمس «هوروس» ذا رأس يشبه رأس الصقر، وفي الوقت نفسه سيد الأفعى التي تبصق النار من فمها، أي إله اللمع الذي يدمر أعداءه، كما كان «توت» إله القمر، برأس طائر أبو منجل[٣]، و«أنوبيس» إله الموت كان برأس كلب. وكان التركيز يتم غالباً على الطبيعة الحيوانية للألوهية من خلال حيوان الركوب. بينما كانت الآلهة نفسها تُعرض على هيئة بشرية. والإله الهندي القديم «شيوا» الذي كان يعرض على هيئة ثور، يركب الآن، وهو على هيئة بشر على عجل بني مائل إلى الحمرة. إنه ذلك الذي قام - كإله الشمس - بسوق قطيع بقر النور من حظيرة الليل.

كما أدخلت بعض ديانات الثقافات الراقية الرقص - كأقدم صيغة من صيغ ممارسة الدين - إلى صلب طقوسها، فقد رقصت جميع آلهة المكسيك، إذ عرضت هذه الآلهة مع أجراس معلقة في أقدامها وبمصاحبة عازفين. وهناك علاقة وثيقة جلية وواضحة بين الصلاة - وخاصة تلك الأنواع الثابتة ذات الصيغ والعبارات الشكلية منها - وبين الصيغ السحرية القديمة.

وقد أدى التكرار السحري لبعض العبارات المقدسة لدى أتباع المذهب «اللامي» في التيبت إلى استخدام «طواحين للصلاة» ذات صفة اعتبارية يمكن بواسطتها مكننة الدعاء التقليدي (om mani padme hum)[٤] الذي يُتلى لمباركة المؤمنين. والخاصية الجديرة بالاهتمام في صيغ وعبارات الصلاة التقليدية هذه، هي حقيقة أن الكلمات المقدسة نفسها لا علاقة لها أبداً برغبات المصلي الذي يعتقد أن استخدام هذه الصيغ يكفي لمجرد تحويل اهتمام الإله نحوه، وأن الإله بعدها سوف يلبي رجاء المؤمن. وتتضمن «طواحين الصلاة» التي يستخدمها سكان التيبت قصاصات ورقية عليها كلمات مقدسة، فإذا ما أدير ذراع الطاحون تعتبر الكلمات المقدسة قد قيلت. وتكرر

على هذا النحو آلاف المرات. ويشبه هذا الجهاز تقريباً، الرنين السحري البدائي، ويصاحبه أيضاً غناء سحري قديم. وقد تبلغ «طواحين الصلاة» هذه حجوماً هائلة. فهي في اليابان من الضخامة بحيث يتطلب تحريكها جهود مجموعة من «المصلين» وبعضها الآخر يدور بواسطة الرياح أو قوة دفع الماء.

كما أن الصلوات العفوية، التي تعبر عن رغبة خاصة أو طلب خاص من الآلهة، قديمة قدم «طواحين الصلاة» الآنفة الذكر. وغالباً ما تتقوى بواسطة تقديم الضحايا إلى الكائنات السماوية التي يخطبون ودها عن طريق الهدية. وأقدم التصورات حول الالوهية هي تلك التصورات حول كائن جبار لا حدود لقوته يستطيع المؤمن أن ينال بركته من خلال الصدقات والأضاحي والنذور. أما التقاعس عن تأدية هذه الواجبات فيؤدي إلى انتقام الآلهة. وهكذا فان مهمة الإنسان هي العمل على الحفاظ على العلاقات الطيبة بين العالم المرئي وعالم الآلهة غير المرئي. أما التصورات الأخلاقية بمفهومنا نحن، فأول ما ظهرت في الديانات، حيث تطلبت من المؤمن ممارسة حياة تقوم على التقوى مراعية مبادئ أساسية معينة في الأخلاق.

في جميع الجنان التي تؤمن بها شعوب الإنسانية تظل شجرة المعرفة واحدة، لكن ثمارها ذات طبيعة مختلفة، كما أن مفاهيم مثل «الخير» و«الشر» ليست قيماً مطلقة، فهي تخضع في مختلف الثقافات إلى شتى الاعتبارات. أما «المعرفة» بحد ذاتها فهي ثابتة، لأنها تحدد - وبمنتهى الدقة، وحسب المستوى الثقافي لهذا الشعب أو لهذه القبيلة - ماهية السلوك الذي اصطلح إلى اعتباره يمثل «الخير»، وبالتالي السلوك الذي يمثل «الشر». ويحرص الإله المعني أو الآلهة المعنية أشد الحرص على اتباع النظم الأخلاقية المرعية. ولكن يختلف نوع هذه الأخلاق أشد الاختلاف بين شعوب الأرض وقبائلها، وهي مرهونة في ثباتها بالتطور الثقافي والتاريخي.

أما الثقافات الأكثر حداثة فقد وسعت تأثير الألوهية حتى مرحلة ما بعد الموت. فالتصرف الأخلاقي للفرد وهو على قيد الحياة يعتبر مقياساً للجزاء أو للعقاب الذي سيناله في الآخرة. وهناك عنصر هام يفوق حتى الاعتقاد بعدالة الآلهة وحبهم للانتقام، وهو فكرة حب التسامح التي أدخلتها الديانة المسيحية.

وقد خلق الإنسان آلهته على صورته، فهي تتصف بصفات البشر ولها نفس آلامهم وآمالهم، لكنها تفوقهم بقدراتها.

وكما هو الحال في الديانات العالمية الكبرى، فإن الاقتناع الديني - حتى لدى الشعوب البدائية - يقوم على الايمان، وقد أدى هذا الايمان إلى القبول بفكرة أن الآلهة هي التي خلقت البشر.

وفي عالمنا المعاصر مارست تعاليم المبشرين غالباً تأثيراً على الايمان بوجود الآلهة القديمة وقواها السحرية، أو قضت على هذا الايمان، ولكن في الوقت نفسه لم تلق من مبادئ الدين المسيحي قبولاً إلا تلك التي تتناسب مع النظرة الفلسفية التقليدية للكون لدى الشعوب والقبائل المعنية.

فلم تؤد على سبيل المثال - جهود المبشرين المسيحيين بخصوص «هداية» قبائل الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية والوسطى إلا إلى خلق ديانة مختلطة بدائية - مسيحية في آن واحد. فأثناء الأسبوع المقدس يقدم مشهد تمثيلي يعرض آلام المسيح، ولكن بطل هذا المشهد ليس المسيح بل «يوداس». وفي أميركا الجنوبية تقوم معظم الكنائس في الأمكنة التي كانت تقوم فيها سابقاً المعابد، وحتى مذبح الكنيسة المسيحية نفسه يحتفظ حتى الآن بصور الآلهة القديمة. فعلى سبيل المثال ما يزال فوق البوابة الرئيسية لكنيسة «لاباز» تمثال منحوت لأحد آلهة الهنود الحمر. وفي اعتقادي لم ينتبه إليه أحد بعد. والشيء نفسه يمكن أن يقال أيضاً عن تصور «المادونا». أو «تمثال العذراء» في العالم الإسلامي. فهي غير مفهومة نهائياً بالنسبة للمجتمع الإسلامي القائم على النظام البطريركي. وفي مدينة الجزائر الحديثة يتحول الكثير من المسيحيين إلى الدين الإسلامي أكثر من التحول بالعكس، نظراً لأن الدين الإسلامي هو الدين الذي يتكيف مع المعطيات الاقتصادية والروحية للبلاد.

ولم تقبل الشعوب البدائية سوى تلك المبادئ والآلهة التي تضمنت أهميتها الروحية - مسبقاً - جزءاً من قناعاتها التقليدية.

الهوامش:

١ - نسبة إلى مقاطعة ألمانية .

٢ - نهر في الأسطورة اليونانية موجود في العالم السفلي ، كان الآلهة يقسمون الايمان به .

٣ - طائر مائي طويل القائمتين والمنقار .

٤ - راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب .

الفصل الرابع عشر
كان يا ما كان

- الأسطورة عند البدائيين - دور الأسطورة في تفسير ظواهر الكون - الحكمة والنظرة الفلسفية في أساطير البدائيين - نماذج من أساطير الشعوب - «دواسي» أو لحن الخلود.

في الصحراء المقفرة يرى الإنسان نفسه محاطاً بالأشباح من مختلف الأنواع، بعضها ذات قوى خيرة وأخرى ذات قوى شريرة. ولهذه القوى أوثق الصلات بأفعال الإنسان وآماله ومصائره. فجيرانه في المملكة الحيوانية وأصدقاؤه في المملكة النباتية وأسلافه الأجرام السماوية وآلهته التي تسكن في الشمس والقمر والبراكين والأنهار، متواجدة في كل مكان.

كما أن تواصله الدائم مع القوى الروحية النابعة منها يجعل من حياته مغامرة مثيرة وخطرة في آن واحد.

وبما أنه لم يكن بوسع الشعوب البدائية تدوين معتقداتها ومغامراتها في كتب مقدسة أو دنيوية لتصبح تعاليم وقدوة تحتذي بها الأجيال القادمة، فقد كان للكلمة المنطوقة دور هام يفوق بكثير أهميتها في عصر الحضارات. فالاجتماعات الليلية حول مواقد الخيم والمعسكر وفي الأكواخ أو في «بيت المجموعة» تتمحور حول التبادل الفكري الذي يتعدى جوهره مجرد التسلية إلى حد كبير. مثل هذه التجمعات تحافظ على التقاليد القديمة، باعتبار أن الحاضرين يمثلون الأجيال القادمة التي تنقل هذه التقاليد إلى أبنائها وأحفادها من بعدها. ولذلك فليس عبثاً أن يبدأ سرد الحكايات والقصص القديمة بعبارة «روي لنا أن.....» أو «هذا ما رواه لنا القدماء.....» لأن

الكتاب المقدس وكتب التاريخ وآداب السلوك المطبوعة والمعاجم بمختلف أنواعها حلت مكان ميثولوجيا الشعوب القديمة. فحكاياتها عبارة عن خزائن من كنوز مليئة بحكمة آلاف السنين، وبوحي المعرفة الإنسانية الذكية، وبخاصة بالفكاهة والصفاء. وتعتبر كل هذه القصص «حقيقية». حتى ولو كانت تدور حول مغامرات غريبة ذات طابع خيالي، فانها ليست سوى الحقيقة الخالصة بالنسبة لكل من يرويها ويسمعها. ان الأساطير التي أبدعها وحافظ عليها خيال الشعوب، التي ليس لها تاريخ مكتوب، عبارة عن محيط مليء بالجوهر. وما تلك التي طفت على سطحه سوى جزء يسير مما يختزن في أعماقه.

والصفة الرئيسية لهذه الأساطير البدائية هي حقيقة أن لا فرق فيها بين الإنسان والطبيعة المحيطة به، لأن البشر والحيوانات والنباتات والأجرام السماوية والأبطال الخياليين، وحتى الآلهة، تتحدث وتسلك السلوك المتبع لدى القبيلة المعينة. وبما أن الشعوب البدائية تفتقر إلى المعرفة الواقعية بالعلاقات الفيزيائية والنفسية للأشياء وجوهرها خارج ادراكها الذاتي، فهي تقيس مواصفاتها بمقياس أفكارها ومشاعرها، وتخلع حتى على الأشياء الجامدة التي لا حياة فيها، العادات والاحساسات التي يختص بها بنو البشر. ولذلك نرى أن الأدوات والآلات والنباتات والحيوانات والأجرام السماوية والغيوم والجبال والمياه في حكايات هذه الشعوب، قادرة على النطق والتفكير على الطريقة الإنسانية. وهذا هو أحد الأسباب التي جعلت من حكايات وأساطير الشعوب البدائية غاية في التشويق وغنى الأفكار والمتعة.

«فكبار السن» من الحيوانات يجلسون كما يفعل أقاربهم من بني البشر في مجالس احتفالية إلى جانب بعضهم البعض ويدخنون «غليون السلام»[1] ويناقشون بكل جدية ووقار، مشاكل المملكة الحيوانية. فالكلب هو مالك المزرعة، والخنزير البري يتلو مرافعته في قضية ظلم واقعة في الاجتماع ويطالب بمعاقبة فاعل الشر، وطحين الذرة هو المسحوق الالهي المقدس القادر على النطق. كما يمكن طلب الغفران من دب مصاب وسط طقوس احتفالية.

ويقوم الهندي الأحمر في البرازيل بضرب «الحجر الخبيث» الذي تعثر به، والسهم «الشرير» الذي أصابه. أما الشجرة التي سقط عنها رجل فمات نتيجة ذلك يتم اجتثاثها وسط مظهر احتفالي باعتبارها «قاتلاً». وتكفيراً عن جريمة قتل ارتكبها نمر، يجب أن يلقى أحد أعضاء فصيلته الموت.

مثل هذه العادات ما تزال حية حتى في أيامنا هذه، مثلاً عندما تستدعي محكمة أميركية حديثة كلباً لمقاضاته على أذى تسبب به لشخص ما.

أما محكمة «بريتانويم» اليونانية فكانت تحكم على حجر أو قطعة خشب - كانت «المذنب» في موت إنسان - بالقائها علنا خارج حدود البلاد. كما يؤنب الأطفال الصغار في أيامنا هذه قائمة الكرسي أو الطاولة إذا ما ارتطموا بها. وترجع أحاديث التسلية التي يجريها الأطفال مع اللعب والدببة القماشية والكرات وغيرها من الألعاب أيضاً إلى جذور مغرقة في القدم.

ويعتقد «البوشمن» في جنوب القارة الافريقية أن «النعامة» تذهب للصيد بالقوس والسهم كما يذهبون هم. وكذلك يتناقل الاستراليون الأخبار الهامة، التي يجب الحفاظ على سريتها - همساً وبمنتهى الحذر، كي لا يتلقفها حيوان ما وينشر الخبر بلا أي تحفظ.

أما الظواهر الطبيعية الكبرى كالنهار والليل والشمس والقمر والرعد والمطر والعاصفة وما شابهها، فهي بالنسبة للشعوب البدائية عبارة عن تجسيد لكائنات «روحية» (أشباح) تعيش في تصوراتهم مشخصة كالبشر. تعتقد هذه الشعوب أن الشمس تذهب للصيد والقمر يقع في مصيدة. وما الغيوم إلا دخان غلايين الآلهة. وما يزال هذا الوضع التشخيصي حيال قوى الطبيعة ينعكس في مفرداتنا اليومية حتى الآن، إذ نقول إن الشمس «أشرقت» و«أضاءت» و«غربت» وأن الريح «تصفر» أو «تنفخ» وأن العاصفة «تهدر» والثلج «يتساقط» والماء «يهبط ويعلو» أو «يسيل». أي أننا بتعبير موجز نستخدم جميع هذه الأفعال وكأننا نتحدث عن أشخاص أحياء ومثل هذه التعابير مستخدمة أيضاً حتى في علم الفيزياء الحديثة، إذ نستخدم عبارة «قوة كذا حصان» ونقول إن السرعة «تزداد» وحتى إننا نقول إن الذرة «تنشطر».

وتتخذ «الأرواح الحية» التي تسكن «أجسام» القوى الطبيعية أشكالاً لا حصر لها في مخيلة الشعوب البدائية.

فالرعد عند الهنود الحمر في شمال غرب أميركا الشمالية يولده طائر الرعد الذي يحدث جناحاه الهائلان دوي وهدير العاصفة المرافقة له. أما عصافير الرعد الأربعة لدى قبيلة «تلينغيت» فهي بالأصل أربعة أخوة، سلمت اختهم نفسها لحلزون، فأثارهم هذا الصنيع لدرجة أن تحولوا إلى طيور حلقت في السماء. ويقول الهنود الحمر عنهم:

«عندما يحركون أجنحتهم تسمع الرعد، وعندما يغمزون بأعينهم ترى البرق». أما قبيلة «ألسيا» وهي قبيلة منقرضة كانت تقطن على شاطئ المحيط الهادي فكانت تتخذ اجراءات احترازية دقيقة «وعندما يقترب الرعد» وتحاول تهدئته بعبارات مثل «انحن يا صديقي» وعندما تهب عاصفة فوق أحد البيوت، يرقص أفراد القبيلة ويضربون هذا البيت بالعصي (كي لا يفعل ذلك البرق) ويسكبون ماء جرارهم اكراماً ومجاملة للرعد. وإذا ما بلغت العاصفة أوج قوتها يقوم أحد كبار السن ويخاطب أفراد قبيلته بمظهر طقوسي قائلاً: «إن العالم لا يصنع الشر، بل الطبيعة هي التي تفعل ذلك ودون أن نستفزها».

أما قبيلة «بانغقة» الافريقية فتعتبر أن البرق كرة سوداء تترك اثار «مستخرجاتها» على الأشجار على شكل صمغ، وتنظر إلى هذا الصمغ نظرة قداسة. قبائل «باموم» و«تيكار» في الكاميرون تميز بين ثلاثة أنواع للبرق، كل منها بتسمية خاصة: «البلطة» الذي يفتت الأشجار و«القرد الأبيض» الذي يتلف الشجر كما تفعل القردة وأخيراً «الديك» الذي يقتل اللصوص.

الاستراليون يرجعون العلاقة التالية «هزة أرضية - عاصفة - مطر» غالباً إلى مصدر واحد، إلى أفعى تشبه البشر، ذات ذراعين وساقين مقوستين تسكن في جحرٍ وتظهر للناس بهيئة ثعبان. فقتل واحدة من هذه الثعابين المقدسة يمكن أن يؤدي إلى حدوث هزة أرضية. ويروى أن امرأة تزوجت يوماً من «تو أوفالون» أي «أفعى البراكين» وولدت منها صبياً يقطن في أحد الجبال ويدخن ويبصق بين الحين والحين ناراً وحجارة فوق المنطقة التي يتواجد فيها. وأفعى الهزات الأرضية هذه عبارة عن كائن هائل له عرفٌ كعرف الديك فوق رأسه، لكنها لا تتراءى للبشر.

أما الشمس فقد اعتبرت الها أو بطلا أو انساناً أو كومة من الحطب. وما شعاعها إلا السهام التي يطلقها اله الشمس أو حبال الشص التي تعلق الأرض بصنانيرها لتخرج من البحر. ويمكن أن يكون للشمس بيتان، أحدهما على الأرض - والآخر في السماء. ولذلك تقوم برحلاتها اليومية من البيت إلى البيت (كما تعتقد قبيلة «زوني»).

والقمر قد يكون أيضاً الهاً أو بطلاً أسطورياً أو رجلاً عادياً أو حتى امرأة. وكثير من الأساطير تدور حول السلاسل الجبلية القمرية يكون فيها «الرجل الذي في القمر»

أحياناً فتاة أو ضفدعاً ضخماً حسب بعض أساطير الهنود الحمر في أميركا الشمالية. وفي جزيرة «الدومينيك» يعتقد السكان أن القمر شاب هرب إلى السماء بعد أن ارتكب اثم الزنى مع أخته. ويعتبرون أن آثار نسغ النبات الأسود الذي لطخ الناس به وجهه عندما قام بزيارته الليلية تلك لخليلته، ما تزال واضحة على «وجهه القذر» أي فوهات البراكين التي يشاهدها على سطح القمر.

كما كان كسوف الشمس وخسوف القمر محور تأويلات وتفاسير شتى يجمع بعضها على أن حيواناً ما قد التهم هذا الجرم السماوي أو ذاك. فقبيلة «كلامات» تقول عند خسوف القمر إن دب «جريزلي» يأكل، بينما تفسر قبيلة «مايدو» في كاليفورنيا كسوف الشمس بأن ضفدعاً سبق للشمس أن التهمت صغاره، يطاردها، وقد لحق بها أثناء الكسوف، ويقوم بابتلاعها. وتعتقد قبيلة «آليا»: أن الغراب يقتل القمر، كما يمكن للصقر والنسر أو حتى للبومة أن تفعل ذلك أحياناً. وقبل أن يقتل القمر تجتمع كل الطيور. ولكن حتى ولو قامت هذه الطيور بالتهام القمر إلا أن باستطاعته أن يعود بعد حين كما كان. وإذا ما «قتلت» الشمس، فان لصاً يلاحقها ليستولي على كنزها الضخم من النقود الصدفية. وبينما يحدث ذلك في السماء يجب أن تفرغ جميع أوعية الماء وتقلب لأنه «يجب أن لا يصبح الماء دامياً عندما تقتل الشمس».

أما قمر قبيلة «زوني» فيولد كل شهر. ويبلغ أشده في أربعة عشر يوماً، تبدأ حياته بعدها بالتلاشي.

ويمكن أن تكون الشمس أيضاً حصاناً أبيض يمتطيه إله الشمس، كما سبق أن رأينا عند الحضارات الراقية. وعن هذا الاعتقاد نشأت عادة هندية، وهي تقديم الأحصنة كقرابين. وفي منطقة هانوفر بألمانيا الغربية حالياً يوجد تقليد قديم يعود إلى تلك التصورات نفسها. ففي عيد الميلاد يمتطي شاب قوي صهوة حصان أبيض ويجول به في الشوارع يجمع الهدايا من البيوت. فهو رمز لاله الشمس العائد، وما الهدايا إلا بقايا عادة تقديم القرابين القديمة. كما أن طقوس «سان ستيفان» تعود للأصل نفسه، ففي ٢٦ كانون الأول يجول على حصانه فوق حقول أوربا متضرعاً إلى الشمس العائدة أن تجعل حصاد السنة القادمة وفيرا.

وكذلك «سان نيقولا» الذي يسميه الالمان «رجل الميلاد» Weihnachtsmann والفرنسيون Pere Noel أو «بابا نويل» والانكليز «أب الميلاد» أو -Father Christ mas والاميركيون «سانتا كلاوس» Santa Claus، الذي يستعجله الطفل المسيحي، ما هو إلا إله الشمس القديم.

ولم تكن السماء والأرض منفصلتين عن بعضهما البعض في بدء الزمان. فمعظم حكايات الشعوب البدائية التي تدور حول خلق العالم، تعطي وصفاً دقيقاً لعملية «رفع السماء عن الأرض».

وهكذا فان عالم قبيلة «ويتيتو» خلقه الأب القديم «نايونوما» بتأمل عميق: «بينما كان يدخن حالما أخذ الأرض المقفرة وضربها بقدميه بقوة ثم فصل السماء عن الأرض».

وتصف قبيلة «زوني» الحالة القديمة التي كان عليها العالم، في مقدمة أساطيرها التقليدية بعبارة «في سالف الزمان عندما كانت الأرض ما تزال طرية....»

وفي مصر مثلاً كان اله الشمس «شو» هو الذي رفع السماء عن الأرض. ويظهر في بعض الصور التوضيحية المتعلقة بهذا الحدث «جب» أي الأرض، كرجل تقف فوقه «نوت»، ربة السماء، و«شو» أبوهما المشترك يمسك بكليهما. وعلى جسد «نوت» يرحل الآلهة بقواربهم.

وقد سبق أن رأينا أن تصور شمس مسافرة في قارب فوق بحر السماء يسود لدى العديد من الشعوب.

وبما أن السماء والأرض تبدوان ملتئمتين عند الأفق، فيعتقد غالباً أن التئامهما وانفصالهما يحدث يومياً في الغرب، وبأن الشمس تحشر كل مساء في الشق المفتوح بينهما، وبأن هذه العملية ليست بالأمر السهل بل خطرة، لأن الشمس تصاب بجروح نتيجة ذلك إذ يتعرض ذيلها أو ساقها لضغط شديد. وإلى أصل هذه المعتقدات يعود أصل الأسطورة اليونانية حول مجموعة الجزر الواقعة على مدخل البوسفور، التي يعتقد انها كانت تطبق على بعضها البعض عندما تمر سفينة من خلالها.

أما اله الشمس الاسترالي فليس له سوى ساق سليمة واحدة، أما الثانية فهي مبتورة لأن نصفه السفلي تعرض للضغط أثناء رحلته إلى السماء. وكذلك اله الشمس

المكسيكي فهو ذو عاهة أيضاً. وفي بعض المخطوطات القديمة يظهر الدم الذي يسيل من المكان الذي بترت منه ساقه اليسرى. ولكن هنا تحل سمكة محل الصخور التي تطبق على السن، المفهوم الذي يؤدي إلى الربط بين مقولة جزر البوسفور ومقولة السمكة التي تفترس الشمس ليلاً لتبصقها مرة أخرى عند الصباح. وهذه المقولة معروفة لدينا تماماً من خلال أسطورة يونس. فالحكاية في الواقع قديمة جداً. فالليل «يلتهم» الشمس الغاربة و«يتقيؤها» عند الصباح عندما ترتفع الكرة المنيرة في السماء بزهائها الجديد.

وهذه الأسطورة معروفة في جميع أنحاء العالم بروايات شتى. فعند قبائل «هايدا» الهندية الحمراء في شمال غرب أميركا مثلاً، يروى أن الحوت يبتلع غراباً (التشخيص الأسطوري للشمس). ويشكل هذا المشهد مادة محببة للرسم على الأدوات المستخدمة في الطقوس الاحتفالية لدى الهنود الحمر، ويعتقد «الزولو» بأن ماردا يعيش في نهرهم، يبتلع الشمس كل مساء فتصطبغ السماء بلون الدم، الذي يسيل عند عملية «القتل» اليومية تلك. أما في المناطق التي لا تشرف على بحر أو محيط، ولا يوجد فيها نهر فيسود الاعتقاد لدى سكانها بأن فيلاً أو ذئباً يلتهم الشمس.

وما حكاية «ذات القبعة الحمراء» أو «ليلى والذئب» سوى رواية أخرى لأسطورة يونس. فالقبعة الحمراء ترمز إلى الشمس الغاربة والذئب يرمز إلى الليل. وفي بعض المناطق يسود الاعتقاد بأن أفعى ضخمة تبتلع ضوء النهار. وقد تحولت هذه الأفعى فيما بعد إلى تنين ضخم، ينتشل الشمس من البحر حسب الرواية الصينية. وقد ظهر القيصر الصيني - اله الشمس - في الرسوم يجلس على عرش تنين ذهبي. كما ظهر التنين والشمس المضيئة على أعلامه.

بدأت الحياة على الأرض - حسب أساطير العديد من الشعوب - في اليوم الذي خرجت فيه الشمس لأول مرة من بطن السمكة الكبيرة أو من بطن المارد البري أو من الصندوق الذي كان طافياً على سطح البحر.

ومع الشمس تحررت جميع الكائنات الحية من هذا السجن، لأنها كانت جميعاً هاربة إلى داخل الصندوق أو إلى قارب لتنجو من طوفان كبير.

وهنا ندرك قصة سفينة نوح، هذا السليل الذي انحدر من اله الشمس القديم.

قصص الطوفان:

تعتبر قصة الطوفان من أقدم الأساطير التي عرفتها الإنسانية.

فهي تظهر في أساطير الهند والفرس واليونان والشعوب الشمالية. وقد كانت معروفة للمكسيكيين، وما تزال قبائل الصيد القطبية وشبه القطبية والهنود الحمر في أميركا الشمالية والجنوبية وشعوب ميلانيزيا وغيرها من شعوب ترويها حتى الآن.

أما الافتراض التقليدي بأن قصص الطوفان قد انتشرت في جميع أرجاء الأرض فقد زعزعته أحدث الأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع. فأسطورة الطوفان الكبير غير معروفة في الصين واليابان، ولم يُعثر عليها لا في المخطوطات البوذية ولا في حكايات المصريين القدماء والعرب. فحديث البابليين عن الطوفان الكبير والرواية التوراتية عنه تعود إلى عام ألفين قبل الميلاد.

أما مختلف الروايات حول حكاية الطوفان الكبير فتعتبر من أمتع الأساطير التي عرفتها الإنسانية وأكثرها تشويقاً. فهناك مجلدات مليئة بأخبار الطوفان. وما انفك العلم يحاول معالجة هذه القصة التي طالما فسرت بها الشعوب البدائية أصل كل ما هو حي، وانقاذ البشر والحيوانات من سلسلة متعاقبة من الكوارث التي أغرقت العالم.

وهذا مثال من مئات الأمثلة الأخرى، نعرضه بشكل مقتضب حول قصة الطوفان كما ترويه أسطورة عند قبائل «أتابسك» الشرقية[٢].

قصة الطوفان الكبير:

«في أقدم العصور كان أناس يعيشون على سطح الأرض، كما هو الآن تماماً».

ولكن في أحد فصول الشتاء حدث ما هو غير عادي: فقد هطلت كميات من الثلج غطت العالم أجمع، ولم يعد يظهر تحت هذا الغطاء الثلجي سوى قمم الجبال الشاهقة. حاولت جميع الحيوانات التي كانت تعيش مع البشر آنذاك أن تصعد إلى السماء، حيث كان الطقس هناك دافئاً. وكان السنجاب أسرعها، تسلق حتى بلغ ذروة أعلى شجرة صنوبر وحفر ثقباً في السماء. ومن هناك صعد إلى أقاليم السماء. وهذا الثقب هو الشمي. لحقت به بقية الحيوانات واحتشرت جميعها في هذا الثقب، بحيث أزاحه هذا الحشد شيئاً فشيئاً ليكون أقرب هذه الحيوانات إلى مصدر الدفء، فلفحت الشمس فروه. ولذلك ما يزال فرو السنجاب أحمر حتى الآن.

أما سيد السماء فقد كان الدب، الذي لم يعجبه أبداً أن يتدفق نور السماء ودفؤها إلى الأرض، فغطى ثقب الشمس بالجلود لتصبح الأرض باردة ومظلمة مرة أخرى. ثم جمع الدب وأبناؤه كل دفء السماء ووضعوه في كيس جلدي وعلقوه على شجرة ضخمة. وعلى الشجرة نفسها علقوا أيضاً أكياس أخرى فيها مختلف أنواع الطقس. في أحدها كان المطر وفي آخر كان الثلج وفي أحدها كان الطقس الجميل وفي آخر كانت العواصف وواحد للبرودة وفي الأخير كان الدفء.

جاء الدب وأبناؤه وجلسوا تحت الشجرة الكبيرة لحراسة كيس الدفء، وقال لبقية الحيوانات: اياكم أن تسرقوا هذا الكيس! ولكن من منهم كان يجرؤ أن يأخذ ويعطي مع الدب القوي؟ كاد اليأس أن يسيطر عليهم، فتشاوروا فيما بينهم بالسر، فعرض عليهم الغزال - أسرع الحيوانات عدواً - مساعدته. فسبح من خلف الدببة خلسة واستطاع أن يعثر على كيس الدفء قبل أن يتمكن الدب من الحيلولة بينه وبين الكيس. أحضر الدب قارباً، وقبل أن يبدأ بالتجديف انكسر المجذاف لأن الفأر - مساهمة منه في المصلحة العامة - قام سراً بتجويفه، وهكذا تمكنت الحيوانات من الهرب بكيس الدفء.

لكنه كان ثقيلاً، فصاروا يتناوبون على حمله، مستخدمين عصا للحمل يمسكون بها بشكل عرضاني. وخلال رحلتهم الطويلة بين السماء والأرض كان عليهم أن يتوقفوا كل ليلة. وذات مساء، بعد أن فرغوا من نصب خيامهم، قص الفأر الذي تمزق حذاؤه من السفر الطويل، قطعة صغيرة من كيس الدفء لترقيعه، فكانت هذه الفعلة الغبية مصدر شؤم كبير. بدأت الحرارة تتدفق بقوة هائلة من الكيس عبر الثقب الذي أحدثه الفأر، فذابت طبقة الثلج السميكة التي كانت تغطي وجه الأرض بثوانٍ قليلة وتحولت إلى طوفان مرعب، بدأ يرتفع ويرتفع إلى أن غطى حتى أعلى القمم الجبلية.

ولكن شيخاً أشيب من الهنود الحمر على الأرض تنبأ بوقوع هذه الكارثة فحذر أبناء قبيلته من هذه اللحظة بأن الثلج سوف يذوب. فقال:

سوف نصنع لنا قارباً كبيراً لننقذ أرواحنا. «ولكنهم سخروا من تنبؤاته تلك قائلين: لو حدث الطوفان بالفعل لاستطعنا أن نتسلق قمم الجبال التي لن يطالها الطوفان». لكنهم أخطأوا. فقد كان الطوفان هائلاً، فغرقوا جميعاً حتى آخر رجل. وكذلك غرقت جميع الحيوانات التي ظلت على سطح الأرض، وغرق العالم أجمع تحت هذا الطوفان الكبير.

رجل هندي أحمر واحد اسمه «اتسي» استطاع أن ينجو بنفسه، وهو الجد الذي بنى قارباً رغم جميع الاعتراضات ووضع فيه زوجاً من كل صنف من أصناف الحيوان وقاموا برحلة استمرت طويلاً في قارب «أتسي». ثم بدأ تموينهم من المواد الغذائية بالنفاد، فكرهوا منظر الماء وتاقوا لرؤية وجه اليابسة. ولكن لم يكن ثمة يابسة تُرى. وبدا أن الطوفان لن ينحسر.

قفزت جميع الحيوانات المائية في الماء آملة أن تبلغ القعر، لكنها لم تستطع ذلك. وطار الصقر بعيداً لعله يعثر على اليابسة، لكنه لم يجدها. كما جربت الحمامة حظها وظلت غائبة مدة يومين، عادت بعدها منهكة القوى تحمل في منقارها غصن صنوبر صغير لأنها رأت قمم بعض الأشجار قائمة وسط الماء. وهذا ما أحيا الأمل مجدداً لدى بقية الحيوانات، فبدأت من جديد البحث عن شيء من اليابسة. وكاد فأر المسك أن يغرق في محاولاته الغوص. كما ظلت الأفعى تحت الماء إلى أن كادت تموت وهي تئن قائلة «لا شيء» قبل أن تسقط مغمياً عليها. وأخيراً جربت البطة الصغيرة حظها. وعندما خرجت من الماء رأت أن بعض الطين قد علق على الغشاء الذي يصل بين أصابع رجلها، فعاودت الغطس ثانية، وبأعجوبة استطاعت أن تجلب معها بعض الطين. ولها ندين بالشكر أن الأرض عادت ملكاً لأولئك الذين يعيشون الآن على سطحها. انها أكثر الحيوانات فطنة وذكاء» (انتهت قصة الطوفان)..

ولكن لا يقتصر دور حكايات الشعوب البدائية على تفصيل أصل الكائنات والأشياء المرئية وغير المرئية، بل يتعدى ذلك إلى جميع الأحداث الهامة في حياتها، التي أصبحت أيضاً منطلقاً لأساطيرها.

فقد فسرت الشعوب طباع وأشكال وألوان الحيوانات من خلال أحداث أسطورية معينة. إذ يفسرون ضخامة فم «الاويوسوم»(٣) لأنه تمادى مرة في سخريته من الايل ودبر له مقلباً. كما أن القرد النواح لا ينزل عن الشجر أبداً لخوفه من «التابير»(٤) لأنه سرق له مرة قيثارته.

والحيوانات تعيش الآن طليقة في البراري ولم تعد تسكن في بيوت، كما كانت قديماً، لأن الإنسان مكر بها قبل آلاف السنين.

بعض الحيوانات تحظى في هذه الأساطير بسمعة الذكاء الخاص والمكر والخبث. وغالباً ما تكون هذه الحيوانات صغيرة الحجم تباغت الحيوانات الكبيرة بمساعدة قدراتها

الذهنية المتفوقة. وفي قصصنا الشعبية يقوم الثعلب بهذا الدور، بينما تقوم به السلحفاة في افريقيا وأميركا الجنوبية.

ويُروى في الكثير من الحكايات أن بعض الحيوانات كانت قبلاً بشراً، لكنهم كانوا بخلاء وأنانيين «بحيث غدت أيديهم مقوسة». وغالباً ما كان يُعتقد أن الحيوانات هي أسلاف البشر.

ويُعتقد أيضاً أن هناك حيوانات «سيئة» ويدخل في عداد هذه الفئة بالدرجة الأولى كل من «الفولفرين»[٥] الشره الذي يعيش في شمال كندا، لأنه يقوم بفك الفخاخ ويسرق الطعم منها، وحتى أنه يتتبع أثر الفراء الثمين - الذي يحتفظ به الهنود الحمر بحرص شديد - ومن ثم يقوم بالتهامه.

كما تعتبر قبيلة «بانغقه» الافريقية النمس، الذي يلتهم بيض الدجاج «نسوم» أي مجرماً.

مقابل هذه الحيوانات «الشريرة» هناك أيضاً حيوانات تحظى بالاحترام نتيجة صفاتها «النبيلة». فكثير من الشعوب الافريقية تعتبر حيوان «فاران» مقدساً، لأنه يقتل التمساح. وتعتبره قبيلة «بانغقه» بمثابة أحد أفراد القبيلة، وتزين بصورته العديد من الأدوات التي تستخدمها. أما في المناطق القطبية فيحتل الدب مركزاً مساوياً لمركز الإنسان أو حتى أنه يفوقه أحياناً.

والصياد الذي رأى نفسه «مجبراً» على قتله، يدس في فمه غليون السلام ويحظر على الأطفال والنساء اهانة «الزعيم» المقتول من خلال نظراتهم.

وتعتقد قبيلة «نسكابي» أن جميع الحيوانات تعيش كالهنود الحمر تماماً ضمن قبائل متجاورة، باستثناء الدببة، لأن كل دب يُعتبر «زعيماً مستقلاً».

في بعض الأحيان تنتهي حكايات الشعوب البدائية بفكرة أخلاقية، وبخاصة عندما تخدم وسيلة تربوية، وتحذر من خرق الالتزامات الدينية، أو من عاقبة السرقة، أو تطلب من المستعمين عدم الهزء من الشيوخ والمسنين.

كما تهزأ الحكايات من الأمنيات غير المستحقة للناس والحيوانات.

فحكاية الهنود الحمر عن الأرنب الذي أراد أن يصطاد السمك كالأفعى المائية فكاد أن يقضى عليه عندما حاول تقليدها في الغوص في الماء المتجمد - تتضمن عبرة واضحة.

كما ينعكس حضور بديهة الشعوب البدائية وفرحها بالحياة، غالباً في حكاياتها بأسلوب اخاذ. فالوصف العجيب لبعض التفاصيل المضحكة كثيراً ما يأخذ بالألباب لطرافته وجماله. بعض هذه الحكايات قلما يجد المرء في نفسه الجرأة على سردها، بينما بعضها الآخر طريف كأنه الأساطير المقدسة.

وفي افريقيا كثيراً ما تُروى خرافات الحيوان أمام محكمة منعقدة للتأكيد على نقطة قانونية أو لإعلان براءة المتهم. وفي أماكن أخرى تُسرد قصص جديدة لغاية أخرى غير السرد، وهي دفع الآلهة أو الأرواح للقبول باقتراحات معينة.

وأساطير الشعوب البدائية مسلية وممتعة بقدر ما هي تعليمية. وتشكل في الواقع بديلاً كامل القيمة للتعاليم المدرسية والكنسية المطبوعة في أيامنا هذه. كما توفر التسلية والمرح الذي توفره السينما وكتب الطرائف.

ومهما تنوعت مضامين هذه الحكايات، فهي غير مملة على الإطلاق، بل تأخذ بلب المستمع من البداية حتى النهاية. وكثيراً ما يقاطع الغناء أو الشعر مجرى السرد. فالفواصل الفنية تزيد من الاثارة والتشويق لدى المستمع. كما تُستخدم جميع الخدع الفنية في الخطابة للحفاظ على حيوية الاهتمام لدى الجمهور.

وغالباً ما يكون حق رواية الحكايات القديمة «ملكاً» لمجموعة أو لفرد.

وفي معظم الأحيان يكون الراوي رجلاً محترماً مسناً يطلق عليه أحياناً لقب «سيد الحكاية».

ويفرق «الداياك» في جزيرة بورنيو الاندونيسية بين ثلاثة أساليب مختلفة للتعبير الشفهي وهي: لغات البشر، والأرواح والآلهة. كما يميز محبو الجمال الأصليون بدقة بين نمطين للرواية؛ الشعبي والفني. فالراوي الماهر يسمى «رنتاس» وهو الذي «يصغي المرء لكلماته بشغف». مهمته هي تسلية الناس ليلاً في بيت المجموعة(٦) عندما يحيكون حصرهم.

أما أبطال قصصه فهم آلهة وأشباح وبشر ونباتات وحيوانات وزهرات «العالم الأفضل» ومصاصو الدماء الذين في أجسادهم سكاكين بدلاً من العظام.

كما تروي الأساطير عن أفعال البطل «أبير» وعن حيل الأقزام وعن المحاكمة المشهورة التي تقرر فيها أن يدفع المرء ثمن رائحة السمكة المشوية الطيبة بصوت نقرات

الطبل الشبحي. ولكي تحوز القصة على اعجاب قبائل «داياك» يجب أن تتوفر فيها ثلاث صفات: الحقيقة والجمال والتسلسل المنطقي للأحداث. ولذلك فليس من السهل ارضاء المستعمين الجادين. ويتوقع المرء من الرواة الافريقيين أن يتحدثوا وكأنهم «يتكلمون مع النار».

ويُعتبر الاسكيمو والهنود الحمر في منطقة لابرادور فنانين يجيدون فن الالقاء بصورة ممتازة، بحيث يُخيل للمستمع وكأنهم يترجمون الرونق السحري للنجم القطبي إلى كلمات، عندما يكشفون عن أسرار البرية بحركات مقتضبة وبأسلوب مفعم بالجدية والوقار. وفي حكاياتهم يقوم طائر عادي بدور رسول الشامان (أي الطبيب الساحر) القادر على السحر. فالليل يكتظ بالأشباح والخيالات. فالنجوم والقمر والدب وكلب الماء والزحافات وكتل الجليد كلها تحكي بصوت إنساني. وكل من يصغي إلى الكلمات الأخاذة لذلك الصوت الخفيف يشعر بالحضور المباشر للأجرام السماوية والأشباح والحيوانات والنباتات ذات الأرواح والتي تعيش مصائر خارقة لا مثيل لها.

ولكن الحكاية نفسها تظل أفضل من أي وصف. وفيما يلي نماذج منها. وقد راعينا في اختيارها التوجه العام لهذا الكتاب. فجميع الأمثلة التي سنوردها، تدور حول أصل الأشياء.

منشأ الشمس: حكاية استرالية

«قديماً لم تكن الشمس قد وجدت بعد. كان القمر وحيداً مع النجوم في السماء. ولم يكن الناس قد وجدوا أيضاً، وانما فقط بعض الطيور والحيوانات الثديية. وكانت جميعها أضخم بكثير من تلك التي نعرفها الآن.

ذات يوم قام كل من «الدينيغان» و«الايمو» و«براغلاه» والكركي[٧] معاً بنزهة قصيرة. لكنهم اختلفوا في الآراء وبدأ النزاع بينهم. عندما فقد «البراغلاه» السيطرة على نفسه واندفع إلى عش «دينيغان» وأمسك بواحدة من بيوضه وقذف بها بكل ما أوتي من قوة في السماء فارتطمت بكومة من الحطب فتحطمت وسال محّها فوق كومة الحطب وأضرم فيها ناراً أضاءت العالم كله. فجأة، وقبل ذلك كان العالم غارقاً في الظلام. بهر هذا النور الساطع القوي الناس على الأرض. أعجب هذا النور الجديد الروح

الخيرة التي تعيش في السماء، فجالت في خاطرها فكرة ايقاد مثل هذه النار كل يوم. وهكذا بدأ هذا التقليد. ومنذ ذلك الوقت بدأت تطلب كل ليلة من الأشباح التي تقوم على خدمتها، جمع الحطب وصنع كومة ضخمة منه.

وعندما ينتهي صنع الكومة ترسل الروح الخيرة نجمة الصباح للاعلان عن اضرام النار.

لكن الروح الخيرة في السماء لاحظت أن ظهور نجمة الصباح وحده غير كاف لايقاظ النائمين على الأرض. فبدأت تسعى جاهدة لايجاد صوت مناسب يرافق الإشارة الضوئية. وطال الوقت قبل أن تتمكن من ايجاد الصوت المناسب لذلك العمل.

ذات مساء سمعت الروح الخيرة صياح الديك «كيكيريكو» فقالت لنفسها: «هذا هو الرجل المناسب، وطلبت من هذا الطائر أن يضحك بصوت قوي كل صباح قبل أن توقد النار السماوية، وإذا ما أهمل الديك يوماً هذا الواجب فلن توقد النار في كومة الحطب.

ومنذ ذلك الوقت صار الديك «كيكيريكو» يطلق صيحاته القوية كل صباح في الموعد المتفق عليه. وكان ينتهي صياحه كل مرة بترديد اسمه ثلاث مرات «كيكيريكو - كيكيريكو - كيكيريكو»...!

في ساعات الصباح الأولى، عندما تبدأ الأرواح السماوية المناوبة باضرام النار في كومة الحطب، تكون الحرارة ضعيفة، ولكن عند الظهيرة عندما تندلع النار في كل كومة الحطب، ترتفع الحرارة ارتفاعاً شديداً. وبعد الظهر تعود الحرارة للنقصان من جديد حتى لا يبقى في المساء سوى شعاع أحمر سرعان ما يسقط في الرماد. أثناء الليل لا يبقى سوى بضعة حطبات مشتعلة ملفوفة بكل عناية بالغيوم، لكي توقد منها النار في الصباح التالي. ولكن «كيكيريكو» حساس جداً، يؤدي واجبه بكل جدية. فإذا ما تجاسر أحد يوماً على التهكم منه، فسوف ينقطع عن الصياح ليعود الظلام يخيم على الأرض».

منشأ القمر: قصة من غينيا الجديدة

«في قريتنا «فوتر جينك» كان أخ وأخته مرة وحيدين في البيت، وعندما أحسا بالجوع بحثا عن قطعة من «الساغو» ليطبخا منها وجبة طعام. قاما بنزع الغطاء عن الوعاء الكبير، الذي اعتادت أمهما أن تحفظ فيه مؤونة «الساغو» فوجدا قطعة واحدة مستديرة استدارة كاملة وتشع بغاية الروعة بحيث جعلهما منظرها ينسيان جوعهما. فأخذاها ولعبا بها بالكرة أمام البيت.

تأمل إله الشمس «فونيكاو» الذي كان يقف في السماء، لعبهما، ثم انحدر قليلاً من عليائه في السماء ليتأمل جيداً كرة «الساغو» البراقة وأخيراً غطى وجهه بورقة كي لا يلفح الطفلين، واقترب منهما شيئاً فشيئاً. بحيث يمكنه التحدث إليهما، ثم خاطبهما قائلاً: «القيا الكرة إلى الأعلى قليلاً حتى أستطيع أن أتأملها جيداً». وعندما فعلا ذلك التقط الكرة وصعد بها إلى السماء دون أن يبدي أي اهتمام لبكاء الطفلين.

كانت حياة اله الشمس آنذاك مرهقة للغاية، إذ كان عليه أن يقف في السماء ليلاً نهاراً. فأخذ كرة «الساغو» وصنع منها القمر الذي عيّنه حارساً ليلياً. ومنذ ذلك الوقت أصبح بامكان اله الشمس أن يستريح وينام طوال الليل عندما يبدأ القمر دورته.

أصل الرجل الذي في القمر (قصة يرويها الهنود الحمر في لابرادور)

في قديم الزمان لم يكن لليل وجود. كانت الشمس والقمر يقفان معاً في السماء. وكان الوقت كله نهاراً. آنذاك كان يعيش هندي أحمر اسمه «زيغابك»، وجد أن الضياء الدائم على الأرض لا يتلاءم مع ذوقه. فدرج على القول: «آه لو استطعنا أن نخفف من هذا الضياء قليلاً، ولو استطعنا ذلك لكان لدينا ليل، ولاستطاع الهنود الحمر والحيوانات أن يرتاحوا قليلاً. آه لو خيم الظلام على الكون ولو لبضع ساعات».

كان مأخوذاً بفكرته تلك، وأراد أن يحاول اصطياد القمر في أنشوطة ليظلم الكون ولو قليلاً. أعطته أخته شعرة مسحورة من النوع الذي يمكن للمرء أن يصطاد بها كل شيء إذا ما عقد منها أنشوطة.

وأخيراً تمكن بالفعل من عقد الأنشوطة ووضعها ببالغ الحذر على الممر الذي اعتاد القمر أن يسلكه في وقت معين. وكان له من الصبر الكثير ليتربص به دائماً. ذات يوم استطاع بالفعل أن يوقع القمر في شرك أنشوطته!. وبذلك استطاع أن يخلق الليل، فكان الوقت الذي تنام فيه الشمس.

ولكن عندما أطبق الظلام الدامس فجأة على الأرض خاف وبكى، وكان عنده في البيت كيس حشر فيه عدداً من الحيوانات التي سبق أن اصطادها، منها الجراذين والخلدان والفئران وغيرها من المخلوقات الصغيرة. فجاء إليها وأطلق سراحها وتوسل إليها أن تساعده في فك وثاق القمر من الأنشوطة. ولكن القمر كان يقبع في أنشوطة

سحرية على المرء أن يكون معها شديد الحذر. حاول الخلد أول الأمر، لكن لم يحالفه الحظ، أما القندس فقد امتنع ورفض المشاركة رفضاً قاطعاً ولم يتدخل في القضية أبداً. وأخيراً تمكن فأر صغير من قطع الأنشوطة فقفز القمر منها فوراً وحاول اللحاق بالشمس، لكنها كانت قد ابتعدت كثيراً فلم يستطع اللحاق بها. ومنذ ذلك اليوم بدأ كل منهما يشع منفصلاً عن الآخر كما هو باق حتى الآن. ليس هناك من ظلمة مطلقة كما أرادها «زيغابك»، ولكن يوجد نهار ويوجد ليل كما نراهما منذ أن ولدنا. ولكن بدلاً من أن يفصح عن رضاه، لم يستطع «زيغابك» أن ينسى مغامرته مع القمر فذهب ذات يوم إلى أخته للحصول منها على شعرة سحرية جديدة. فسألته أخته: إلى أين ستذهب؟ فأجاب «سأذهب لصيد بضعة أرانب ثلجية» ولكن صيد الأرانب الثلجية لا يتطلب مثل هذه الشعرة السحرية! فذهب بطريق مستقيم مرة أخرى إلى طرف العالم حيث يبزغ القمر. وقبل أن يتمكن أحد من تحذيره، نصب أنشوطته مرة أخرى، ارتفع القمر في السماء كعادته، وهناك في منتصف الطريق وقع في شرك الأنشوطة السحرية، ففرح الشاب الوقح «زيغابك» وظل يرقب القمر جيداً من مكان قريب: إذ لم يعد يخافه أبداً. كان أصفر هائل الحجم، وكان «زيغابك» مأخوذاً بجمال منظره.

وبفأسه المصنوعة من أسنان القندس قام بنفسه بقطع حبل الأنشوطة وصعد على متنه إلى السماء، وما يزال هناك حتى الآن، وكلما حل المساء ينظر «زيغابك» من عليائه إلى بقية الهنود الحمر وربما يفكر كم كان ذكياً عندما أقدم على ذلك. كلُّ الناس تستطيع أن تراه، حتى البيضُ منهم! وأصبحوا يطلقون عليه الآن اسم «الرجل الذي في القمر».

أما «الهايدا» وهي إحدى قبائل الهنود الحمر في أميركا الشمالية فتعتقد أن «رونغ» أي القمر، رأى رجلاً على الأرض وأعجب به. وبما أنه كان يتوق للتسلية فقد أرسل شعاعه إلى الأرض وأخذ هذا الرجلَ معه وصعد به إلى السماء. حاول هذا الهندي الأحمر، الذي أراد أن يظل عند أسرته، أن يتمسك بسطل الماء الذي كان يحمله، لكن دون جدوى. ومنذ ذلك الوقت يقف هذا الرجل في السماء واسمه «الرجل الذي في القمر». وكلما قلب السطل الذي ما يزال في يده، يحدث المطر.

أما في جزر مكرونيزيا وكما روى الباحثان «هامبروخ» و«براندايس» فان «الهيئة البشرية» التي ترى في القمر ليست رجلاً، بل صبية حسناء كانت تعيش مع جدتها

تحت شجرة ضخمة. وكانت هذه الفتاة واسمها «أجيفانوكو» جميلة لدرجة أن جدتها لم تجد من البشر أحداً يليق بها كزوج، فبدأت تبحث لها عن صهر بين الآلهة.

ذات يوم زينت الفتاة بالأزهار ورشت عليها الزيوت ذات الرائحة الزكية الفوّاحة وأعطتها دواء سحرياً وارتأت عليها تسلق الشجرة والصعود حتى تبلغ من السماء، ما لم يبلغه أحد من قبل قط.

فعلت «أجيفانوكو» ما اقترحته عليها الجدة. وعندما أصبحت بين الغيوم وجدت هناك عجوزاً عمياء تطبخ على أحجار ساخنة عصيراً من خمر جوز الهند موضوعاً في ثلاثين قشرة من قشور هذه الثمرة. وبما أن الفتاة كانت عطشى فقد شربت من بعض هذه الأواني. ورغم أن المرأة العجوز لم تر ما فعلته الفتاة إلا أنها أحست بفعلتها وهددتها بالقتل على أيدي ولديها عندما يعودان مساء. توسلت «أجيفانوكو» للعجوز طالبة أن تسامحها ولكن دون جدوى. وأخيراً حاولت وهي في هذه الحالة من الرعب أن تشفي عيني العجوز لتعيد إليهما البصر. وكم كانت دهشتها عظيمة عندما تمكنت من ذلك بالفعل. وحالما لمست العينين المغمضتين قفزت منهما جراذين وصراصير وغيرها من الحيوانات الكريهة واستعادت المرأة العجوز بصرها. ومن فرط فرحتها عانقت الفتاة ثم خبأتها تحت صدفة كبيرة، لأن من عادة ولديها أن يقتلا كل غريب. وعندما عاد ابنها الأول «ايغوان» لاحظ أن أمه أغمضت عينيها عندما رأته. لقد كان اله الشمس الذي لم يستطع أحد أن ينظر إليه إلا وأصيب بالعمى. وعندما سأل أمه عمن أعاد إليها بصرها، دخل ابنها الثاني واسمه «ميريمان» أي اله القمر. وهنا قصت لهما الأم عما جرى لها، الأمر الذي جعل كليهما يتوق لرؤية الفتاة. فخرجت من تحت الصدفة، وكانت في غاية الجمال فأحب كل منهما أن تكون زوجة له. لكنهما تركا لها الأمر لتقرر من منهما تختار ليكون زوجاً لها. وتعهدا أن لا تدب الغيرة في قلب الذي سترفضه. سألتها المرأة العجوز أياً من ابنيها تختاره زوجاً لها، فقالت «أجيفانوكو»: أما «ايغوان» فلا أستطيع أن أتزوجه لأنه حار جداً ولا أستطيع حتى النظر إليه. أما «ميريمان» فيبدو لطيفاً، ولذلك فإني أختاره. وعندما سمع «ميرمان» ذلك أخذها بين ذراعيه وحلق بها في السماء حيث ما زلنا نراهما حتى الآن في الليالي الجميلة.

أصل الليل والنهار (قصة ترويها قبيلة «كريك» الهندية الحمراء)

«عقدت الحيوانات اجتماعاً برئاسة الدب «نوكوسي» وكان الموضوع الذي ستجري مناقشته هو تقسيم الليل والنهار.

بعض المجتمعين كان يفضل لو أن الوقت كله نهار، والبعض الآخر فضل الظلمة الأبدية. وبعد أن دارت نقاشات وآراء طويلة ومفصلة قال «تشو - تلوك - تشو» السنجاب الأرضي: «انظروا إلى «فوتكو» الدب راكون، له ذيل متكور وجميل مخطط بانتظام باللون الغامق والفاتح وأنا أرى أن الليل يجب أن يعقبه نهار بانتظام تماماً كما هي حلقات ذيل «فوتكو».

أعجبت الحيوانات بحكمته فتبنت رأيه وقررت أن يعقب النهار والليل كل منهما الآخر بصورة منتظمة تماماً كما تتعاقب حلقات ذيل «فوتكو». ولكن رئيس الجلسة الدب «نوكوسي» أحس بالغيرة من ذكاء «تشو - تلوك - تشو» فخدشه بكفه في ظهره، ولذلك فكل السناجيب لها الآن ظهور مخططة.

أصل النار «كيف حصلت عليها قبيلة كريك»

اجتمع مرة جميع أفراد قبيلتنا وقالوا «كيف يمكن لنا أن نحصل على النار؟» أخيراً قرروا تكليف الأرنب بمهمة الحصول عليها واحضارها فقام هذا بالاستعداد لهذه المهمة وسافر باتجاه الشرق فوق مياه المحيط. وعندما وصل لعند القوم الذين عندهم النار استقبل استقبالاً لطيفاً وأقيمت له حفلة راقصة. انضم الأرنب إلى حلقة الرقص وكان بكامل زينته يضع على رأسه قبعة مضحكة مزينة بأربعة عصي من الصمغ. عندما كان الناس يرقصون كانوا يقتربون شيئاً فشيئاً من النار المقدسة التي تلتهب وسط الحلقة، وكذلك الأرنب. وأخيراً بدأ الراقصون بالانحناء أمام النار، في كل مرة ينحنون أكثر من سابقتها والأرنب معهم. وعندما انحنى مرة أمام النار بشدة التقطت العصي الأربعة المثبتة على رأسه، النار، وبدأت تشتعل، فغضب الراقصون من هذا الغريب، عديم الحياء، الذي تجرأ على مس النار المقدسة، وأرادوا الامساك به لكنه كان أسرع من كل من لحق به. وصل إلى المحيط وألقى بنفسه فيه بينما ظل متعقبوه واقفين على الشاطئ. كان يسبح والنار الملتهبة على رأسه إلى أن وصل إلى قومه حاملاً النار التي ظفر بها من الشرق».

أصل الموت: أسطورة ترويها قبيلة كامبا إحدى قبائل بانتو - شرق افريقيا

«قال الرجل الذي في السماء مرة: الآن فرغت من خلق البشر، ولكن عليهم أن يموتوا. لا أريدهم أن يموتوا إلى الأبد، بل يجب أن يبعثوا بعد موتهم. وكان قد أسكن البشر الذين خلقهم في مكان ناء من الأرض، وظل هو نفسه في بيته الذي في السماء. وهناك استقبل مرة، ولمدة ثلاثة أيام الحرباء والطير المسمى طائر النساجين. كان يدرك أن طائر النساجين كثير الثرثرة وأن في أقواله من الصحة والكذب. أما الحرباء فكانت حكيمة ومحبة للحقيقة ولذلك قال لها: اذهبي إلى هناك حيث يعيش البشر الذين خلقتهم وبلغيهم عن لساني: عندما يموتون، وحتى في أرذل العمر، فسيحيون من جديد. وسيكون بمقدورو كل انسان أن يبعث بعد موته حياً. وبينما ذهبت الحرباء لتبليغ الرسالة، ظل طائر النساجين عند الرجل العظيم الذي في السماء. وصلت الحرباء لعند البشر الذين ستبلغهم مضمون الرسالة لكنها كانت قد نسيت ما أمرت بتبليغه! وبدأت تتلعثم في كلامها وتقول: عهد إلي أن..... لقد كُلفت بـ...... ولم تستطع أن تُعبر أكثر من ذلك. أثناء ذلك قال طائر النساجين للرجل العظيم: «سأطير أثر الحرباء لأسليها». فقال له: «اذهب». فذهب ووصل في الوقت الذي كانت الحرباء تقول فيه للناس «لقد عُهد إلي بـ.....».

قاطعها الطائر فوراً قائلاً «لقد عُهد إلينا بتبليغكم أن الناس عندما يموتون سيهترئون كجذور الصبار».

وهنا تذكرت الحرباء رسالتها فقالت: «لا... لقد عُهد إلينا أن نبلغكم أن البشر سيبعثون أحياء بعد موتهم!».

وأصر كل منهما على أن ما يقوله هو الحقيقة. وعندما لم يتفقا استدعيا العقعق ليكون حكماً بينهما. فقال العقعق: «ان ما يقوله طائر النساجين هو الحقيقة. والحرباء ليست على حق..» وهكذا كُتب على البشر أن يموتوا وأن لا يبعثوا بعد موتهم من جديد..».

أصل ثمر البلوط: أسطورة ترويها قبيلة «كاروك» الهندية الحمراء

كانت ثمار البلوط قديماً بشراً. وكانوا على وجه التحديد أفراداً في قبيلة «أكسارياف» التي تسكن قبلنا هذه المنطقة ثم تحولت فيما بعد إلى حيوانات وصخور وأشياء وأعياد وكل ما هو نفيس بالنسبة لنا.

ثلاث فتيات من البلوط: سوداء وبنية وشوكية. أردن ذات يوم أن ينسجن قبعات جميلة. فجلسن فوراً وبدأن العمل. كانت قبيلة «اكسارياف» ما تزال تعيش في السماء. وبينما كن جالسات معاً ينسجن، لاحظن أن شيئاً غير عادي قد حدث، فقلن لبعضهن «من الأفضل أن نغادر المكان. فالبشر سيأتون إلى العالم» وبينما كن يلملمن أغراضهن قمن بمقارنة القبعات، فتبين لهن أن قبعة الفتاة السوداء لم تكن جاهزة. ولم يكن لدى السمراء الوقت الكافي لتثبيت السنابل على القبعة فقلبتها وارتدتها بطريقة عكسية. الشوكية فقط كانت قد انتهت من العمل في قبعتها التي كانت جميلة جداً. وعندما أرادت الفتاتان الذهاب، لحقت بهما صديقتهما الشوكية التي كانت ترتدي قبعة في غاية الجمال. وفجأة اختفت الأرض من تحت أقدامهن وسقطن جميعاً من السماء وسط المنطقة التي يسكنها البشر.

وهنا شعرن بالمصير الذي ينتظرهن، فقلن لبعضهن باكيات «سيأكلنا البشر بملاعقهم» وبينما هن نازلات في الفضاء أصبن بالدوار فأغمضن عيونهن وخبأن وجوههن بأيديهن. وحالما وصلن الأرض دبت الغيرة بينهن. فالسمراء كانت تتمنى الشر للشوكية والأخرى لمجرد أن قبعتها أجمل. والاخريتان تمنتا أيضاً أمنيات سيئة لزميلتهن، وهي أن تصبح سوداء. وقد تحققت كل أمنياتهن. وحدث أن أعرض الناس عن أكل البلوط الشوكي لطعمه غير اللذيذ ولصعوبة طحنه، ولأن الحساء الذي يصنع منه غير جيد. ولكن قبل أن يهبطن من السماء كن قد فرغن لتوهن من الزينة والزخرفة، فالسوداء تزينت بخطوط. ولذلك ما تزال حتى الآن مخططة عندما نلتقطها من الأرض، أما السمراء فقلما تزينت لأن قبعتها لم تكن قد انتهت بعد. وبما أن الجميع كن يضعن قبعاتهن على وجوههن أثناء الهبوط من السماء، فما تزال وجوههن مغطاة بالقبعات حتى الآن».

أصل النقود الصدفية: حكاية من شبه جزيرة الغزال في ميلانيزيا

«كان عندنا في قديم الزمان نقود صدفية. وما كان علينا أن نقطع مسير أكثر من أربعة أيام لنبلغ المكان الذي توجد فيه هذه النقود بكميات كبيرة.

أما الآن فنحتاج إلى ستة أشهر لنستطيع الحصول عليها. فلماذا حصل ذلك؟ استمعوا إذن إلى هذه الحكاية:

صعد الرجال ذات يوم إلى قواربهم استعداداً للرحلة القصيرة إلى بلاد المال، وتجمعت كل القرية على الشاطئ لوداع المسافرين. وعندما ودعوهم قال رجل عجوز: «كونوا في غاية التهذيب مع كل من تصادفونه!».

وبعد وقت قصير على ابحارهم صادفهم سرطان بحر فألقى عليهم تحية الصباح بكل ترحيب. نظر إليه الرجال في القوارب وقالوا فيما بينهم «ما أقبح وجه هذا الفتى! أليس منظره شنيعاً؟» وتابعوا الابحار بقربه دون رد تحيته. لكن السرطان قال لهم: «تابعوا سفركم! فلن تجدوا النقود الصدفية التي أنتم ذاهبون لاحضارها. فالصدف ستهاجر إلى منطقة نائية! وبشر مثلكم لا يستأهلون أن يجدوها!».

وبالفعل. فعندما وصلوا إلى أرض الصدف لم يجدوا صدفةً واحدة. فعادوا مكسوفين صفر اليدين إلى منطقة سكناهم. وسرعان ما فقد المال في جزيرتنا هذه. ذات مرة طلب فتى صغير من والديه طعاماً لأنه كان جائعاً. لكنهم لم يعطوه شيئاً بل عنفوه على طلب الطعام، وقالوا له «كل من القذارة» فذهب حزيناً إلى الشاطئ حيث يستلقي جذع شجرة عتيق في الماء.

«ماذا بك؟» قال جذع الشجرة العتيق «ولماذا أنت حزين هكذا؟» فأجابه الغلام: «أبي وأمي غاضبان علي ولا أدري ماذا يجب أن أفعل!» فقال جذع الشجرة: «هيا اصعد إلي» ورأى الغلام أن الجذع كان عبارة عن قارب، فصعد إليه وسافرا معاً يمخران عباب الماء. وكان في القارب ثمر من جوز الهند بحيث يستطيع الغلام أن يأكل ويشرب. وتابعا الابحار بسرعة فائقة ونزلا أخيراً إلى اليابسة في «ناكا ناكي» الجزيرة التي توجد فيها الآن النقود الصدفية. اقترح القارب على الصبي أن يضع عدداً من السلال حتى يصل عددها إلى الثلاثين ثم يصفها على الشاطئ. قال القارب: «ارجع إلى الخلف!» فانصاع الغلام لأمره. فجأة ارتفعت موجة كبيرة مليئة بالنقود الصدفية وألقت بنفسها على السلال الثلاثين فامتلأت بالنقود، وعادت الموجة ثانية إلى البحر.

ولم يعد الغلام والقارب وحيدين على الشاطئ، إذ كان قد وصل إلى المنطقة قارب آخر وأرسى قرب الأول. كان ربانه عبارة عن ديك، سأل الغلام راجياً أن ينقله بقاربه إلى قومه. فقام الغلام بنقل السلال الثلاثين إلى قارب الديك وعاد بها إلى قريته. وفي طريق العودة التقيا بالشبنم(٨) وكان وحيداً يجذف في قارب صغير. وبعد أن تبادلا التحية بكل تهذيب، تابع كل منهما وجهة سيره.

أخيراً وصلا إلى قرية الغلام فسارع إلى والديه بينما بقي الديك فوق الشاطئ يقوم على حراسة الصدف. وعندما وصل الغلام إلى كوخ والديه رأى هناك قبراً محفوراً وجمهوراً من المشيعين.

«كل ذلك كان من أجلك» قال المشيعون وهم يبكون عندما أخذوه بين أذرعهم «لقد اعتقدنا أنك مت، وقد انفقنا آخر ما تبقى لدينا من المال في الاعداد لهذا الدفن».

تناول الغلام من الكوخ صرة كبيرة وطلب من أهله اللحاق به إلى الشاطئ. وهناك قدم شكره للديك وأعطاه صرة الطعام وأنزل الثلاثين سلة المليئة بالنقود من القارب، قفز الديك إلى قاربه وقفل راجعاً إلى «ناكا ناكي».

سأل الأهل ولدهم: «ماذا ستفعل بكل هذه الصدف؟» لأن شكل نقودهم القديمة كان يختلف عن شكل هذه. فأجاب الغلام: «احفروا فيها ثقوباً وادخلوا فيها حبالاً». ففعلوا كما قال لهم. ربط الغلام الصدف على شكل حلقة كبيرة وأعطاها لوالديه قائلاً: «خذا هذا لقاء النفقات التي تسببتها لكما» فعادا قانعين إلى كوخهما. أما الغلام فقد أخذ ما تبقى من المال - ولم يكن ذلك بالقليل - وبنى له بيتاً فأصبح أغنى رجل في القرية.

ومنذ ذلك الوقت يقوم رجال قريتنا بقيادته برحلات طويلة إلى «ناكاناكي» الواقعة تحت حكم الديك والشبنم. ولكن لم يستطيعوا يوماً أن يعثروا على كمية كبيرة من الصدف كتلك التي ظفر بها أول صديق لهذين الطائرين.

انهم يقابلون سيد الجزيرة بكل مظاهر الاجلال، ولكن رغم ذلك عليهم أن يقطعوا الرحلة التي قطعها الغلام ببضعة أيام، بستة أشهر طويلة. وإن المال الذي يجدونه في «ناكاناكي» يرتبط دوماً بالنوايا الطيبة للصدف والقوارب والديك والشبنم».

أصل فن صنع الفخار: حكاية من قبيلة «أوكامبا» في شرق افريقيا

كان عند البشر الذين خرجوا في غابر الأزمان من أحد التلال مختلف أنواع المواد الغذائية. لكن كان عليهم أن يتناولوا طعامهم نيئاً.

ذات يوم غادرت إحدى النساء القرية متجهة صوب النهر لاحضار الماء ببعض ورقات الشجر الملفوفة على بعضها، وعلى ضفة النهر وجدت حجراً يبدو غريباً بعض

الشيء، لأن في وسطه تجويفاً، فملأته بالماء وحملته عائدة إلى موقدها. عندما قامت باعداد وجبة العشاء لاسرتها، وضعت قليلاً من الذرة وطحيْن البقول في تجويف الحجر ووضعته على النار. ولاحظ الجميع أن نكهة الطعام كانت ممتازة وأفضل بكثير مما لو كان نيئاً.

وفي صباح اليوم التالي قدمت إحدى الجارات في زيارة، فأعجبت بالحجر المجوف وسألت المرأة ان كان عندها حجر آخر مثله تقدمه لها هدية. فقالت المرأة «لا.. لقد وجدته على ضفة النهر. ولم يكن هناك غيره». قالت الجارة: «تعالي معي نذهب إلى هناك ونبحث، علنا نجد حجراً آخر يشبهه». لكنهما لم تجدا شيئاً، بل وجدتا كثيراً من الطين فأخذتا بعضاً منه ومزجتاه مع الماء وحاولتا به تقليد الحجر ذي التجويف. تفرغتا مدة خمسة أيام لهذا الاختراع، وأخيراً تمكنتا من تشكيل عدة أوان صغيرة من هذه المادة، أطلقنا عليها اسم «طناجر طينية».

ولكي تصبح هذه الأواني بنفس درجة قساوة الحجر قامتا بشيها على النار. وفي البيت وضعتا هذه الأواني على الموقد ونادتا على جميع النساء الأخريات لرؤية ذلك: «تعالَيْنَ وانظرن، لقد حولنا هذا التراب إلى أوان، ويمكننا الآن أن نغلي فيها الماء على النار دون أن يسيل».

طبخت المرأتان الفواكه المفرومة في هذه الأواني فكان طعمها لذيذاً جداً. حاولت بقية النساء أن يجربن مهارتهن في صنع مثل هذه الأواني، لكن لم يوفقن في ذلك. فكان على كل من يريد الحصول على هذه الأواني أن يشتريها من هاتين المرأتين لقاء دفع كمية من الخرزات الزرق الجميلة. استدعت المرأتان الرجال وأقيم حفل كبير بمناسبة اختراع الأواني الفخارية. وقام زوجا المرأتين المخترعتين بدعوة حكماء القبيلة الذين بصقوا في أيدي زوجتيهما لمباركتهما، قائلين: «بث. بث. بث.. أنتما ذكيتان، فقد اخترعتما الأواني الفخارية..». واقترحا على المرأتين أن لا تسمحا لأي رجل برؤيتهما أثناء صنع الأواني الفخارية كي لا تفقدا مهارتهما. واتبعت المرأتان هذه النصيحة بالفعل. وهكذا توصل الإنسان إلى معرفة الأواني الفخارية. ومنذ ذلك الوقت وشعبنا مبارك بمعرفتها واقتنائها».

أصل حذاء الثلج: أسطورة من قبيلة «كارير» في كولومبيا البريطانية

اجتمع مرة رجل من قبيلة «كارير» مع دجاجة ثلج في حديث ودي. وبما أن دجاجة الثلج كانت آنذاك بكامل أناقتها وزينتها فقد أطلعت الهندي الأحمر على طريقة صنع الحذاء الذي تستخدمه الحيوانات منذ بدء الزمن للسير به فوق الثلج.

قدمت دجاجة الثلج وصفاً تفصيلياً لعملية الصنع، وعندما تعلم الرجل طريقة صنع الاطار الدائري استدعت الدجاجة زوجته وعلمتها كيف تشد الأوتار الجلدية على الاطار. وهكذا شدت المرأة الأوتار على أول حذاء ثلج عرفه البشر.

قدم الرجل وزوجته الشكر لدجاجة الثلج التي سرعان ما ودعتهما قافلة إلى بيتها. ولكن بعد أن قطعت مسافة قصيرة من الطريق وقعت ميتة على الأرض لفرط ما تكلمت. وهكذا تعلم أفراد قبيلة «كارير» صناعة أحذية الثلج.

ومن هنا يتضح أيضاً بأن علينا أن لا نفرط في الكلام والثرثرة حتى ولو كانت تحدونا في ذلك أفضل النوايا».

أصل الحوت الكبير: حكاية من قبيلة «تلينغيت» الهندية الحمراء

رجل ينتمي إلى عشيرة كلب البحر اعتقد أن الهنود الحمر كانوا سيسعدون أكثر لو كان لديهم سمكة الحوت الكبيرة. وكان هذا الرجل فناناً مبدعاً في مجال الحفر على الخشب. فعمد فوراً إلى صنع سمكة حوت كبيرة من قطعة خشب محفور حاول في البداية نحتها من خشب الأرز الأحمر ثم من خشب الشوكران ثم من أنواع عديدة أخرى. وكلما انتهى من صنع واحدة، حملها إلى شاطئ البحر وحاول أن يجعلها تسبح ولكن أياً منها لم يغص في الماء، بل طفت جميعها على سطحه. وأخيراً حاول أن ينحت حوتاً من خشب الأرز الأصفر. فعل ذلك ووضع الحوت في الماء فغاص في أعماقه سابحاً. فصنع عدة أنواع لهذا الحوت من الخشب رسم على واحد منها - بواسطة الحوار - خطوطاً بيضاء على زاويتي فمه حتى قفا الجمجمة وقال: هذا سيكون الحوت ذا الفم الأبيض.

وضع أسماكه في الماء ورؤوسها متجهة نحو مياه الخليج، وقال لها أن تفترس كلب البحر والسمك المفلطح وغيرها من الأسماك البحرية، ولكن عليها أن لا تفترس إنساناً قط، ثم قال لها: «عندما تسبحن في مياه الخليج سيقول لكنَّ الناس: الينا بشيء نأكله».

ففعلت الحيتان ما أمرت به. ومنذ ذلك الوقت تجوب أسماك البحر الشواطئ بحيث يتمكن الهنود الحمر من اصطيادها. وقبل ذلك لم تكن الحيتان الكبيرة قد وجدت بعد.

أصل القندس: اسطورة من قبيلة كارير

زوجان شابان ما زالا في بداية حياتهما الزوجية، غادرا بحيرة «فرازر» للاصطياد في الجبال الجنوبية؛ ونصبا خيمتهما على مقربة من نهر صغير. وبما أن الزوج كان يغيب عن الخيمة من الصباح حتى الليل، بدأت الزوجة تشعر بالوحدة. ولكي تقتل الوقت بنت سدا صغيراً من التراب في عرض النهر. وعندما عاد زوجها رأى ان الماء عميقٌ جداً لا يستطيع الخوض فيه، فركل الجسر بقدمه ودمره. وهنا بكت الزوجة قائلة: «لماذا دمرت السد؟ كنت وحيدة أثناء غيابك فبنيته للتسلية وقتل الوقت. وفي اليوم التالي وبعد أن غادر الزوج الخيمة، قامت المرأة ببناء سد آخر لكن سرعان ما دمره الزوج أيضاً. تكرر هذا العمل مرات ومرات إلى أن غضبت الزوجة غضباً شديداً.

وعند عودته ذات مساء من القنص، رأى الرجل سداً كبيراً امتد فوق النهر كله وفي وسطه بيت قندس، ورأى زوجته على الضفة. وعندما علمت بقدومه لفت ازارها على وسطها ووضعت أطرافه بين ساقيها بحيث بدت وكأنها ذيل قندس. ثم قفزت في الماء واختبأت في بيت القندس. هدم الرجل السد كعادته، لكنه لم يستطع أن يجد زوجته، فعاد إلى بيته ونام فيه وحيداً.

وفي صباح اليوم التالي ذهب للصيد كالعادة وعندما رجع رأى كيف كانت زوجته تعمل في بيت القندس. والسد كانت قد أعادت بناءه. كانت هيئتها تتحول شيئاً فشيئاً إلى هيئة قندس، ولم يستطع أن يمسك بها، فخشي أن تظن عائلتها انه قتلها عندما لم يعد يراها أحد. فذهب واستدعى جميع أقاربها فتجمعوا على ضفة النهر. وبينما هم مجتمعون رأوا قندساً كبيراً يخرج من بيت القندس ويقف على سطحه.

كان هذا القندس هو الزوجة التي تحول ازارها كلياً إلى ذيل قندس فصاحت على أقاربها: «لم يقتلني زوجي بل أنا التي تحولت إلى قندس عودوا إلى بيوتكم، فأنا لم أعد أريد العيش مع بني البشر».

ومن هنا نرى أن بطن وأحشاء القندس تشبه بطن وأحشاء الإنسان ومن هنا أيضاً أصبحنا نرى القندس الآن في العالم».

أصل الهرة: حكاية خرافية من قبيلة «كوشيتي» في المكسيك الجديدة

بالقرب من المغارة ذات الرسوم كانت توجد قرية. ومن هذه القرية خرج مرة الايل والدب والأسد والفهد والهرة البرية وقالوا: «سنتوجه نحو الشرق ونتغذى هناك قدر ما نستطيع».

ولكن قبل أن ينطلقوا قال بعضهم لبعض: «نحن حيوانات من جميع الأجناس ولكن ليس بيننا قطة بيتية، فمن أين نستطيع الحصول على واحدة؟».

وقف الأسد وسط الاجتماع وتحلقت حوله بقية الحيوانات حسب السن وبدأوا يدخنون. فخاطبهم الأسد قائلا: «حسن. أنا مستعد الآن». أخذ نفسا عميقا ثم عطس، فخرجت من فتحة أنفه اليمنى قطة انثى. ثم عطس ثانية فخرج من فتحة أنفه اليسرى قط ذكر.

ومن هذا الزوج من القطط انحدرت جميع القطط التي تعيش الآن في «كوشيني». قال الأسد مخاطباً زوج القطط الذي خلقه:

«كدليل على انكما تنحدران مني فسوف أوصي لكما بوجهي. وعندما تنجبان ذرية فسوف يود البشر اقتناءها لتفترس لهم الفئران. على القطط أن تكون حراسا على بيوت البشر. أما بقية جميع الحيوانات فستعيش في الجبال، هيا الآن إلى كوشيني».

هذا ما روي لنا بحرفيته. وهكذا أصبح لدينا الآن قطط في بيوتنا».

أصل الزنوج: حكاية من الكونغو

«خلال أيام الخلق الأولى كان أربعة رجال يتجولون في غابة مترامية، مقطوعة عن العالم الخارجي بواسطة نهرين، مياه أحدهما صافية، بينما بدا الآخر قاتماً ووسخاً. آنذاك كان جميع البشر ذوي بشرة بيضاء ولم يكن الزنوج قد وجدوا في العالم بعد.

كان النهر القاتم يقع مباشرة أمام الطريق الذي اتبعه الرجال عند خروجهم من الغابة، أما النهر الصافي فكان يبعد عنه قليلاً. ولكن كان من الأفضل الخوض في مياهه الرقراقة الصافية.

وبعد مشاورة قرر الرجال عبور النهر القذر المتلئ بالطين. قام اثنان منهم بعبوره مباشرة أما الاثنان الآخران فقد احجما عن ذلك وذهبا بعيداً. وهنا ناداهما الرجلان في الماء القذر ان عليهما اللحاق بهما، ولكن رفيقيهما أصرا على الذهاب إلى الماء

الصافي والخوض في النهر النظيف. وعندما وصل الرجلان إلى الضفة الأخرى من النهر وجدا لدهشتهما أن لونهما قد صار أسود وأن الأجزاء من جسديهما التي لامست الماء الطيني ظلت بيضاء، مثل الشفتين وأسفل القدمين وباطن الكفين. ولما عاد الدجال الأربعة للاجتماع ثانية قرروا الافتراق عن بعضهم البعض. بلغ الاسودان هدف رحلتهما فلم يجدا هناك سوى الأكواخ وتزوجا النساء السوداوات اللواتي يسكن فيها. أما الأبيضان اللذان عبرا النهر القاتم فقد وجدا أبنية ضخمة تعيش فيها نساء بيضاوات فتزوجاهن. ومن هنا نجد البيض والسود من بني البشر».

أصل أغنية دواسي: أسطورة من قبيلة «ماندينغو» في غرب افريقيا

«عاش في قديم الزمان بطل عظيم اسمه «غازير» انتصر على جميع أعدائه ونهب بيوتهم. اعتقد أن عظمة أفعاله لا يمكن أن تنسى أبداً، وعندما كان عائداً ذات مرة من إحدى معاركه الضارية رأى حجلاً مستلقياً فوق العشب يغني، فاستمع إلى نص أغنيته:

ما من سيف بلغت قوته درجة
أن حامله لن ينسى أبداً
إلى الزوال ستؤول أعمالك الحربية يا غزير
لأنها تنبع من القوة الغاشمة
وكذلك أنا، ذلك الذي يشدو بهذه الأغنية
سوف يطويني النسيان
أما أغنيتي فستظل حية
أشكر الآلهة التي سمحت لي أن أشدو
بهذه الأغنية التي اسمها «داوسي»
الأبطال والمدن والبلدان سيطويها النسيان يوماً
ولكن «داوسي» لا
فهي الأغنية التي ستظل حية للأبد»

عندما سمع «غازير» أغنية الحجل هذه، بدا دائم التفكير وأغرق في التأمل ثم ذهب إلى حكيم طاعن في السن لأخذ مشورته. فقال العجوز:

«الحجل على حق. ان أعمال السيف آيلة إلى الفناء. فالأبطال والمدن والبلدان ستدخل يوماً طي النسيان. ولكن «داوسي» لا، الأغنية التي ستظل حية للأبد».

وعندما سمع «غازير» البطل ذلك، ذهب إلى حداد – لأن الحدادين يصنعون كل ما هو نفيس في افريقيا – وقال له:

«اصنع لي عوداً أعزف عليه لحن أغنية «داوسي» لأن «داوسي» الأغنية ستظل حية للأبد». فأجاب الحداد:

«سأصنع لك عوداً، لكن لن تستطيع العزف عليه» فقال «غازير»: «أيها الحداد، قم بعملك واترك الباقي علي».

صنع الحداد العود وأحضره إلى «غازير» فأخذه ومد يده إلى الأوتار يريد العزف، ولكن العود لم يصدر لحناً، فقال للحداد:

«ما هذا؟ لماذا لا تعزف هذه الآلة؟» فأجاب الحداد:

«سبق أن قلت لك». قال غازير: «افعل شيئاً لتعزف الآلة!» ولكن الحداد أجاب: «لقد قمت بعملي والباقي عليك!» وهنا سأل غازير: «ما عساني أن أفعل؟» فأجاب الحداد: «ليس العود سوى قطعة من الخشب لا يمكنها الغناء لأنه ليس لها قلب. ومسألة خلق قلب لها تقع عليك. يجب أن تذهب قطعة الخشب هذه على ظهرك إلى المعركة. يجب أن تمتص تنفسك ودموعك. يجب أن تكون آلامك آلامها ومجدك مجدها. يجب أن لا تظل قطعة الخشب هذه جزءاً من الشجرة التي اقتطعت منها. بل يجب أن تصبح جزءاً من مصيرك أنت».

وهنا نادى «غازير» أبناءه الثمانية وخاطبهم قائلاً:

«سنذهب اليوم جميعاً إلى المعركة. يجب أن يظل صليل سيوفنا خالداً على مر العصور. فأنا وأنتم يا أبنائي الثمانية، يجب أن نخلد في الأغنية التي اسمها «داوسي»».

وهكذا ذهبوا إلى المعركة وكافحوا كفاح الأبطال. حمل «غازير» العود على ظهره، فتردد صوت دقات قلبه الشجاع على خشبه، وتساقطت حبات عرقة على العود عندما عاد منتصراً إلى بيته.

ثمانية أيام قضاها في المعركة مع أبنائه الثمانية. وطوال ذلك الوقت كان يحمل عوده على ظهره. ولكن في كل يوم كان يسقط أحد أبنائه شهيداً. حمل غازير جثثهم

على كتفيه وقطرات دمهم تقطر على العود. وعندما لم يعد عنده أبناء ليخسرهم، بكى لأول مرة في حياته، فبللت دموعه العود.

أقبل الليل وذهب الناس جميعاً للنوم ما عدا «غازير» الذي ظل وحيداً قرب موقده. فكر بأعماله البطولية فوجدها لا تساوي شيئاً، فبكى ثانية في وحشته العميقة.

وفجأة سمع صوتاً قريباً بدا وكأنه آت من صميم قلبه. أنصت له «غازير» ثم بدأ يرتجف لأنه سمع العود يغني. كان يردد أغنية «داوسي»، الأغنية التي لن تفنى أبداً. لم تكن أعماله، بل دموعه، تلك التي أعطت العود قلباً، ولذلك استطاع أن يغني.

مرت قرون عديدة على وفاة «غازير» ونسي الجميع صليل سيفه، ولكن ما نزال إلى الآن نغني أغنية قلبه «داوسي» التي ستعيش أبداً. وكل أولئك الذين سيولدون بعدنا سيستمرون في غنائها.

الهوامش:

١ – غليون تبغ يدخنه الهنود الحمر في أميركا الشمالية كنوع من ممارسة الطقوس عند اجراء محادثات أو التوقيع على اتفاقية سلام.

٢ – للمزيد عن هذا الموضوع راجع كتاب «جيمس فريزر» «الفولكلور في العهد القديم» (المترجم).

٣ – حيوان أميركي من ذوات الجراب يتظاهر بالموت عندما يحدق فيه الخطر. قاموس المورد).

٤– حيوان أميركي استواني شبيه بالخنزير (المصدر السابق).

٥ – حيوان في شمال أميركا، شره، ثديي لاحم. (قاموس المورد).

٦ – بيت المجموعة عبارة عن بيت تملكه القبيلة ككل – يشبه إلى حد ما المضافة – يجتمع فيه الرجال في أوقات الفراغ للتسلية واللهو أو لممارسة الطقوس الدينية. (المترجم).

٧ – كلها أسماء حيوانات استرالية.

٨ – طائر كالنعامة لكنه أصغر منها. (المورد).

الفصل الخامس عشر
مملكة الأموات

النظرة الفلسفية للموت عند الشعوب - العالم الآخر وكيف تنظر إليه الشعوب البدائية - علاقة النظرة الفلسفية لمصير الروح ولفكرة الخلود بطرق دفن الأموات.

يتعلق رد فعلنا على معرفة أن قلبنا سيتوقف يوماً من الأيام عن الخفقان بفلسفة الحياة التي يحملها كل منّا وبوجهات النظر التأملية الفلسفية التي تصالحنا مع حقيقة أن الموت أمر لا مفر منه. فقد جاء على لسان مجرم «فيكتور هوجو» في العزاء الذي نطق به في المقصلة: «كل إنسان محكوم عليه بالموت، لكنه لا يعرف متى يحين وقت تنفيذ هذا الحكم». مثل هذا التأمل السابق لظاهرة الموت هو من خصائص شعوب الحضارات الراقية، بينما يتناقض كلياً مع عالم تصورات الشعوب البدائية. فرغم أن البدائيين يرون أنفسهم دائماً محاطين بالآثار التي يتركها الموت الذي يتجلى واضحاً أكثر منه في عالم الحضارة، وانهم ينتزعون جزءاً رئيسياً من عماد بقائهم من خلال قتل الحيوانات، إلا أن حقيقة أن الموت سيطالهم يوماً لا تبدو لهم كإحدى المعطيات المنطقية للطبيعة. فالإنسان البدائي غير مقتنع بحقيقة الموت.

تبدو الحالة التي يعتبر فيها الإنسان ميتا ، لمعظم الشعوب البدائية شراً تسببه قوى غيبية، يأتي بشكل خاص عن طريق السحر. وما المرض الذي ينتهي بصاحبه بالموت إلا برهان على فعالية التأثيرات الشريرة. وحتى حوادث الموت الطارئة تعزى إلى مؤامرة حاكتها أشباح معادية.

في استراليا والاميركيتين وميلانيزيا وافريقيا ومدغشقر وأماكن أخرى من العالم يعتبر نتيجة لأسباب «غير طبيعية» يقف حيالها الإنسان قلقاً وخائفاً.

وكما تذكر مختلف الأساطير القديمة يمكن أن يأتي الموت من خلال «أخطاء» قوى ما فوق الطبيعة. وتعتقد كثير من الشعوب أيضاً أن هناك علاقة مباشرة قائمة بين الاتصال الجنسي والموت، وأن «اختراع» عملية الحب الطبيعية قد أدت بالتالي إلى نشوء الموت. ولا يهمهم مطلقاً أي تفكير بموتهم، الذي سيأتي ذات يوم، والذي حسب اعتقادهم - ليس من الضروري أن يأتي. ويبدو بالنسبة لهم أنه من الممكن جداً أن يتحاشى المرء الموت المحتم من خلال الذكاء والحذر وارضاء الأشباح. ومن هذا المنطلق تبدي كثير من القبائل الافريقية جل احترامها للطاعنين بالسن، لأنهم أثبتوا أنهم أذكياء بما يكفي لأنهم صمدوا على مدى عشرات السنين في وجه هجمات السحرة والشياطين وأرواح الأسلاف الحسودة. أما ماذا تفكر مختلف الشعوب دائماً حول الموت فهناك شيء أكيد: ألا وهو أن لدى جميع شعوب الأرض تصوراً خاصاً ومحدداً عما ينتظر الأموات بعد رحيلهم عن هذه الحياة.

غالباً ما يتصور الإنسان وجود مكان معين يتابع فيه الأموات بقاءهم بالأسلوب نفسه الذي على الأرض. وجميع الشعوب تدفن موتاها بطريقة تتوافق كل التوافق مع هذه التصورات. ولطرق الدفن هذه أشكال شتى تعود لأقدم الحضارات، بحيث يبدو من العبث محاولة البحث عما كان من هذه الأشكال أسبق إلى الظهور، ففي تسمانيا واستراليا كان الموتى يحرقون على كومات من الحطب أو يدفنون في قبور. وكانت شعوب كثيرة من شمال وغرب استراليا تدفن موتاها على الشجر الباسق، اما بوضعهم على سقالات عالية أو في تجاويف كما هو الحال في فكتوريا. وأحياناً تجفف الجثث في الشمس أو فوق النار أولاً ومن ثم توضع في جذوع الأشجار. ويعرف في جزيرة سان كريستوبال واحد وعشرون نوعاً من أنواع الدفن، بدءاً من الدفن في الأرض إلى الدفن في البحر وفي شقوق الصخور وعلى الشجر وعلى السقالات أو في أكياس، حتى الحرق والتحنيط.

وليست كل أنواع الدفن المختلفة هذه، والعناية المشددة التي تستخدم في ذلك، مشروطة بمجرد الحرص على تنوع أسباب الدفن فقط، بل تتعلق بالدرجة الأولى بالخوف من الميت الذي قضى نحبه «بحادثة» سيعود من حالة اللاحراك ليثير الرعب ويسبب الأذى لمن بقي بعده من قومه على قيد الحياة.

ويمتد تصور البحث الحاقد عن الثأر لدى الأموات كالخيط الأحمر عبر تقاليد الدفن لدى الإنسانية جمعاء، بدءاً من عصر ما قبل التاريخ حتى عصرنا المتحضر هذا. فالأحجار التي تردم على القبر التسماني، والموميا ءات المقيدة بالسلاسل في مصر، والتوابيت المحكمة الاغلاق بالمسامير في عصرنا الحاضر، تعود جميعها إلى ذلك الخوف الملازم منذ القدم والمترسب من التصورات السابقة. ولذلك فان الطرق التي يستخدمها المرء ليمنع الجثث من مبارحة قبورها متعددة إلى أبعد الحدود، ففي استراليا تثقب جذوع الأشجار المستخدمة كتوابيت للموتى أحياناً بالرماح لتغرز في عنق الميت وتثبته في مكانه، أو يحرق جذع الشجرة بكامله بعد أداء مراسم الدفن. كما يقيد التسمانيون موتاهم قبل دفنهم لمنعهم من أية محاولة للتحرر.

أما في اسبانيا ما قبل التاريخ فقط تطور تثبيت الموتى على ألواح من الخشب في قبورهم إلى واحدة من طقوس الدفن النظامية. فقد وجدت مقابر بأكملها تحمل هياكلها العظيمة دلالات «قتل ثان» تعرض لها الأموات، إذ أن جماجمها كانت مثقوبة بمسامير ضخمة. وقد استمرت هذه العادة طويلاً ثم اقتصرت فيما بعد على مجموعات سكانية معينة.

وهكذا تتخذ الشعوب البدائية في جميع أنحاء العالم تدابيرها لكي لا تترك أي مجال للأسير المقتول أن يغادر قبره ويوجه قواه السحرية ضد الجماعة. وتجعل أشكال البقاء المتعدد التي يمكن بها للأموات أن تتابع الحياة، ظهورها ثانية غاية في الخطورة. ففي جنوب شرق استراليا يتحول الأموات إلى نجوم في السماء تجتمع أحياناً في الخفاء مع السحرة، لدرجة أن أفراد القبيلة غير المتنورين جداً يسمعون أحياناً أصواتهم ويرون عند الصباح أثار أقدامهم على الأرض. وحتى الجسد نفسه يمكن أن يستمر في الحياة ولو على هيئة أخرى مختلفة. وفي كثير من أصقاع استراليا وافريقيا وأميركا الجنوبية اعتبر السكان أن أول البيض الذين دخلوا أراضيهم ماهم إلا أشباح الموتى من القبيلة.

ولكي يظل الميت في الموقع الذي دفن فيه، لا يبرحه، يحاول أصدقاؤه وأقاربه أن يفرشوا له بيته الجديد مجهزاً بكل وسائل الراحة الممكنة. فهم يحرصون على أن لا يلامس وجهه وجسده الأرض ملامسة مباشرة أو يسجى في فجوة صغيرة تقيه من عوامل الطقس المختلفة.

فقبيلة «فيميرا» الاسترالية التي دفنت شاباً وسيماً في الأرض، رأت فيما بعد أن قبره لم يكن يوفر له الراحة عندما حلت أمطار تشرين الثاني. فأعادت دفنه ثانية في جذع شجرة أجوف وأحكموا سده جيداً.

وعلاوة على ذلك يتم تكريم الموتى بكلمات ووعود، ولكن بعد أن يثبت لهم المرء بهذه الطريقة تعلق الأحياء الشديد بهم، يغادر المشيعون القبر بأسرع ما يمكن لكي لا تسنح الفرصة للمرحوم للظهور لهم ثانية.

لكن نجد أيضاً حتى لدى الثقافات الموغلة في القدم عادة ترك الموتى بكل بساطة يواجهون مصيرهم بأنفسهم في منطقة منعزلة. وهذه العادة خاصة في ثقافات المناطق القطبية والشعوب الرعوية، ولو أن منشأها قد يعود لأسباب أخرى. وفي بعض الأحيان لا ينتظر المرء حتى يحل وقت الوفاة، بل يهرب من المحتضر قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. وعندما مات أحد أفراد قبيلة «ماجوس» الهندية الحمراء في شرق بوليفيا في حادثة غرق، غادر أفراد القبيلة المنطقة فوراً وهربوا إلى الغابات خوفاً من قيام هذا المتوفى بأخذ أحدهم ليتسلى معه. أما قبيلة «نيوزه» التي تقطن المنطقة نفسها فتلف «المرحوم» بالحصر وتشيد كوخاً صغيراً فوق الجثة من ورق الشجرة ثم تعجل بالرحيل من المنطقة. وفي المناطق التي يدفن فيها الأموات على سقالات أو على جذوع الأشجار، يتم فيها فيما بعد جمع العظام ودفنها مرة أخرى. ويعلق السكان أجزاء من الهيكل العظمي، كتمائم من جهة، ومن جهة أخرى لضمان ذكرى المتوفى الأبدية. وفي الوقت نفسه أيضاً لاستخدام قوة السحر المتأصلة في هذه الآثار لمصلحتهم.

ويقوم الاستراليون بدهن مثل هذه العظام والجماجم بالطلاء الأحمر أو الأصفر ويحتفظون بها كأشياء للعبادة لها قوة سحرية. أما سكان جزر الاندمان الذين يدفنون موتاهم في التراب بوضع محدب أو على قمم الأشجار مستلقين على سقالات من الخشب، فيجمعون فيما بعد عظامهم ليجعل منها الأصدقاء والأقرباء قطعاً من الحلي يتزينون بها.

أما قبائل التسمان الغربيون فقد كانوا يجمعون بقايا عظام موتاهم المتبقية على أكوام الحطب التي أحرقت بها جثة الميت ويلفونها بقطع من الجلد ويحملونها كتمائم تقيهم من المرض والشر. وما تزال هذه العادة منتشرة في اليابان الحديثة حيث تجمع

عظام الميت المحروق. وهكذا يجمع الآباء المفجوعون عظام أطفالهم من الرماد للاحتفاظ بها في مكان مقدس.

وهناك ذكرى مرعبة للموتى وهي السائل الذي يقطر من جثث الأموات المعلقة على الأشجار أو على السقالات. إذ تعزى إليها صفات سحرية يسعى الاحياء للاستفادة منها. فشباب منطقة شرق كوين زيلاند مثل قبيلة «كوينمور بورا» التي تسجي جثث أبطالها على سقالات، يتركون هذا السائل يقطر على أجسادهم لكي تنتقل إليها شجاعة الميت. أما سكان منطقة «بيليندنكر» فيفركون أجسامهم بهذا الخليط ليصبحوا أقوياء. وتجمع قبائل أخرى هذا الخليط من السوائل في أوعية وتستخدمه في طقوس السحر. أما في أواسط استراليا فيفرك السكان الأصليون أرجلهم بتراب القبر لكي «لا يتعبوا بعد ذلك من عناء السفر الطويل».

وأكثر ما تنتشر عادة الحرص على تحويل القوى السحرية للأسلاف لمنفعة الأحياء، عند الشعوب التي تمارس زراعة الأرض. فبما أنهم مستقرون وبالتالي لا يمكنهم الهجرة من منطقة الميت، فعليهم أن يهتدوا إلى اجراءات مصالحة بينهم وبين الأموات. ولذلك فان مجمل موقفهم تجاه ظاهرتي الموت والحياة مشروط بعلاقتهم الوثيقة مع الأسلاف المتوفين الذين تعيش أرواحهم بينهم. ورغم أن الأرواح لا ينظر إليها من خلال مفهوم دياناتنا الحديثة على أنها خالدة، إلا أنها تستمر حية في بعض أعضاء الجسم وفي أشكال أخرى. لكنها بعد مضي فترة معينة على موتها الجسدي يمكن أن تهرم وتتلاشى شيئاً فشيئاً.

وفي مناطق عديدة أخرى مثل جزر «هبريد الجديدة» يعتقد السكان الأصليون أن الأرواح تموت مرتين أو ثلاث مرات متعاقبة قبل أن تفنى فناء كاملاً. ويبدو أن أرواح الأسلاف لا يمكنها غالباً البقاء حية إلا إذا ظلت على صلة بالاحياء عن طريق الذكرى المستمرة وتقديم الأضاحي. ولدى بعض الشعوب التي تمارس الزراعة اعتقاد بتعاقب منتظم للانبعاث حتى دون وجود التصورات الشعبية تجعل من فكرة البعث من جديد سمة من سمات الثقافات الراقية. فقبائل «داياك» التي تقطن بورنيو (اندونيسيا) تعتقد أن الروح تعيش في العالم الآخر سبعة أضعاف ما تعيشه على الأرض. وأنها تعود مرة أخرى إلى الأرض وتخلق هناك على شكل فطر أو ثمرة أو عشب أو زهرة، فان أكل إنسان هذه النبتة ولد له طفل انتقلت إليه روح الميت.

ويتوجه الأحياء في أوقات العوز والخطر إلى الأموات يستجدون منهم الحماية والمساعدة. ونداءات النجدة هذه عبارة عن صيغ سحرية أو صلوات موجهة إلى الأموات ترافقها هدايا لهم. ويتعارض هذا التواصل المستمر مع الأموات تعارضاً شديداً مع موقف الشعوب التي تمارس الجمع والصيد والتي لا تقدم لموتاها أية أضاحي.

وكما سبق أن رأينا، تسكن روح الميت في جزء معين من جسده، قد يكون هذا الجزء هو القلب أو الدماغ أو الدم أو الكبد أو الكليتين أو في الجهاز التنفسي أو حتى في ظله. وغالباً ما يعتبر الرأس مقراً للروح. ونتيجة لذلك فان للرأس - كنقطة مركزية لقوى غيبية لدى هذه الثقافات - دوراً في غاية الأهمية.

وغالباً ما كانت الجماجم التي تنبش من القبور تلوّن وتزين، وتُصنع نماذج عنها بالحجم الطبيعي من الطين على اعتبارها موضع مادة ذات قدسية عالية. إذ تركب عليها صدف مكان العينين، وتؤدى طقوس العبادة لهذه الجماجم في كوخ أو في بيت المجموعة أو في بيت مخصص لحفظ الجماجم.

وتعقد الجلسات والمحاكمات في حضرتها المقدسة، كما وتتخذ القرارات الحاسمة «بالاستعانة» بها. وتتجلى الرغبة في استغلال القوى السحرية التي تسكن في هذه الجماجم للصالح العام ليس فقط في طقوس حفظ جماجم الأسلاف وإنما أيضاً في السعي للحصول على أكبر عدد ممكن من الجماجم حتى ولو من منشأ غريب.

وقد يحدث أحياناً أن يقتل رجال ونساء وأطفال من قبائل أخرى من أجل غاية وحيدة هي الحصول على جماجمهم. مثل هذه العادة نراها منتشرة بشكل خاص في غينيا الجديدة وبعض المناطق الشمالية من أميركا الجنوبية، حيث يُصطاد الناس من أجل هذا الغرض فقط. وحتى فروات الرأس لدى الهنود الحمر في أميركا الشمالية - التي تحظى بقدسية عالية باعتبارها معبودات ذات قوة سحرية - ترجع أصلاً إلى هذه التصورات. وكلما كانت الضحية أقوى أو ذات أهمية كبرى، كانت أيضاً القوى السحرية لرأسها أو لجمجمتها أكبر. ولا يقتصر هذا التحنيط على الجمجمة، بل يطال أيضاً الأجزاء الطرية من الرأس. وقد تطورت هذه العادة الناتجة من تحضير رايات الانتصار المصنوعة من رؤوس البشر لدى قبائل «جيفارو» الهندية الحمراء تطوراً كبيراً. ولا يتمتع بحق صنع مثل هذه الرايات إلا المحاربون الذين قتلوا عدواً وغمسوا رماحهم

في دمه. ويتم صنع وتحضير مثل هذه الراية أو القناع على الشكل التالي: بعد أن يتم تسريح شعر رأس الضحية بعناية، تشق جلدة الرأس من الجبهة حتى الرقبة من الخلف وتسحب من الجمجمة، بحيث لا يبقى سوى اللسان والعينين. بعد ذلك تتم خياطة الأجزاء اللحمية بألياف نباتية خياطة قوية، وتثبت الشفتان فوق بعضهما البعض باحكام بواسطة عيدان الخيزران. ولا يبقى سوى فتحة العنق مفتوحة. تؤخذ جلدة الرأس التي لها شكل الأكياس وتسخن بالماء ثم ترفع منه قبل درجة الغليان، فتكون قد تقلصت لثلث حجمها الأساسي.

عند ذلك يقوم رجال القبيلة - الذين يمارسون مهنة الطب ويتابعون باهتمام عملية صنع الراية بكل تفاصيلها وجزئياتها - باعطاء الإشارة بأن التحضير النهائي للرؤوس يمكن أن يبدأ. تُملأ جلود الرؤوس بالرمل الساخن من خلال فتحات العنق. أما الرؤوس التي لا يتسرب فيها الرمل جيداً «فتكوى» بواسطة أحجار ساخنة بعملية بطيئة قد تستمر مدة ٤٨ ساعة إلى أن تسوى جميع ثنيات الجلد ويقسو ويصبح قادراً على المقاومة، أي يصبح تقريباً بمواصفات الجلد العادي القوي.

يقول «أوب دو غراف» الذي خلف لنا وصفاً تفصيلياً دقيقاً لهذه العملية:

«تصبح أبعاد الرأس كأبعاد برتقالة متوسطة الحجم. ويصبح تعبير الوجه مشابهاً للصورة الأصلية إلى أبعد الحدود. وفي الحقيقة تكون الرؤوس المتقلصة نماذج مصغرة ودقيقة الشبه بالأصلية. فكل خط وكل شعرة وكل خدش تظل كما كانت عليها دون تغيير، حتى تعابير الوجه». وبما أن شعر الرأس يحتفظ بالطول الأصلي، فيبدو وكأنه لبدة طويلة تحيط بالرأس الطبيعي الذي تم تحضيره بهذه الطريقة.

ومن يطّلع على هذه الرايات في متاحف العالم لا يمكنه أن يتجاهل الانطباع الذي يوحي بأن هذه الرؤوس تحاكي الحقيقة الحياتية، رغم أصلها الذي يثير الهلع. ويقوم قناصو قبائل «دورو» الذين ينتجون هذه الرؤوس، بحشوها بقشور الأشجار وألياف جوز الهند، إذ يزيلون شعر الرأس ويملؤون محاجر العيون بالطين.

وقد أدى الاعتقاد السائد لدى الشعوب التي تمارس الزراعة بأن للرؤوس قوى سحرية، إلى تطور الأقنعة المحفورة التي هي عبارة عن عرض أو تجسيم لأرواح الأموات. ولا تقتصر الغاية من الرقصات التي تُرتدى فيها مثل هذه الأقنعة على مجرد

تعظيم أرواح الأسلاف، وانما تتعدى ذلك إلى محاولة استغلال قوى أرواح الموتى لصالح مجموعة القبيلة.

وتمثل أقنعة الشعوب التي تمارس الزراعة، المصنوعة باتقان فني عال، أعلى درجات الابداع الفني لدى هذه الشعوب. فبعض هذه الأقنعة الافريقية لها شكل القديسين الغوتيين. بينما تتخذ أنواع أخرى منها، وخاصة تلك التي في جزر المحيط الهادي، أشكال وهيئات حيوانات أو بشر أو أشباح. وهكذا فان «المالاغات» المشهورة في بعض جزر ميلانيزيا تمثل تجسيدات رمزية لأرواح الموتى وتطلق عليها أسماء هؤلاء الأموات. ويشكل رأس الخنزير غالباً قاعدة لمجموعة من الصور منحوتة على شكل أعمدة - وهذا الرأس هو التقدمة التي يكرم بها الأقارب، الميت.

وهناك مثال آخر على العلاقة الوثيقة بين تعظيم الجماجم أو العظام وتعظيم القناع المنحوت وهو عادة قبائل «نور - بابوا» في غينيا الجديدة، التي تضع قناعاً على المكان الذي سكنه المتوفى، مباشرة بعد دفنه، فيصبح هذا القناع موضع تعظيم واجلال إلى أن يصبح بالامكان نبش عظام فكه الأسفل، التي تحظى بتعظيم الأقارب، إذ يستخدمونها لحسن الطابع، ويعتبرونها حلقة وصل بين العالم الدنيوي وعالم أرواح الأسلاف.

على أية حال ليست فقط أرواح الأموات هي التي تتجول، فأرواح الأحياء أيضاً ليست دائماً محصورة في مقرها، أي في رأس الإنسان، كالأحلام مثلاً التي تبدو وكأنها برهان على كل مغامرة للروح المتجولة. فروح الإنسان الحي يمكن أن تغادر الجسد في أي وقت لفترة قد تطول وقد تقصر. وما يزال هذا الاعتقاد سائداً حتى الآن في الأقاويل والتصورات الخرافية لدى جميع الشعوب، من عصر الاغريق حتى الرومان إلى أقاويل أماكن منعزلة عن الحضارة الحديثة، حيث تقول القصص القديمة إن فأراً أو يعسوباً أو نحلة أو أي كائن حي آخر يغادر فم النائمين ليقود الروح إلى مملكة الأحلام، وتعود منها قبل الاستيقاظ.

وعن طريق السحر يمكن أيضاً لروح غريبة أن تتسلل إلى جسد إنسان نائم وتسبب له نوعاً من الاختلاط الذي تطلق عليه اسم الجنون.

ولا تغادر الروح الجسد للأبد إلا عندما يموت الشخص. وغالباً يتم ذلك لأن ساحراً شريراً قد طردها. وبناء على ذلك يلعب البحث عن «المذنب» الذي كان السبب في وفاة

أحد أفراد الجماعة دوراً هاماً لدى الشعوب التي تمارس الزراعة، وبخاصة قبل الدفن حيث تمكث روح المتوفى غالباً قرب الجثة ولا تبرح ذلك المكان إلا بعد الدفن الثاني، أي الدفن النهائي، حيث تذهب بعده إلى أرض الأرواح بعد أن يكون لحم المدفون قد تعفن. وغالباً ما تحضر الأرواح من العالم الآخر - كنوع من لجنة استقبال - لتصحب الميت الجديد إلى أرض الأموات بكل أمان - وقد اتخذت هذه الأرواح لدى قبائل «أباخ» هيئة طائر البوم الذي يقودُ أرواح المتوفَيْنْ إلى دار السعادة الأبدية.

وأحياناً تودِّعُ جثة المتوفى الأصدقاء والأقرباء الباقين وداعاً احتفالياً. ففي جزيرة «يونايه» تحمل جثة الميت قبل دفنها من كوخ إلى كوخ لتتقبل في كل مسكنٍ من مساكن القبيلة ضريبتها من الدموع وصرخات العويل.

ويأخذ الرجل قاربه معه إلى القبر بينما تأخذ المرأة نولها. وفوق القبر يبنى كوخ يقيم فيه أقرب أقرباء الميت مدة خمس حتى ست ليالي. يُهدم بعدها الكوخ ليعود أهل الفقيد، الذين قصوا شعورهم كعلامة على الحداد، إلى ممارسة حياتهم اليومية المعتادة.

أما البحث عن ذلك الذي يتحمل «وزر» الوفاة فيقوم على قدم وساق وخاصة لدى قبائل بانغفه كما ذكر ذلك تيسمان. فاحتفالات الدفن نفسها قد تتيح لهم الفرصة للتأكد فيما إذا كان المتوفى نفسه ساحراً تسبب بالموت لآخرين غيره. فإذا ما كان الأمر كذلك وجدوا في أحشائه ما يسمى بـ «ايغو» Ewu وهو شيء كريه يثبت على أن المتوفى كان ساحراً شريراً ولا يستحق أن يدفن دفن «الصالحين» من «أبناء النور».

أما تحديد الفئة التي ينتمي إليها المتوفى، أي فئة الصالحين أو فئة الأشرار فيقوم به «الطبيب»، أي من يمارس مهنة الطب في القبيلة، الذي يحضر الدفن. ولكن قبل أن يؤدي مهمته يبرز رجل مسن من القبيلة المفجوعة ويلقي كلمة مطولة يتوِّجها بالمطالبة بالأخذ بالثأر في حالة التحقق من شخصية «المذنب» الذي تسبب بالوفاة. بعد ذلك ترفع الجثة وتسجى على قطعة من اللحاء. ثم يتم تجريد المتوفى من ثيابه وزينته، وتحمل الجثة لتنزع خلف الأكواخ حيث تسجى قرب القبر المفتوح، والمفروش بورق الشجر الطري. ثم تأتي اللحظة الحاسمة حيث يقرر «الطبيب» فيما إذا كان المتوفى من «أبناء النور» أو كان ساحراً شريراً. يقوم هذا «الطبيب» بفتح الجثة ويتفحص الأحشاء ويعلن عما وجده. وبناء على النتيجة التي يعلنها هذا الرجل يدفن الرجل «الصالح» إما في تابوت من لحاء الشجر أو يُطمر بسرعة باعتباره ساحراً شريراً.

ويرتدي أقرباء الميت الحزانى إزاراً من ورق الشجر بدلاً من ملابسهم الاعتيادية ويحلقون شعور رؤوسهم ويمتنعون عن ممارسة الجنس ويقبعون في أكواخهم. وأحياناً يصبغون وجوههم باللون الأبيض، لون الموت.

وتمكث روح الرجل المتوفى في قبيلة بانغفه بين ظهراني القبيلة على هيئة حيوان بري تظل على مقربة من الاحياء لتأخذ بالثأر من الشخص الذي تسبب في موت الجسد الذي حواها. ومن جهة أخرى يمكن أن يكون لهذه الروح احساسات رقيقة. فمثلاً عندما يموت أب تاركاً وراءه ابناً يحبه لكنه فقير، يمكنه أن يضحي له بنفسه وهو في العالم الآخر، إذ يتحول إلى نمر يسمح لابنه بقتله (وبالتالي يقتل روحه). ومن خلال هذه التضحية يمكن لابنه أن يبيع فروه الثمين وعظامه ومن ثم الحصول على زوجة من ايرادها. وقبل أن يلبي المتوفى من قبيلة بانغفه دعوة أرواح أسلافه للسفر معها إلى أرض «نسامبه» (يدرك وجود هذه الأرواح عند احتضاره ويحييها بعبارة: انهم هنا!) يتوقف غالباً في ظل الشجرات بحيث يمكن سماع همساته ليلاً.

وبعد حوالي السنة يفترض الأقارب أنه أصبح الآن جاهزاً للرحلة إلى أرض «نسامبه». فيقوم هؤلاء بوضع أفخر ما عنده من الثياب أمام كوخه وسط مظاهر احتفالية. وعلى شرف هذه المناسبة تقام الرقصات والولائم الفاخرة.

أما أرض الأرواح التي يحكمها الاله الخالق «نسامبه» فهي مكان جميل ومريح يعيش فيها المرء كما لو كان على الأرض ولكن دون وجود للهموم التي يعاني منها البشر. وتوفر «نسامبه» للأرواح التي تسكنها تشكيلات متنوعة من النبات والحيوان والغابات. ولكل من ساكني هذه الأرض السعيدة ما يشاء من المواد الغذائية والنساء. أما «الأشرار» فيُغفر لهم، وكل ميت يسكن هناك مسروراً غاية السرور وكل رغباته ملباة. ولكن حتى الأرواح تشيخ وتهرم ولا يمكنها البقاء إلى الأبد في السماء. فعندما تهرم تلفظها «نسامبه» «التي لا تحتمل وجود الشيء القبيح» من أرض الأموات، فتهبط إلى أرض بانغفه حيث تحيا ضعيفة وغير منظورة، ولا يشعر بوجودها سوى بعض الحيوانات وخاصة النمل الأبيض الذي يبني تلالاً فوق «جثث» هذه الأرواح الضعيفة والعاجزة. وعندما تتحول التلال هذه إلى غبار فهذا يعني أيضاً أن الروح قد تحولت إلى المادة الأساسية التي خرجت منها، أي إلى الغبار، الذي لم تتكون منه الشمس والقمر والعالم فقط، بل تكونت منه جميع الكائنات الحية.

ولا تستمر حياة «الميت» بعد ذلك إلا في جمجمته التي تنبشها عائلته فيما بعد وتضعها مع بقية جماجم موتاها في طبل الجماجم المحفوظ في الكوخ.

وفي أوقات المحن والعوز التي يرسل بها «نسامبه» المرض أو القحط للقبيلة تُخرَج الجماجم من الطبل ويطاف بها في مكان السكن بمصاحبة رقصات مقدسة، إذ يدعوها الناس لتقول كلمة صالحة لدى اله القبيلة من أجل الاحياء. وإذا لم يجدِ طلب المساعدة هذا، يحل الغضب على هذه الجماجم فتُشتم وتهدد ثم تلف كما كانت وتهمل فترة طويلة من الوقت.

وبما أن مخلفات النمل الأبيض تحتوي على جزء من المادة الروحية ذات القوى السحرية، فإنَّ الناس يقومون بجمع أجزاء منها وحملها كتمائم لجلب الحظ. وينتشر الاعتقاد أن النمل الأبيض يحمل جوهراً من الروح الإنسانية في أمكنة عديدة أخرى وخاصة في جزر المحيط الهادي.

وتعتبر الرقصات التي تمارس اكراماً لرحيل الأرواح إلى أرض الأموات تقليداً عاماً من تقاليد الشعوب التي تمارس الزراعة سواء في افريقيا أم في جزر المحيط أم في أميركا. وغالباً ما تقام هذه الطقوس بعد مرور سنة على الوفاة.

ولارضاء الأموات غالباً ما تدفن معهم ممتلكاتهم أو رموز تمثل هذه الممتلكات بحيث يكون كل شيء معداً اعداداً جيداً للرحلة إلى أرض الأرواح. بينما تدمر بعض الشعوب جميع ممتلكات الميت الدنيوية تدميراً كاملاً لتوحي له بأنْ لا رغبة للباقين على قيد الحياة باستعمال هذه الممتلكات من جهة، ومن جهة أخرى لاتلاف كل ما يمكن أن يحمل «عدوى الموت».

وتقوم شعوب «ألغونكين» في انكلترا الجديدة بقتل أفضل الكلاب التي يملكها المتوفى لكي تستطيع أن تسبقه إلى العالم الآخر. ويقوم المحتضَر بتأبين نفسه بكلمة يعدد فيها أعماله الصالحات، ويعطي فيها التوجيهات لأسرته، ويثني على أصدقائه وأخيراً يودع فيها الجميع. خلال هذه الفترة يمطره أصدقاؤه بالهدايا ويتناولون ما عنده من طعام ويؤكدون له حزنهم وحدادهم عليه بصرخات قوية. وعندما تحضره الوفاة أخيراً يلفّون جسده لفاً محكماً بالجلود بوضع «تكون فيه ركبتاه متجهتين باتجاه بطنه ورأسه على ركبتيه أي بالوضعية التي يكون عليها الجنين في بطن أمه» ويدفنونه بهذه

الوضعية مع جميع ممتلكاته مثل الأقواس والسهام والمحافظ والكلاب وعدد من الهدايا التي يتبرع به الأصدقاء والمحيطون به المعنيون بالحداد عليه.

وتدل تماثيل الأسلاف الخشبية لدى الشعوب التي تمارس الزراعة على هذه الوضعية القرفصائية التقليدية للأموات. كما وجدت هياكل عظمية عديدة تعود لفترة ما قبل التاريخ في هذه الوضعية.

وتقوم قبائل «هوبي» الهندية الحمراء بغسل شعور موتاها بمستخرج من زهر النخيل ثم يضعون المتوفى بعدها في وضعية القرفصاء المطلوبة، ولو تطلب منهم ذلك ربطه بحبال ليفية لتثبيته بهذه الوضعية. يقومون بعدها بتزيينه بريش العبادة، إذ يضعون ريشة في كل يد من يديه وأخرى على سرته، «المنطقة التي يسكن فيها تنفس الإنسان».

وبعد أن يجهز له قبر عميق، يدفن فيه ووجهه باتجاه الغرب. وقد ذكر الباحث «بيغليهول» أنه: «سرعان ما يواري الميت في القبر ويهلل عليه التراب» وأضاف قائلاً: «تثبت عصا على القبر تكون بمثابة الدليل لنفسه عندما يرحل باتجاه الغرب».

والفكرة نفسها حول قدرة الروح على مغادرة القبر ثم العودة إليه موجودة أيضاً في جزيرة غينيا الجديدة وتعبر عنها عادة وضع عصا من الخيزران على رأس المدفون يظهر طرفها من القبر. فرغم أن أسلافه وحيوانه الطوطمي يكونون قد أتوا عقب وفاته مباشرة لحمله إلى أرض الأموات، إلا أن لديه الرغبة أحياناً بزيارة جثته القديمة في قبرها بين حين وآخر.

وليست القرفصاء هي الوضعية الوحيدة لدفن الأموات في التراب بل هناك طرق أو بالأحرى وضعيات أخرى لدفن الأموات، فهناك طريقة الدفن في صناديق من الطين وفي السلال أو أوعية مشابهة لها. وتدفن قبائل «توبي» في أميركا الجنوبية موتاها في أوعية ضخمة من الطين حتى لا يلامس الميت الأرض ولكي يتأكدوا أيضاً «أن روح الميت لا يمكنها الرجوع ثانية». وغالباً ما تُجمع العظام بعد ذلك وتغسل وتنظف وتدهن لتحفظ في سلال خاصة بذلك. ويلصق «البورورو» الريش الملون على عظام موتاهم ويقيمون احتفالات كبيرة على شرفهم واكراماً لهم.

«ومن أجل استرضاء الأرواح» يقوم ممثلون بأداء أدوار الأموات. وكدفن أول أو ثانٍ (بعد تنظيف العظام) فان طريقة الدفن بالصناديق منتشرة أيضاً لدى «ستيريغوانو» وقبائل أخرى.

وقد قدم الباحث «ج. ستال» وصفاً جيداً لطريقة الدفن بالصناديق لدى قبائل «دوسون» في «بورنيو» حيث زار الكوخ الصغير المبنيَّ من الخيزران الذي شيد فور حصول الوفاة فوق جثة المتوفى، فكتب:

«يُوضع حلي من النحاس الأصفر والأقمشة الفاخرة على هذا الكوخ وحوله من جميع الجهات. يأتي الأصدقاء والجيران للشكوى من فقدان صديقهم الذي كان جاراً صالحاً وشاباً قوياً، والذي كان يظل في حالة السكر لطيفاً ومسالماً. وأثناء الليل يتولى رجلان الحراسة قرب الجثة يقومان أثناءها بقرع الأجراس ليظلا متيقظين، ويحتفظان برباطة جأشهما بشرب «الشمبانيا». وفي اليوم الثالث توضع الجثة داخل صندوق من الطين. وإذا ما نظر المرء إلى هذه الصناديق لرأى أنها من المستحيل أن تستوعب جثة رجل ذي بنية قوية وضخمة. وبسكاكين حادة يقطع الصندوق بشكل أفقي إلى نصفين. توضع الجثة في النصف الأسفل والقدمان بوضع مستقيم، تطوى الركبتان وكذلك الجذع بحيث يستلقي الرأس فوق أو بين الركبتين. ثم يركّب النصف العلوي من الصندوق ويثبت النصفان على بعضهما البعض بالطين والصمغ. تقوم الكاهنة بأرجحة عصا خشبية ينبعث منها الدخان فوق الصندوق تترنم أثناء ذلك بعبارات غير مفهومة.

والهدف من هذا الاجراء هو منع أرواح الحاضرين من إلقاء أي شيء في وعاء المتوفى».

وبما أن الدفن لا يتم عندما يكون القمر بدراً أو قبيل ظهور الهلال الجديد، فإنّ الصندوق يظل غالباً فترة طويلة في البيت الذي لا تزعج سكانه رائحة الجثة المتعفنة أو تجمع أسراب الذباب، بل يمارسون حياتهم العادية من أكل وشرب وتسلية ونوم، حتى يحين الوقت الذي يوارى فيه الصندوق التراب.

ولا تدفن قبيلة «دجور» الافريقية موتاها بوضع القرفصاء إلا أولئك الذين سقطوا «في الصراع ضد الإنسان أو الحيوان». أما الأطفال وبقية الناس الذين يموتون في فراشهم فيدفنون في وضعية أفقية. تحاط القبور بسياج ويحافظ على نظافتها حتى يكون النمل الأبيض قد التهم الجثة، وبعد ذلك لم يعد أمرها يهمهم. وتشبه طريقة الدفن بالصندوق هذه إلى حد بعيد القبور المنتشرة في ما يسمى بالروابي لدى الهنود الحمر في أميركا، وخاصة في وادي الميسيسبي الأعلى وغيرها. ولا يمكن لهذه الروابي

أن تعود لأكثر من بضعة قرون، حيث عثر من بين آلاف الموجودات الثقافية هناك والتي كانت مودعة في صناديق أو في قبور حجرية، على أشياء تعود لثقافة الغزاة البيض. وقد فسر الباحث «كيتينغ» موقع هذه المدافن بقوله: ان وجود القبور في هذه الروابي وفي البراري يعود إلى موقعها. فهي أعلى نقاط في هذا السهل، وبالتالي فهي الأفضل لوقاية الجثث من الفيضانات.

وقد قادت الرغبة في وقاية الموتى قدر الامكان من تأثير الماء والبرودة وكذلك من التعفن، إلى مختلف طرق حفظ الأجساد بحيث لا تتعرض الجثث باستعمال هذه الطرق لأية تغييرات أخرى. وقد عرفت شعوب قديمة تمارس جمع الثمار والخضار من الغابات أقدم أشكال التحنيط، وهو تجفيف أو تدخين الجثث.

ففي جزر «جيلبرت» تبقى الجثث المحنطة مدة طويلة بين ظهراني العائلة، حيث يتم نقلها لتشارك في الرقصات وتحظى بكافة مظاهر الاحترام والتقدير التي يقدمها المرء لأي ضيف محترم.

وقد عرفت قبائل في الكونغو شكلاً خاصاً ومعقداً من أشكال التحنيط وصفه الباحث «مانكر» وصفاً مفصلاً.

فعندما يتوفى زعيم أو أحد أفراد القبيلة المرموقين يتم تحضير جثته للدفن من خلال صنع ما يسمى لديهم بـ "Niombo" (نيومبو)(١).

فعقب حدوث الوفاة مباشرة يرتدي أهله وجماعته أسمالاً بالية ويصبغون وجوههم باللونين الأحمر والأسود ويعلقون الجثة بحبل مدلى في بيت المتوفى الذي توقد فيه النار ليلاً ونهاراً. وتستمر حراسة الجثة وعملية التجفيف هذه عدة أشهر إلى أن يختفي أخيراً آخر أثر للرطوبة من جثة الميت، وخلال هذه الفترة يقوم أصدقاء وأقارب المتوفى بجمع أكوام من الحصر والبسط والأقمشة القطنية وغير ذلك من أدوات لكي «لا يدخل أرض العالم الآخر كفقير ومتسول محتقر».

ويتم استدعاء صانع Niombo مختص وماهر إلى مسكن الفقيد ويجلب معه رأس الـ Niombo الذي سيصنعه والذي عمل بتحضيره منذ حدوث وفاة هذا الزعيم. وهذا الرأس عبارة عن عمل فني مصنوع من قماش قطني أحمر ومحشو في داخله بالعشب ومواد أخرى.

«ملامح الوجه فيها حيوية، الوجنتان مدورتان بكل رقة، الفم ذو الشفتين الغليظتين مفتوح بحيث تبدو فيه الأسنان ذوات الرؤوس المدببة. العينان مرسومتان بدوائر سوداء وحمراء رسماً دقيقاً ومعبراً، ولحية تزين الذقن.

يقوم صانع الـ Niombo المختص بلف جسم الميت الأسود المتفحم بعدة مئات من أمتار القماش إلى أن يصبح نواة لحزمة ضخمة من اللفافات. ويتم وصل الذراعين والساقين والقدمين التي تستند على سقالات داخلية مصنوعة بشكل فني. وأخيراً يتم رسم وشم المتوفى على صدر التمثال وعندما ينتهي صنع الـ Niombo يكون ارتفاعه قد تجاوز ارتفاع البيت نفسه».

وفي يوم الدفن تشارك أولاً كل القرية بوليمة ضخمة تقوم خلالها مجموعة من الرجال بحمل الـ Niombo في رقصة الدفن. ويدور الـ Niombo الذي يعلو على جميع المساكن أثناء الرقص. وفجأة تتوقف الحركات القوية وينتظم المجتمعون في موكب صامت. يحمل التمثال الضخم في استعراض احتفالي إلى مكان الدفن. وعندما يوضع الـ Niombo في القبر يقفز فوقه جميع المشاركين في التشييع في الهواء. فمن يقصر في ذلك أو كان ضعيفاً لا يستطيع القيام بذلك فسوف يلحق بالمتوفى قريباً. ثم يقوم جميع الحاضرين بالمساعدة في ردم التراب بهذا القبر الضخم الذي يتوج أخيراً بجميع أدوات الميت وممتلكاته، وبعدها يقوم المشيعون بحرق بيت المتوفى.

ولكن إلى أين يتوجه الميت الآن؟ فبما أنه كان رجلاً محترماً وواسع النفوذ فانه يذهب إلى أرض السعادة الأبدية. ولايشك أحد بأن كرم وسخاء أصدقائه وأقاربه، الذين اعدوا لرحلته بهذه المظاهر الفخمة سيساهم في خلق أعمق الانطباع لدى مواطنيه الجدد في أرض الأرواح.

وكما سبق أن عرفنا لدى قبائل بانغفة، فان أرض الأموات في اعتقاد الشعوب التي تمارس الزراعة، ليست أبداً مكاناً للخوف والرعب، فالأرواح تعيش هناك تماماً كما كانت تعيش على الأرض ولكن دون هموم وآلام. وحياتها الجماعية هناك تشبه حياة القبيلة التي تركتها. هناك تزرع وتجني وتتحارب وتحب ولكن تحت ظروف مثالية. وتعرف الشعوب التي تمارس الزراعة تمام المعرفة ماذا ينتظرها في العالم الآخر. فليس في نظرتها الفلسفية إلى الكون أي شكوك مقلقة فيما يخص هذه الناحية.

أما تصورات الشعوب الرعوية وشعوب بولينزيا المرتبطة بظاهرة الموت فتختلف عن هذه الفلسفة اختلافاً جوهرياً. إذ أن أهمية الفرد متطورة لديهم تطوراً كبيراً يفوق ما هي عليه لدى مجتمعات الشعوب الزراعية التي تشترط قيام حياة جماعية. فاعتقادهم في استمرارية حياة روح الميت قليل جداً بالنسبة لأولئك. وتصوراتهم عن الحياة في العالم الآخر مشروطة بنظمهم الطبقية والطائفية. فبينما ينتظر النبلاء والزعماء استمراراً للمزايا والنفوذ الذي تمتعوا به في الحياة الدنيا، حتى بعد موتهم، ينكر الخلود على الطبقات الدنيا من الشعب أيما انكار.

ففي جزيرة تونغا مثلاً، الحكام والمسيطرون هم المخلدون، بينما تتوقف حياة بقية أفراد القبيلة من البسطاء لحظة وفاتهم.

وكذلك لا تقر كثير من الشعوب الرعوية الافريقية بحق الاستمرار في حياة أخرى بعد الوفاة إلا للزعماء ومن يمارسون مهنة الطب في القبيلة. بينما ليس هناك أمل لبقية أفراد الشعب وخاصة النساء في حياة في العالم الآخر. وبشكل عام يعني الموت لدى هذه القبائل زوال وانحلال للإنسان. ولا تقتنع بفكرة الخلود إلا في حالات استثنائية. وتظهر آثار هذه النظرية الفلسفية للكون لدى العديد من الشعوب التي تمارس اقتصاد الجمع كما هو الحال في قبائل «أراندا» و«لوريتيا» الاسترالية التي تعتقد أن الروح تستقر بعد الموت في أرض ما من العالم الآخر، لكنها سرعان ما تنطفئ هناك كلياً. كذلك كان الاعتقاد عند العرب قبل الإسلام وعند اليهود القدماء باستمرار حياة الروح محدوداً جداً. ومع ازدياد أهمية الإنسان الفرد الحي بدأ الاعتقاد يزداد بأن الموت يضع نهاية لا رجوع فيها لأعمال وأفكار الإنسان.

وقد أدت عبادة الشمس التي اختصت بها الشعوب التي تتبع نظام حق الأبوة إلى تفضيل الدفن على رؤوس الشجر أو على سقالات خاصة مرتفعة لكي يتسنى بذلك للمتوفى أن يتعرض أطول مدة ممكنة للشعاع المبارك القادم من النور المقدس. ولهذا السبب تدفن كثير من قبائل الهنود الحمر في أميركا الشمالية موتاها على الأشجار أو على سقالات مصنوعة من جذوع الشجر.

(رسم رقم ١٠)

فالمناطق الغنية بالغابات والمنتشرة على وادي الميسيسيبي شرقاً وغرباً تحوي مقابر من هذا النوع للهنود الحمر يستلقي فيها الأموات ملفوفين بالحصر أو بجلود الحيوانات

أو بقشور الشجر على قمم الأشجار أو على سقالات أقيمت خصيصاً لهذه الغاية. وتزينُ هذه القبور الهوائية بجماجم الحيوانات وأقواس وسهام أو أضاحي أخرى مثل التبغ. وحتى تحت تأثير دخول الدين المسيحي ظلت كثير من القبائل متمسكة بتقاليد الدفن التقليدية تلك. ويعتقدون كما يعتقد الهندي الأحمر العجوز «سبوند نيل» من قبيلة «سيشانخو» أن الواحد منهم لا يذهب بعد وفاته «إلى حيث يذهب الرجل الأبيض، وإنما إلى حيث يذهب الرجل الأحمر منذ أقدم الأزمنة».

وهناك نوع آخر للدفن هو وسط بين الدفن في أعالي الشجر أو السقالات وبين الدفن في الأرض، تمثله طريقه الدفن لدى قبائل «أوجيبغا» الهندية الحمراء وما تزال متمسكة بمعتقداتها القديمة.

فما تزال الديانة المسماة «ميدفيفين» تسيطر على تفكيرهم، إذ يدفنون موتاهم في الأرض لكنهم يقيمون فوق القبر بيتاً صغيراً مسقوفاً له شكل الصندوق. ويبنى هذا الشكل بطول القبر باتجاه شمال - جنوب بحيث يكون وجه الميت موجهاً نحو الجنوب. ولهذا البناء فتحات على شكل نوافذ يقدم خلالها للميت الطعام والشراب والهدايا المزخرفة باللالئ مثل كيس التبغ والتمائم. وحتى عام ١٩٤٧ رأيت[٢] عدداً كبيراً من هذه القبور لدى الـ «أوجيفا» كما رأيت قرب هذه القبور تماثيل طوطمية ملفوفة بالقماش الملون.

وربما تطورت عادة الدفن هذه عن طريقة الدفن في الأعالي التي منعتها السلطات الآن.

وأحياناً تحدد الطريقة التي حصلت فيها الوفاة، لدى الشعوب البدائية، طريقة الدفن. فقبائل «ميسيساوغا» تدفن الصياد عندما يموت على سقالة مرتفعة جداً، بينما تحرق جثث الذين سقطوا في الحرب ثم تأخذ رمادهم فيما بعد إلى مقبرة قرب القرية. أما عادة قبائل «شيين» بدفن موتاهم على سقالات في سلال العربات البدائية المسماة لدى الهنود الحمر «ترافوا» "Travois" فهي رمز لحياة التجوال التي يعيشها الهنود الحمر في منطقة «بريري».

وقد كان لطريقة الدفن على السقالات تأثير عميق ومباشر على عادات الدفن لدى شعوب الثقافات الرفيعة.

وهكذا يعتقد الزرادشتيون في الهند بعدم وجوب ملامسة جثة الميت للأرض أبداً، ولذلك يدفنون موتاهم في «أبراج الصمت» حيث تتقاطر أسراب الصقور على الجثث وتلتهمها حتى الهيكل العظمي.

بهذه الطريقة يوفرون على الجثث عملية التفسخ والتعفن. ويحال دون تلوث الأرض والنار بالدرجة الأولى، بالنجاسة الصادرة عن الجثث. كما أن ما يسمى بالتوابيت «المهلكة للجثث» في أسوس، تؤدي غرضاً مشابهاً. وقد كتب عنها «بليثيوس» أنها: «تأتي على جثث الموتى خلال أربعة أيام». وقد أثبت العلم الحديث أن هذه التوابيت توضع في جير يحتوي على الألمنيوم دون أن تغلق باحكام لتمنع دخول الذباب الأزرق الذي كتب عنه «لينه»: «يمكن لسلالة ثلاث ذبابات زرقاء أن تلتهم حصاناً ميتاً بأسرع مما يمكن لأسد أن يفعله».

وقد أدى الموقف الذي تعتبر فيه جثة الإنسان مجرد جسد ميت، ولا تعامل بأية أهمية لدى العديد من القبائل الرعوية والشعوب ذات الصلة بها، إلى ترك جثة الميت مسجاة بكل بساطة في المكان الذي توفي فيه. وتنتشر هذه العادة بشكل خاص في شرق افريقيا. وفي بولينزيا يلقى بالجثث في حفر لتلاقي مصيرها فيها دون أية عناية خاصة. وهناك ظاهرة أخرى وهي أن الشعوب التي لا تعير كبير اهتمام لأجساد موتاها، تحفظ جثث نبلائها وأعيانها «لأجل غير مسمى» ببذل أقصى درجات الجهد في سبيل ذلك.

أما الشعوب التي تتبع النظام الأبوي، والحديثة نسبياً، فتفضل غالباً حرق الجثة، هذه العادة التي ترمز إلى الموت المطلق الذي لا رجوع عنه. وفي مناطق عديدة - بولينيزيا على سبيل المثال - يقتصر حق الحرق على جثث الزعماء وذوي النفوذ والسلطة، حيث يتعلق نوع كومة الحطب المخصصة للحرق بالمنزلة الرفيعة التي يتمتع بها صاحب الجثة. في الهند وشرق آسيا أصبحت عادة حرق الجثث جزءاً من الطقوس الدينية، وتعتبر احتفالات حرق الجثث، وبخاصة على ضفاف نهر الغانج من أقدس عادات الهندوس.

بالنسبة للشعوب القطبية في اميركا وآسيا تعتبر ثقافاتها مزيجاً من عدة نماذج ثقافية، فهي أقرب إلى العالم الروحي animist عند الشعوب الزراعية منها إلى

تصورات الشعوب التي تتبع نظام حق الأبوة والتي تقترب من التصورات الاقطاعية. ترى هذه الشعوب أن وجود الروح لا يقتصر على الإنسان والحيوان، وإنما يتعدى ذلك إلى الشجرة والسحابة والصخرة والنهر. وهذا ما يطلق عليه شعب ناسكابي اسم «ميستابيو». فحتى الجسد الميت تسكنه قوى سحرية يمكنها التأثير على مصير الاحياء سلباً أو ايجاباً.

وكنتيجة للتطور الثقافي غير المتجانس Heterogen فقد أخذت الشعوب القطبية تقاليد الدفن المتبعة عند جميع الأنظمة الاجتماعية، سواء طريقة الدفن في التراب أو في وضع الحجارة فوق القبر أو ترك الجثة فريسة للحيوانات أو الحرق أو الدفن في الأعالي.

فقبائل «غيلياك» و«تشوشون» مثلاً تقوم بحرق موتاها ثم جمع رمادهم وبناء كوخ صغير فوقها يحظى بعناية واحترام من قبل ذوي المتوفى. وعلى عكس ذلك يرقب المنغوليون بكل بساطة كيف تنهش الكلاب جثة ميت كان قبل ساعة يعيش بينهم.

ومن المفيد في هذا المجال أن نلقي نظرة سريعة على عادات الدفن لدى شعب «ناتشز» وهو شعب منقرض كان يسكن وادي الميسيسيبي الأسفل. ولا تذكر تقارير الكتاب القدماء أبداً فيما إذا كانت هناك مراسيم طقوسية تقام لدى وفاة أحد أفراد الطبقة الدنيا. ولكن من المؤكد أن دفن أحد ممن يطلق عليهم اسم «الشمس» أي أحد نبلاء السلطة، كان حدثاً في غاية الأهمية. وقد ترك لنا المبشر اليسوعي «غرافير» و«بينيغوث» وصفاً شيقاً لحفلات الدفن تلك التي كان على العديد من الناس الأبرياء أن يموتوا خلالها اكراماً للمتوفى من هذه الفئة، فليس الطباخون والخدم فقط هم الذين كان عليهم اصطحاب المتوفى إلى العالم الآخر ليواصلوا أداء مهامهم هناك، وإنما أيضاً أطفال صغار يختارهم أهلهم لهذا المصير. ففي عام ١٧٠٤ توفيت «شمس» انثى، فشنق زوجها - الذي ينحدر أصلاً من الطبقة الدنيا - ليرافقها إلى قرية الأموات الكبرى، وقد سجي كلاهما في بيتهما بأفخم مظاهر الاحتفال. ونصبت أربع عشرة سقالة في ساحة السوق وأمام كل منها ينتظر رجل بكامل زينته يسمى «موريتوروس» وهو الذي قدم نفسه نذراً للمتوفية عندما كانت على قيد الحياة. وكل من هؤلاء الرجال الأربعة عشر قام بنفسه بجدل الحبل الذي سيشنق فيه. كانت وجوههم مصبوغة باللون البرتقالي. ولكل من هؤلاء خمسة من العبيد يقومون على خدمته.

«وبعد مرور أربعة أيام على موت «الشمس الكبرى» » كما قال المؤلف المعاصر: بدأ الاحتفال الذي يطلق عليه اسم «مسيرة الجثث». واكراماً للمتوفى قام آباء وأمهات اثني عشر طفلاً لم يبلغوا الثلاث سنوات بعد؛ بشنق أطفالهم «وزينوا» التابوت بهذه الجثث الصغيرة. وعندما انتظم موكب الجثث، تقدمه الآباء الذين يحملون أطفالهم الموتى على أذرعهم. وفي النهاية يقوم أقارب «الشمس» المتوفاة الذين يغنون، بشنق الأربعة عشر رجلاً المزينين.

وتعتبر عادة تقديم الأضاحي البشرية اكراماً للمتوفى تقليداً خاصاً من تقاليد الثقافات الراقية. وقد تطورت هذه العادة عن تصورات هذه الثقافات عن العالم الآخر والتي تعتقد انه لا يختلف عن العالم الدنيوي بشيء، ففي تصورات الصينيين القدماء كانت السماء والنار مأهولتين بتسلسل هرمي من الموظفين لهم نفس الوظيفة التي يؤديها نظراؤهم على الأرض. وفي الواقع لم يكن باستطاعة أي من الشعوب أن يتصور العالم الآخر إلا على نمط العالم الأرضي الذي يعيش فيه بكل ظواهره المختلفة. فعندما يبارك البابا قديساً جديداً في طقوس احتفالية فانه يتوجه علناً إلى «جميع أعضاء المحكمة السماوية».

أما الاعتقاد بالبعث بعد الموت فقد تطور بشكل خاص عن النظرية الفلسفية للمذهب الروحاني لدى الشعوب التي تمارس الزراعة والذي أضيفت إليه فيما بعد التصورات الأخلاقية لدى مختلف ديانات الحضارات الراقية. كما وتنعكس التراكيب الطبقية والفئوية لدى الشعوب الرعوية في الرغبة بالاعداد بأبهى مظاهر الفخامة لرحلة الأرواح إلى العالم الآخر.

أما ربط الأموات وتقييدها بالاصفاد فهو كما رأينا قديم قدم ظاهرة الموت نفسها. وقلما وجد هناك قبر يعود إلى ما قبل التاريخ يخلو من اجراءات واضحة للحيلولة دون عودة الميت. وفي كثير من الأحيان كانت تفصل بعض العظام عن الهيكل العظمي وتلحق بها عظام أخرى، وذلك من أجل «ارباك» الميت. فقد كانوا يديرون رأس المتوفى وجهة الأرض أو يقومون بتشويهات خلعية أخرى كما تفعل الشعوب البدائية الآن التي تربط أيدي الجثة خلف العنق وتحيط القبر بمجموعة من الحواجز وتقطع رأس المتوفى قبل دفنه، وتقيم طرقات وهمية إلى القرية بينما هي في الواقع تؤدي إلى البرية، أو انها تقيد المتوفى بحبال متينة بحيث لا يستطيع معها الافلات أبداً.

وقد كان المصريون شديدي الحذر من هذه الناحية بشكل خاص. فقد دعاهم خوفهم من «أخو» أو «خو» وهو «الميت العائد» إلى اتخاذ أشدّ أشكال اجراءات الحماية غرابة.

وقد وصف الكهنة، أثناء احتفالات الدفن، أرض الأموات بأنها دار السعادة المطلقة، ولكن أحداً من الحاضرين لم يقتنع بأن أي أرض أخرى يمكن أن توازي السعادة التي في مصر. وهكذا استخدموا أكثر الأساليب وحشية لمنع «أخو» من العودة. فقد كانوا يقطعون رؤوس الأموات ويدبرون لهم مختلف أنواع «المقالب» وينتزعون من أجسادهم الأعضاء الهامة كالقلب والمخ.

ومن عادة ربط الجسم القديمة بحبال ذات عقد، تطور لف الجثة المحنطة لفاً محكماً بأربطة يبلغ طولها عدة أمتار وعقدها جيداً في نهاياتها. وكانت ترفق أحياناً بصور مرعبة، لثني الجثة عن الرغبة في العودة من خلال هذه الاجراءات الارهابية. والهدف من التابوت الذي يصنع على هيئة الأجسام البشرية وعلى مقاسها هو بالدرجة الأولى خلق شعور بالضيق والحصر. كما انه كان مجهزاً بأقفال معقدة يستحيل فتحها من الداخل. ومن أجل المزيد من الحيطة تعلق على التوابيت نفسها كتابات تحكي عن مسرات العالم الآخر بألوان وهاجة، بحيث تدفع الميت، الذي أعد نفسَهُ للهرب، بالتأكيد للتخلي عن خططه لدى قراءتها.

وقد حنط «الانكا» في بيرو حكامهم وألبسوهم أفخر الحلل، وبعد ذلك ربطوهم بوضعية القرفصاء ليصبحوا على شكل حزمة مربعة. ومثل تلك الحزم كانت تحتوي أحياناً على جثث مختلفة ركب عليها رأس واحد اصطناعي للايحاء بأن ما فيها ليس سوى مومياء واحدة. فقد اعتقدوا بأن هذه الأجسام المحفوظة تملك مواصفات سحرية، وحملوها في غزواتهم كتمائم لجلب الحظ. وقد عثر في معبد الشمس في «كوزكو» على كراس ذهبية مصفوفة بشكل دائري حول صورة الشمس، وعلى مومياءات حكام سابقين تلبس أقنعة من ذهب وأدوات زينة نفيسة للذراع والشعر.

كما قام «الأزتيك» في المكسيك بتحنيط أكثر الأموات وجاهة. ويدخل في عداد هؤلاء: المحاربون الذين سقطوا في المعركة، والنساء اللواتي متن أثناء الولادة. هذه الصفوة المختارة فقط اعتبرت مخلدة. فأرواحها ستعيش في الشمس حياة جديدة.

أما حكام «تشيبتشا» الميتون فيدفنون في قبور مخفية، تحيط بهم أجساد النساء والخدم الذين قتلوا اكراماً لهم. وهؤلاء مجهزون بأكياس مليئة بحب الكاكاو والجرار المملوءة بالشيشا[٢]. ويشبه القبر «المَخْفِيّ» هذا الممرات الوهمية والمتاهات التي شيدت داخل الاهرامات المصرية، والتي لا يقتصر دورها على مجرد وقاية المومياءات من لصوص المقابر بل أيضاً كان لها هدف آخر وهو خلق العراقيل أمام عودة الميت. وفي التيبت القديمة وجدت الطريقتان التقليديتان الخاصتان بالشعوب التي تسير على نظام حق الأبوة، وهما التدمير الكلي لجثث عامة الشعب وتحنيط جثث النبلاء وخاصة «اللاما». فبينما تترك جثة الميت من عامة الشعب فريسة تنهشها الوحوش. يحفظ رماد أو مومياء «اللاما» في نصب تذكارية لها غالباً شكل المعبد، فإذا ما أتت الوحوش على جثة مرمية اعتقدوا أن روح صاحبها تصعد إلى السماء، إذا ما نقرتها الطيور أو اقتطعت أجزاء منها وحملتها بعيداً. أما إذا افترست الكلاب والخنازير جثة الميت، فان روحه سوف تبعث في الأرض من جديد. فالرجل الصالح تأتي الحيوانات على جثته سريعاً، أما الطالح الذي عليه أن ينتظر عقابه في العالم الآخر، فلا تلتهمه الحيوانات بسرعة. وقد انتقلت الأبواق والطبول المصنوعة من عظام البشر التي يستخدمها رجال الدين «اللاما» عن التصورات الروحية القديمة للشعوب البدائية إلى الحضارات الراقية. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن عادة إلقاء خطب تأبين الأموات التي نشأت عن الاعتقاد بأن الأموات يستطيعون سماع ما يقال لهم جيداً، لكن دون أن تكون لهم القدرة على الإجابة.

وكذلك فان عادة لبس أو حمل رموز سطحية معينة في حالات الحداد تعود إلى ذلك الزمن الموغل في القدم.

فالشعوب البدائية تصبغ وجوهها بالأسود والأبيض أو بألوان أخرى، لحمل المتوفى على الاعتقاد بأنهم هم أيضاً أشباح وليسوا كائنات حية يمكن أن يلحق بها جسد المتوفى. فمظاهر الزهد والقناعة التي حكم بها الاحياء على أنفسهم طوعاً يقدمون عليها لتهدئة ألم وغيرة المتوفى وثنيه عن الرغبة في العودة إليهم ثانية.

ورغم علم الإنسان العصري المتحضر وثقافته، يداهمه الموت وهو في غفلة منه، شأنه في ذلك شأن الإنسان البدائي الذي اعتقد أن الموت ناجم عن وقوع الإنسان ضحية ساحر شرير.

أما مسألة ان كنا الآن سعداء أم تعساء بفكرة أن وجودنا على الأرض محدود بفترة زمنية معينة، فمتعلقة بنظرتنا الفلسفية التأملية إلى الكون، وبالشكل الذي سعينا فيه لنفيد الناس الذين عشنا بينهم، وأخيراً بآثار الأعمال المرئية وغير المرئية التي نخلفها.

الهوامش:

١ – شكل من أشكال توابيت الموتى .
٢ – المؤلف .
٣ – مشروب مستخرج من الذرة الصفراء ، يصنعه الهنود الحمر في أميركا الجنوبية .

الفصل السادس عشر

ملحق صور

الفصل الأول

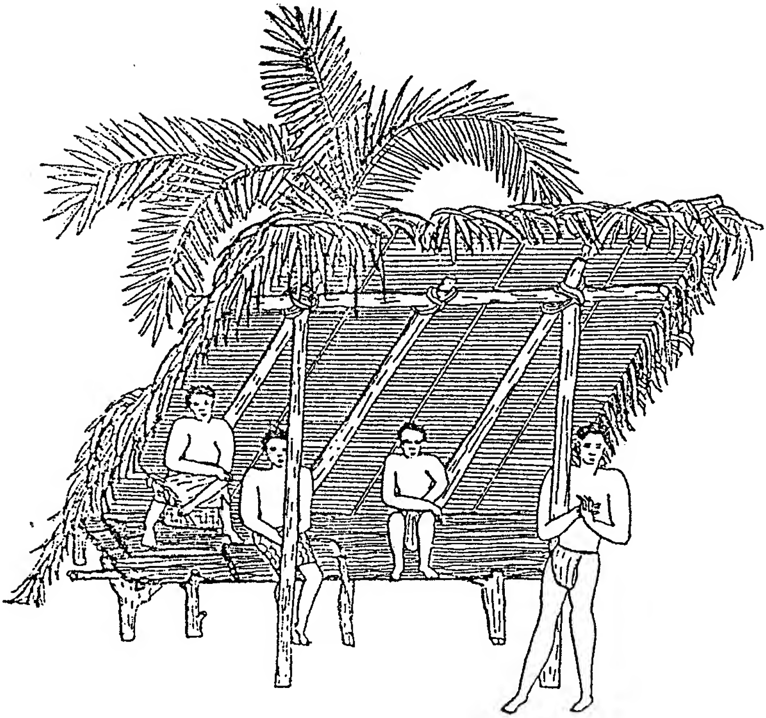

واقية الرياح عند الاندمان

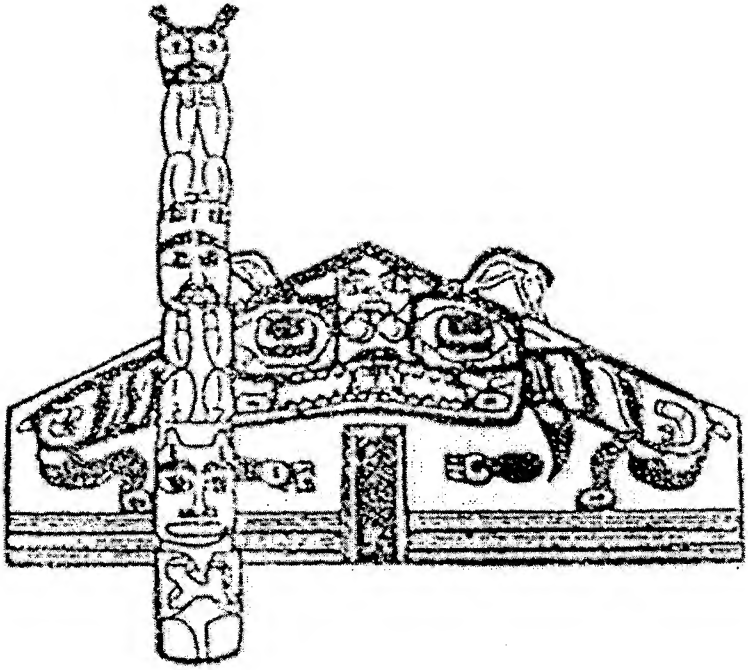

مسكن ذو زوايا عند هنود كواكيوتل

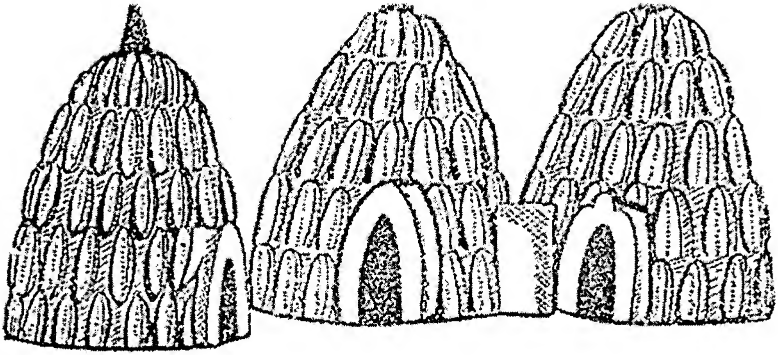

بيوت طينية "كاميرون"

"اتوكول" من أعالي النيل

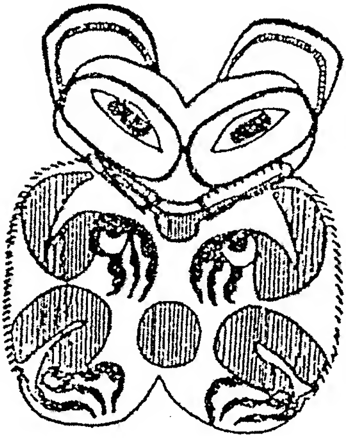

زخرفة بيتية على شكل دب "اميركا الشمالية"

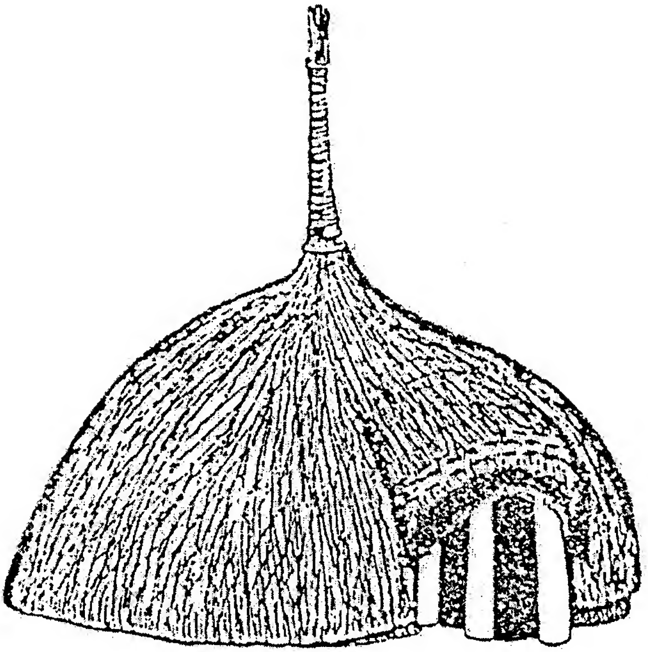

بيت الباندا "افريقيا الاستوائية"

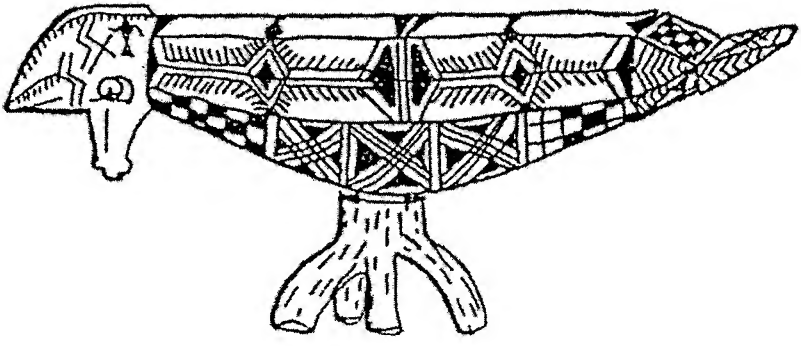

مساند للرأس مختلفة الشكل

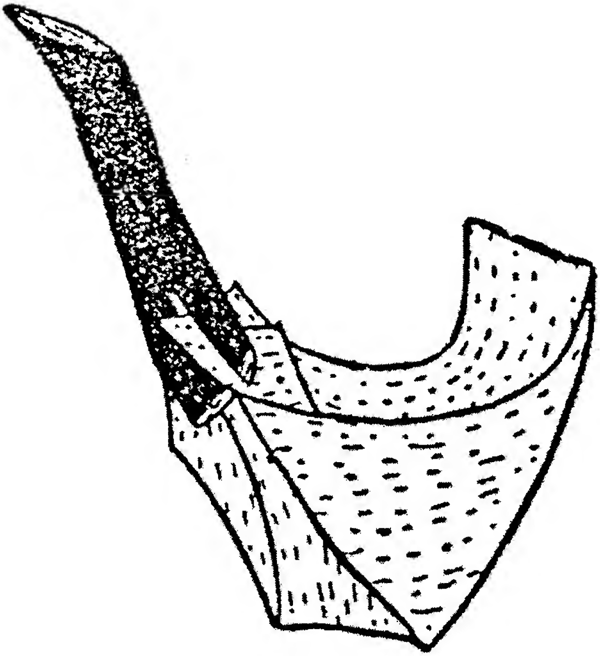

وعاء من لحاء الشجر

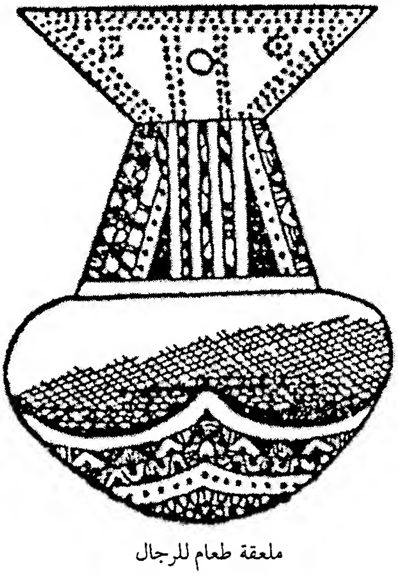

ملعقة طعام للرجال

الفصل الثاني

الزوجة المفضلة عند زعيم القبيلة في الكونغو

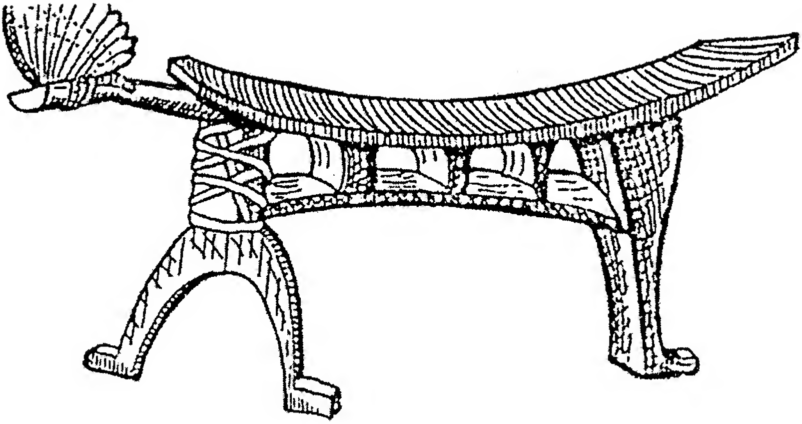

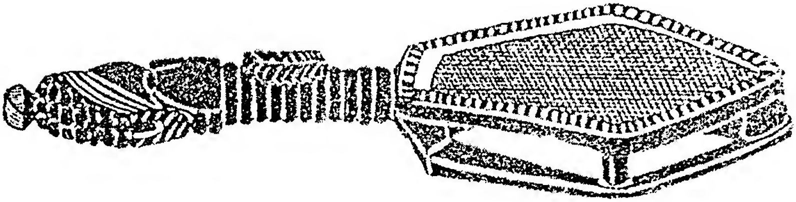

علبة أدوات الزينة "غرب افريقية"

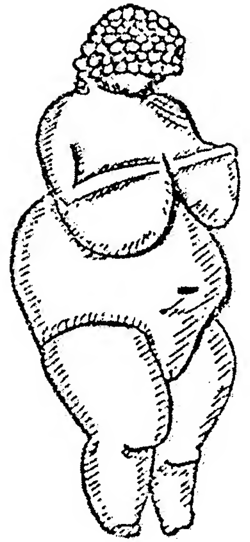

فينوس فلندورف

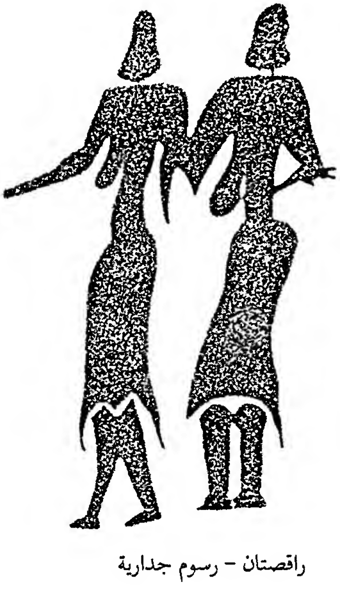

راقصتان - رسوم جدارية

تسريحة بشكل خوذة "غرب افريقيا"

تسريحة شعر من الكاميرون

عقد من المحار يعود لعصر ما قبل التاريخ

الفصل الثالث

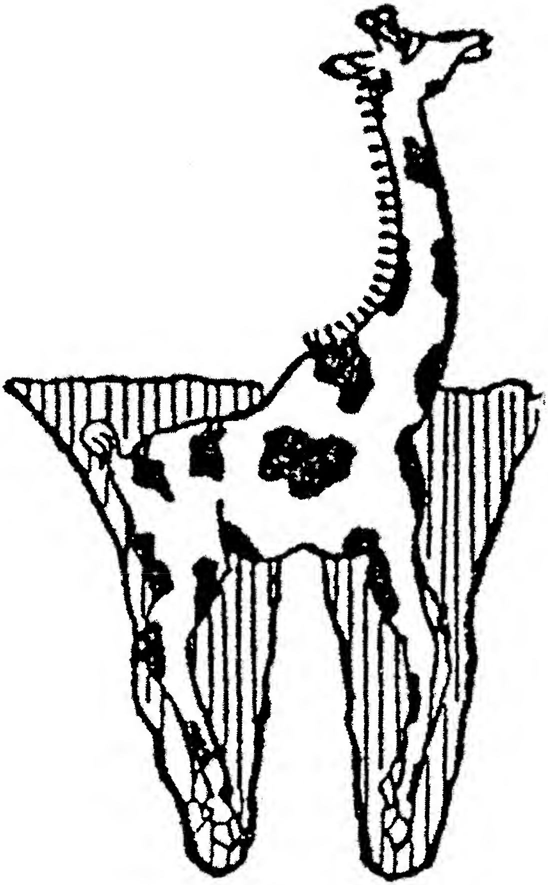

حفرة لصيد الزرافة

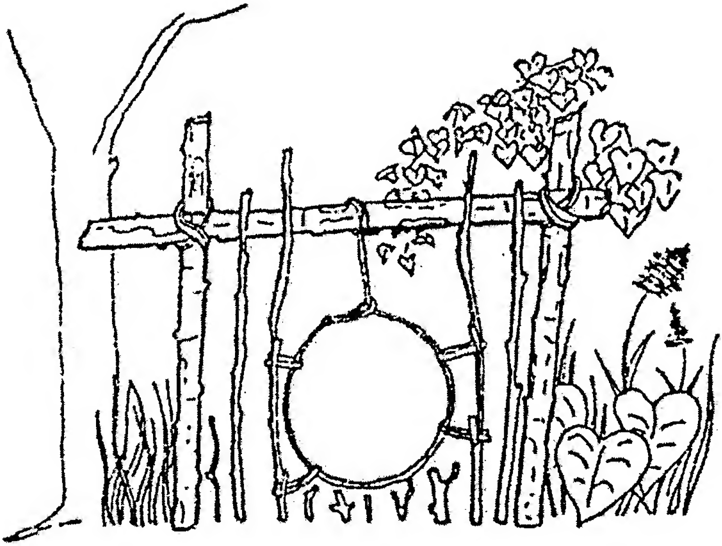

انشوطة صيد

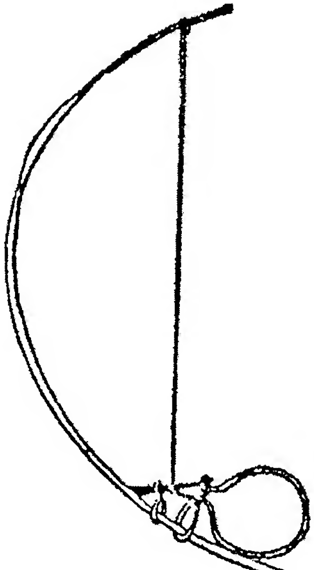

فخ لصيد الفئران

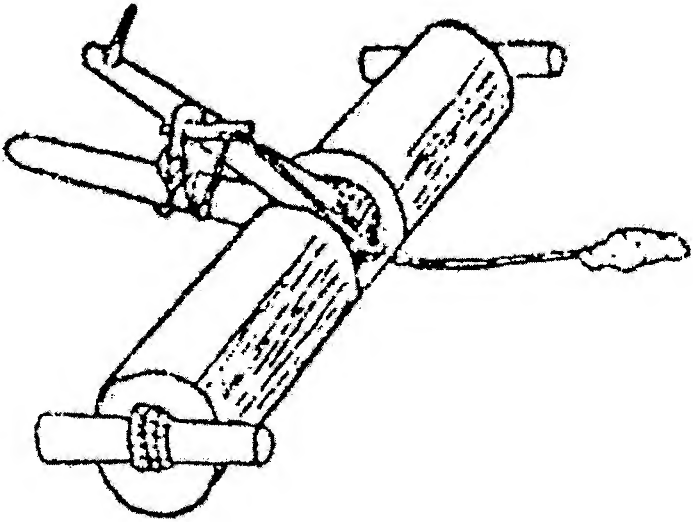

مصيدة ذئاب وثعالب عند الاسكيمو

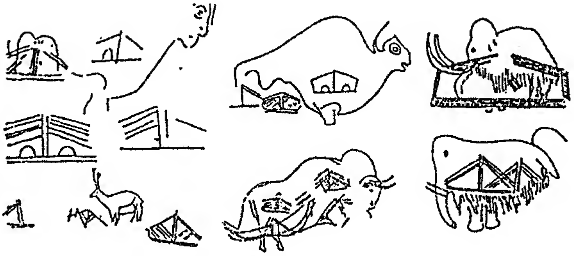

Eiszeitliche Darstellungen von Schwerkraftfallen

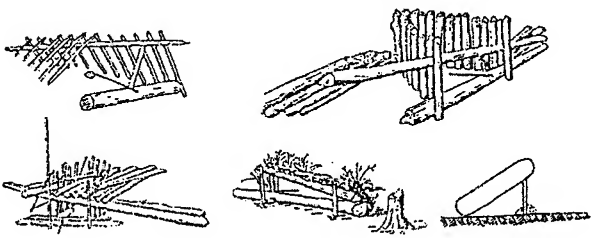

نماذج من المصائد ذات الثقل الهابط

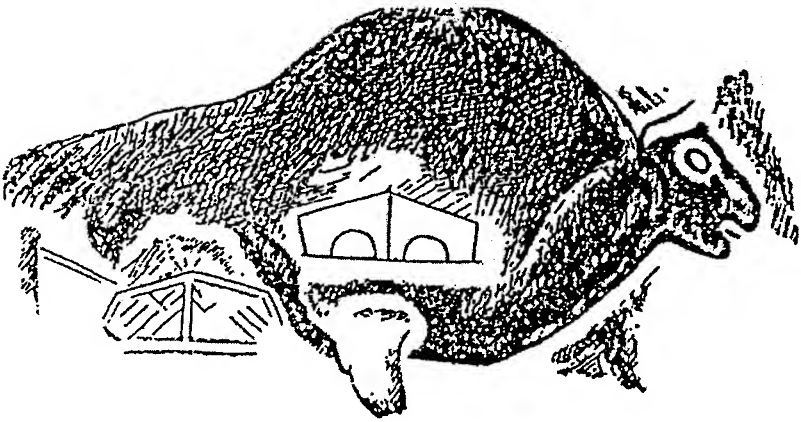

صورة جاموس في المصيدة

عصا السحر المستخدم بالصيد بواسطة المصائد

الفصل الرابع

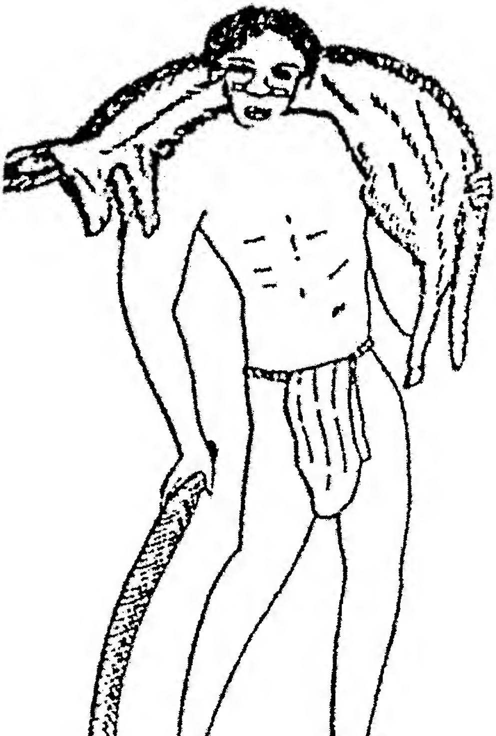

قناص استرالي

صيادون يرتدون أقنعة نعامة

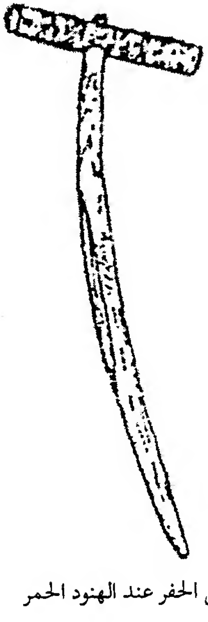

عصي الحفر عند الهنود الحمر

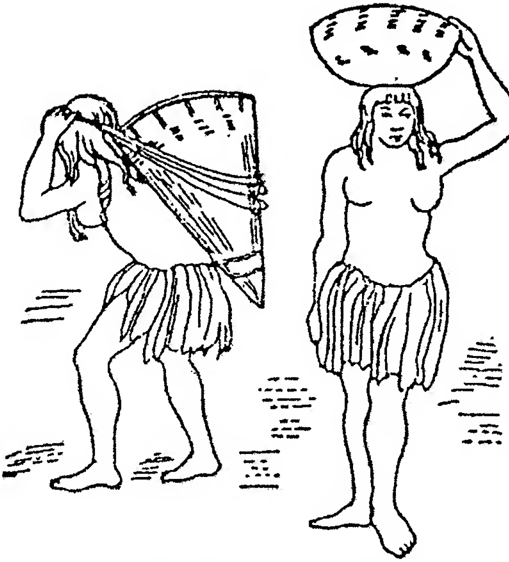

نساء من كاليفورنيا تحمل سلال للماء وبذور النبات

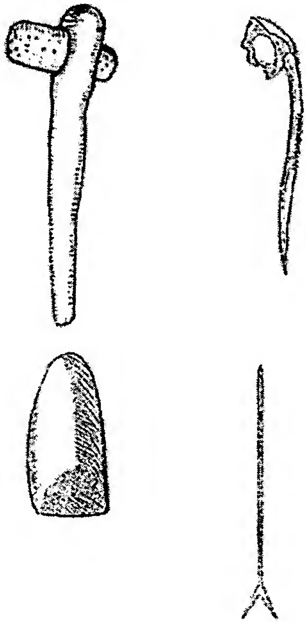

بلطات من العصر الحجري

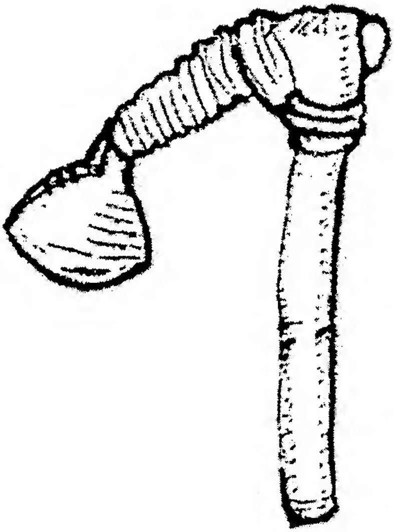

فأس حديدية ذات قبضة خشبية

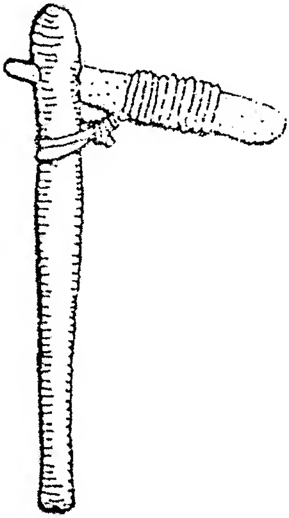

فأس حجرية ذات قبضة خشبية

نساء افريقيات أثناء العمل الحقلي

بيت المؤونة - نيوزيلاند

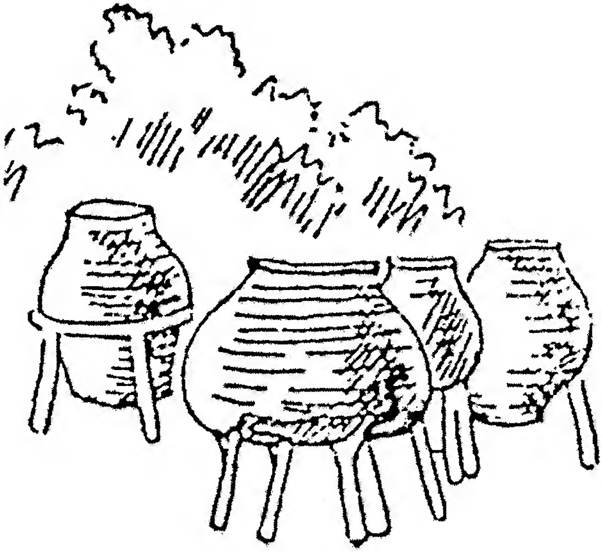

أوعية حفظ المؤونة - نيوزلاند

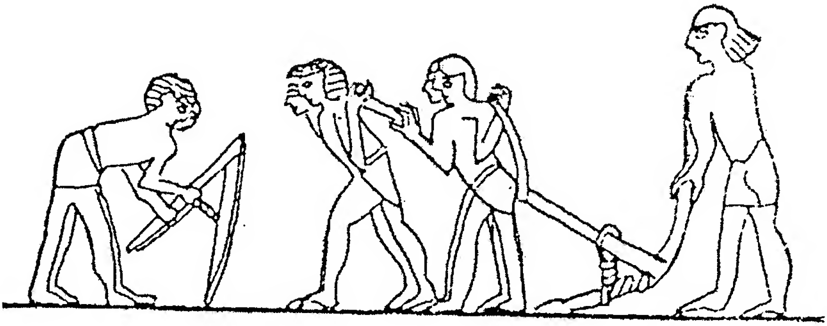

المحراث المصري

الفصل الخامس

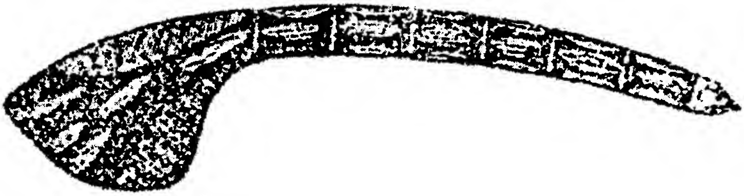

عصا طحن "استراليا"

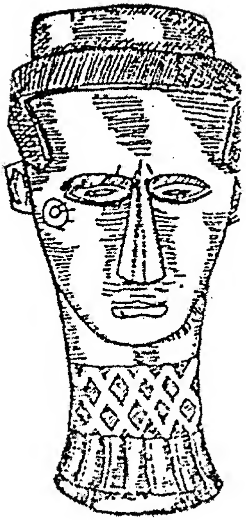

آنية شرب خشبية على شكل رأس "جنوب الكونغو"

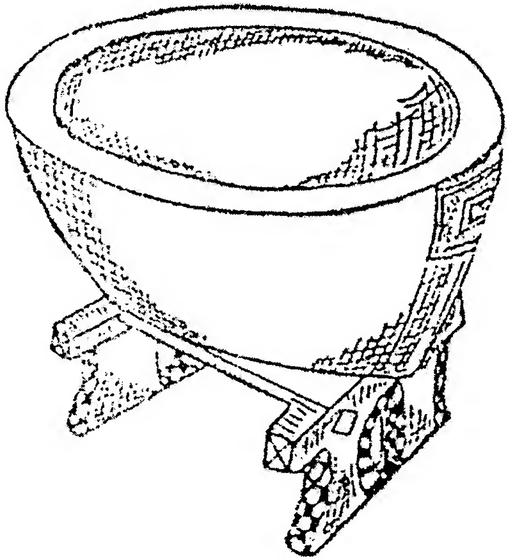

صحن طعام من الخشب "جزر الكارولين"

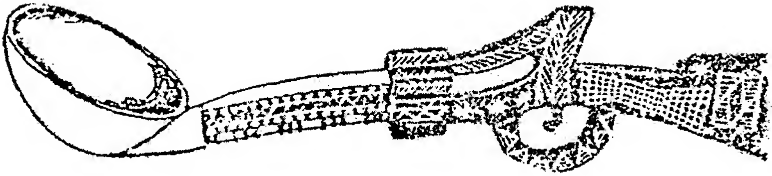

مغرفة طعام من الخشب

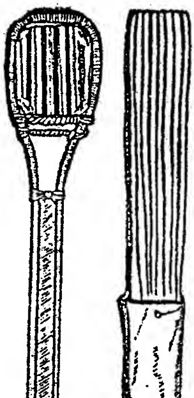

مطرقتان لصنع قماش من لحاء الشجر "من وسط سيليبس وجزر سانتاكروز"

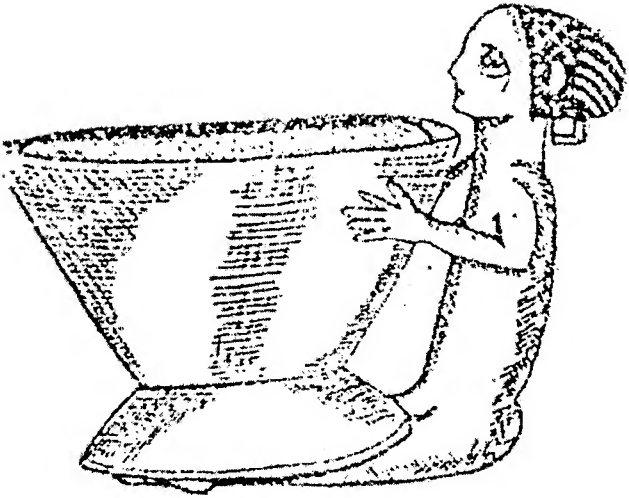

آنية طعام خشبية

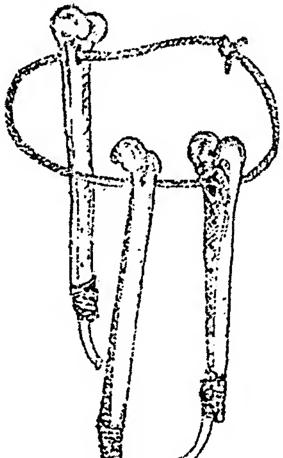

سكاكين من العظم "شرق بوليفيا"

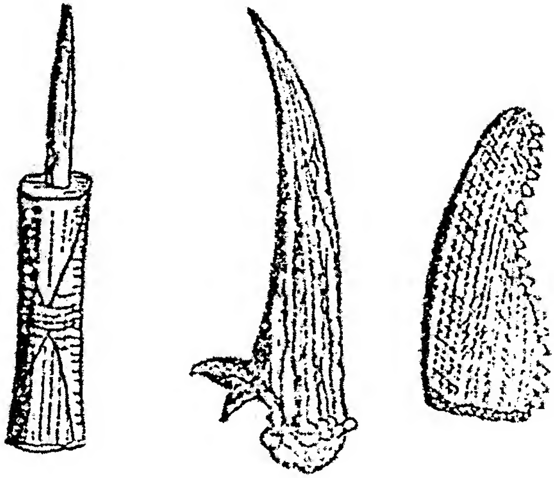

أدوات عظيمة من أرض النار

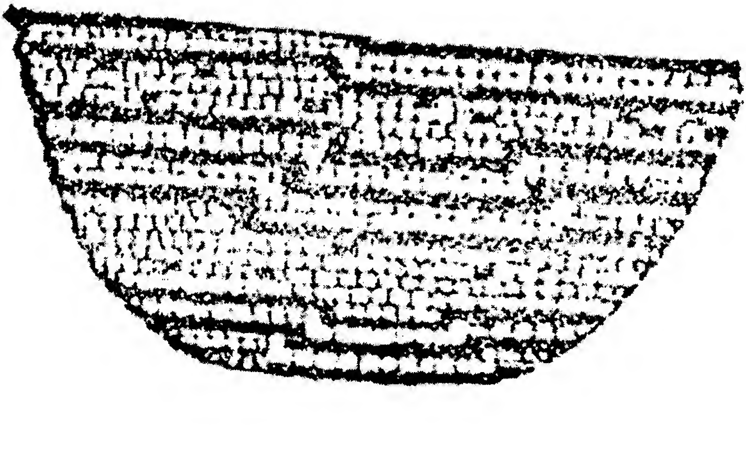

سلة مجدولة "كاليفورنيا"

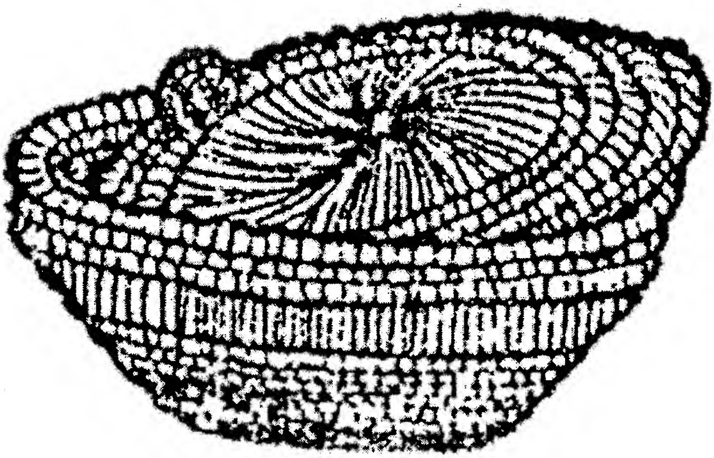

سلة ذات غطاء "افريقيا"

نساجة سجاد لدى قبائل نافاهو

الطريقة الحلزونية لصنع الفخار

صنع الأواني من أكاليل غضارية

تيس مجنح مقبض مزهرية فضية "القرن الرابع ق .م"

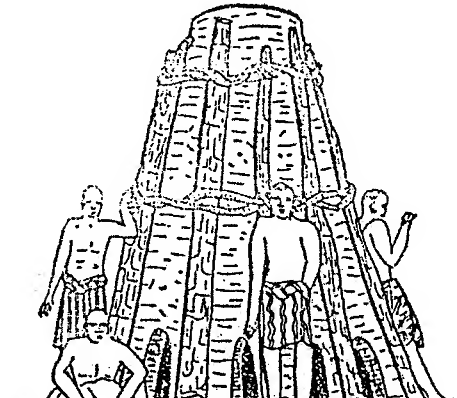

فرن عالٍ "من شرق افريقيا".

الفصل السادس

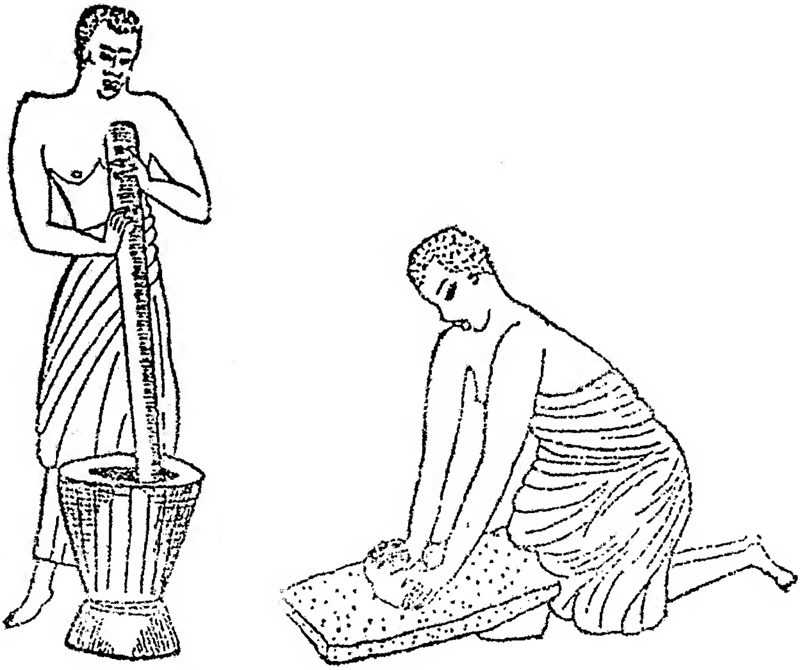

نساء البانتو أثناء تحضير الطحين - العجين

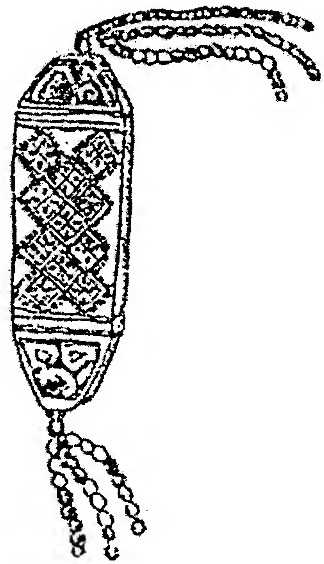

علبة من نبات استوائي يستخدم كمقبلات من "تيمور"

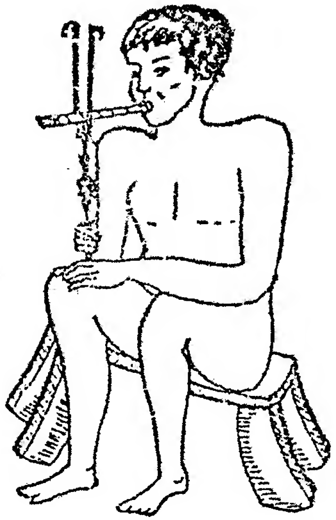

هندي أحمر يدخن مستخدماً حمالة السكاير

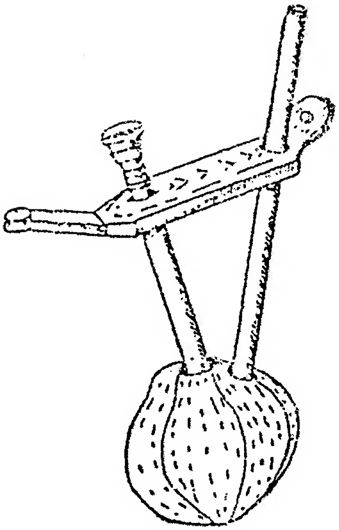
نرجيلة "هوكا" من افريقيا

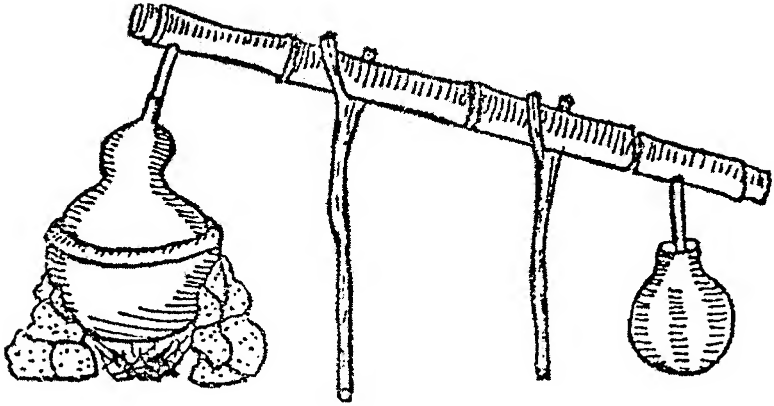
جهاز تقطير الكحول

نساء يقمن بصنع البيرة

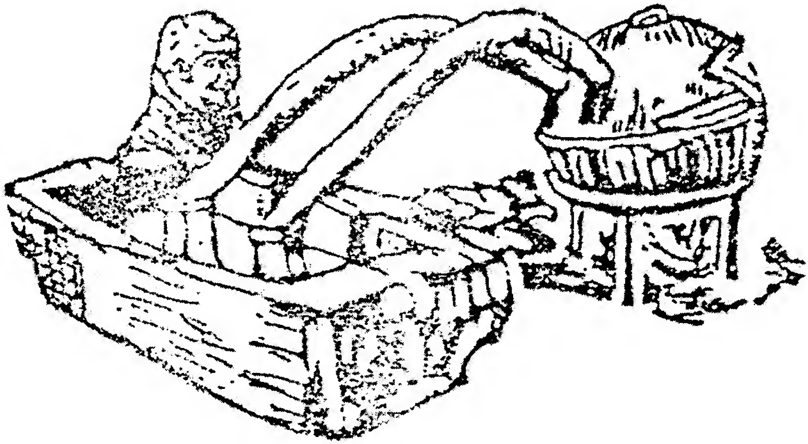

جهاز تقطير قرقيزي

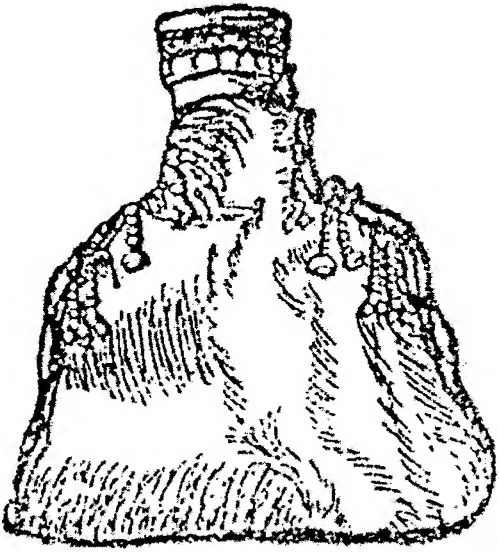

آنية لحفظ شراب كوميس من جلد الحصان

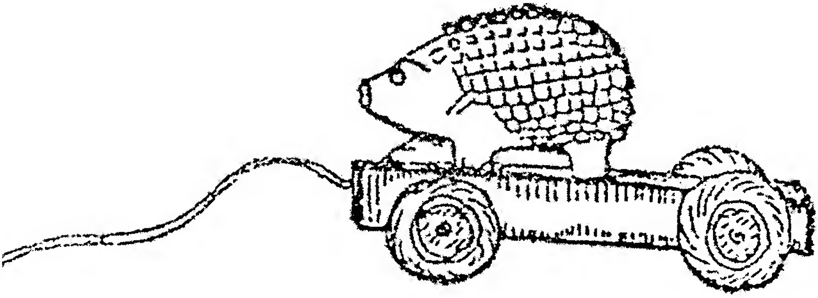

قنفذ "العبة" من آثار سوسة تعود لعام ٢٠٠٠ ق.م

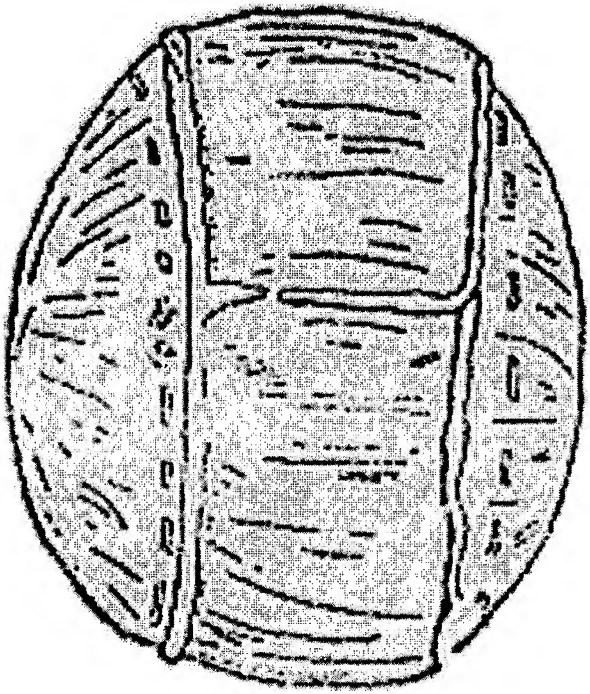

كرة قدم عند قبائل ماندان الهندية

الفصل السابع

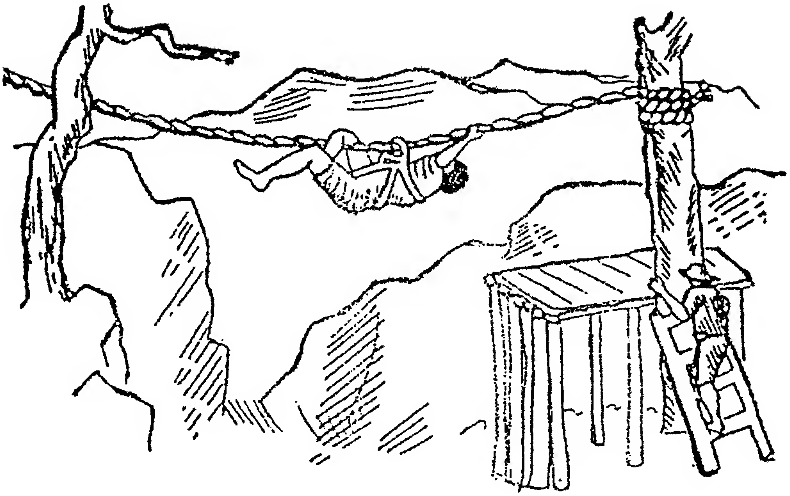

جسر من حبل "بيرو"

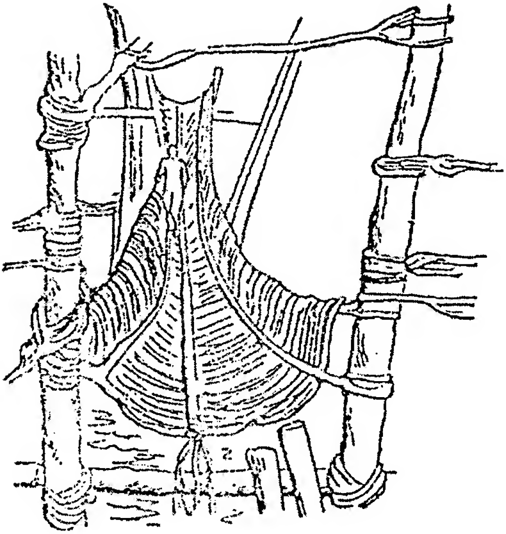

جسر من نبات الليانا "غواتيمالا"

رسم يمثل طريقة حمل الأواني

شرائط حمل الأثقال على اليسار في أميركا الشمالية والجنوبية ،
في الوسط : ألاسكا والمكسيك وعلى اليمين : في الكونغو

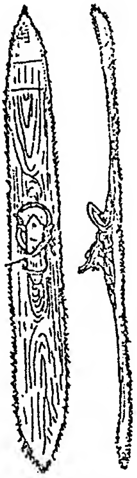

حذاء ثلجي ملبس بجلد الوعل

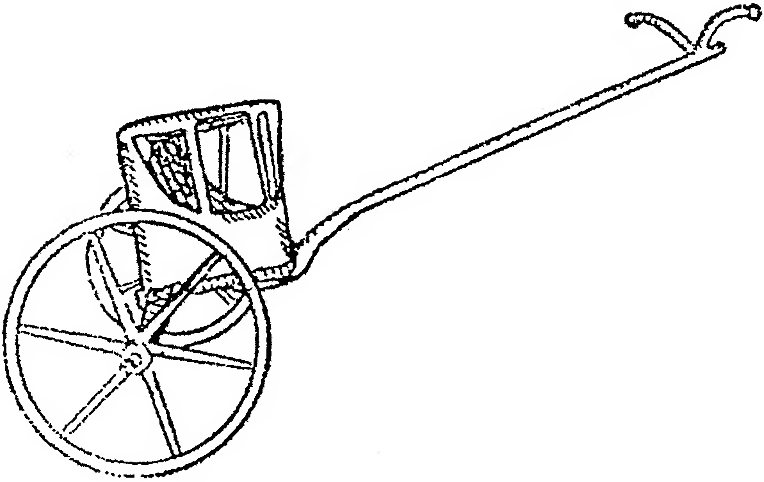

عربة مصرية "١٤٠٠ ق.م"

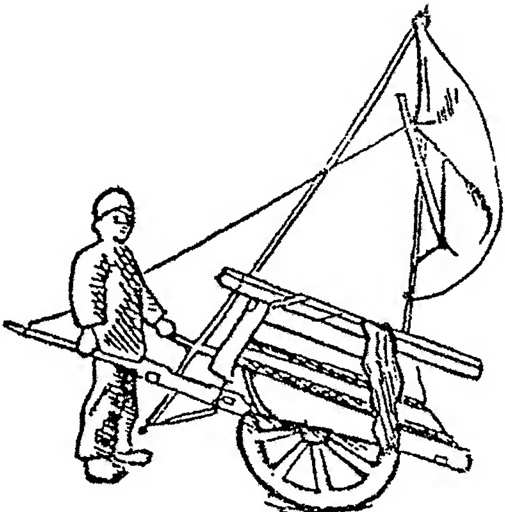

عربة دفع صينية ذات صارية

ناقلة مائية من جذور الشجر

قارب من جذع شجرة مجوف

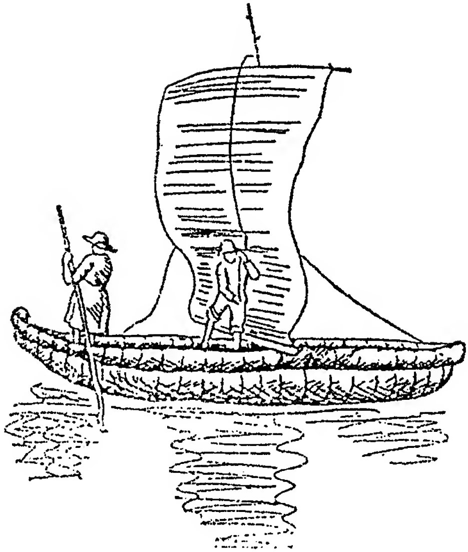

"بالسا" قارب بحيرة تيتيكاكا

مجداف من جزر "سالامون"

الفصل الثامن

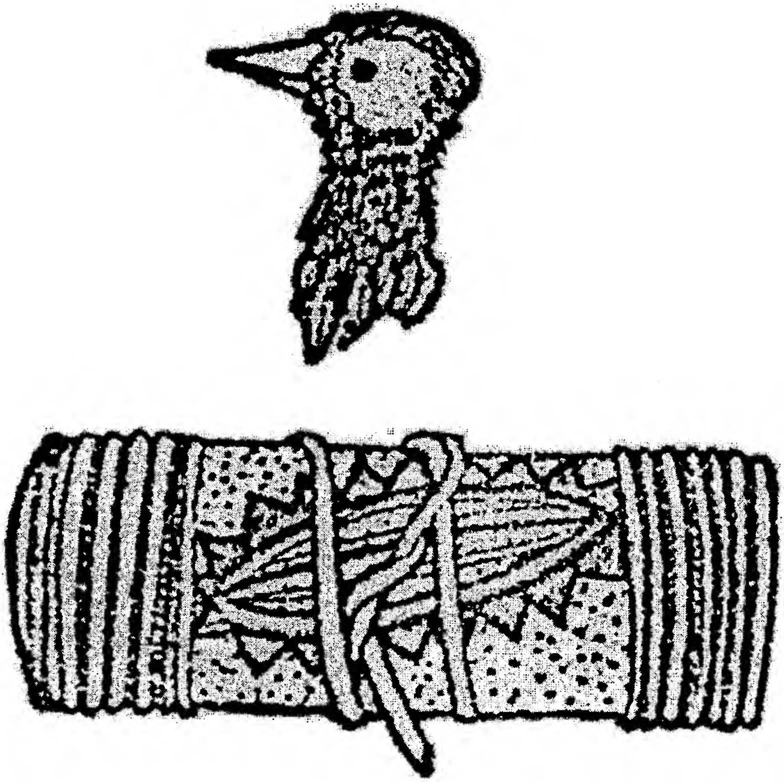

بورصة نقدية من قرن وعل مع رأس نقار الخشب "قطعة نقد صغيرة"

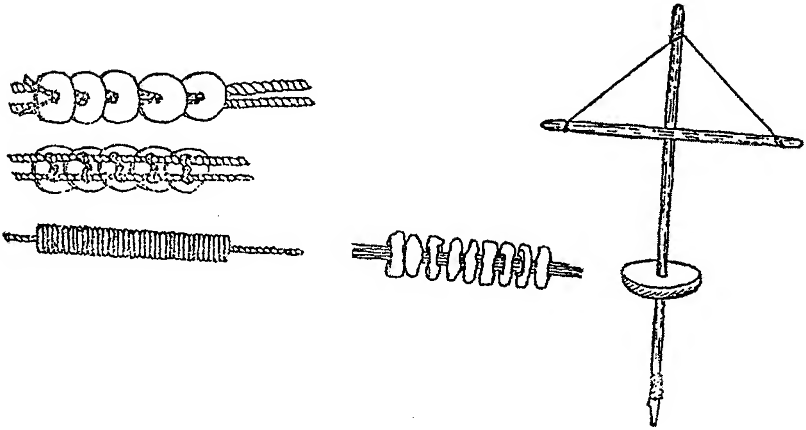

على اليسار – حبال نقدية – غينيا الجديدة – على اليمين : مثقب لصنع أقراص الصدف

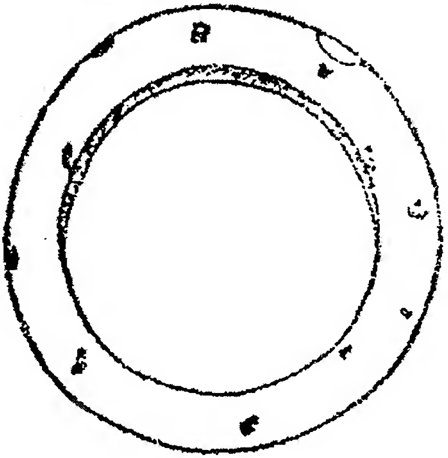

نقود صدفية أو "جار"

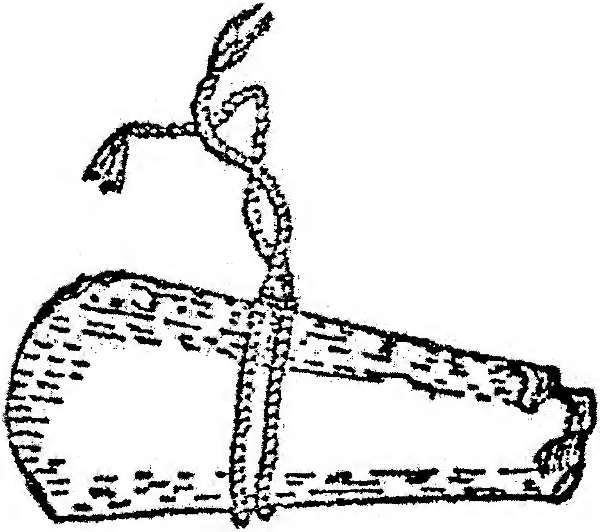

نقود صدفية أو "جار"

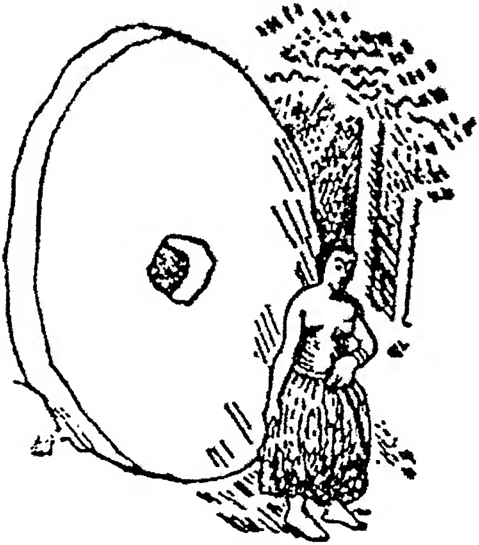

نقود فاي "جزيرة ياب"

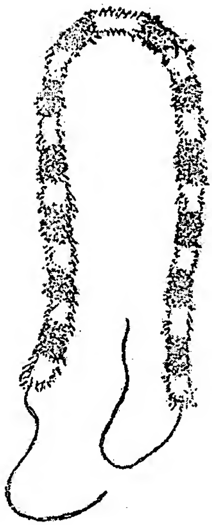

عقد من الريش المستخدم كعملات

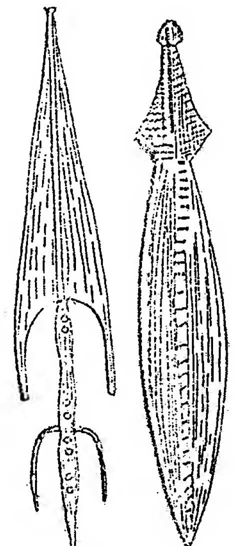

نقد من الرمح الحديدي "افريقيا"

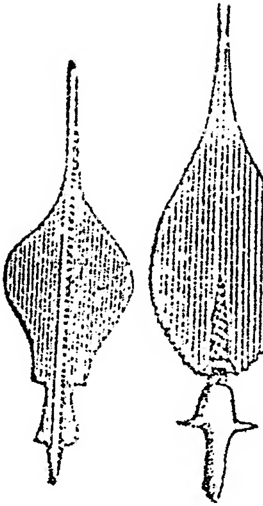

نقود على شكل رماح "غرب افريقيا"

تاجر يحمل نقوداً "مانيلا" منقوشة على لوحة من البرونز تعود للقرن السادس عشر "غرب افريقيا"

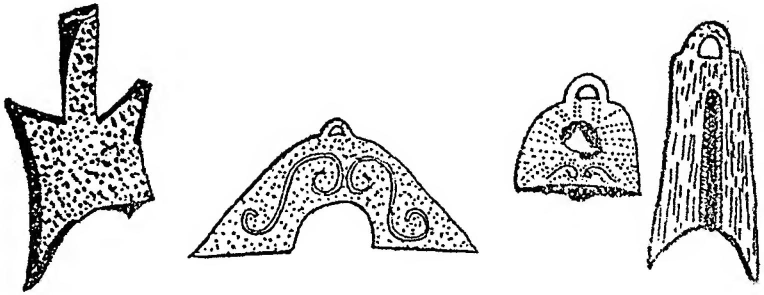

نقود برونزية من الصين القديمة

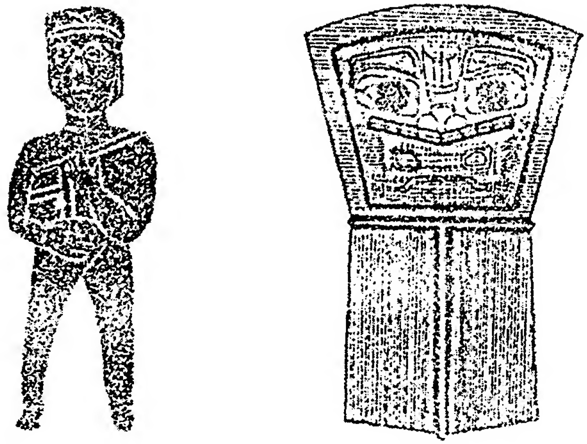

زعيم قبيلة كواكيوتل على ذراعه لوحة نقود نحاسية مقدسة ،
على اليمين : لوحة نقود نحاسية "قبائل هايدا الهندية"

الفصل التاسع

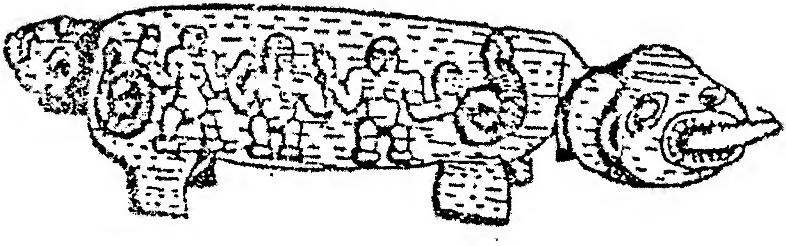

طبل إنذار عند قبائل بانسا "الكاميرون"

طبل افونغورا "الكونغو"

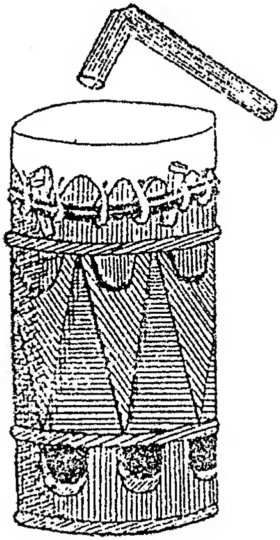

طبل حربي مع مضرب عند بانغفه "غرب افريقيا"

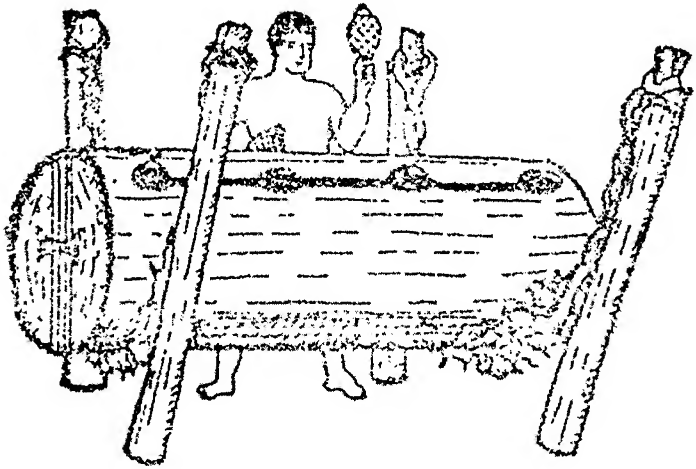

طبل إنذار عند هنود أميركا الجنوبية

عصا الساعي "غرب استراليا"

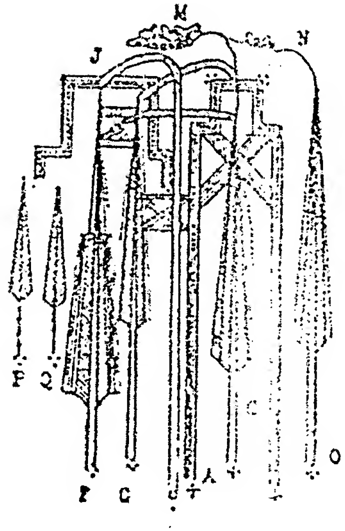

رسالة غرام لفتاة قبيلة – رسالة غرام لفتاة يوكاجيريا

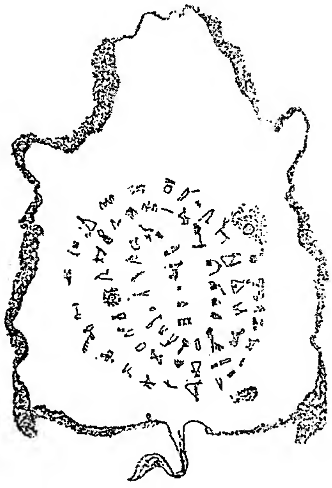

الاحصاء الشتوي لزعيم قبيلة – مرسوم على جلد جاموس

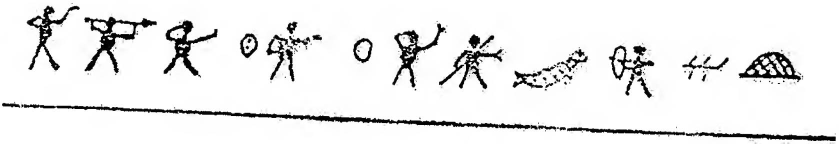

صيد كلب البحر كتابة بالصور عند الاسكيمو

رسم يمثل حفلة زفاف على الطريقة المكسيكية القديمة . بعد أن تم عقد القران الرسمي من خلال عقد طرفي معطفيهما يحمل الشاب عروسه على ظهره إلى الغرف الداخلية ترافقهما أربع نساء يحملن المشاعل

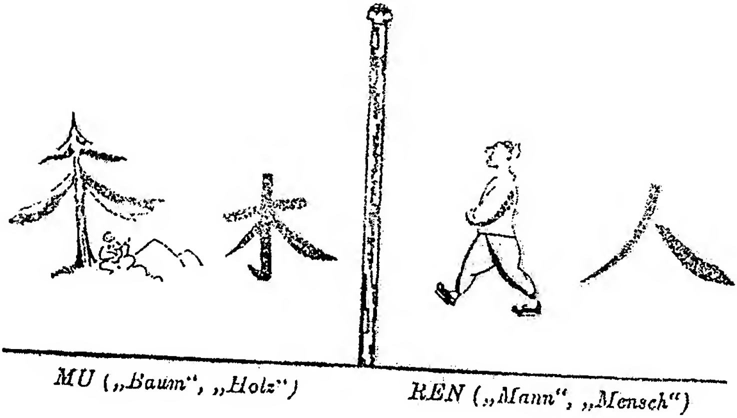

على اليسار : الصينية - كلمة مو وتعني خشب أو شجرة
على اليمين : رن وتعني رجل أو إنسان

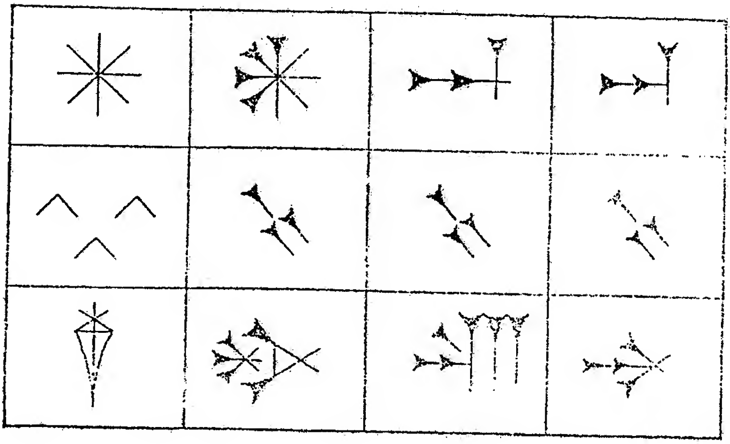

الكتابة المسمارية : الصف العلوي : المقطع "آن" وتعني "نجم - اله - سماء - علو"
الأوسط : المقطع "كورة مات او شاد" وتعني جبال - أرض
السفلي : عبارة عن رمز تصويري وكتابي لكلمة خنجر

الفصل العاشر

طفل هندي على ظهر جدته "لا برادور"

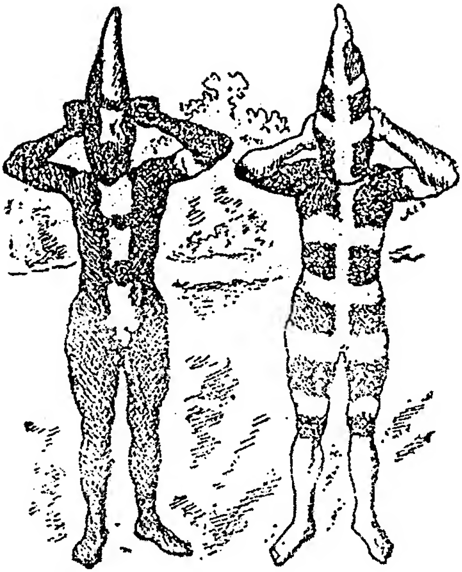

أشباح مقنعة تخيف المرشحين لطقوس التكريس "أرض النار"

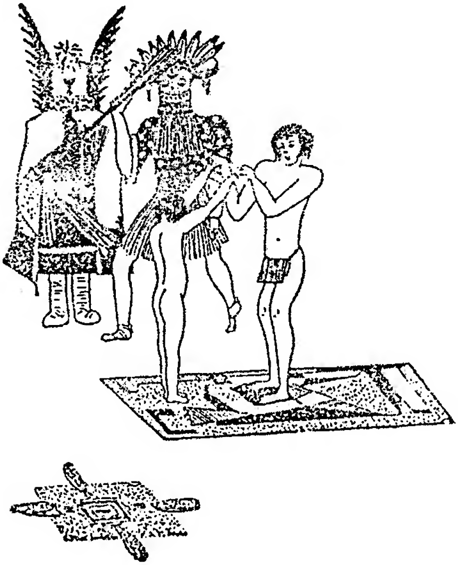

التكريس عند هنود هوبي

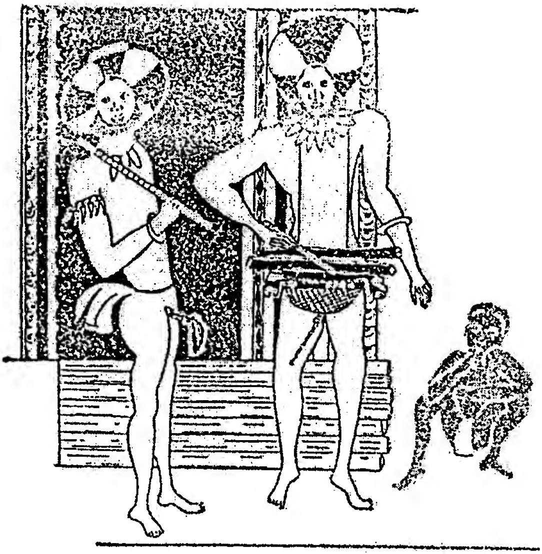

مرشحو حفلة التكريس مصبوغون بالأبيض "غرب افريقيا"

حفلة التكريس الخاصة بالفتيات "وسط الكونغو"

قناع الجماعة السرية "غرب افريقيا"

شيطانة البانتو "غرب افريقيا"

الفصل الحادي عشر

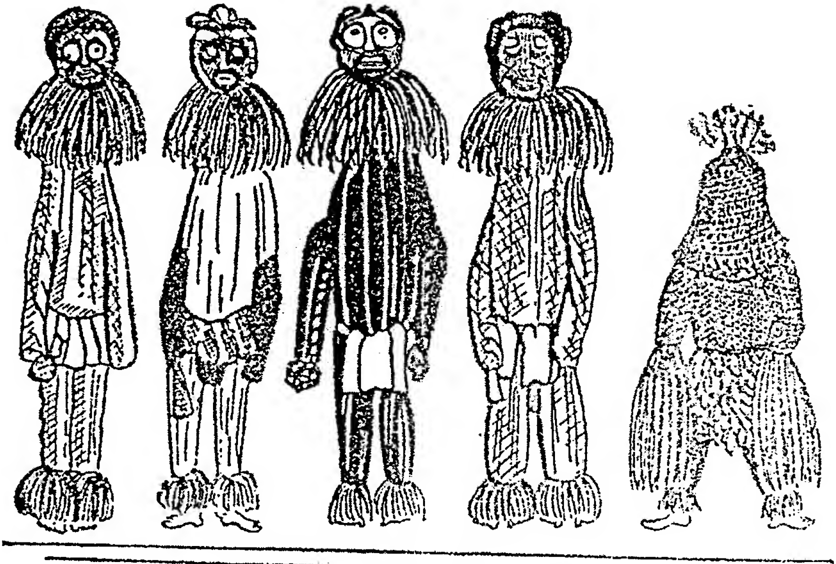

أقنعة خصب قديمة "غرب افريقيا"

سحرة يرقصون بأقنعة حيوانات."مغارة فرنسية"

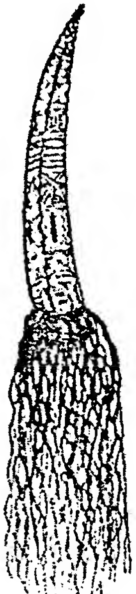

عصا الرقص "سانتاكروز"

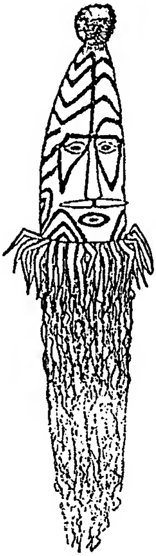

قناع رقص "من ميلانيزيا"

قناع يسمى بولسا ماثلاً "شمال غرب أميركا"

رقصة الدببة عند الهنود الحمر

شيطان الجواميس أثناء احتفالات الربيع عند هنود ماندان

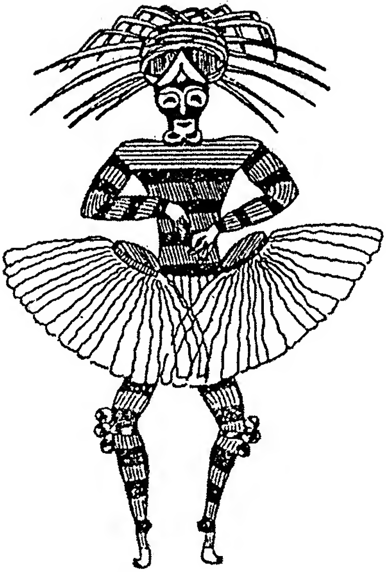

المهرج موكيش "غرب افريقيا"

موكيش على عكازه بشكل ساق اصطناعية "غرب افريقيا"

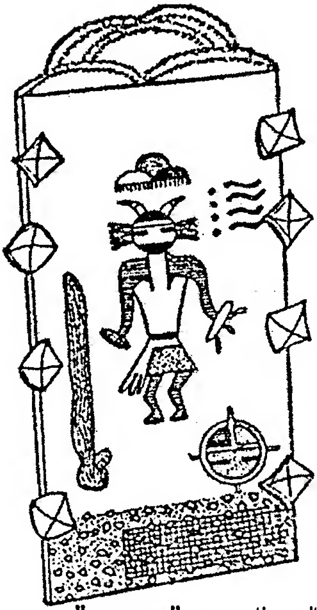

كواليس ذات رسوم "هنود هوبي"

عازف الناي "النيل الأعلى"

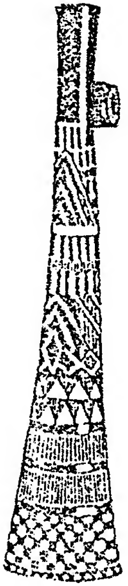

بوق من الخشب عند بانغفه

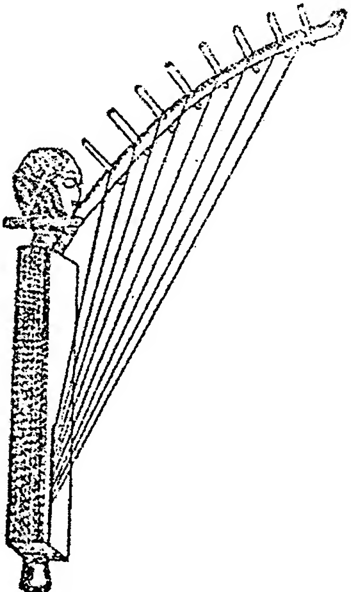

آلة موسيقية "هارب"

الفصل الثاني عشر

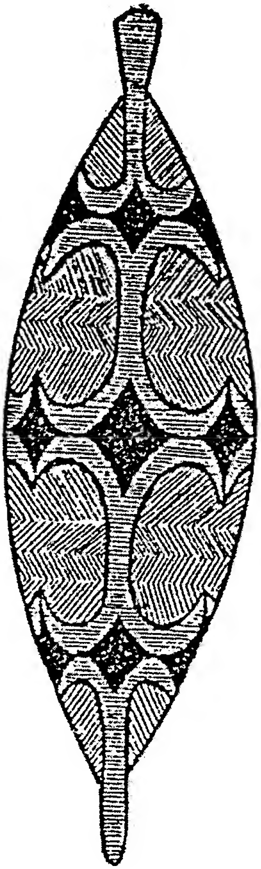

ترس من جنوب شرق استراليا

رمح استرالي

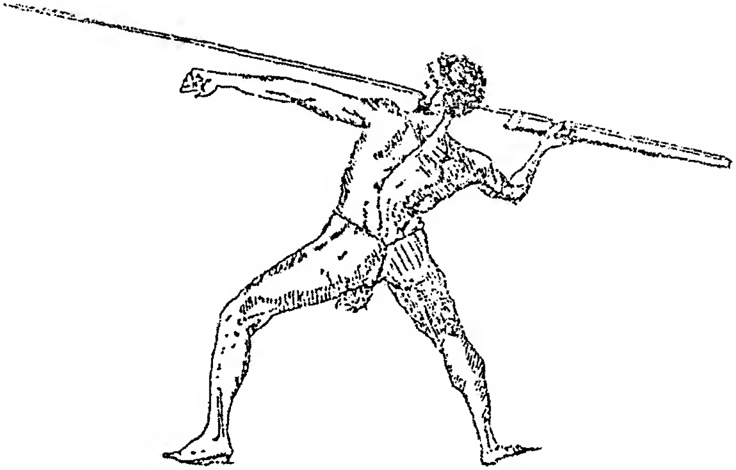

استرالي مع قاذف رمح

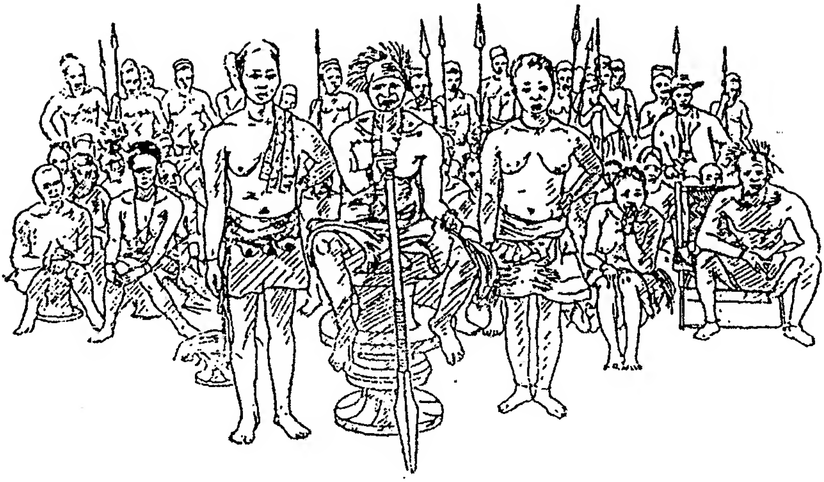

جلسة دردشة "الكونغو"

محارب افريقي حفر على العاج من القرن السادس عشر "غرب افريقيا"

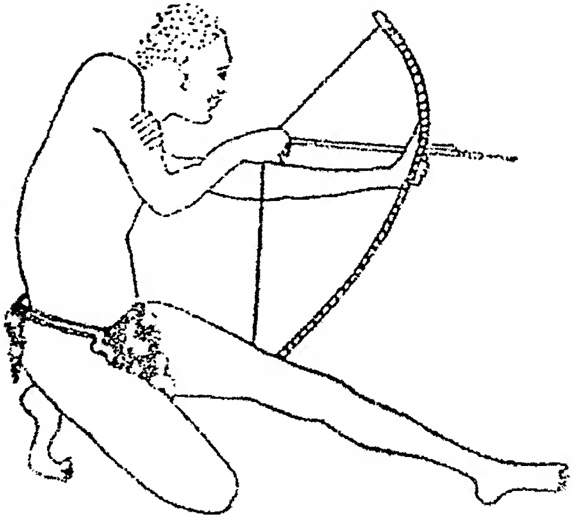

محارب من قبائل دجور "شمال افريقيا"

القاضي "فولف بلوم" "هنود بلاك فوت"

الفصل الثالث عشر

قناع مستخدمة في ممارسة السحر عند الزولو "جنوب افريقيا"

تميمة محفورة من سن فرس النيل "الكونغو"

تميمة سحرية يمنح حملها القوة والنفوذ "قبائل الزولو"

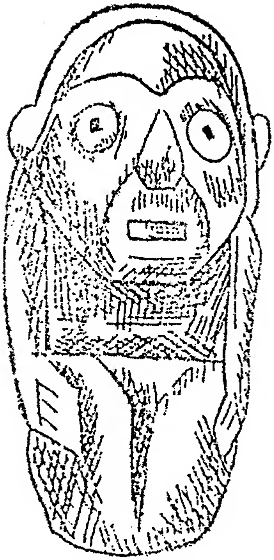

أجساد الأسلاف في هاييتي "فوق" اندونيسيا "تحت"

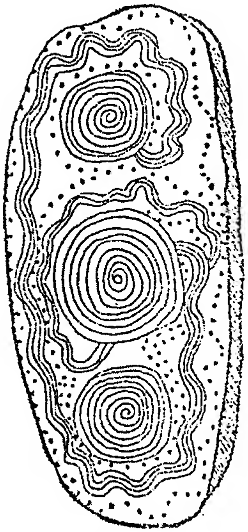

حجر الأرواح "وسط استراليا"

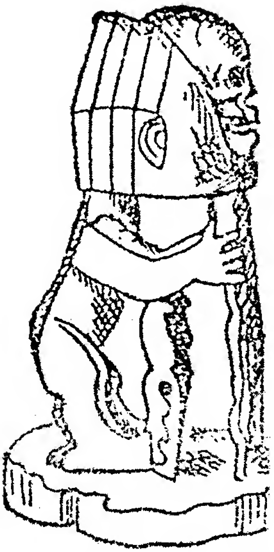

جماجم الأسلاف من الخشب "غينيا الجديدة"

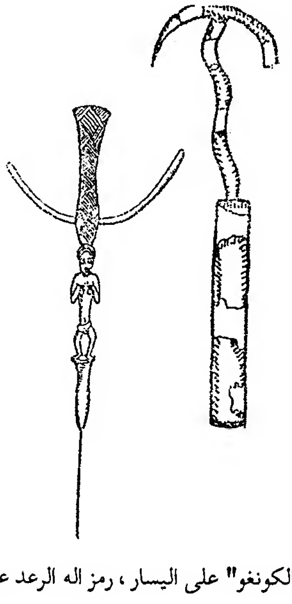

صولجان عبادة "جنوب الكونغو" على اليسار ، رمز اله الرعد على اليمين

صلاة التيبت المقدسة بعدة أنواع من الكتابة

لعبة اوستر عند الهنود الحمر في "غواتيمالا"

الفصل الرابع عشر

رواة الحكايات من الصحراء الكبرى

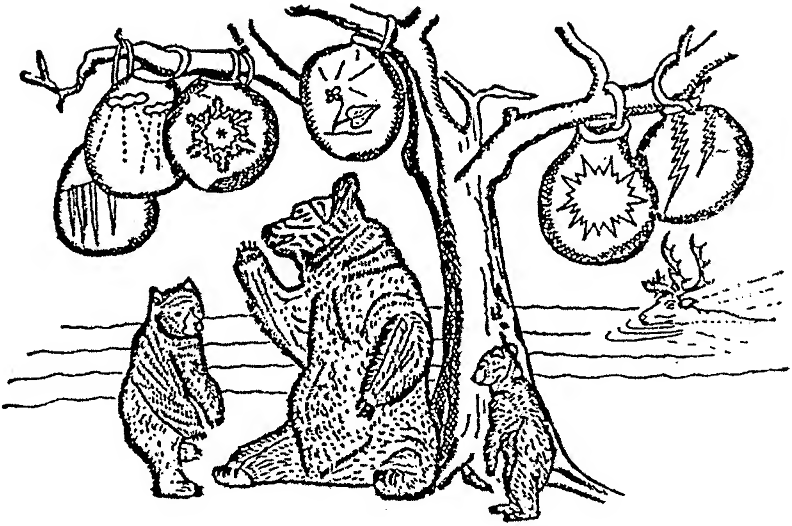

الدب مع أبنائه تحت شجرة الطقس

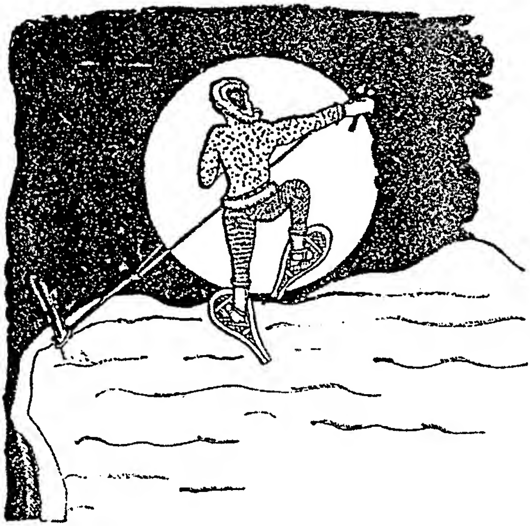

كيف صعد تسيكابك إلى القمر

الرجل الذي في القمر من رسوم هنود هايدا

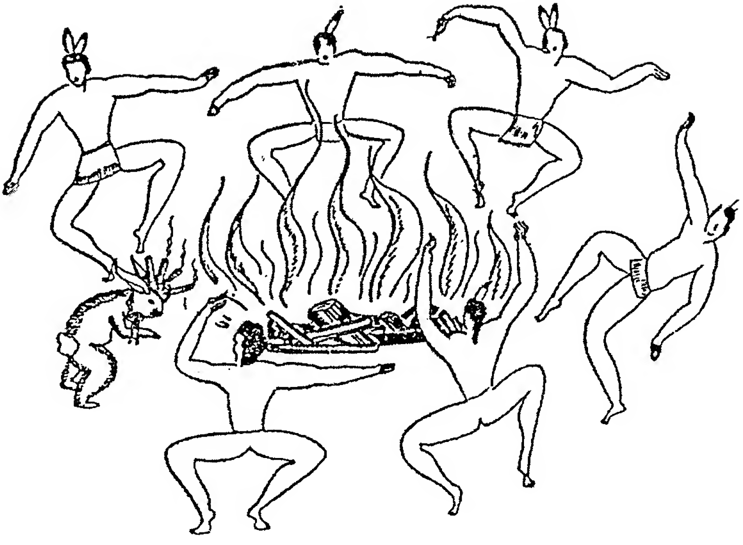

كيف سرق الأرنب النار

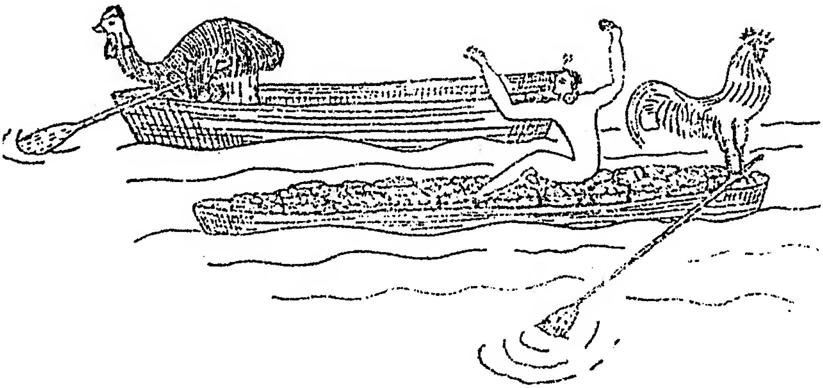

كيف احضر الفتى الصدف النقدية

كيف تحولت المرأة الهندية إلى قندس

الفصل الخامس عشر

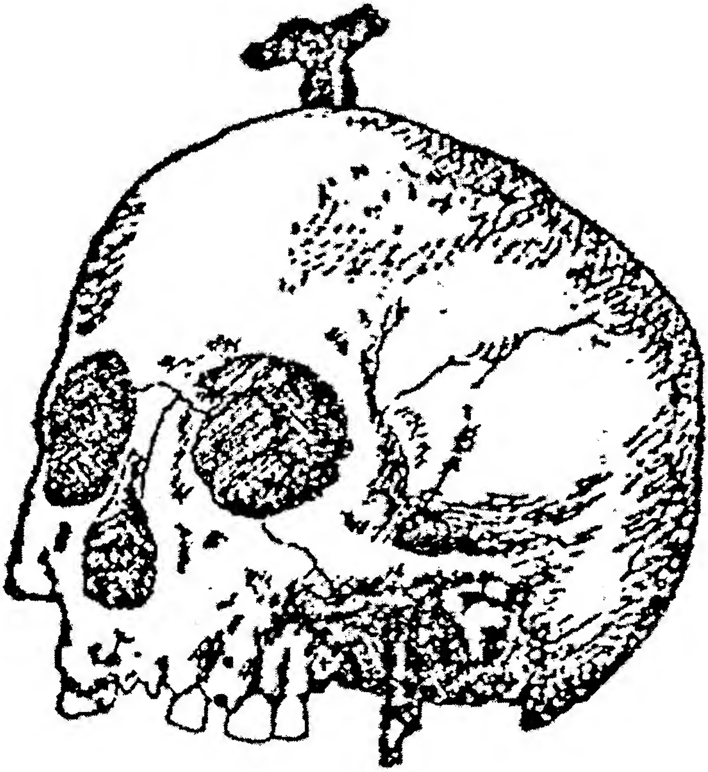

جمجمة مثبتة بمسمار "وجدت في اسبانيا"

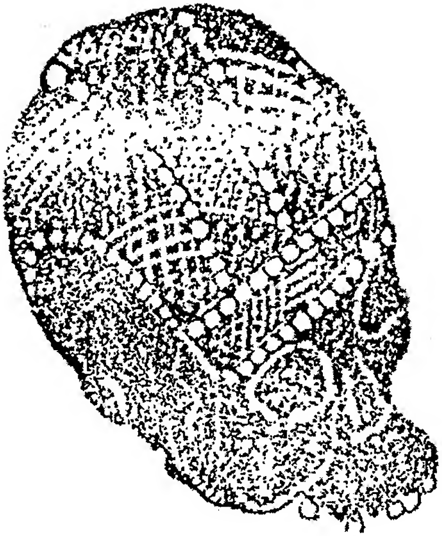

جمجمة ملونة بالأبيض والأصفر "استراليا"

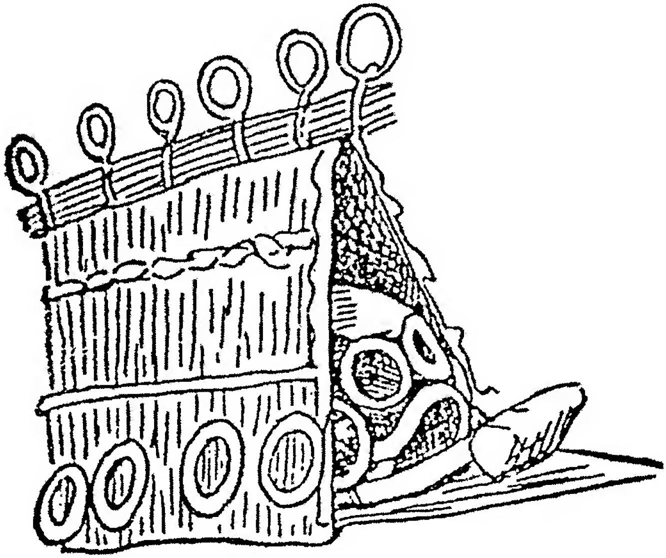

بيت صغير لحفظ الجماجم "شرق ميلانيزيا"

جمجمة مصنوعة من الطين وملونة "ميلانيزيا"

رأس يمثل رمز النصر

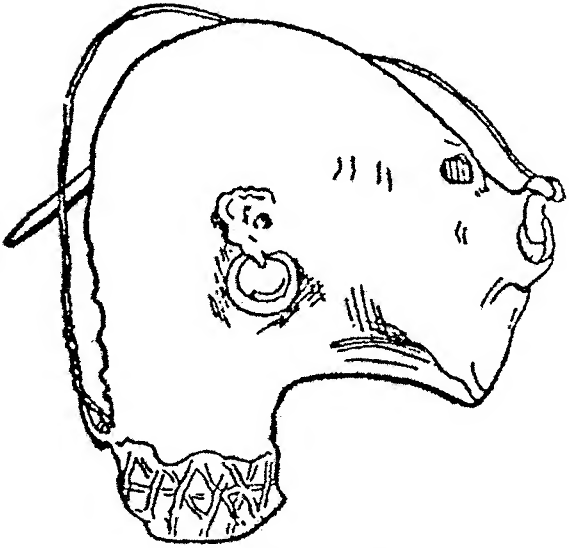

رأس آدمي محشو "غينيا الجديدة"

قناع رأس خشبي "الكونغو"

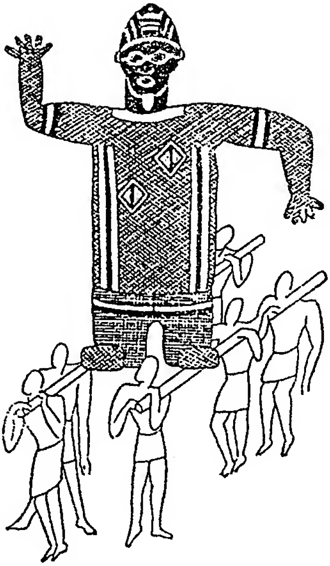

نيامبو عن قبائل من "غرب افريقيا"

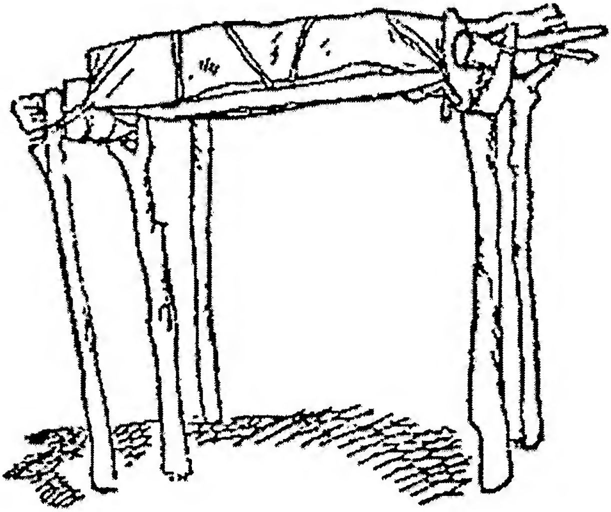

قبر مرفوع على ثقالة "عند الهنود الحمر"

الفهرس

الكتاب والمؤلف	5
الفصل الأول: المسكن والموقد	9
الفصل الثاني: صالون التجميل عند البدائيين	29
الفصل الثالث: الآلـة الأولى أو الاختراع الأول في تاريخ البشرية	51
الفصل الرابع: ثمار الأرض	63
الفصل الخامس: اختراع العمل اليدوي	85
الفصل السادس: المسرات ومجالس الأنس	115
الفصل السابع: عن الطرق والجسور والعربات والسفن	141
الفصل الثامن: من النقود الصدفيّة حتى دفتر الشيكات	159
الفصل التاسع: من الطبلة حتى الصحيفة	183
الفصل العاشر: مدارس دون كتب	207
الفصل الحادي عشر: المسرح الأوّل	233
الفصل الثاني عشر: من القبيلة إلى الدولة	259
الفصل الثالث عشر: قوى السحر	287
الفصل الرابع عشر: كان يا ما كان	313
الفصل الخامس عشر: مملكة الأموات	343
الفصل السادس عشر: ملحق صور	367

ثقافات الشعوب القديمة والجديدة أمام المجهر، بكل تحولاتها البطيئة وقفزاتها المثيرة، كما يراها باحث يستند إلى كل معطيات الكشوفات والبحوث العلمية التي ترصد حركة الحياة على الأرض بكل وجوهها.

ISBN:2-84305-774-X
9 782843 057748